محمد المجذوب

علماء ومفكرون عرفتهم

الجزء الثالث

الطبعة الرابعة

دار الشواف



علماء ومفكرون عرفتهم

• أصدرته عام ١٩٩٢ دار الشواف للنشر والتوزيع
رقم الإيداع بجمهورية مصر العربية ١٠٤٨١ / ٩٢
طبع بالمطبعة الفنية ــ عابدين ــ القاهرة ــ ت ٣٩١١٨٦٢

الناشر: دار الشواف للنشر والتوزيع
السعودية ــ الرياض ــ العليا ــ شارع الثلاثين ــ شرق بندة
ت/ ٤٦٢٢٦٣٠ ــ ٤٦٢٢٦٦٧ ــ فاكس/ ٤٦٢٢٨٦٦

دار الشـــواف للنشر والتوزيع

الريـاض - العليـا - شـارع الثلاثين - شـــرق بنـده ت : ٤٦٢٢٦٣٠ - ٤٦٢٢٦٦٧ فاكس : ٤٦٢٢٨٦٦
Riyad - Olaiya, Thalatheen St., (East to Panda) Tel.: 4622630 - 4622667 - Fax.: 4622866

بين يدي الكتاب

الحمد لله وإياه نستعين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد إمام المرسلين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد فما أراني في حاجة إلى مقدمة أعرّف بها قارىء هذا الجزء بمضمونه ومنهجه، ففي أخويه السابقين، ولكل منهما مقدمته، مايغني عن ذلك، إذ موضوع الثلاثة واحد هو العرض التحليلي لحيوات فضلاء أسهموا ويُسهمون في خدمة الإسلام، وفي الدعوة إلى حقائقه العُليا بالحكمة والموعظة الحسنة والسلوك المتميز لاعلى المستوى الإقليمي فحسب، بل على امتداد مابلغه الجهد من وطن الإسلام..

وقد بقيت في النفس رغبة حارّة في إصدار حلقة رابعة تحمل للقارىء تراجم آخرين من هؤلاء الفضلاء لم نستكمل محاورتهم بعدُ في الموضوع.. والأمل كبير بأن يُستدرك ذلك إذا فسح الله في الأجل وأعان عليه بفضله ومنّه..

وكلمة أخيرة هي أن إقبال الإخوة القراء على الجزأين الماضيين وما تحقق لي من رضاهم عنهما، وما رافق ذلك من بوادر التقدير كافٍ ليكون حافزاً على متابعة الخطى في هذا الاتجاه الذي اخترناه بتوفيق الله.

ولعلي لاأكون مسرفاً في حسن الظن إذا توقعت لهذه الأجزاء نصيبها المضاعف من اهتمام القراء بعد أن يوافينا الأجل المقدور، ولا يبقى لنا من الوجود سوى هذه الآثار القلمية، التي نسأله تعالى أن يجعلها في المقبولات لديه يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ولله الحمد من قبل ومن بعد.

المؤلـــف

* * *

الدكتور أكرم ضياء العمري

عرفته لأول مرة يوم تفضل بزيارتي في مطلع العام الدراسي الذي باشر فيه عمله بالجامعة الإسلامية، ثم لم نلتق إلا فى أثناء الاجتماعات العامة بقاعة المحاضرات أو عند تلاقينا في المسجد أو الطريق.. ولكن هذا اللقاء على قصره كان كافياً لتكوُّن انطباعاتي الأولى عنه.. وذلك مايدركه لأول وهلة كل مخالط له أو مستمع لحديثه، إذ يشعر بأنه تلقاء رجل موهوب يعرف كيف ومتى يرسل الكلمة المناسبة في المقام المناسب.. ثم أتيح لي أن أطالع بعض نتاجه الفكري فازددت له تقديراً وبه إعجاباً، ومنذئذ وجدت حافزاً يدفعني إلى أن أقدمه لقارىء المجلد الثالث من كتابي (علماء ومفكرون عرفتهم) بعد أن حالت ظروف مقدورة دون ترجمته في المجلدين السابقين.

إنه الدكتور أكرم بن ضياء العمري، وينتهي نسبه المحفوظ الموثق إلى عاصم بن ثاني الراشدين أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

أما مولده ففي مدينة الموصل أكبر مدن شمال العراق عام ١٩٤٢م وفيها بدأت نشأته حيث استقرت أسرته العمرية مطالع النصف الثاني من القرن العاشر الهجري، حين قدم إليها أحد أجداده قاسم بن علي العمري، الذي ابتنى الجامع العمري الكبير في الموصل ووقف عليه الوقوف عام ٩٧٦هـ كما هو مسجل على قبته القائمة حتى الآن.

والموصل من المدن المحافظة على صبغتها الإسلامية وتراثها العريق، الذى تناقله العراق منذ عهود الإسلام الأولى، ومن خصائص أهلها ملازمتهم للسلوك الإسلامي المتميز، من إقبال على العبادة، وعمران المساجد، والدروس الدينية المتصلة، يلقيها علماؤها المقيمون، والوافدون إليها من أهل العلم، الذين يجدون لديهم الحفاوة البالغة، والإقبال الكبير لسماع مواعظهم ومحاضراتهم.

وطبيعي أن يكون لمثل هذا الوسط المحافظ والمتوهج بنور العلم والدين أثره في الأفراد والجماعات، فكيف إذا كان الفرد من المميزين بالذكاء والموهبة، وكان إلى ذلك ناشئا في وسط يغمره روح التدين، ويتوارث أجياله ذكريات الانتماء إلى مثل ذلك النسب العالي الذي يصلهم بثاني الأربعة الذين احتضنوا راية الإسلام بعد خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه أجمعين.

في جو النشأة الأولى

من هذا المنطلق أخذ الفتى سبيله إلى التعليم فبدأ بتلاوة القرآن الكريم في أحد الكتاتيب الأصيلة، ثم أعاد قراءته على والده وجده اللذين تلقى عنهما مع القراءة أحكام التجويد، وعلى جده بدأ الاتصال بكتب الحديث، وكان والده أثناء ذلك يتولى تزويده بالسيرة النبوية، ولم يكتف مربياه الفاضلان بجهودهما الخاصة، فكان والده يصحبه إلى مجالس العلم، فيشاركه في الاستماع إلى كبار الشيوخ، ويسمي منهم خال والده الشيخ بشير العمري، والمشايخ عمر النعمة، وبشير الصقال، وعبد الله الأربيلي.. وذلك كله قبل التحاقه بالمرحلة الابتدائية من الدراسة النظامية.

وهنا أراني مدعوا من حيث لاأدري لبعض التعقيب على هذا المدخل الذي سبق به فتانا مرحلة الابتدائية فأقول إن في هذا المسلك منهاجاً خاصاً يتمثل في ذلك المزيج المتكامل من التربية والتعليم، فيذكرنا بخبر الأجلّة من صحابة رسول الله ﷺ عثمان وابن مسعود وابن عمر، الذين يجمعون على القول بأنهم كانوا يتعلمون الآيات من كتاب الله فلا يتجاوزونها حتى يتعلموا العمل بها.

فعلى هذا النحو رأينا ذلك الطفل العمري يبدأ مطالع حياته بالقرآن والحديث والسيرة النبوية، ويحضر مع ذلك مجالس الشيوخ مع والده، حتى إذا حان موعده مع المدرسة الابتدائية الحديثة كان لديه من الحوافز مايشده بقوة إلى التهام كل جديد من ألوان المعرفة، وقد حمل في قلبه النور الذي يضيء له السبيل إلى الفهم الصحيح، وإلى ربط كل معلومة يتلقاها بالمعاني العليا التي زود بها في البيت والمسجد.

ولعل القارىء متشوق مثلي إلى المقارنة بين هذا الضرب من التوجيه الذي هجرناه حتى بتنا نستغربه، وبين الواقع الذي نعيشه مع أبنائنا في ظل الطرائق التي مَسَخَت شخصيتنا، وأوشكت أن تفرغ هؤلاء الأبناء من كل أسباب الإبداع.

أين منا الوالد الذي يستشعر مسئوليته تجاه طفله فيمنحه بعض الرعاية التي تصله بمعاني دينه، الذي به دخلنا التاريخ، وبه بنى أسلافنا أكرم حضارة عرفتها البسيطة؟..

لقد تخلينا عن مسئولية التربية كليا للمدرسة، التي لم يسبقها أي اعداد تربوي أو عملي، ثم تركنا للصورة المتخركة ــ الكرتونية ــ أن تملأ فراغ صغارنا وأحداثنا بكل التفاهات التي تدربهم على تبديد الوقت دون مردود، ثم تركنا للشارع أن يتولى تدمير ماتبقى من مواهبهم دون رقابة.. حتى إذا مابلغوا مرحلة الجامعة دفعنا بالكثير منهم إلى محاضن الغرب ينشئهم على عينه فيقطع كل صلة بين مستقبلهم ومواريث أسلافهم، إلا من رحم الله وقليل ماهم.

ونعود إلى متابعة مترجمنا في مسيرته الدراسية، حيث نراه يسمي لنا من المعاهد مدرسة الوطن الابتدائية بالموصل، ثم المأمونية في بغداد، ثم الهاشمية بالموصل، وفي هذه أتم مرحلة الابتدائية.. ليلتحق بالمتوسطة الغربية. ويتوقف هنا قليلا ليطرفنا بانطباعاته عن بعض أساتذتها الذين أثاروا اهتمامه بالتذوق الأدبي، ويخص بالذكر منهم اثنين من شعراء الموصل هما الأستاذان حسين الفخري وعبد المجيد البكري، وثالثا هو الأستاذ عبد الحافظ سليمان مدرس العلوم العربية والشرعية والمشرف على مكتبة المدرسة.

ولا جرم أن من حظ الطالب النابه أن يوفق للدراسة على يدي شاعرين يستشعران جمال الكلمة وبلاغة التعبير، وفي رعاية مدرس جمع إلى العلوم الدينية والعربية مخالطة الكتب التي لابد أن تكون من النوع المختار، فيوجه طلابه إلى نفائسها ويبعث في نفوسهم الرغبة في مراجعتها واستيحاء روائعها.. وذلك أول الشوط نحو الثقافة الحية التي تغذي المواهب وتدفعها في طريق الابداع والابتكار.

ومن هذه المتوسطة انتقل إلى الثانوية الشرقية في بلده وفيها تخرج بالشهادة التي أهلته للالتحاق بالجامعة .

بين المكتبة والمدرسة

ويحدثنا عن هذه الفترة قبل الجامعية من حياته الدراسية فيقول: «كانت المدارس آنذاك تهتم بالنشاط الثقافي والديني، فيجتمع الطلبة في حصة أسبوعية لقراءة مايكتبونه من محاولات إنشائية في الدين والأدب، وتتم مناقشة ذلك بإشراف المدرس المختص.. وقد كان لهذا أثره في تنمية ثقافتي، وتغذية ماحصلته خلال مطالعاتي التي ألفتها منذ الصغر، سواء في مكتبة الوالد، أو المكتبة الوطنية في بغداد، ولما أُعْدُ السنة الرابعة الابتدائية ولما عدت إلى الموصل دأبت على زيارة المكتبة العامة كلما وجدت إلى ذلك سبيلا».

ثم يقول: «إن شغفه المبكر بالمطالعة كان يدفعه إلى التهام كل مايقع في يده من الكتب الأدبية وفيها مؤلفات لأدباء عرب وأجانب كبار.. وهو يرى أن اعتياده القراءة الصامتة منذ الصغر قد ساعده على سرعة الفهم والمتابعة».

وهذه الملاحظة الأخيرة حول فائدة القراءة الصامتة كانت أحد مرتكزات المرحوم الدكتور عبد الرحمن الباشا أثناء جولاته التفتيشية على مدرسي العربية في سورية، وقد كنت ولا أزال أراجع في هذا الرأى إذ أراه صحيحا بالنسبة إلى المثقفين بخلاف الطالب الذي هو في أمس الحاجة إلى التدرب على النطق السليم فالأجدى له أن يُسمِعَ نفسه مايقرأ، وإلا ألف الصمت حتى يتعذر عليه استعمال لسانه على الوجه الصحيح.

وليس غريباً لمثل هذا الشغوف بالكتب الملتهم للعلم أن تسوقه نزعته هذه ــ كما يقول ــ إلى الاتصال بروائع التراث الإسلامي فيقرأ مايقع عليه من كتب ابن تيمية وتلميذهِ ابن القيم ولما يزل في المرحلة المتوسطة، مما كان له الأثر البالغ في توجيهه إلى قراءة أكثر مؤلفاتهما لدى وُلوجِهِ المرحلة الجامعية.

مرحلة النضج والعطاء

وبهذه المرحلة تبدأ مسيرة النضج فالعطاء في حياة مترجمنا .

يقول فضيلته. «لقد التحقت بكلية التربية من جامعة بغداد عقيب إنهائي الثانوية، ووقع اختياري على دراسة التاريخ الإسلامي، تحقيقاً لميولي التي اتجهتْ إلى هذا الجانب خلال تلك المرحلة، وقد أنهيت دراساتي الجامعية بتفوق، والتحقت بمعهد الدراسات الإسلامية العليا في بغداد». وكأنه لم ير في مرحلة الجامعة مايستدعي التفصيل فعوضنا عن ذلك بتصوير ذكرياته عن أبرز المؤثرين في تفكيره من أساتذته في معهد الدراسات فيقول: «كان عميد المعهد الدكتور صالح أحمد العلي عالماً كبيراً في فنه، وكان الدكتور عبد العزيز الدوري يدرسنا مادة (تاريخ التاريخ) على الرغم من انشغاله برئاسة جامعة بغداد.. ولقد تأثرت بهذين الأستاذين في منهج البحث، وفي النظرة الشمولية للتاريخ. ولما أنجزت مرحلة الماجستير وتمت مناقشة أطروحتي (طبقات خليفة بن خياط) اقترح عليَّ المسئولون بالجامعة أن أنضم إلى بعثاتها في الغرب لإكمال الدكتوراه، ولكني آثرت إكمالها بجامعة عين شمس في القاهرة، حيث أنجزت أطروحتي (موارد الخطيب في تاريخ بغداد) وقد شارك في الاشراف عليها الدكتور حسن حبشي من جامعة عين شمس، وهو رئيس قسم التاريخ فيها، والدكتور صالح أحمد العلي من جامعة بغداد، فكان هذا الاشراف يمثل تعاوناً جميلاً بين الجامعتين».

وعن مرحلة الإنتاج يقول الدكتور إنه بدأ اسهامه العملي في هذا الميدان بمقالات نشرتها له جريدة (فتى العراق) التى كان يصدرها في الموصل خال والدته الأستاذ إبراهيم الجلبي وقد قدر لهذه الصحيفة أن تعيش عدة عقود، وكان لوالده جريدة أخرى باسم (الابتكار) فلابد أنها حملت بعض البواكير من انتاجه أيضا.

وقد رأينا ــ في ماتقدم ــ ملامح النشاط الفكري الذي كان يحيط به في مطالع حياته، سواء في البيت أو المسجد أو المدارس والمكتبات، ثم جاءت مرحلة التعليم الجامعي فالعالي وما أتاحا له من فرص جديدة للالتقاء بكبار الاكاديميين، فلا غرو أن يكون لذلك كله أثره الفعال في دفعه للمشاركة في الحياة الثقافية العامة، وفي مضاعفة العناية بمعطياته الأدبية والفكرية، وقد تجلَّى ذلك في تعضيد جامعة بغداد لاثنين من بواكير مؤلفاته هما (طبقات خليفة بن

خياط) و (بحوث في تاريخ السنة المشرفة) وتولى المجمع العلمي العراقي تعضيد كتابه الثالث (تاريخ خليفة بن خياط) وقد صدرت هذه الثلاثة في عام واحد هو ١٩٦٧م، ثم تلاحق العطاء إذ قامت وزارة الأوقاف بإخراج مصنف آخر من تحقيقه هو (كتاب المعرفة والتاريخ) للفسوي وتابعت جامعة بغداد رعايتها لعدد آخر من مؤلفاته..

ذكريات رهيبة

وللأحداث كما للناس إيحاءاتها المؤثرة في مسيرة الفرد والجماعة، وقد بلغت هذه الأحداث قمتها في حياة العراق، ولابد أنها تركت جراحها عميقة في نفس صاحبنا وهو يواجه مرحلة التكامل الفكري والشعوري، مرحلة الانفعال والانطباع والتفاعل مع صدمات الوقائع.. وحسبه أن يذكر منها مجازر الموصل تحت سكاكين الشيوعية التي لاتعرف الرحمة ولا الانسانية، لأنها كفرت بخالق الرحمة والإنسان.

يقول الدكتور: لقد عاصرت أحداث مجزرة الموصل وانطبعت آثارها الأليمة في قلبي، إذ أدركت كيف أن الأفكار المنحرفة تمسخ الإنسان وتحوله إلى وحش مسعور، لايروي ظمأه سوى البطش بإخوانه وأقربائه ومواطنيه.. فقد كانت الأجساد تقطَّع وتعلَّق على أعمدة الكهرباء، وكان الإنسان يسحل في شوارع المدينة الطيبة بعد محاكمة صورية أمام محكمة (القصاب).

ولعل بين القراء من لم يصل إلى علمه شيء من أخبار هذا القصاب، مع أنه أصبح رمز الطغيان الدموي الذي مازال قائما ومتفاقما في العديد من ربوع المسلمين التي سلبها الاستبداد حميَّتها وكرامتها وأملها..

إنه قصاب من عامة أهل الموصل طوى ردحا من الزمن في ثياب العباد المواظبين على الصلوات في المساجد، والملازمين لدروس علمائها، حتى إذا أخفقت ثورة الشواف على عبد الكريم قاسم وزبانيته نزع هذا الجزار ستار الخداع وإذا هو على حقيقته ذلك الذئب الجائع، يعقد محكمته في الشارع ليصدر أوامره بقتل أفاضل الناس من أهل العلم والدين، تنفيذاً للخطة الشيطانية التي تركز على تفريغ الشعوب من قياداتها الفكرية المؤمنة، وهي

الطريقة نفسها التي سلكتها الطغمة الكمالية في تركية، عندما أطاحت بالخلافة وأعقبتها بالقضاء العاجل على أساطين علماء الإسلام.. فكان ذلك هو المؤشر الذي شجع كل حاقد من الطواغيت على اقتحام حرم الإسلام وانتهاك حرماته في كل قطر قفز به أولئك الطغاة إلى سدة الحكم.

وطبيعي أن حديث الدكتور عن مجزرة الموصل إنما يريد به إعطاء صورة مصغرة للهب الأحمر الذي اجتاح كل مكان في العراق العزيز أيامئذ، ولعل بين شيوخ ذلك الجيل من لايزال يتذكر ذاك الحوار الاذاعي الذي دار ذات يوم بين عبد الكريم قاسم وممثلي اتحاد الطلبة الماركسيين، «إذ جاءوا يسألونه مزيدا من حرية القتل والسحل لتطهير القطر من كل أثر للرجعية الإسلامية، فكان رده عليهم: أن حسبهم ماصنعوه في مدينة الرمادي حيث دفنوا أكثر من مائة وعشرين من أبنائها وهم أحياء.

وطبيعى أيضاً أن أحداثاً كهذه يعاصرها امرؤ أوتى ما أوتى من دقة الإحساس ورهافة الفكر والمشاعر، لا محيد لها عن أن تعقب فى نفسه ردوداً من الفعل متناسبة مع وقعها..

إن مجرد وصفه لأحداث الموصل كاف لتقرير هذه الحقيقة، فهو يتغلغل إلى ماوراءها ليرى البواعث الدافعة إلى السحل وتقطيع الأجساد البشرية وتعليقها على عُمَد الكهرباء، فإذا هو يردها جميعا إلى انحراف الفكر الذي من شأنه أن يمسخ الإنسان وحشاً بطاشاً لايُشْبِعُ قَرَمَه إلا اشلاء إخوانه من بنى البشر.. ومفهوم أنه يريد بانحراف الفكر مايمكن تسميته بتشويه الفطرة.. وهو التشويه الذي نلمسه في كل مكان سيطر عليه الحكم الشيوعي.. وإذن فلا علاج لهذا التشويه إلا بالعودة إلى الفطرة التي بنى الخالق الحكيم عليها كيان الإنسان.. ولا سلامة للفطرة إلا عن طريق الإسلام الذي هو القسطاس المستقيم بين الواقع والواجب.. ومن هنا كانت ردود الفعل في نفسه ـ بإزاء الأحداث الرهيبة ـ مزيداً من الالتزام بالدعوة إلى الإسلام الذي لاصلاح بغيره للإنسانية ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه**﴾.

ونظرة متأملة إلى نوعية الكتب التى تولى تحقيقها من مآثر السلف تؤكد هذا الاتجاه، وكذلك سائر بحوثه ومحاضراته ومقالاته التى أنشأها فى

الموضوعات المتصلة بتخصصاته .

نشاطه العلمى

وعن السؤال الخاص بالأعمال التى تولاها وأحبها إليه يقول فضيلته: أول عمل توليته بعد مرحلة التفرغ لطلب العلم هو تعييني معيداً فى جامعة بغداد عقيب تخرجي في قسم الماجستير عام ١٩٦٧، ثم رقيت إلى مرتبة مدرس فأستاذ مساعد، حسب تدرج الألقاب فى جامعة بغداد عام ١٩٧٤م ولما انتقلت للعمل فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عهد إلىّ فيها برئاسة قسم الدراسات العليا، ثم رئاسة المجلس العلمى لمدة ست سنوات — مع الاستمرار في عملي في التدريس خلال ذلك حيث رقيت إلى مرتبة أستاذ — وهو أول عمل إداري في حياتي وآخر عمل إداري إن شاء الله. وأنا الآن أتولى رئاسة شعبة التاريخ فى هذا القسم، وأشرف على رسائل طلبتى، وألقي محاضرات في التاريخ على طلبة هذه الشعبة، ومحاضرات أخرى فى مناهج البحث على طلبة الدراسات العليا مجتمعين ماعدا أقسام اللغة والأدب والبلاغة..

أما عن أحب هذه الأعمال إليه فيحصره في أن يكون أستاذاً جامعياً فحسب، ذلك لأن العمل والهواية تتحدان في مهمة الأستاذ، وللهواية حكمها في وجودي فأنا أهوى الكتابة ولا أحترفها، ولا أستطيعها إلا إذا أقبلت النفس عليها، ولا أحب الكلام في غير العلم، ولا أحب التكرار حتى فى العلم، وأحس بأن تكويني العقلي ونشأتي الثقافية لاتؤهلني إلا للعمل أستاذاً، وإني لأحس بالسعادة عندما ألقى محاضراتي، وأحس بالسعادة عندما أنجز مؤلفا، ولا أحب أن انطق أو أكتب إلا بعد الاحاطة بالمسألة التيأتناولها. وطبيعي أن من عمل الأستاذ المشاركة في المجالس العلمية واللجان الجامعية، وأنا أشترك في مناقشة العدد الكبير من رسائل الماجستير والدكتوراه، وأشارك في عضوية المجلس العلمي، ومجلس مركز السنة، ومجلس قسم الدراسات العليا، وكلها تعتبر ضمن الأعمال العلمية للأستاذ الجامعي .

العالم الإسلامي بين الصحوة والواقع

وكانت المناسبة، تقتضي استطلاع رأي الدكتور في واقع العالم الإسلامي

المعاصر، والصحوة الإسلامية التي يكثر عنها الحديث في هذه الأيام، فجاء جوابه في غاية الايجاز كأنه ملخص لموضوع جد واسع وكبير:

يقول فضيلته: «إن واقع العالم الإسلامي المعاصر يعج بالمشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فهو يواجه تحدياً حضارياً «وأيديولوجياً» ضخما يهدد وجوده المتميز. فالهوة قد اتسعت كثيراً بينه وبين الدول المتقدمة في «التكنولوجية» وتنظيم الحياة الدنيا، وما لم يُعِد تشكيل قياداته العلمية والفكرية فإنه سيعجز عن تجديد مؤسساته، ولايتمكن من اللحاق بالآخرين. إن تحديد الأهداف وقوة الاندفاع نحوها تتطلب وجود «أيديولوجية» واضحة تقود الجميع، وعلى الرغم من عظمة الإسلام، وشمول تعاليمه، وقدرته الفذة على تحريك الجماهير.. فإن المسلمين مابرحوا يتجادلون حول الأيديولوجيات المختلفة شرقية وغربية.. لتأخذ بأيديهم نحو الحضارة والتقدم، وبذلك تهدر طاقات ضخمة في منحنيات الطرق المسدودة النهايات».

ويقول: «ومع ذلك فإن ثمة حقيقة منظورة هي ظهور صحوة ووعي ديني على مستوى العالم الإسلامي، يتمثل في يقظة الجماهير الإسلامية كما يتمثل في توافر الجامعات الإسلامية التى تسعى للنهوض بالعلوم الإسلامية، ونشر المُثُل الإسلامية، وتصحيح الرؤية المنحرفة عن سواء العقيدة.. على أن هذا الوعي لابد من ترشيده بظهور العلماء المخلصين والقادة الراشدين، لضمان الالتزام بالفهم الصحيح للإسلام من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة».

وأولى ملاحظاتنا على هذه الإجابة المكثفة هي: حول الأخذ ببعض المصطلحات الدخيلة في الإعراب عن أفكارنا الإسلامية، فمفهوم أن إقبال المفكر المسلم على تبني مثل هذه التعريفات يتضمن نوعاً من الإقرار بعجز العربية عن الوفاء بمدلولها، ولذلك أتساءل: أليس خيرا من استعمال مصطلح «الايديولوجية» التركيز على أحدى الكلمتين «المثالية» أو «المنهجية» فالأولى أصح ترجمة للمصطلح الاجنبي الذي يحمل في الأصل معنى المثالية، وفي المنهجية كذلك نوع من التحديد الذي يفصل بين مختلف الاتجاهات، ومما يؤيد ذلك كون الاختلاف بين معايير الحضارات إنما يعود إلى اختلاف المناهج، وإنما يباين الإسلام طريق الشيوعية والديمقراطية وما إليهما بمنهجه الذي يربط وجود

المسلم كله وتحركاته كلها بموحيات عقيدته في الله والرسول والرسالة.. على حين تصور حضارة الآخرين انفصامهم عن مصادر الوحي الآلهي وتحركهم في كل أعمالهم من منطلق الأهواء والمنافع الفردية أو الاجتماعية المتقلبة.. وكذلك القول في اصطلاح (التكنولوجية) الذي يعني التطور نحو الأفضل في صناعة الأشياء، أفليس خيرا منها كلمة (الجمالية) مادام مفهوم الجمال يشمل كل متقن ومتكامل من الصفات والذوات والأشياء!.

إنه مجرد تساؤل وفي تقديري أنه يستحق الاهتمام.

وثانية الملاحظات اعتبار الدول المتقدمة في عالم المصنوعات ناجحة في (تنظيم الحياة الدنيا) وهو حكم يستدعي النظر والتفكير، فقد أجمع أولو الألباب من كبار علماء الغرب نفسه على إخفاق حضارتهم في تنظيم الحياة الدنيا، مؤكدين أنها حضارة مرتجلة تهتم بالمادة أكثر من اهتمامها بالإنسان، وبذلك كانت مصدر الرعب الذي يَخُضُّ الوجود البشري وينذر الإنسانية بالدمار الشامل.. أفيعتبر هذا الواقع الرهيب من مظاهر التنظيم للحياة الدنيا؟ أم هو دليل على تخريب النظام الذي لاتصلح حياة الناس بغيره في الحياة الدنيا؟.

فكيف إذا تذكرنا أعاصير اليأس التي تجتاح جماهير الغرب تحت كابوس تلك الحضارة العوراء، التى دمرت القيم، فلا ترى سبيلا للهروب من شقائها إلا بالتهام المخدرات، التي أصبحت خبزها اليومي حتى في أوساط المدارس، وقد أصبح سُعار الجنس يدفعها إلى اقتراف كل موبقة، ويعم الضياع حتى الأوساط التشريعية في أرقى دولها، فتصدر القوانين بإلغاء الحواجز القائمة بين المحارم كما فعل برلمان السويد والدنمارك، وكما قرر مجلس العموم البريطاني، بتصريح المجلس الكَنَسي الأعلى، اعتبار اللواط من لوازم الحرية الإنسانية!..

وبذلك سيق العالم الغربي كله دون استثناء إلى الهاوية التى لاتكاد العين تلمح فيها سوى القتل والسطو والاغتصاب.. وليس هذا كله سوى غيض من فيض ذلك الواقع الرهيب الذي يعانيه الغرب التائه، وبدأت تعانيه الأقطار المخدوعة به.

أفيدخل كل هذا في ماينسبه فضيلته للدول المتقدمة تكنولوجيا من تنظيم

الحياة الدنيا؟..

ومما لاخلاف عليه بيننا وبين فضيلة الدكتور أن التنظيم الحق لايمكن تصوره خارجاً عن نطاق الإسلام، الذي لم يفرط في الكتاب من شيء، والذي أقام حضارته الفريدة على التوازن التام بين المادة والروح، فكان بذلك مثالاً حياً لمعنى قوله تعالى في تحديد غاية الرسالة المحمدية ﴿**وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين**﴾ فالنظام الذي غايته الرحمة العالمية لايسمح باتلاف نصف خيرات الأرض على صناعة الموت، واستخدام الطاقات الكونية لتدمير الكون والكائنات، ولا يرضى لأهله أن يقذفوا بفائض محاصيلهم في أعماق البحر وهم يرون أخوة لهم من أبناء آدم يجتاحهم الحرمان والجوع والمرض صباح مساء!!..

أما ثالثة الملاحظات فعلى قول الأخ الفاضل: إن المسلمين مابرحوا يتجادلون حول الأيديولوجيات المختلفة شرقية وغربية.. لاجدال بحث ونقد ولكن جدال حيرة حول أي هذه الأيديولوجيات يتبعون لتأخذ بيدهم نحو الحضارة والتقدم..

ولا جرم أن ذلك تصور يباين الواقع، فالذين ينطبق عليهم هذا الحكم من المسلمين لايتجاوزون العدد القليل الذي لايملك أي رؤية إسلامية، وقد ساقه جهله بدينه إلى البحث عن الحقيقة في ركام الأباطيل، فهو كالذي ﴿**خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق**﴾.

أما أولو النهى من المسلمين فقد عرفوا طريقهم الذى لايضل سالكه، فلا يلتفتون إلى شرق أو غرب إلا طلباً للمعرفة بواقعهما، لتجنب أمتهم مفاسدهما وأخطارهما..

وإنها أيضاً لَمُجَرَدُ ملاحظات..

بين التحقيق والتأليف

ومثل مترجمنا الكريم وهو ذو الماضي العريق في جو الدراسات العليا، لايُستغنى عن الانتفاع برأيه في كل مايتعلق بهذا القسم، وكان السؤال الذي

طرحناه أمامه هو: «لماذا تركز الكثرة من رسائل الطلبة على تحقيق كتب التراث، على حين تقلُّ الرسائل المَعْنِيَّةُ بمشكلات المسلمين المعاصرة؟..».

ويأتي جوابه شافياً وافياً يحمل عصارة حية من خبرات أستاذ له علمه الوافر وله رؤيته البعيدة.

يقول فضيلته: «إن الدراسات العليا في الجامعات المختلفة تسجل الرسائل العلمية إما في حقل التأليف أو في حقل التحقيق، لكنها تشترط في حالة التحقيق أن تتقدم النص دراسة وافية بحيث يعتبر النص المحقق ملحقا بها، وقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية مشى على هذه الخطة منذ بداية تأسيسه، وكان يضم عدداً من العلماء المتخصصين، ولكن قلة عددهم أدت إلى صعوبة الارشاد الأكاديمي.

ومن المعروف أن الحصول على موضوع جيد ليس أمراً هيِّناً بل إنه يحتاج إلى خبرة المشرف المتمرس في الفن، العارف بالمصادر القديمة ومحتوياتها، والمراجع الحديثة وما أشبعته بحثاً أو تركته للدارسين الجدد، وهذا الأستاذ نادر على صعيد الجامعات المختلفة، وهو أندر على صعيد الدارسات الإسلامية.

إن الطلبة يقبلون على تحقيق النصوص لأنهم يرونها موضوعات جاهزة للتسجيل، رغم أن التحقيق هو عمل الشيوخ في الحقيقة، فهناك عُرْفٌ بأن الأستاذ الجامعي يبدأ بالتأليف وينتهي إلى التحقيق في نهاية المطاف، وليس العكس، لأن التأليف يساعد على بنائه الثقافي ويهيئه لعمله الأكاديمي محاضراً وباحثاً، وأما التحقيق فيحتاج إلى خبرة عميقة بأساليب المؤلفين القدامى وبلغة العرب وأساليب العصر الذي كتب فيه النص، فما ينبغي أن يتورط الطالب الناشيء في أعمال التحقيق.

وثمة مشكلة أخرى هي أن عدد الأساتذة المحققين قليل وبخاصة في الدراسات الإسلامية، مما يجعل إشرافهم ضعيفاً لأن من لم يمارس الفن لايستطيع توجيه طلبة العلم فيه، مما يجعل الاشراف شكليًّا.

وهذا من الأمور التي أغرت الطلبة بتسجيل موضوعاتهم في تحقيق النصوص دون التقيد بشروط التحقيق العلمي الدقيقة.

ثم إن مشكلة طلبة الدراسات العليا الإسلامية تتصل باللغة والأسلوب، وضعف التذوق للأساليب الحديثة، بل عدم فهمها لاعتيادهم المصادر القديمة والتعامل معها وحدها، وهذا يولد فجوة بينهم وبين أهل العصر الحديث، وكذلك فإن دراساتهم تقوم على الحفظ أكثر من قيامها على التحليل والتركيب والاستنباط والاستقراء، وهذا يجعلهم يألفون التعامل مع جزئيات التحقيق ويصعب عليهم الاقدام على التأليف.

إن تنمية الأذواق العلمية تحتاج إلى أساتذة علماء لهم تضلع بفنونهم ومشاركة في التأليف والتحقيق، واحترام للعلم، ونية صادقة فيه، ومن دون ذلك فإن الدراسات الإسلامية العليا قد تعود بالضرر على الجامعات الإسلامية والعلم الإسلامي حيث يتصدر الخريجون دون تأهيل صحيح.

ولكن هذا لايعني أن قسم الدراسات العليا لم يعن بمشكلات المسلمين المعاصرة وبتطلعات الفكر الإسلامي وحاجاته المستجدة، فقد سجل كثير من طلبة شعبة الدعوة في موضوعات ميدانية تتناول حالة المسلمين في أقطار مختلفة من العالم الإسلامي أو خارجه حيث تعيش الأقليات الإسلامية.

ولم تخل رسائل الشُّعَب الأخرى من موضوعات معاصرة أو تراثية تلامس المعاصرة، ولكن من الصحيح أن عدداً كبيراً من الرسائل اتجه نحو التحقيق.

إن الإمكانات العلمية المحدودة لاتجعل الطالب مهيئا لاختيار موضوع ناجح مدروس بصورة علمية ناضجة، كذلك فإشراف الأستاذ الواحد على خمسة أو ستة أو أكثر من الطلبة يجعله لايتمكن من تقديم الإرشاد الاكاديمي الكامل، وكل ذلك يتوقف على توافر عدد كبير من الأساتذة المتخصصين في فنون العلم المتنوعة.

إن ثمة شحا في إعداد الأساتذة الجامعيين في العالم الإسلامي كله وبخاصة في العلوم الإسلامية، وقد واجهت الجامعة صعوبات كبيرة في الحصول على الأساتذة الذين يصلحون للتدريس في مرحلة الدراسات العليا.

إن كل ثلاثة طلبة وثلاث ساعات تدريس في الدراسات العليا تحتاج إلى أستاذ، وكلما زاد التكليف على ذلك اختل الوضع، حيث يعجز الأستاذ عن

متابعة بحوثه والاطلاع على مايستجد من دراسات وبحوث في حقل تخصصه، كما يظهر الضعف واجترار المعلومات القديمة في محاضراته وكذلك يضعف الارشاد الاكاديمي لطلبة الماجستير والدكتوراه، مما له أسوأ الأثر على مستقبل التعليم الجامعي الذي سيتولاه الخريجون الجدد ممن لم يحظوا بالفُرص اللازمة للتعليم المتقدم .

إن متطلبات حايتنا الثقافية ينبغي أن تتقدم في تسلسل الضروريات عند إعداد الميزانية العامة للدول الإسلامية، بحيث لاينحسر الإنفاق على التعليم إلى مرتبة دون مرتبة الإنفاق على ملء البطون والترفيه عن العاطلين الذين يملأون المقاهي والطرقات.

ويقول أبو غسان ــ مؤلف هذا الكتاب ــ إن مما يؤكد قيمة هذه الآراء النفيسة ، التى يطرحها فضيلة الدكتور فى هذه الإجابة المضيئة ، صدورها عن خبير عميق التجربة فى ميدان التأليف والتحقيق ومعالجة المشكلات الإسلامية ونظرة واعية مدققة إلى المؤلفات التى قام بتحقيقها من كتب التراث تعطينا الدليل الحاسم على أنه إنما يرسل هذه الأفكار من خلال تجارب طويلة حقق فيها كل ماأشار إليه من متطلبات التحقيق الحق، إذ جاءت تحقيقاته إضافات رائعة تُفَصِّل ما أُجمل، وتوضح ماغَمُض، وتمد الراغبين في المعرفة بالجديد المفيد. وذلك هو الطابع المميز الذي يواجهه القارىء في مؤلفاته الأخرى التي يحقق فيها ماأخبرنا به عن نفسه في مقدمة هذه الترجمة إذ يقول: (إنه لايحب الكلام في غير العلم، ولا يحب التكرار حتى في العلم) وإن في مؤلفاته والله لعلماً، وإن فيها لجديدا من الفكر المحرك للوعي، البريء من التكرار .

وهذه شهادة أولي العلم

ومن توفيق الله أن نقع بين مصادر المعلومات التى استمددنا منها أصول هذه الترجمة على تقرير علمي كتبه ثلاثة من أفاضل المدرسين في قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية في تقييم بعض منجزات الدكتور العمري، وبيان رأيهم في ماتستحقه من تقدير. وقد استوفى التقرير مايملأ ست صفحات من القطع الكبير، وانطوى على دراسة مركزة ومكثفة لأربعة عشر كتابا بين مؤلف ومحقق، وتتراوح صفحات كل منها بين ٢٤٧٥ ــ وهو (كتاب المعرفة

والتاريخ) ليعقوب بن سفيان الفسَوي ـــ و ١١٤ صفحة وهو المنتخب من كتاب (أزواج النبي ﷺ) لمؤرخ المدينة ابن زبالة.

ولئن ضاق المقام عن استيعاب التفصيلات التى أوردها المقررون وهم الدكاترة شكرى فيصل ـــ تغمده الله برحمته ـــ وعبد المنعم حسنين ومحمود شيخون، في القيمة العلمية لأعمال مترجمنا في هذه المصنَّفات، فلا أقل من أن ننقل من شهادة هؤلاء المحققين بعض الاقتباسات التي تمثل سائرها:

١ ـــ يقول التقرير عن عمل المترجم في كتاب (موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد): (.. أنجز المؤلف ـــ دراسته لهذا الكتاب ـــ خلال ست سنوات قام خلالها بإعادة ترتيب (تاريخ بغداد) على المسانيد للتوصل إلى المؤلفات التي اعتمَد عليها الخطيب البغدادي دون التصريح بأسمائها إلا نادرا.. ولاشك أن هذه إضافة علمية واضحة إلى علم (تاريخ التاريخ) الذي لم يكن يشير إلى هؤلاء المؤرخين قبل ظهور هذه الدراسة.. كذلك كشفت الدراسة وللمرة الأولى عن العديد من مؤرخي المشرق الإسلامي في عصوره الذهبية ممن عنوا بتواريخ مدنهم وفقدت مصنفاتهم فأغفلتهم الدراسات الحديثة.. وقد كشفت الدراسة عن مراكز الحركة الفكرية في العالم الإسلامي في تلك العصور وقوَّمت مستواها ومدى تأثيرها وسعة نشاطها، ملتزمة المنهج العلمي الحديث بدقة، وحققت إضافة علمية وبذلك خدمت علم التاريخ الذي تنتمي إليه.

٢ ـــ وعن كتاب (المعرفة والتاريخ): (ظل هذا الكتاب مجهولا بين المؤرخين في العصر الحديث حتى أخرجه المحقق.. ولاشك أنه إضافة ضخمة إلى المصادر التاريخية، كما أن مقدمته الطويلة ـــ استغرقت ١١٢ صفحة ـــ اضافة حقيقية إلى الدراسات المتعلقة بتاريخ التاريخ.. وقد بذل المحقق جهداً واضحاً فى ضبط النص وخدمته.. وعمل ملحقا ضخما بالروايات الساقطة من الكتاب وبالنقول المتوافرة من كتب الفَسَوي المفقودة إضافة إلى الفهارس التفصيلية.. ولم يسبق أن فُهرِسَ رجال أسانيد كتاب في علم الرجال بهذه الطريقة لما فيها من مزالق كبيرة..

٣ ـــ وعن كتاب (طبقات خليفة بن خياط): (وقد درس المحقق الكتاب وموارده بصورة مستفيضة حيث تضمنت الدراسة إضافات علمية لم يُسبَق إليها

مثل دراسة أبي اليقظان النسابة ونطاق معلوماته، ومفهوم الطبقة علمياً، وتطور هذا المفهوم عند المؤرخين، ثم أسس تنظيم الكتاب وأثره في المؤلفات اللاحقة.

٤ ــ وعن كتاب (المجتمع المدني في عهد النبوة) وهو في مجلدين: (بدأ المؤلف بطرح منهج للتعامل مع الروايات التاريخية وفق قواعد المحدثين في النقد، وهو أمر عسير يحتاج إلى استيعاب دقيق لمصطلح الحديث وفقه ومرونة في التعامل مع الروايات التاريخية.. وكذلك تعرض الباحث إلى منهج كتابة تاريخ صدر الإسلام وملامح التصور الإسلامي للتفسير التاريخي، ثم انتقل إلى تناول مصادر السيرة وتقويمها ثم تناول موضوعات السيرة وفق هذا المنهج النقدي بشمول واستقصاء.

والدراسة غنية في محاكمة الروايات التاريخية ونقدها، وفي توثيق معلوماتنا عن سيرة النبي ﷺ، وقد تنوعت مصادر الدراسة فشملت كتب السيرة والتاريخ والحديث والتراجم، ولاشك أن أعمال المنهج النقدي الحديثي في نطاق الروايات التاريخية يعتبر إضافة علمية أغنت دراسات السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، وهي بداية لإعادة صياغته التي ترتفع صيحات كثيرة للشروع بها.

أنموذج مختار من أفكار المترجم وأسلوبه

وإلى القارىء أخيراً هذه الأسطر من مقدمة كتابه (الإسلام والوعي الحضاري):

إن فساد نظام العالم وحده لايكفي لتغييره، بل إن وعي الإنسان لفساد نظام العالم لايكفي لتغييره أيضا، بل ثمة شرط ثالث مهم وهو ظهور القيادة الجديدة لعالم اليوم متمثلة بالنخبة المسلمة المصطفاة لقيادة القافلة البشرية نحو الأمان.

إن القرن المقبل هو مرحلة اختبار قاس لعالم الإسلام لمعرفة إن كان العملاق، الذي لازالت آثار النوم تشل حركته وطاقاته، قادراً على العودة إلى اليقظة التامة والبصيرة العميقة لأداء واجبه نحو دينه ونحو البشرية.. وليس ثمة

خيار سوى النهضة أو الموت، وليس من طريق للنجاة من الحساب الختامي يوم لاينفع مال ولا بنون سوى العودة إلى الله ووحيه الأخير الخاتم لرسالات السماء. وقد قال عليه الصلاة والسلام موضحاً حدود المسؤولية الفردية والجماعية في اتخاذ القرار والموقف والعمل عند المشاركة في المصلحة العامة: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وأن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا» رواه البخاري في صحيحه(1).

وليس بالنسبة للإنسان ومصيره أهم من السفينة الفضائية التي تحمل كل الجنس البشري، فلابد أن يكون ربابنتها قوامين بالقسط شهداء لله، واعِين للمصير، قادرين على تجنيب الأرض الدمار.. ولن يكون ذلك إلا إذا قام المسلم بواجبه الحضاري وبحضوره الواجب، ولاشك أن بناء الحضارة في عالم الإسلام هو أول خطوة على الطريق، وأن تأصيل ثقافة هذا العالم إنما يكون بالعودة إلى الينابيع والاستمداد منها، وتنظير المعرفة وفق الرؤية الإسلامية الشاملة والبعد عن تحديد المعرفة بالعالم المحسوس مادامت مؤهلات الإنسان ترقى به إلى مصادر الوحي والعقل والحس معا.

إن من الضروري ابتداءً الإحساسُ بالأمن الثقافي الذي يعتمد على الاعتزاز بالذات والتأكيد على الهوية الثقافية، والوقوف الشامخ أمام بقية الحضارات دون رهبة أو استحياء.. إن الإيمان الصادق وحده يكفل تحقيق هذا الموقف.

* * *

---

(1) ابن حجر ـــ فتح البارى ـــ متن صحيح البخارى. كتاب الشركة ٥ / ١٣٢

الدكتور خليل ملّا خاطر

يعرفنا فضيلته هُويّته بأنه خليل بن إبراهيم ملاًّ خاطر، وأن نسبه ينتهي إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما، حسب رواية والده الذى سمعها منه في عدة مناسبات. وبهذا يكون لقب ملاًّ عربي الأصل بمعنى المولى، وهو يطلق في كثير من أوساط المسلمين على أهل العبادة والتقوى، وطبيعي أن تترك هذه البيئة الأولى طابعها الروحي في نشأة مترجمنا كما نرى في التفصيلات الآتية.

وقد كان مولده في مدينة (دير الزور) الواقعة على شاطئ الفرات شرق الديار السورية، وذلك ليلة النصف من شعبان لعام ١٣٥٧ هـ ويصف الشيخ نشأته هناك بأنها كانت في ظل أبوين كريمين وجدين من أهل العلم والصلاح فكان جده لأبيه الشيخ ملاخاطر من حملة القرآن، فلازمه حفيده حتى آخر حياته، وكان كتاب الله أول شيء تعلمه في كنف هذا الجد، وقُدر له أن يصلي به ولما يتجاوز السابعة من سنيه.. وهو أمر جد مستغرب في هذه الأيام، ولكنه من الظواهر المألوفة في الأوساط المحافظة التي ترعى أمانة الله في تأديب أطفالها بروح القرآن، فتنشئهم على حبه والإقبال عليه ومذاكرته ليل نهار، فيتحقق بهم الخير الآلهي الذي يبشرهم بالنجاح التام في حفظه، إذ يقول لهم ربهم في كتابه الحكيم: ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر.. فهل من مدكر**﴾ ومن فضل الله أن هذه الظاهرة لاتزال ماثلة في مختلف انحاء العالم الإسلامي.. وقد وصفنا بعض ماشاهدناه منها في كتابنا عن الهند وكتابنا الآخر عن مجاهدي الأفغان في باكستان..

وقد سألت الشيخ عن المراد فى قوله: إنه صلى بالقرآن وهو فى السابعة.. فأجاب بأنه صلى به إماماً فى الناس، وهو عمل يخالف ما ذهب إليه الحنفية الذين لا يرون إمامة الطفل فى ما عدا النوافل على حين يأخذ به الشافعية استناداً إلى ما رواه البخارى وأبو داود عن عمرو بن سلمة الجرمى، الذى كان

يؤمُّ قومه في هذه السن عملاً بأمر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله : « وليؤمكم أكثركم قرآناً » إذ كان أعلم قومه بكتاب الله .

في البيئة الصالحة

ولا جرم أن يكون هذا الملاًّ الصغير موضع عناية أهله لما يرونه من مواهبه المبشرة، ولسبب آخر هو قلة الذين كتبت لهم السلامة من ذكور هذه الأسرة، إذ كما يقول فضيلته لم تُقَدَّر الحياة إلا لواحد فقط من أبناء جده هو والده إبراهيم، وقد علم من جدته أنها ثكلت من البنين أحد عشر ولدا.. ثم شاء الله أن يكون أول أولاد أبيه، فكان ذلك سببا لمضاعفة الاهتمام به، فانفسح له السبيل للانتفاع بمسلك أسرته العلمي والروحي، وعلى رأسهم ذلك الجد الشيخ ملاًّ الذى وقف نفسه على خدمة القرآن، فاستمر على إقرائه طوال أربعين من السنين، ثم جده لوالدته الشيخ ويس، ووالده الشيخ أحمد الذي ــ يقول ــ كان من شيوخ السلطان عبد الحميد رحمهم الله .

وهكذا أخذ صاحبنا طريقه اللاحب في خدمة القرآن الكريم، وارتياد المساجد وحب العبادة، والمثابرة في طلب العلوم الشرعية منذ سنيه الأولى..

وكان بين شيوخه في ذلك العهد آخرون ممن لهم بأسرته صلة قرابة أو نسب وقد عرفوا بالفضل والاستقامة، ويسمي من هؤلاء الشيخ محمد سعيد المفتي والعلامة الشيخ حسين رمضان، الذى يصفه بالزهد والعبادة، ثم الشيخ الصالح عبد الوهاب الراوي الرفاعي، وغيرهم ممن كان لهم الأثر الطيب في تثقيفه وتأديبه، ويخص بالذكر الشيخين المفتي ورمضان، اللذين كان أكثر قراءته عليهما ..

وإلى هؤلاء الفضلاء، بالإضافة إلى أبويه الصالحين، يعزو الأثر الأكبر من مقوماته الفكرية والتربوية. كأنه بذلك يؤكد القاعدة الإسلامية التي تعتبر الأسوة الحسنة مع العلم الشرعي الصحيح، هما الأساس الذي عليه يقوم بناء الحياة السليمة القويمة.. واذن فلا غرو إذا رأينا هذا الفتى، وقد بدأ يؤمّ الناس في السابعة، أن يشارك في نشر الوعي الإسلامي في حلقات الدرس وعلى صهوات المنابر قبل أن يستوفى العشرين من عمره .

ومع أن والده لم يكن من المتفرغين لطلب العلم فقد كان له أثره العميق في ضبط مسيرته على المنهج الأقوم، إذ كان يحث ولده على صحبة الصالحين، ويحذره مجالسة غيرهم، ولاينفك يشجعه على نشاطه في مجال الدعوة والتوعية، بل كان في مقدمة المستمعين إلى دروسه ومحاضراته ..

دراساته ومؤهلاته

وعند الحديث عن مؤهلاته الدراسية يقسم الشيخ مراحله تلك إلى ضربين، مدرسية أكاديمية وأخرى شرعية، وقد استوفى حظه من كلتيهما إذ حصل على الشهادات الابتدائية فالمتوسطة فالثانوية في مدارس بلده مع التفوق، ومن ثم التحق بكلية الشريعة في جامعة دمشق ونال منها إجازة الليسانس في علوم الشريعة، ومن هناك اتجه إلى الأزهر الذى أتم فيه دراساته العليا فأحرز الماجستير ثم الدكتوراه في الحديث الشريف وعلومه، ومن ثم انصرف إلى الانقطاع للتدريس فمازال يواصل ترقيه حتى صار إلى المكان الأعلى منه بدرجة أستاذ .

. ومن حيث الضرب الآخر من الدراسة الشرعية فقد استمرت قراءاته على المشايخ حتى أثناء المراحل المدرسية الأولى، وبخاصة في الاجازات الصيفية التي كانت له بمثابة فرصة للعودة إلى الكُتاب والاستماع إلى دروس شيخه حسين رمضان في مسجد جده المعروف بتكية الشيخ ويس، على الرغم من ارتفاع مستوى تلك الدروس عن مدى إدراكه، إذ كانت مخصصة للمتقدمين في طلب العلم. ولما بلغ المرحلة المتوسطة وقف إجازة الصيف على دروس الشيخ محمد سعيد المفتي، الذي يقول إنه قرأ عليه عدداً من أمهات الكتب في الفقه الشافعي ثم الحنفي، إلى عدد من كتب النحو والبلاغة والعروض والمنطق والتجويد والفرائض والصرف .. ولبث في ملازمة هذا العلامة أكثر من عشر سنوات ولما انتقل إلى دمشق لم يقطع صلته بذلك النوع من الدراسة الشرعية، ووثّق هذه الصلة بعدد من كبار شيوخ العلم بدمشق، الذين لم يكد ينقطع عن حلقاتهم طوال المدة التي قضاها في الدراسة الجامعية ..

مصادره الحية

ويضنف الشيخ كبار المؤثرين في تكوينه الفكري إلى ضربين من الرجال،

منهم من نعم بصحبته شخصيا، وآخرون لم يعرفهم إلا من طريق آثارهم وتراجم حياتهم. ويركز من هؤلاء على الإمام الشافعي رحمات الله عليه، الذي عايش سيرته ومناقبه وعلومه على امتداد عشرين من السنين، وقد تركت هذه المعايشة طابعا عميقاً في نفسه، إذ كتب عنه الكثير، وكان لأسلوبه ومنهجه ومذهبه وأدبه والتزامه السنة وغيرته عليها أثرها الحي في تصرفاته كلها.. ومن الصنف الآخر يؤكد على أثر والده من حيث السلوك وطريقة التعامل مع الناس، ثم جده لوالده الذي بسط الحديث عنه، ويقف مليا عند ذكر شيخه محمد سعيد المفتي فيقول إن له الفضل الأوفى في توجيهه نحو الالتزام بالصحيح من الآثار وتحاشي الأخذ بالضعيف الواهي إذ كان من تقريراته التي لاينساها أن في الصحيح مايُغني، وأن على طالب العلم الشرعي اعتماد الكتاب وماصح من السنة، ثم الاحتياط في كل الأمور، والتوقي في كل مايحتمل الشبهة، وترك المباح خشية الوقوع في المحظور..

ويتذكر هنا مأثرة لشيخه هذا تلخص أفكاره تلك بما يثبتها في أعماق لبه وسلوكه، ذلك أن سائلا من الناس أراد الوقوف على ماعنده من العلم في مشكلة فقهية، فأجاب بما وقف عليه من أقوال أهل العلم، وكان في أدلته حديث ضعيف، فما إن وصل الموضوع إلى شيخه حتى سطر إليه خطابا شديد اللهجة يفيض غيرة عليه وإرشادا له، ويؤكد ماسبق أن زوده به من التقريرات التي تشدد على وجوب التمسك بالصحيح من الأثر دون غيره.. مما كان له الأثر الكبير في اتجاهه نحو التمحيص والتحقيق اللذين أصبحا من خصائصه التي تطبع أعماله العلمية في مؤلفاته الحديثية جميعا..

الأسوة الحسنة

ويبدو أن هذا الضرب من التوجيه العقلي والروحي قد امتد إيحاؤه وعَمُقَ في حياة المترجم حتى طبع سلوكه جميعا، فكان من ذلك اقتناعه بأن الشرط الأول لنجاح العامل في نطاق الدعوة والارشاد أن يكون متحليا بكل مايدعو إليه من الخير، وضاعف ذلك من اجتهاده في قراءة السنة العملية والقولية، وبخاصة في رياض الشمائل النبوية، التي تنير للمؤمن طريقه باتجاه المثل الأعلى للحياة الإسلامية، حتى يكون عمله أسبق من قوله.

ويتابع الشيخ أن مما أعانه على بغيته تلك ماوفقه الله إليه من احاطته بالرفقة المختارة من أهل العلم والصلاح، الذين شاركهم في الطلب وأحيى معهم الليالي في الدراسة والمجاهدة.. مما كان له الأثر الفعال في ماصار إليه من خدمة السنة، والذود عن حياضها في كتب زادت حتى الآن عن الثلاثين مابين تأليف وتحقيق ومطبوع ومُعَدٍ للطبع ..

انقطاعه للتعليم

ومثل هذا الجو الذي غمر حياة الشيخ منذ فتح عينيه على الدنيا لابد أن يترك طابعه على حياته العملية، ومن هنا كان اتجاهه إلى التعليم الذي هو مهمة خير خلق الله من النبيين والمصلحين، وقد رأيناه يمارس هذا المسلك منذ مطلع شبابه، حتى إذا أحرز شهادة الدراسة الثانوية انتظم في سلك التدريس موظفا لفترة قصيرة، ثم رأى أن ينصرف إلى منهج شيوخه وبخاصة بعد أن غيب الموت بعضهم وأصاب العجز من بقي منهم، فأقبل على مواصلة سبيلهم بتعليم الناس مايعوزهم من العلوم الشرعية. وقد شجعه على ذلك التفرغ والدُه الذي كفاه مؤنة السعي لطلب الرزق.. واستمر على ذلك حتى العام ١٣٨٦هـ حيث توجه إلى المملكة العربية السعودية للتدريس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، إذ كانت تسمى آنذاك (الرئاسة العامة للكليات والمعاهد العلمية) ثم لم يزل في عمله الجامعي هناك حتى العام ١٤٠٤ حيث تم انتقاله إلى جامعة الملك عبد العزيز ــ فرع المدينة المنورة.

وعلى استفسارنا إياه عن السبب الذي حداه لاختياره العمل في خدمة السنة الشريفة.. لم يزد فضيلته على ماأسلفنا الإشارة إليه من رده ذلك إلى ماغرس في قلبه من حب لرسول الله وسنته منذ نعومة أظفاره ..

مؤلفاته وأحبها إليه

ورأينا من الخير أن نسمع حديثه عن مؤلفاته فكان مما قال:

إن مؤلفاتي على اختلافها تصنف في قسمين

الأول ويشتمل على أنواع مايتعلق بشخص رسول الله صلوات الله

وسلامه عليه وآله، من سيرة وشمائل وخصائص. وقد استغرق هذا الجانب أربعة من الكتب ومنها الخاص بالسنة والدفاع عنها والاحتجاج بها، وقد طبع بعضها.

وأما الثاني فيتصل بمدرسة الإمام الشافعي، وهي خاصة بالنواحي الحديثية دون الجانب الفقهي، إلا ماكان من ترجمته ومناقبه رحمه الله.

ثم كتب أخرى في موضوعات مختلفة، أكثرها ردود ومناقشات.

أما أحبها إليه فيشير منها إلى ماتناول حياة الشافعي وأثره في الحديث وعلومه، إذ لايعلم من المعاصرين من تصدى لمثل ذلك أو محص مانقل عن السابقين، وقد أثبت في كتابه هذا أن الإمام الشافعي هو مؤسس علم المصطلح، على وجه القطع، ويعتبر كتابه هذا هو الأول في بابه.

ومن مؤلفاته الأثيرة لديه (مكانة الصحيحين) ويقول عنه انه خصه بالمزيد من عنايته، وكان سميره، ويتصل بكثير من ذكرياته..

ثم السنن للإمام الشافعي، وهو من تحقيقه، ويقول بأنه كتب له مقدمة فريدة، وذيَّله بتعليقات نفيسة، وترجم لرجاله، وهو مما لم يُسبَق إليه في مايعلم.

ومن كتبه (السنة وحي) ولمَّا يتم بعد، ويتصور أنه الوحيد في هذا المجال أيضا..

ويتابع ذكر كتبه الأخرى، فيسمى منها:

١ ـ الخصائص التي انفرد بها رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه وآله، عن غيره من الأنبياء.

٢ ـ مختصر الخصائص وعنوانه (عِظَمُ قدره ﷺ ورفعة مكانته عند ربه عز وجل) وقد أعيد طبع هذا المختصر ست مرات، وترجم إلى عدة لغات آخرها باللغة الأندونيسية.

٣ ـ القسم الأول من (شبهات حول السنة) وفيه الرد على من يدعو إلى ترك السنة والاكتفاء بالقرآن.. ويتصور كذلك أنه الوحيد من نوعه في

العربية .

ويختم الشيخ هذه القائمة بقوله : ومع ذلك فإن كتبي كلها حبيبة إلي ، وكل ماأتمناه هو أن تكون مقبولة عند الله ، ونافعة لعباده المؤمنين ، فقد أعطيتها كل ماوفق الله إليه من التدقيق والتهذيب والتصحيح بفضله ومنه وتوفيقه ..

طرائف عن المؤتمرات

ومعلوم أن للشيخ نشاطه المشكور في خدمة السنة من خلال بعض المؤتمرات . لذلك رأينا أن نستوضحه عن عمله فيها ، ورأيه في مردودها ، فكان في إجابته الموجزة مايغني عن الاسهاب ، وينطوي على الطريف من المرئيات .

يقول فضيلته : لقد شاركت في عدد من هذه المؤتمرات كان آخرها مؤتمر السنة الذي عقد بالجزائر في شوال من عام ١٤٠٢ هـ أما رأيي فيها فهو أنها لاتخلو من الإيجابيات والسلبيات . فمن فوائدها التعارف الذي ماكان ليحدث لولا هذه المناسبات ، التي تتيح لكل من المدعوين تبادل الخبرات والمعلومات مع رجال يسمع بهم ولا يراهم ، فيعلم من أحوال المسلمين مالا سبيل إليه عن طريق الوسائل الأخرى ، وقد يلتقي خارج قاعات الاجتماع شبابا هو في غاية الشوق إلى لقائهم ، فيستفيد من تجاربهم ويفيدون من خبراته ..

وقد يكون من السلبيات المفيدة أيضا أن يلقي المرء رجالا كان يظن فيهم الحكمة والعلم عن بعدٍ فإذا هم كما ورد في المثل (تسمعَ بالمعيدي خير من أن تراه) ..

وفي رأي الشيخ أخيراً أن هذه المؤتمرات قليلة المردود ، لأن المؤتمرين محدودو الأثر في أوساطهم ، فتظل مقرراتهم مجرد أماني لاأثر لها في نطاق التطبيق ، هذا فضلا عما قد تحمله من تجاوزات تستدعي التحفظ بل الرفض .. وربما كان بينها ما يستهدف أغراضاً غير التى عقدت لها هذه المؤتمرات !..

وطرائف عن المؤهلات العليا

ومثل الأستاذ الذي قضى غير قليل من عمره المبارك في قسم الدراسات

العليا لايحسن أن نعفيه من السؤال عن الانطباعات التي يحملها عن ذلك القسم، فكان من أجوبته أنه لايحصي عدد الرسائل التي أشرف عليها وناقشها سواء على مستوى الماجستير أو الدكتوراه، وطبيعي أن تكون كلها في نطاق تخصصه من الحديث الشريف وعلومه. وهي مابين تحقيق لكتب التراث، أو بحوث يكتبها الطلبة، والغالب عليها جميعها علم الرجال وعلم العلل، وكلاهما في رأيه من أصعب علوم الحديث.

وثمة موضوع لابد أن يجول في خواطر الكثيرين ممن يهمهم أمر هذا الجيل الضخم الذي يتدفق إلى الحياة من خلال هذه الأقسام العليا.. فينتشر في كل مكان من ديار الإسلام، مامدى تأثره بهذه الدراسات، وما مردود أطاريحه في عقلية صانعيها أولاً، ثم في عقليات قرائها من سواد المجتمعات الإسلامية.. وهل تعتبر مقياسا صحيحا للمحصول العلمي الصحيح؟!..

يقول الشيخ: إن مردود هذه الرسائل على أهلها لايمكن اعطاؤه حكما واحداً، فهو يختلف ويتباين كثيرا بالنسبة إليهم، ذلك أن بعضهم يستمر في عطائه بالاستمرا في الأخذ، فلا تحجبه شهاداته عن السؤال والاستفسار ممن هم أكبر منه وأعلم، إذ عمَّقت بصيرته فأيقن أنه مايزال في حاجة إلى المزيد من المعرفة، فهو ابدا طالب للعلم ومستفيد من مظانه. على حين ترى آخرين على الضد من ذلك ما إن يحصل أحدهم على مؤهله العالي حتى يستغنى بلقبه عن حقيقته، ثم يحجبه الغرور عن الاستزادة والمتابعة، بدلا من أن تدفعه لذة المعرفة إلى مواصلة الطلب..

يضاف إلى ذلك أن كثيرين من حملة هذه الألقاب العلمية إنما كان تخصصهم في جزء محدود به نالوا الشهادة، وهم لايزالون في مسيس الحاجة إلى العلم بالفروع الأخرى، وذلك لأن العلم الشرعي إنما هو كلٌّ متكامل يتمم بعضه بعضا ويعين بعضه على إيضاح بعض.

وقد راقتني ملاحظة الشيخ هذه إذ ذكرتني بمثال الطبيب الذي يريد التخصص بالعين أو القلب أو أى جزء من الهيكل الإنساني، فلا يتاح له التطلع إلى هذا التخصص مالم يكن قد استوفى علمه بخصائص الجسم كله..

ويتابع فضيلته تفصيل رأيه قائلا: والمؤسف أن كثيرين من حملة تلك

الألقاب يحول اغترارهم بها دون الانتفاع من علوم الشيوخ الذين سبقوهم في ميادين المعرفة، ولكنهم لم يقدَّر لهم أن يحملوا مثل ألقابهم.. ولو هم أنعموا نظر العقل في واقعهم وواقع أولئك الشيوخ الوارثين لعلوم السلف، لأيقنوا أنهم أحوج مايكونون إلى الاستفادة منهم. فكم من عليم لايملكَ من المؤهلات الاكاديمية شيئا وهو في ميزان العلم الحق بمقام الأستاذية بالنسبة إلى الكثير من حَمَلتها.. ومن هنا كان قَصْرُ الجامعات مناصبَ التدريس العالي فيها على حملة الشهادات.العليا من شأنه أن يفوت عليها فرص الاستفادة من أولئك العلماء الاجلاء..

وصدق الشيخ فكم بين فضلاء الشيوخ من رجل فتح الله عليه فهو ينبوع لاينضب من المعرفة السديدة والعطاء الثر، ينير به الله سبيل الكافة والخاصة، وحسبنا أن نشير منهم إلى نماذج قليلة كان لها ولايزال أثرها البعيد في الهداية والإرشاد كشيخنا الفقيد محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله، والشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ ناصر الدين الألباني، والشيخ عبد الفتاح أبي غدة، وإخوان لهم لايتسع المقام لإحصائهم.. أمد الله بحياتهم وبارك في جهودهم، وأجزل أجرهم عن دينهم وأمتهم..

أفكار وتجارب

وفي نهاية المطاف ألقينا على فضيلة الدكتور خليل الاستطلاع التالي:

كيف تنظرون إلى مستقبل الإسلام من خلال المآزق التي تعترضه هذه الأيام؟..

فيجيب فضيلته بما مؤداه: أن ثمة زاويتين لهذا المنظور، أما إحدهما فتنطلق من خلال النصوص النبوية التي تؤكد استمرار الإسلام واستعلاءه وهيمنته على سائر النحل والمذاهب، وهي قاطعة بثباته في وجه الزعازع، ومبشرة بأن طائفة من حملة أنواره لاتزال ظاهرةً بالحق، شاهدة على الخلق حتى يأتي وعد الله..

وهذه الأنباء الصادقة صريحة بعودة الإسلام إلى مكانه من القيادة العالمية، على الرغم من كل المحن التي تواجه هذا الدين على أيدي أعدائه الدوليين من الشرقيين والغربيين.

وأما الثانية فمن جهة الدعوات والدعاة، فكثير من هؤلاء يبعث وضعهم على الأسى إذا لم يبعث على اليأس، لأنهم غير مزودين بالمؤهلات النفسية والعلمية التي تتطلبها الدعوة من أهلها، فمثل هؤلاء ضررهم أكبر من نفعهم..

هذا إلى أن ثمة دعوات ترتدي مسوح الإسلام وهي منطوية على الكثير من الانحرافات التي تشوه وجهه.. فلا مندوحة والحالة هذه من توجيه العناية إلى تصحيح هذه الأوضاع لإعطاء الصورة السليمة لحقائق الرسالة الخاتمة، التي يتوقف على ظهورها مصير البشرية المتخبطة في ظلمات الضياع...

ومعلوم أن صمود الإسلام على تقلبات الأحداث خلال قرون التخلف إنما يعود إلى خصائصه العليا، التي كانت أكبر من الأحداث، ولكي يستأنف الإسلام العظيم مدَّه العالمي لابد من إعادة النظر في إعداد الجيل الصالح لعرض فضائله، وما يحمله من الحلول الحاسمة لمشكلات الإنسان الحديث، ولن يكون هذا الجيل المنشود إلا ذلك الذي يحدد الله صفاته بقوله الحكيم — في سورة المائدة — ﴿**ياأيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينِهِ فسوف يأتي الله بقومٍ يحبُّهم ويحبونه، أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم..**﴾ فالإسلام سينتصر لامحالة بإذن الله حتى لايبقى بيت من حجر ولا مدر إلا ويدخله هذا الدين، لكن المطلوب هو أن يُصَمّم المؤمن على أن يكون أهلا لهذه المهمة حسب المواصفات التي يحددها القرآن الكريم والحديث الصحيح ذلةً للمؤمنين، وعزةً على الكافرين، وإخلاص الولاء لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم.

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله. والله أسال أن يجعلنا جنداً أوفياء صادقين معه ومع أنفسنا ودِيننا وإخوتنا المؤمنين ..

اللهـــم آميـــن ...

* * *

الشيخ السعيد الشربيني الشرباصي

السعيد الشربينى الشرباصى أبو أسامة ــ كما كتب بقلمه ــ ولد فى « البجلات » إحدى قرى محافظة المنصورة فى مصر بتاريخ ٢٤ / ١٠ / ١٩١٩ ويقول إنه ابن أسرة ريفية بسيطة ، ولكن والده ما زال يكافح ــ مزارعاً وتاجراً ــ حتى جعل منها أغنى أسرة فى تلك القرية ، كما حاول تغيير مسيرة الحياة بالنسبة لأولاده فآثر لهم كلهم طريق العلم .

ويصف الصديق بيئته تلك ، فيقرر أنها بيئة إسلامية متوسطة بين الانطلاق السخيف والتحفظ العنيف ، تميل إلى التسامح وترغب فى التياسر ، مع الاحتفاظ بالطابع الإسلامى وأخلاقه المتينة .

ويخص بالذكر وضع الأسرة الدينى ، فيقول إن هذه الأسرة الريفية البسيطة لم تسمح ــ منذ البداية ــ لخرافات الاعتقاد أن تدخل دارها ، إذ لم يكن لوالده طريقة ولا شيخ ، ولم يستحسن ذلك أو يتعاطف مع هذه المعتقدات على الرغم من كونه غير متعلم ، وكذلك كانت والدته إلا أنها لم تكن لتسمح لهم باعتراض الناس فى ما آثروه لأنفسهم من ذلك ، بل كان مبدؤها دعوا الناس وشأنهم .

وما ندرى مراد الشيخ فى قوله ــ منذ البداية ــ أيعنى البداية القريبة فتكون سلامة العقيدة قد دخلت هذا البيت عن طريق أبويه ، أم البعيدة العائدة إلى عهود أقدم ؟.

وأيًّا كان الجواب فإن نظافة العقيدة من دخائل البدع ستساعد الناشئين فى هذه البيئة على الاستمرار فى طريق التحرر الفكرى ، إذا قيض لهم الوسط التعليمى الصالح .

ولا مندوحة من التأمل فى حياة ذلك الوالد النشيط المكافح ، الذى

استطاع الاحتفاظ بسلامة الفطرة ، على الرغم من حرمانه التعليم ، فى ذلك الريف الذى تكاد الطرقيات تسد عليه مذاهب الحياة جميعاً . . . فمثله جدير بأن يترك أثره عميقاً فى مقومات ذلك البيت .

من أجل العلم :

ويتابع الشيخ إجاباته الواضحة فيحدثنا بإيجاز عن مسيرته الدراسية : لقد بدأها بالابتدائية النظامية فى قريته ، لكنه جمع بين المدرسة ومكتب تحفيظ القرآن ، ومن الابتدائية الإلزامية إلى المعهد الدينى فى دمياط ، ثم إلى المعهد الدينى الثانوى بالزقازيق لاستكمال الدراسة الأزهرية .

ويصف حياته فى هذه المرحلة فيقول « عشنا حياة التقشف والتنافس والصراع من أجل العلم والثقافة ، فقد كان بالمعهد قسم داخلى ، يقضى فيه الطلاب فراغهم كله ، فلا مال للترف ، ولا وقت للعبث والكل مصمم على ألّا يضيع جزءاً من الوقت فى غير منفعة .

وهكذا ينتقل السعيد من جو الكفاح الدؤوب — فى البيت — إلى جو الصراع من أجل العلم فى المعهد ، فلا يضطرب به الطريق ، ولا يلتوى الرفيق .

ويزيدنا معرفة بهذا الوسط الثقافى ، فإذا طلاب ذلك المعهد من إقليمين مختلفين ، شماليون من دمياط والمنصورة ، ويمتازون — كما يقول — بالذكاء ، والاهتمام بدراسة الأدب والثقافة الحديثة ، يعنون بالصحف والمجلات ، ويقضون جانباً كبيراً من وقتهم فى المكتبة العامة بالمدينة على « بحر مويس » الجميل ، يقرؤون القصص المترجم والشعر الحديث ، ويجمعون بين أدب المهجر والأدب القديم .

ثم طلاب شرقيون يؤثرون الدراسة التقليدية ولا يحاولون الانصراف عنها إلا بقدر . ويولد هذا التباين بين الاتجاهين لوناً من الصراع يمضى بينهما فى إصرار ولكن فى هدوء وتقدير متبادل .

ولا يفوت القارىء أن صديقنا السعيد من الفريق الأول الذى عنى بالثقافتين كلتيهما ، وتأثر بالمد الأدبى الذى كان قد بلغ ذروته فى مصر عن طريق الصحف والمجلات والمنشورات المختلفة ، التى ظهرت على أيدى الرواد الكبار ، الرافعى والزيات وهيكل والعقاد وشوقى وحافظ والآخرين من بُناة التراث العربى الحديث ، ومن هنا كان لأسلوبه الكتابى ذلك الرونق الذى يغلف أفكاره ، فيلامس من القارىء مراكز العقل والشعور جميعاً .

وأمام المرحلة الجامعية بالأزهر يقف الفتى متأملاً فى أى الطرق يجب أن يسلك . . أما أخوه الأكبر أحمد ــ الدكتور ــ فقد اختار الدراسة بكلية اللغة العربية ، وكان هذا طريقه الطبيعى ، بعد أن استحوذ عليه الهوى الأدبى ، فراح ينشر ويؤلف وهو فى الفصول الثانوية ، وساعده فى ذلك ــ على قول المترجم ــ سيطرته بحكم سنه على النفقة التى كانت تصلهما من الوالد .

ولو استسلم الصديق السعيد إلى هواه لآثر طريق أخيه ، ولكنه لم يرض أن يكون نسخته الأخرى ، وبهذا الدافع قرر البعد عن كلية اللغة العربية واتجه إلى دراسة الشريعة .

ويعلل الشيخ اتجاهه هذا بأمرين :

١ ــ آن دراسة الأدب والشعر مؤدية إلى إثارة الانفعالات العاطفية ، وهم أحوج مايكون إلى مايسكنهما وبخاصة فى مرحلة الشباب وفى نطاق العزوبة .

٢ ــ أن دراسة الشريعة تمكن لصاحبها من دراسة الأدب وقراءته دون حاجة إلى الانتظام من أجله داخل المدرجات والفصول ، على حين أن العكس لايستقيم ، فإن دراسة الأدب لاتسمح لصاحبها بالتوغل فى دراسة الشريعة .

وما أدرى أى مدى تبلغ نسبة المؤيدين لهذا الرأى لو استفتينا به القراء . أما أنا فمن أشد المدافعين عنه وأكثرهم إلحاحاً عليه ، ذلك لأن الدراسة الشرعية فى تصورى هى المركز الذى حوله يجب أن تقوم ثقافة المسلم ومنه تنطلق ، ولا سبيل لتحقيق الشخصية الإسلامية إلا على هذا الأساس . ولا بأس أن تخالف بذلك طرائق الشرق أو الغرب ، وننصرف عن النظريات الفلسفية فى

مفهوم الثقافة ، لأننا نختلف عن الجميع بكوننا أمة الرسالة العالمية ، التى أنزلها الله تبياناً لكل شيء ، فعلى ضوئها نسير ، وإليها ندعو ، وبها نكافح ، وعنها نصدر فى دراسة الكون ، وبناء الحضارة والتى تضع مواهب البشر جميعاً فى الطريق الصحيح . . ومن هنا كان منهجنا فى طلب العلم موحد الأسس والأهداف ، لا يعرف تلك التفرقة الدخيلة بين علم الدين وعلوم الدنيا ، بل كل علم يكشف عن حقيقة ، ويرفع من مكانة العقل هو إسلامى صميم . . وفى ظل هذا التصور الأعلى تتكشف ظلال هذا التمزق الذى يؤلف مناهج التعليم ، التى فرضت على العالم الإسلامى فى عصور التسلط ، حتى بتنا نرى رجالاً ونساء يحملون لقب دكتور فى مختلف التخصصات ، حتى الغناء والباليه . . دون أن يعرفوا شيئاً قل أو كثر عن دينهم ، وبالتالى دون أن يعلموا أى شيء عن رسالة أمتهم نحو البشرية ، وبذلك خسروا أول ما خسروا هويتهم الأصيلة ، فلم يعلموا إلا أنهم أذيال فضولية فى تقاليع الشعوب التى آمنوا بتفوقها المادى .

فى كنف المنهج الإسلامى كان الأدب وسيلة إلى دراسة البيان القرآنى ، وتعرف خصائص الصياغة المعجزة فى ذلك البيان الإلٓهى ، فما إن يتمكن الدارس من هذه السبيل حتى تشرق فى نفسه ملكة البلاغة ، وتستقيم له الأداة ، فإذا هو الكاتب الباهر ، والشاعر الساحر . وما بلاغة ابن حنبل والشافعى والأوزاعى وابن المبارك وإخوانهم من العارفين ببعيد .

وفى نطاق المناهج المستعارة استحال الأدب غاية ينقطع إليها الدارس من مطلع المرحلة الثانوية ، ولا يزال يتابعها حتى ينال بها شهادة الدكتوراه ، فإذا هو دكتور فى الأدب . . . حتى النحو والصرف لكل منهما تخصصه وداكترته ، فدكتور فى الصرف ، وآخر فى النحو . . وليس بالنادر أن تحس فى الكثير من هؤلاء العجز عن الإبانة والخطأ فى الصياغة ، حتى لتتساءل : أهذا مبلغ القوم من العلم ؟ ووالله إنى لأعرف من هؤلاء من لا يحسن ضبط الوزن من البيت ، ولا صحة القافية من فسادها ، وقد يرى القارىء نماذج من هذا الضرب من الدكاترة مع عينات من أدبهم العجيب فى مذكراتى التى أعمل فى تأليفها ، ولا أدرى متى أخرجها للناس .

أجل . . إنى مع الصديق السعيد فى إيثار الدراسة الشرعية ، بل التركيز عليها كمنطلق رئيسى إلى علوم الدنيا جميعاً ، بشرط واحد هو أن تكون دراسة مفتوحة من شأنها أن تحرك الهمم وتدفع بالمواهب إلى الخلق والإبداع والرؤية العميقة إلى الحياة كلها بنور الله . . ويومئذ لن نعرف دكتوراه فى الغناء الصنعانى ولا ليسانساً فى رقص الباليه ، ونحو ذلك من التفاهات التى هدمت من قبل صروح العزة فى قرطبة وبغداد ودمشق ، ومحت قبلها أمجاد اليونان ، إذ صرفت مواهب أهلها عن الإبداع العقلى ، الذى جعل منهم ذات يوم أئمة الفلسفة وقادة الفكر العالمى ، إلى عبادة الشهوات ممثلة فى أساطير الآلهة ، ومهازلها المروِّجة للفواحش .

إنى مع الصديق السعيد فى اعتبار الدراسات الشرعية غاية الثقافة كلها ، فلا يصلح التخصص فى أى فرع من فروع المعرفة إلا بعد التضلع من معينها العاصم ، إذ تكون كالدراسات الطبية ، تبدأ بالكل حتى تستوفيه ، ثم تنتهى إلى الجزئيات التى يتفرغ لها المتخصصون . .

ولكن هل أبقى التشتت العقلى والفراغ الروحى من يشارك فى قبول هذه الأفكار التى أصبحت أبعد عن الواقع من عالم الأحلام ! . .

سـباق وتنافس :

وفى الإجابة عن الرجال الذين أثروا فى توجيهه يبدأ بالكلام عن أخيه الدكتور أحمد الشرباصى ، المدرس فى جامعة الأزهر فيقول : « كان الصراع الذى دار بينى وبين شقيقى من أبرز العوامل على الاندفاع فى طريق العلم . . كان وضعنا فى الأسرة الكبيرة العدد يجعلنا نحس أننا فى بوتقة واحدة ، والآخرون فى واد آخر . وكان هذا الإحساس يضاعف من الترابط والتواثق والحب ، إلا أنه فى الوقت نفسه يوقد حمية التسابق فلا أرضى لنفسى أن يقال عنى إنه الأصغر إذ كان الناس يقولون عن أحمد إنه أكيس وأصبر وعنى أننى أعنف وأذكى ..

لقد جعلنى ذلك الصراع شديد الركض وراء التحصيل العلمى . كان أخى يسبقنى إلى المحافل العامة ، وفى مجال النشر والتأليف ، وكلما تحركت

لعمل شيء أحسست وكأن أنظار الناس تتجه إلينا ، وهى تقول : يعنى ما فيش إلا أنتم ؟؟ وها نحن أولاء نشارف الستين ، وها هو ذا أحد رؤساء التحرير لأكبر مجلة فى مكة المكرمة يشير إلى تعليقات الناس ، عندما يرون لنا مقالتين فى عدد واحد ، ولعل هذا هو السبب فى إيثارى العزلة والانطواء فى كثير من الأحيان ، إلا أن ذلك الصراع الذى بدأ تنافساً بينى وبين شقيقى قد وسمنى بطابعه ، فحياتى سلسلة من الصراع مع كل ظالم واجهته سواء فى نطاق العمل أو السياسة .

مؤثرون ومؤثرات :

ويؤكد الشيخ على استقلاله الذاتى فيقول : « لا أجدنى مديناً بالتأثير الحقيقى فى توجيهى الفكرى لأحد من الذين علمونى . . اللهم إلا بعض لمحات إعجاب ببعض شيوخى كالإمام الشيخ محمود شلتوت ، الذى كنت مع فارق السن أناقشه فى عنف وإصرار فلم يغضب منى قط . . إلى جانب شيوخ لنا كانوا نماذج فى الخلق والعفة والرضا رحمة الله عليهم جميعاً .

ويتحدث عن أثر المدينة فى أفكاره وعقله قائلاً : « فى المدينة المنورة تعلمت الحقيقة . كنت أجلس إلى عمود فى المسجد النبوى ساعات طويلة بلا كتاب ولا صلاة ، ولكن فى تفكير مديد . . أود أن أصرخ فى الناس إن دعوة محمد ﷺ ليست فى مكان ولا فى بنيان . . وليس لها حدود زمنية إنها فى الأعماق . . فى العقل والقلب والروح والنفس ، وإنها رصيد من التوجيه الربانى لإصلاح البشرية فى غير حدود ولا قيود . . . .

ابن باز وشيخ الأزهر :

وخلال الشهور الأولى من عملى فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة كنت أسمع عن رئيسها الشيخ بن باز ، وخيل إلىّ أنه أسد جبار ، فقلت لنفسى أنا المسكين : ما لى ولمواجهة الآساد ! . . وظللت قرابة العام لا أدخل له مكتباً فى الجامعة ، ولا أهم بلقائه فى المسجد أو فى الطريق .

ولأمر ما أحسست حاجة إلى لقائه ، فقلت أقابله عن بعد ، وأقوم بدراسة له كي أضع التخطيط المناسب لمواجهته . وسألت عنه أحد زملائى فى الجامعة ، وإذ علم أنى لم أره حتى الآن قال لى « أترى إلى هذا الرجل الجالس على كرسيه الخشبى فى ساحة المسجد ؟ قلت نعم ، وإننى لأمر عليه بين يوم ويوم . قال . هو ابن باز .

واستمعت إليه ، وتأثرت به ، ولا أقول إن أفكارى عن الدعوة السلفية ولدت هنا ، ولكنى أقول . إنها تركزت وبرزت ، وبدأت أراقب وأفكر وأقارن ، وأكتب عن « الالتزام بالشريعة كتاباً وسنة » .

ولأكون منصفاً مع نفسى أقول إن تأثرى الكبير بالشيخ بن باز لم يمنعنى من مخالفته فى بعض الأمور ، وسأكتب إليه عنها إن شاء الله ، وبهذا الروح الذى يربطنى بالحق كتبت ما كتبته فى مناقشة الدكتور عبد الحليم محمود — شيخ الأزهر — مع أنه أستاذى وكنت أحبه قبل الذى ظهر منه . . » .

وما أحب أن أمر بهذه الاعترافات دون أن أعقب عليها بما أعلمه عن هذا الصديق . لقد قضيت فى زمالته بكلية الدعوة وأصول الدين أكثر من عام . كنا نلتقى أثناء ما بين الدروس ، وقلما يتحدث أحدنا مع الآخر إلا فى تحية عابرة . . . وكان هو أغلب هذه الفرص الصغيرة مشغولاً برعاية كتب القاعة ، يرتبها ويصنفها ويساعد فى صنع الفهارس لها بنشاط ينم عن حبه للعلم ولكل ما يتعلق به . وذات ليلة جمعتنا دعوة لرئيس الجامعة فى دار الحديث للتداول فى شئون المناهج والطلبة وسير الدراسة ، فاسترعى انتباهى منه صراحته فى الإفضاء بكل ما يرى أنه الحق ، فلم يعمد إلى الإشادة بالمناهج ، والكلام عن تفوق الطلبة ، توصلاً إلى مدح النفس ، بل تكلم بإيجاز كثير عن بعض المآخذ مع ذكر الوسائل الموصلة إلى تصحيحها . وطرحت قضية إنشاء كلية اللغة العربية فى الجامعة ، فوقفت بجانب الاقتراح ، وأيدت ذلك بذكر الأسباب التى تجعل وجودها ضرورة ماسة ، ولم يكن ذلك من رأى الصديق السعيد ، ودافع عن موقفه بأن مهمة الجامعة نشر الدعوة وتثبيتها ومجابهة خصومها فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، وحسب طالب الجامعة من العربية ما يدرسه من حصص النحو والصرف والبلاغة والأدب . . . ولكن لم

يلبث أن انضم إلى فكرتى حين ذكرته بالرباط الوثيق بين العربية والإسلام ، وأن كلية تعنى بأمر العربية فى الجامعة الإسلامية ، من شأنها أن تشدد هذا الرباط وتبعث فيه الحياة ، بخلاف ما يجرى فى الجامعات المدنية الأخرى حيث تدرس العربية وآدابها بمعزل عن القرآن ومعجز البيان .

أما تهيبه لقاء العلامة بن باز فعائد لأحد الخلقين اللذين لمستهما فيه ، وهو عزوفه عن مواضع الأضواء ، وقد أشار إلى ذلك بقوله فى حديثه عن الصراع الأول بينه وبين شقيقه الأكبر ــ الدكتور أحمد ــ أن ذلك الصراع قد أزكى بيننا التنافس على العلم ، ولكنه فى الوقت نفسه دفعني فى ساحة المواجهة إلى الفرار وهو يوضح ما يريده من هذه العبارة بأن ظهور أخيه فى المحافل العامة جعل الأنظار تتجه إليهما ، فهو يخجل من مشاركته فى ذلك الظهور . فالفرار الذى ليس هو فى الحقيقة سوى هروب من الظهور ، هو الشيمة التى حببته إلىَّ ويحسبها فيه كل من عرفه عن كثب . إنه من البساطة والتواضع والدروشة بحيث تقتحمه الأعين ولكنه ما إن يحس أن ثمة إساءة لدينه حتى يستحيل ناراً تحرق وألغاماً تتفجر فى مقالاته الكثيرة فى مختلف المجلات الإسلامية ، وفى كتيبه الصغير فى الرد على هفوات أستاذه الدكتور عبد الحليم محمود ، وفى ما لاقاه من محن بسبب موقفه من الطغاة الغاشمين وانتصاره للدعاة المظلومين ، صور لا يخطئها النظر من تلك الطبيعة الجامعة بين النقيضين ليونة المتواضع ، وصلابة المصارع .

العلوم التى تؤثر :

وفى صدد التعيين لأحب العلوم إليه يؤكد ما سبق بيانه وهو أن هوايته إلى الأدب ، إلا أنه دون مطامحه ، على حين يرى الشريعة مرتقى صعباً ولكنها الطريق الصحيح الثابت المكين ، ثم يقول : أسعد لحظاتى حينما أدخل فى علومها فأكتشف رؤية جديدة من معانيها الرائعة التى لم أرها من قبل ولم أقرأ عنها . . .

وفى هذا التعبير الوجيز تجسيم حى للقدرة الذهنية والروحية المستعدة للتفاعل

مع أسرار الشريعة الخالدة ، والمهيأة لاستشراف الجديد من آفاقها غير النهائية فى كل يوم . . وهى صورة يتعذر إدراكها على غير المتذوقين لهذه الحقيقة الكبيرة .

الأحداث التى بها تأثر :

ويقول الشيخ السعيد عند الكلام عن الأحداث المؤثرة فى تكوينه الفكرى والروحى : « عاصرت الحرية التى تمتعت بها مصر أواخر أيام الملك المخلوع فاروق ، والتى أتاحت للشعب أن يقول له أعنف ما يجب أن يقول . . واشتركت مع القائلين . وكانت فرحتى عظيمة وأنا أرى المدافع الضخمة التى كانت تدير ظهرها للقصر الملكى ، قد استدارت لتوجه إليه فوهاتها . . وكان حلماً لذيذاً . . ولكنه لم يلبث أن تبدد على أيدى أولئك الذين سلبوا الشعب حريته ، وضيَّقوا عليه منافذ الحياة ، إذ حولوا المدافع إلى صدور الأحرار والمجاهدين . . ولم يكونوا على أى مستوى من الأمانى التى داعبت الصدور ، إذ كان معظم اعتمادهم على الأكاذيب العظيمة ، وعلى الخداع والتهريج .

ويواصل فضيلته الحديث عن انطباعاته عن تلك الحقبة قائلاً: عندما اعتُدى على الإخوان المسلمين أيام فاروق اشتدت حماستى لهم ، وعندما حُلَّت الجماعة للمرة الثانية فى عهد الإرهاب الجديد كانت حماستى فى الدفاع عنهم أعظم وأكبر ، على الرغم من عدم رضاى عن تصرفات الكثيرين منهم (!) ولكن لم يكن ثمة بد من الوقوف إلى جانب المظلومين المعتدى عليهم ضد الظالمين والمنافقين والأفاقين .

ودفعت الثمن سنوات من المحن الهائلة . . بدأت بمسلخ أبى زعبل الرهيب حيث شاهدت الدماء من أسفل العصابة التى رُبطت بها عيناى .

هناك حسبت نفسى فى عداد الموتى ، وقلت الفاتحة على روح سعيد كعادة أهلى عندما يمرون على الجنازة .

ولكن الله نجانا . . وسخر لنا . . وساق من يأخذ بأيدينا إلى الدنيا . كان مما يحزننى خلال هذه المحنة أنها لم تبدأ من وقت مبكر منذ أيام الشباب

لأتعلم منذ البداية كيف أستهين بالحياة . . وأن الرفاهية ليست إلا طيفاً لا بقاء له . لقد ألغيت الألم من وجودى ، ولم أعد أرفض شيئاً ، أو أشكو بأساً . . حتى ولو كان هذا الشيء نوماً فى الطريق ، أو لقمة جافة ، لأن ما رأيناه ليس ثمة ما يفوقه حقارة ولا دونية . . ومع ذلك لم نذل لغير عزة الله ، وخرجنا نحمد الله على النعمة وعلى العطاء . . وانطلقنا نتكلم . . وما هى إلا أيام حتى اقتحمت طغمة المباحث منزلى ، تستأنف تحقيقها القديم من جديد . . ولكن الله سلم .

واكتفى الشيخ من أخبار المحنة بهذا القدر ، وقد سبق أنه حدثنا بالرهيب المشيب منها ، وكنا نود لو أتحف القراء ببعض صورها فى هذا الاستطلاع ، تسجيلاً لأطراف من التاريخ يُخشى أن تضيع ، وليس أقدر على عرضها من أهلها .. ولعلنا نحصل منه على مزيد نضمه إلى هذه الصفحات قبل طبعها إن شاء الله .

تجارب وآراء :

وعن أهم الأحداث التى عرضت له أثناء عمله يطرفنا الشيخ بهذه الصورة المؤثرة :

يقول صديقنا السعيد نحن نعتبر أنفسنا مدرسين لطلابنا ، ولكنهم فى الحقيقة يعطوننا كما نعطيهم ، ونتعلم منهم مثلما نعلمهم ، وأذكر فى هذا المجال حادثة ، لعلها تكون عبرة للعسكريين فى كل بلد ، وللمسئولين عن رعاية الشباب فى كل قطر .

كان ذلك فى أحد الأيام القومية ، وكنت مسئولاً عن إدارة قوات الحرس بالمعهد الدينى فى المنصورة ، وبينما الطلاب يتهيئون للتحرك إلى الاستعراض العام ، رفع طالب يده من خلال الصفوف وجعل يصيح « إننا لم نصل الظهر » .

ونظرت إلى الطالب الدقيق الوجه الكث اللحية ، وقد أحرجت من مواجهته ، ولكننى ابتسمت من أعماقى ، لقد حاول الفتى الاعتراض على بدء

الاستعراض فى وقت يتعارض مع الصلاة . . أحسست أن بذور الخير باقية وماضية فى الطريق . ولم يكن من المعقول رفض نداء إلى الصلاة ، فأمرت بها وإن اختل نظام العرض كله .

وكان درساً أذكره للمسئولين عن المباريات الرياضية ، والاستعراضات العسكرية ، أوالاحتفالات العامة عليهم أن يحققوا أداء الصلاة فى وقتها ، وأن يجعلوا ذلك جزءاً لا يتجزأ من خطتهم ومنهاجهم ، وألا يشغلهم شاغل عن الصدع بكلمة « الله أكبر » . . . . « وبالصلاة » .

عادات وحقائق :

ولعمر الحق إنه لدرس حرى بالعناية والتأمل ، وأحق الناس بالانتفاع منه أولئك القادة الذين خصهم الشيخ بالذكر ، لأن المسلم جندياً أو مدنياً ، لن يكون أكثر من أداة ميتة إذا خلا قلبه من القيم العليا ، وليس كالصلاة نظاماً للطاقات ، وشاحذاً للعزائم ، ورافعاً للمعنويات . . ولكن أين هؤلاء من هذه المعانى ــ إلا من رحم الله ــ .

لقد أصبحت المهمة العليا لمعظم القيادات فى بلاد العرب أن تفرّغ قلوب المرءوسين من ذكر الله ومن التطلع إلى جلاله ونصره ليربطوا أعينهم وقلوبهم بشعارات أخرى لا تحرك المشاعر ، ولا تتجاوز الحناجر . . فضلاً عن أن تقنع إنساناً بأن يجود بنفسه عند ضرورة التضحية . . وقد أدرك ذلك طاغوت العالم الحديث ستالين ، وهو يواجه قوات هتلر تكتسح الأخضر واليابس من بلاده ، فبادر إلى تحريك الضمير الدينى الذى طالما شدّد عليه النكير فى أيام السلم . . لاعتقاده أن كل أضاليل الشيوعية لن تدفع أحداً إلى معانقة الموت . أما هاتيك القيادات فلا تبرح بعيدة عن هذه الحقيقة فى معظم ديار المسلمين ، وإن أكثرت من الكلام عن الإسلام ، كلما أحست بالحاجة إلى أموال المسلمين أو تأييدهم . . ولا أكشف سراً إذا قلت أن كثيراً من الذين أسندت إليهم رعاية الشباب هم من المتفوقين بالجهالة والجاهلية جميعاً ، فلا يكادون يفقهون من ذلك العمل إلا أنه فرصة صالحة لتدمير القيم ، وتشجيع التحلل بين أولئك الذين ائتمنوا على إدارتهم وتوجيههم !

لقد جربت مصر أثر الشعارات الميتة فى صدور جنودها عام ١٩٦٧ م يوم تركت لصعاليك « الفن » أن يزودوهم بصور الراقصين والمغنين ، وهم يتهيئون لمواجهة عدو يشحن صدور جنوده بأساطير الحاخامين فى إطار الدعوة إلى إله إسرائيل . فكانت النتيجة أن غلبت تعاليم التوراة صور كاريوكا وعبد الحليم حافظ وأم كلثوم وفريد الأطرش وكل « فنان » رقيع من معبودى الجماهير المضللة . .

ثم جاءت معركة ١٩٧٣ م وقد اختلف « التوجيه المعنوى » وحلت « لا إله إلا الله والله أكبر » مكان تلك السفاهات من قلوب أولئك الجنود ، فإذا هم يجرفون السدود ويهدمون الحدود ، ويكتسحون خلال ساعات خطاً عملت فى تشييده مدى سنين أكبر عبقريات يهود .. وكان فى ذلك عبرة أى عبرة لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد . .

تبدل صاعد :

وتحضرنى هنا حادثة صغيرة ولكنها كبيرة الدلالة على ما نعانيه وما يمكن أن نعمله لتلافيه .

قبل عام أقامت جامعة الرياض مهرجاناً رياضياً دعت إليه فرق الجامعات السعودية وشهده العديد من كبار المسئولين على رأسهم الوزير المؤمن الأديب الأستاذ حسن عبد الله آل الشيخ . .

كان بين هذه الفرق واحدة حديثة التدريب فى نطاق الرياضة ، ولكنها عريقة المراس فى مجال الأخلاق والدين ، هى مجموعة الجامعة الإسلامية ، التى لم تشارك فى ذلك المهرجان إلا بشروط ، منها ألّا تنازل جماعة ترتدى السراويلات القصيرة المنافية لأدب الإسلام ، وألّا تؤخر صلاة عن وقتها لأى سبب كائناً ما كان . . وتحققت شروطها كاملة . . التزم اللاعبون — مع فريق الجامعة الإسلامية — السراويلات المحتشمة ، وتوقف اللعب بمجرد سماع الأذان، وفى لحظات استحال الملعب مسجداً يذكر فيه اسم الله .

وراق هذا المشهد المهيب الوزير المؤمن فكتب إلى الجامعة الإسلامية يهنئها

على النجاح الباهر الذى أحرزه منتخبها فى ميدان الدعوة ، وأطرى أثره فى جو الملعب وفى نفوس الحضور على اختلاف مشاربهم . وشدّ ما كان يوجعنى منظر الكشاف السعودى والرياضيين السعوديين فى سراويلاتهم المفصّلة على قياس تبان « بادن باول » وهم يخطرون فى شوارع الحرمين ، أو يتراكضون فى ملاعبها . . ثم فوجئت بزوال هاتيك الشناعات كليّا ، فإذا السراويل السابغ يجمّل كلا الفريقين . . وما أدرى أجاء هذا قبل تلك المباريات الإسلامية أم على أثرها حدث . . ولكنى سعيد كل السعادة بهذا التبدل الصاعد ، والله أسأل أن يجزى الآمر به والمسبب له عن الدين والكرامة والأخلاق وحرمة الحرمين ، أحسن الجزاء .

عمله فى خدمة العلم :

وعن نشاطه فى خدمة العلم وطلابه يقرر فضيلة الشيخ أنه يكاد يكون مقصوراً على ميدان التعليم ، فقد أتيح له أن يشارك فى تخريج الأجيال من أهل العلم فى مصر ، ويسهم بمثل ذلك فى مكة المكرمة ، حيث يعمل فى خدمة النشء الإسلامى بدار الحديث المكية التابعة للجامعة الإسلامية ، وقبلها فى الجامعة الإسلامية نفسها بالمدينة . . وهو مستمر اللقاء مع خريجى الجامعات المنتظمين فى الدراسات العليا بالجامعة المكية . . وقد أغفل فى إجابته على هذه الفقرة ذكر البحوث التى يدأب على نشرها فى مختلف الصحف الإسلامية مع أنها من أبرز جوانب النشاط الفكرى الهادف إلى التوجيه والإصلاح .

وفى التأليف :

وفى شأن التأليف يقول الشيخ انه لم يكن سعيد الحظ فى النشر ، ولهذا بقى معظم مؤلفاته فى موقف الانتظار . أما ما تيسر ظهوره منها حتى الآن فهو « تطور الكتابة العربية » وفيه يعالج قضية القراءة والإلقاء ووسائل الإصلاح المعقول ، كما يتناول قضية الحرف العربى ، والدعوات المريبة إلى استبدال الحرف اللاتينى به . . ثم كتاب « اليتامى العمالقة » ويتناول الحديث عن اليتيم وملابساته ، وأنه قد يكون حافزاً إلى خير لا يتاح لغير اليتيم . . مع أمثلة من

أولئك اليتامى الذين أحاطهم الله برحمته فكانوا من أعاظم خلقه . ثم كتاب فى الرد على الاشتراكية . . وقد نشرت جميعاً فى القاهرة وأضيف أنا إلى مؤلفاته المنشورة هذه ذلك الكتيب الذى يعقب به على بعض آثار أستاذه وصديقنا الدكتور عبْد الحليم محمود شيخ الأزهر ، بعنوان « أيهما أحق ؟ » ففى نظرى أنه من أكثر إنتاجه الفكرى دلالة على شخصيته التى لا تعرف الهوادة ولا التردد فى نصرة ما يؤمن أنه الحق .

شارات وأحداث

وقد ترك لنا الصديق السعيد أن تتخير ما نشاء من آثاره المنشورة فى مجلات الجامعة الإسلامية أو التضامن الإسلامى أو رابطة العالم الإسلامى أو أخبار العالم الإسلامى .

ومن كتبه « أيهما أحق . . » الذى يحاور به شيخه الدكتور عبد الحليم محمود فى موضوع كتابه « السيد أحمد البدوى » نقتطف بعض الأسطر .

فى ص ٣٢ـ ٣٣ يذكّر الشيخ السعيد أستاذه بالانحراف الخطير الذى جرف الكافة بعيداً عن حقائق الإسلام بسبب سكوت العلماء عن مناكيرهم ، فيقول :

« لقد عمت البلوى من جراء هذا التهاون ، فأصبح الكثيرون من العامة يصرخون بأصحاب هذه القبور طالبين منهم النجدة والغوث . . . وإليك هذه الصرخات المصرية الأصيلة :

ياحامى السويس . . . يا غريب . . يا حامى الإسكندرية . . يا سيدى مرسى أبو العباس . . .

وياحامى الزقازيق يا أبو خليل . ياحامى دمياط يا أبو المعاطى . . . ياحامى قنا يا سيدى عبد الرحيم القناوى . وهكذا . .

أما فى قريتنا فلا أكذبك يا دكتور ان الناس كانوا يعتقدون أن الحماية ليست لواحد ، بل إنها موزعة فالشيخ أبو مسعود يحرس القرية من الشرق ،

والشيخ أبو بدير من الجنوب ، والشيخ المغربى من الغرب ، والشيخ أبو خليل من الشمال . فإذا سرقت ماشية . . . وقصر الحارس ، من أصحاب المقامات ، فى ردها عاقبوه بعدم إضاءة ضريحه حتى تنسى الجريمة ، ثم يعودون إلى متابعة جهلهم وحمقهم . .

وقد نجحنا نحن العلماء فى القضاء على هذه الخزعبلات حتى وصل الأمر إلى أن سيدة فلاحة متفتحة هدمت مقام الشيخ المغربى ، وأقامت بيتها على أنقاضه ، ولا تزال تنعم بالبيت الجميل وحديقته الغناء ، ولم يصبها شىء من التهديدات التى خوفها بها الجبناء . والسيدة حية ترزق والبيت عامر قائم » .

وقائع مشابهة :

وإنها لصورة رهيبة هذه التى ترسم مظاهر التدهور فى عقائد المسلمين . . . وعظم الجريمة التى يقترفها الساكتون عنها من القادرين على تغييرها ، أو تفنيدها . .

إن المسلم الذى يقرأ هذه الكلمات الخافقة بالغيرة والحياة ، ليكاد يبصر من خلالها واقع المسلمين فى كل مكان ، بما فى ذلك واقع قومه وبلده . . .

ولكن . . ما أروع أيضاً ذلك الانتصار الذى سجله أهل الحق ، بإبطال المنكر ولو فى نطاق واحد من هاتيك الطواغيت المدعوَّة من دون الله .

ولكن . . كم بين سواد المنحرفين من أمثال تلك الفلاحة التى استطاعت الخلاص من حبائل المضللين ؟ ! . .

إن هذا الموقف ليذكرنى أشباهاً له واجهتها فى بلدى . . فعلى صندوق الضريح الذى يرقد تحته « أبو الدردر » باللاذقية طرح مقدسوه الكسوة الخضراء من القطيفة كما يفعلون فى كل عام . . فشجعت إمام المسجد الفقير على انتزاعها واتخاذها ألبسةً له ولأهليه ففعل . . وما إن علم بذلك أنصار الضريح حتى جن جنونهم . . ثم لم يسكتوا حتى أعيد القماش إلى مكانه . . .

وحدث أن خضت معركة الانتخابات ذات يوم ، وحاول بعض إخوانى

إقامة حوار مع أحد زعماء الأحياء لتأييدى . . فكان جوابه : إنه وهابى كافر فلا مطمع له بصوت من حينا .

ومع أن الله نصرنى عليه وعلى أمثاله ، فقد كان موقفه هذا ترجمة رهيبة لما يعانيه دعاة الحق من المخرفين ومن وراءهم من الدجالين ، فى مختلف أقطار المسلمين . .

ولن نطيل الوقوف على عبارة الشيخ لترصُّدِ خصائصها الأدبية ، فهى صورة حية من خصائصه الشخصية : بساطة لا تزويق فيها ، وحرارة لا شائبة عليها من تكلف . . ولا غرو فهى نفثات من القلب ، وما صدر عن القلب لا يخطىء سبيله إلى القلوب .

رأيه فى مستقبل الجيل :

ويقول فضيلته فى ما يتعلق بمستقبل الجيل الإسلامى المعاصر « لست متشائماً ولكنى أنظر إلى الحياة على أنها دوامة تدور بالخير والشر . . وعندما يندفع الناس فى موجة عاتية من اتجاه خاطىء ، لا بد أن تحرك العوامل الدافعة لتكوين الموجة العاتية المضادة . . ولهذا أرى أن نشاط الإسلام سيتجدد كلما واصلنا الدراسة له والعمل من أجله . .

ولكنه لا يلبث أن يعقب على ذلك بقوله « وبخاصة إذا تحقق المبدأ الذى أدعو إليه وهو « تلاحم الدعاة بالولاة » .

والحق أنى أجد عسراً فى فهم هذا المبدأ ، ذلك لأن التلاحم بين فريقين لا يمكن إلا على أساس التشابه والانسجام ، ومعلوم أن دعاة الإسلام ملتزمون بأصوله لا يقبلون فى ذلك مساومة ، لأن مجرد الدخول فى المساومات على هذه الأصول يدخلهم فى زمرة المنافقين الذين يبيعون دينهم بدنيا غيرهم . . ويبقى على الولاة أن يكونوا على استعداد لقبول حكم الله والخضوع لسلطان شريعته ، التى لا يرفض حكمها إلا فاسق أو ظالم أو كافر . . وهذا يقتضى أن يكونوا على علم كاف بحقيقة هذه الشريعة وتفوقها على كل تشريع وضعى ، ولو أجمع على تنظيمه وقبوله فلاسفة الإنس والجن أجمعين . وهذا موضع البلاء

فى حياة المسلمين لأن معظم حكامهم فى مقدمة الجاهلين بهذا الدين . .

على أنى أستطيع الموافقة على هذا المبدأ الذى يدعو إليه الصديق ، إذا كان مراده إلزام الدعاة بتوجيه الولاة وإقامة الحوار معهم لإقناعهم بأفضلية ما يدعون إليه . .

ولكن . . ومرة أخرى نتساءل ماالسبيل إلى تحقيق كل هذا الخير . . أو بعض هذا الخير ؟ .

وأخيراً ينتهى إلى الخاتمة الخاصة بالتيارات الغازية فيقرر فضيلته أنها منتهية إلى البوار والتساقط لأنها الباطل ، والباطل يتبدد مع أضواء النهار . .

ولكنه ترك نصف السؤال دون جواب ، لأنه لم يحدد مهمة علماء الإسلام فى ضبط مسيرة الجيل بإزاء التيارات ، ولتحقيق قيام المجتمع الإسلامى المتكامل . .

أفى رأيه أن مجرد وجود الحق كاف لدحر جيوش الباطل ؟ . . أمجرد كوننا أصحاب حق يكفى لإقناع المبطلين بالتخلى عن تصرفاتهم الفاسدة والالتحاق بركب النور والصلاح ! .

ليس معقولاً أن يكون هذا مراد الشيخ ، ولعله اكتفى عن الجواب المنشود بما قدمه أثناء أجوبته الأخرى من أفكار ، وما حدثنا عن جهوده فى خدمة الدعوة ، وما لقيه من المحن الرهيبة من أجل الحق . . .

* * *

الشيخ صدر الدين بوكسل

معا وصلنا، الأخ علي نار وأنا، إلى مسجد الفاتح، وكانت الصلاة قائمة فانتظمنا خلف الإمام هو بنية العصر، وأنا بنية النفل، لأني أديت المكتوبة مع الأهل في البيت وأسرعت لموعد اللقاء.. وأتيح لنا أن نشارك في صلوات الجنازة على عدد من الأموات.

وقلت (صلوات) بالجمع لأن إخواننا هنا يؤدون الصلاة على كل ميت بمفرده ولا أدري لذلك أصلا، بل أذكر أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله قد جمع في الصلاة على شهداء أحد.. ونحن في المدينة نفعل ذلك فنقيمها صلاة واحدة على جمع من الموتى، قد يكون بينهم الصغير والكبير من الذكران والإناث، ولعل لدى هؤلاء الاخوة دليلا لانعرفه.

ومن ثم مضيت مع الأخ علي نجتاز الشوارع والأزقة حتى وقف بنا على مدخل أحد المنازل فتسلقنا سلمه إلى الدور الثاني، وهناك استقبلنا الشيخ صدر الدين بترحيب كريم.. وتقدمنا إلى حجرة مكتبته، وهي أشبه ماتكون بمكتبتي في المدينة إلا أنها أكبر منها حجما وإن لم تكن أكثر منها كتبا..

وسرني أن وجدت نفسي تلقاء فصيح مبين يحسن البحث والنقاش في الأدب والبلاغة وقواعد اللغة إحسان لسن خبير يدرك لطائف الإشارات.

ومد يده إلى الطرف المجاور لمكتبه من المكتبة فاستخرج كتابا ثم جعل يقرأ منه بعض الأبيات التي لم ألبث أن عرفتها لأنها من شعري. ثم عرفت أن الكتاب هو (مشكلات الجيل في ضوء الإسلام). وهو المؤلف الذي آمل أن يكون في صحائفي يوم ألقى الله.. وجعل يطارحني بعض الأسئلة حوله، ويستفسر عن بعض معاني الأبيات وهو يقول: إن أسلوبك أدبي يقتضي التأمل للاحاطة بمدلولاته..

وعرضت عليه ورقة العمل ــ الأسئلة ــ وأوضحت له مرادي من ترجمته لأضمها إلى الجزء الثالث من (علماء ومفكرون عرفتهم).. وبتواضع جم حاول إقناعي بأنه ليس من أهل العلم الذين يستحقون الترجمة، ولكن الذي عرفته عنه، وبلوته من حديثه، جعلني أرفض اعتذاره، وأوكد له أنه لدي مكين عليم.. وبعد إنعامه النظر في الأسئلة التسعة طلب إلي إمهاله بعض الأيام ليجمع ماأريده من المعلومات فوافقت على ذلك.

وها أنذا الآن، وبعد مايزيد على الشهر، اتسلم منه الصفحات الأربع التي ضمنها ماأراد هو من المعلومات.. وعليها أبني ماأمكن من ترجمة الشيخ.

يقول: إنه ولد في مدينة (سراي أونو) من توابع مدينة قونية ذات الشهرة الدينية والعلمية، وقد سمته والدته (صدر الدين) تفاؤلاً بأن يجعله الله من أشباه صدر الدين القونوي..

وكانت أسرته قد هاجرت إلى منطقة قونية فراراً من الأخطار التي كانت تحيط بمسقط رأس أسرته (بتليس) الواقعة في شرق الأناضول أثناء الحرب الروسية التركية. حتى إذا هدأت الأحوال عادت به أسرته إلى موطنها الأصلي.. وهناك بدأت نشأته التعليمية، فأخذ بمطالعة القرآن الكريم وبعض الأوليات من فقه الشافعية على أحد العلماء، ومن ثم التحق بمدرسة الشيخ عبد الرحمن الناغي الشهير بنشاطه العلمي والديني في قرية (فورستين) التابعة لبتليس، ويصف هذه المدرسة بأنها على مستوى صالح من التنظيم والتقدم، ويصف مدرسيها بأنهم من ذوي الفضل والعلم وعلى أيدي هؤلاء الفضلاء تلقى مبادىء العلوم العربية من صرف ونحو وأدب وبلاغة، ثم الفقه وأصوله والحديث الشريف والتفسير وما لابد منه أيامئذ من السير والتاريخ وعلم الكلام، الذي يوشك أن يغيب عن مقررات الدراسات الإسلامية في معظم بلاد المسلمين هذه الأيام.

وبعد أن استمكن من هذه المواد أقبل على تدريسها منذ حصوله على الشهادة المدرسية قبل نصف قرن..

ولقد أسندت إلى الشيخ مهمة الإرشاد الروحي على مدى خمس سنوات

في إسلامبول، ثم اقتضته ظروف خاصة ــ كما يقول ــ أن يقدم استقالته من ذلك العمل، وينصرف إلى تدريس العلوم العربية في مسجد الفاتح للراغبين فيها من الطلبة.. وحتى الآن لايزال منقطعا إلى هذا الجانب من الخدمة الثقافية الإسلامية..

وطبيعي أن يكون للمترجم بعض النشاط في ميدان التأليف. فهو يذكر من مصنفاته بالتركية كتاب (إسلامي أراشترمالار) وينطوي على مباحث دينية وعلمية من شأنها أن تسهم في توعية الجيل المسلم في تركية الحديثة.. ثم معجما صغيرا بعنوان (عصري قاموس) بني على العربية والتركية، ويقول بأنه يحتوي على فوائد كثيرة في مجال التقنية والاصطلاحات العلمية، وطائفة من الأمثال والتعابير العربية.. وقد طبع هذا المعجم مرة واحدة.

وهناك مؤلفات أخرى بعضها يتصل بهوايته الأدبية مثل شرحه لديوان الشيخ خالد البغدادي، وهو باللغة الفارسية ويضم بعض القصائد العربية، وقد جعل من شرحه هذا (تحليلا دقيقاً وعميقاً) ولعل من هذا الضرب الأدبي رسالته التي يسميها (شرح الألغاز).

وبعضها يصور نزوعه إلى المناقشة والتحقيق. ومن ذلك رسالة يعقب بها على رسالة من تأليف العلامة السيد رشيد رضا كان قد نشرها بعنوان «محاورة المصلح والمقلد» وأخرى يناقش فيها مؤلفين من آثار الأستاذ محمد حميدالله الباكستاني أحدهما ــ يقول الشيخ ــ بعنوان (إسلامي بيغمري) والآخر بعنوان «رسول الله».

ومن آثاره الفقهية التي تدخل في نطاق التحقيقات رسالة باسم (كلمات حول الجمعة) ثم تحقيقه لبعض الآثار العربية مثل كتاب «شروح الصدور بشرح حال الموتى في القبور» وهو من تصانيف الإمام السيوطي، وكتاب العلامة النورسي الموسوم (تفسير إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز).

ويذكر من أعماله ماكتبه من الشروح لمجلة الأحكام العدلية التي صدرت في عهد الدولة العثمانية، وهي التي تشرف على تأليفها لجنة من كبار علمائها على رأسهم أحمد جودة باشا.

ويقول الشيخ إنه راجع وحقق خلال الخمسين سنة من حياته العلمية جميع الآثار التي درسها ودرسها. ولكن أقل هذه الأعمال هي التي أتيح لها الطبع والنشر حتى الآن.

ومثل هذه العناية بالمراجع التي يطالعها ويعلِمها إنما يدل على نزعته التي أسلفنا الإشارة إليها، من حيث الرغبة في استيعاب الأثر المقروء، ثم تقييد ملاحظاته حول مايحتويه من قوة أو ضعف أو غفلة.. وهو ماشاهدنا بعضه على هوامش بعض الكتب التي قرأها وقيد فيها ملاحظاته، التي تؤلف نوعاً من الخطوط الرئيسية التي تلخص له ــ ولقارئها ــ المضمون الذي مر به، والانطباعات التي تكونت لديه، ومنها ينطلق إلى البحث في شأنها عند مايريد.

على أننا، ونحن نسرد عناويين تلك المصنفات والرسائل، لانجد مجالا للتعقيب عليها بشيء، لأننا لم نطلع على شيء منها حتى الساعة، ولعلنا نطلع فيما بعد فنقول فيها مانراه إن شاء الله.

وشيء آخر يؤسفنا أن يغفله الشيخ من استطلاعنا، الذي كنا ننتظر ألا يغفل منه شيئا، فقد نسي أو صرفته بعض الظروف عن بعض ماسألناه، وهذا مااضطرنا إلى الاقتصار على مااقتصر هو عليه، وإلا فللشيخ نواح من النشاط الدائب في خدمة الثقافة الإسلامية، وتزويد الجيل بما ينفعه في دينه ودنياه، مما لاتتسع لبسطه هذه الصفحات القليلة، ومما يشهد به الثقات من عارفيه الذين على شهادتهم الحقة نعتمد في تقديمنا فضيلته لقراء هذا الكتاب.

ويبقى أن ننقل بعض أفكار الشيخ في موضوع الإسلام ومستقبله في تركيه وعلى مستوى العالم الإسلامي كله.

يقول فضيلته: إنه على الرغم من كل المحن التي تلم بواقع المسلمين قوي الأمل بالمستقبل الذي يتصوره على غاية من النجاح والازدهار بمشيئة الله، ومما يبعثه على التفاؤل ذلك الوعي العميق الذي لاينفك يزداد انتشاراً في أوساط الشباب المسلم ولله الفضل والحمد

ومن هذا المنطلق يتطلع فضيلته في ثقة إلى اليوم الذي يسجل انهيار الأنظمة الطاغوتية أمام حقائق النظام الإلهى، لا في عالم الإسلام فحسب، بل

على مستوى العالم الإنساني بأجمعه .

ويختم كلمته بهذه الوصية الحكيمة يوجهها إلى شباب الإسلام الذين تصهرهم مآسي الحاضر، لتجعل منهم القوة الصالحة لتحقيق هذه المهمة العظيمة في الغد القريب إن شاء الله.. فعلى الشباب الإسلامي أن يتقدم بخطو حديد وعزم شديد نحو الغاية الكبرى، وألا يطاطئوا رؤوسهم لغير الله، وليتذكروا دائما أنهم مناط الأمل الذي عليه ـــ بعد الله ـــ يتوقف تحقيق ذلك المستقبل، الذي تنتظره الإنسانية المتخبطة في ظلمات الضياع والخلل.. وليتذكروا أبدا أن الله معهم ولن يترهم أعمالهم .

ولا يسعني في ختام هذه الكلمات الحية، إلا أن أشير إلى ماوراءها من مرارة الذكرى لولده الشهيد الذي اغتالته ذات يوم غير بعيد يد مجرمة أثيمة، لغير ذنب سوى أنه واحد من شباب الإسلام الذين يقولون ربنا الله..

فرحمة الله على ذلك الفتى البار، وجميل الصبر لذلك الوالد، الذي يؤمن بأن الشهادة في سبيل الله خير مصاير الأبرار ..

* * *

الشيخ عبد الرحمن حسن حَبَنَّكَة

هو ابن المجاهد المعروف الشيخ حسن حبنكة الشهير بالميداني نسبة إلى حي الميدان في دمشق، ويرجع نسبه إلى قبيلة بني خالد من عرب حماة..

كان ميلاده في العام ١٩٢٧ أثناء غياب والده، الذي كان يومئذ مع إخوانه المجاهدين لاجئا إلى الأردن عقب توقف الثورة السورية، ولما علم بولادته أطلق عليه اسم عبد الرحمن.

وكان بيته أول بيئة علمية فتح عليها عينيه، إذ كان ذلك البيت مثابة لطلاب العلم الشرعي لاتكاد حلقاته تخلو منهم ليل نهار، ولما أنشأ والده رحمه الله المعهد المعروف في دمشق باسم (التوجيه الإسلامي) التحق به وتابع دراسته النظامية حتى نهاية مراحلها..

وفي ظلال ذلك البيت وهذا المعهد تتركز نشأته الخلقية والفكرية، وتتحدد منطلقاته الأساسية في إطار الاتجاه الإسلامي الأصيل.

فمن ماضي والده المجاهد يتشرب روح المعاني الأولى لمهمة المسلم الحق، الذي يوقن أن الإسلام هو نظام الحياة الراشدة السعيدة، فلا فاصل فيه بين العلم والعمل، ومن دَأب هذا الوالد في نشر تلك المعاني عن طريق التربية الجامعة، والخدمات الاجتماعية، التي ينهض بها سواء عن طريق المعهد، أو بوساطة (جمعية التوجيه الإسلامي) التي أسسها لرعاية طلابه وللقيام بالعديد من المهمات الخيرية والإنسانية، تتكامل رؤيته إلي الحياة على أنها ميدان جهاد لترسيخ القيم التي يدعو إليها الإسلام، ولانشاء الروافد البشرية الصالحة لتحقيق رسالته الربانية ...

وباستكمال مراحله الدراسية في معهد والده تهيأ للتدريس فيه، حيث

أسندت إليه المواد العقلية والأدبية، ومنها الفقه وأصوله والتوحيد، واستعان في تدريس التوحيد بمادتي المنطق والفلسفة على منهاج السابقين، وكان للأدب والبلاغة واللغة حظ غير قليل من عمله ..

على أنه لم يستنم إلى محصوله من العلم فآثر استئناف الرحلة في طلبه، ورافق عدداً من طلاب والده إلى القاهرة، وهناك التحق بالسنة الثالثة من كلية الشريعة بجامعة الأزهر، حتى إذا حصل على شهادة المرحلة، مضى لإتمام الشوط فأضاف إليها شهادة العالمية مع تخصص التدريس .

ومن ثم عاد إلى دمشق، وفي ملاك وزارة المعارف عمل مدرسا في الثانويات العامة والمعاهد الشرعية لمدة ست سنوات، واستمر موظفا ضمن هيئة التدريس حتى نهاية العام ١٩٦٠ . ومن هناك انتقل إلى وزارة الأوقاف، حيث أسندت إليه إدارة التعليم الشرعي..

محاولات ومعاكسات

وكان وجود الشيخ في هذا القسم من وزارة الأوقاف فرصة صالحة لاعطائه جرعة جديدة من النشاط الذي هو أحوج مايكون إلى مثله، بعد أن انصرفت جهود المسئولين عن التعليم إلى الجانب المدني الصرف، الذي لايكاد يتصل بتعاليم الوحي إلا من بعيد ..

وقد بدأ بالجانب الاداري فرسم له هيكلا ينطلق منه إلى التكامل، ثم تلا ذلك بطائفة من المناهج والأنظمة العلمية لم تلبث أن أخذت سبيلها إلى التنفيذ، وكانت الخطوة التالية مشروع قانون يضمن للتعليم الشرعي وضعاً كريماً يعدل نظيره المدني من حيث الملاك والحقوق وما إليها وكان جديراً بهذا التخطيط لو استكمل عناصره أن يرد للتعليم الإسلامي مكانته الطيبة، وأن يجلو وجهه المشرق، وبخاصة بعد أن استوفت مناهجه الجديدة كل مايتطلبه من العلوم العصرية.. ولكن السلطات الحزبية لم تستطع الصبر على مشاهدة هذا التطور الصاعد، ولاسيما بعد الذي ووجهت به من عناية غير متوقعة بالمدارس الشرعية، وقيام ثانوياتها الخاصة بالإناث، على مستوى المناطق والمحافظات..

في غمار المحنة

لذلك أسرعت السلطات الحزبية للوقوف بوجه هذا التطور الذي يتنافى مع تصوراتها، التي برزت في اندفاعها الساحق لمحاربة كل مايمت للإسلام بصلة، فإذا الشيخ ينقل من التعليم الشرعي ويعاد إلى وزارة المعارف ليعزل في حجرة منها باسم (عضو بحوث).. ثم لم يمض على وجوده في هذه الغرفة سوى عام واحد — ١٩٦٦ — حتى صدرت القرارات المشهورة بتسريحه وتسريح والده وعمه وجملة من إخوانهم العاملين في معهد التوجيه الإسلامي، ثم تعطيل جمعية التوجيه وسائر مؤسساتها التعليمية والتوجيهية والاجتماعية، ومنعهم من أي نشاط إسلامي، ولاسيما الخطابة المسجدية.

ولم تكتف السلطات الحزبية بذلك، بل أتمت ضرباتها باعتقال المرحوم الشيخ حسن — الوالد — وأخيه وبعض أولاده وأعوانه — وصادرت أمواله، واستولت على ممتلكات الجمعية بأسرها.. وكانت محنة غامرة ملئت أثناءها السجون بكبار العلماء والشباب من دعاة الإسلام ثم لم تنجل الغمة إلا في أعقاب الهزيمة التي حلت بدول المواجهة عام ١٩٦٧ فكانت السبب في الإفراج عنهم.. وأعطتهم فرصة التحرك في حدود السعي لكسب الرزق.

إلى الرياض فمكة

وشاء الله لحكمة يعلمها أن ينجو من الاعتقال الذي فرضته السلطة على أبيه وإخوانه بعد صدور الأمر بتسريحهم جميعا، على الرغم من الجهود التي بذلتها للقبض عليه، وبذلك أتيحت له فرصة البحث عن ملاذ ينقذه من ذلك الجو الرهيب.. وقد تم له ماتمنى عن طريق التعاقد مع كلية الشريعة بالرياض، وهي إحدى الكليات والمعاهد العلمية التي صارت أخيراً إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وفيها قضى سنتين دراسيتين تحول بعدها إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في مكة المكرمة، وهي التي أصبحت فيما بعد إحدى مؤسسات (جامعة أم القرى)، وأخيرا استقر وضعه مدرسا في كلية الدعوة وأصول الدين، إلى جانب بعض المواد في قسم الدراسات العليا والإشراف على بعض رسائل الماجستير والدكتوراه..

في ميدان الاعلام

وطبيعي أن يكون للصديق الكريم، إلى جانب عمله في نطاق التدريس طوال هذه السنين، مشاركات غير قليلة في خدمة الفكر والأدب ومختلف القضايا الإسلامية ..

وعن ذلك يحدثنا فضيلته فيذكر أنه شارك في عديد من المؤتمرات والندوات العلمية والأدبية ويسمي منها (مؤتمر التعليم الإسلامي) و (مؤتمر الاقتصاد الإسلامي) و (مؤتمر رسالة المسجد) ثم (مؤتمر الأدب الإسلامي) في لكهنؤ و (ندوة الأدب الإسلامي) في المدينة المنورة .

وقد شهدنا معه بعض هذه المؤتمرات في مكة المكرمة والهند والمدينة المنورة، واستمعنا إلى مناقشاته التى تنم عن تمكن عالم ورهافة أديب وشاعر ..

وكان لفضيلته كذلك مشاركات يومية في الإذاعة السعودية استمرت عدد سنين، ولاتزال أحاديثه الأسبوعية متصلة فيها حتى الآن، وقد امتد نشاطه هذا إلى التلفاز فشارك في العديد من ندواته سواء في المملكة أو سواها من الأقطار العربية ..

هذا إلى الكثير من المقالات والقصائد التي يسهم بها في ميدان الصحافة ..

هواياته المفضّلة

وعن أحب الأعمال إليه يقول فضيلته : إنه يؤثر من الانتاج مايحمل العطاء الفكري المتجدد، وأوثقه صلة بنفسه ذلك الذي يكلفه بحثا وتتبعا وتأملا، لأنه بطبيعته يسأم المكرر، ويستهويه الجديد المبتكر.. ومن هنا كان نفوره من الأعمال الادارية، على الرغم من قدرته على ممارستها لأنها تقطعه عن سبيله العلمي وعن اتجاهه التعليمي..

ولعل أكثر أعماله تصويراً لخصائصه مؤلفاته التي يلمس قارئها أثر الجهد المبذول فى تضاعيفها تفكيراً أو تنسيقاً وإخراجا ولا جرم أن في عنواناتها المختارة بدقة أوضح الدلائل على هذا الواقع .

عنوانات ودلالتها

وإلى القارىء بعض هذه العنوانات :

١ ــ سورة الرعد: دراسة أدبية ولغوية وفكرية .
٢ ــ التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل: تأملات .
٣ ــ روائع من أقوال الرسول ﷺ: دراسات أدبية ولغوية وفكرية .
٤ ــ الأمة الربانية الواحدة .
٥ ــ مبادىء في الأدب والدعوة .

ومن سلسلة (أعداء الإسلام) التي أصدر منها حتى الآن :

١ ــ مكايد يهودية عبر التاريخ .
٢ ــ صراع مع الملاحدة حتى العظم .
٣ ــ أجنحة المكر الثلاثة: التبشير ــ الاستشراق ــ الاستعمار
٤ ــ غزو في الصميم .
٥ ــ الكيد الأحمر .
٦ ــ كواشف زيوف .

ونظرة مدققة إلى كل من هذه العنوانات تطل بك على أبعاد فكره ومدى اهتماماته. فهو يكتب في التفسير ولكنه لايكتفي منه بعرض المضمون المعنوي، بل يحاول اشراك القارىء بتذوقه للبيان القرآني، الذي هو أحد جوانب الإعجاز الخالد في كتاب الله. وفي الكتاب الثاني يخاطب عقول طلبة العلم ليطل بها على دقائق النظم القرآني، مما لاتتاح رؤيته للمتعجل، الذي لايستطيع صبر نفسه على التأمل العميق في لطائفه الباهرة، ولا يعود فكره تتبع الروابط الخفية بين مفرداته وتراكيبه وآياته وسوره.. ولو هو فعل ذلك لظفر من المتعة الروحية والعقلية بما لانهاية له من جديد الروائع، ولهدي إلى الطريقة المثلى في التعامل مع كتاب الله .

وهكذا القول في الأحاديث المختارة من كلام رسول الله ﷺ فهي لاتزيد على ثلاثة عشر حديثا ولكنها تستغرق مايقارب المائة والخمسين صفحة من القطع الوسط، لأن الشيخ قد حاول أن يكشف لطلابه ماتسع له الوقت المقرر

من كنوز المعرفة، التي ينطوي عليها كل واحد من هذه الروائع النبوية ...

وليس بين هذه العنوانات واحد إلا وهو يحمل إيحاءه المميز لمنهج المؤلف ورغبته الصحيحة في البحث والاستقصاء، ليوفر ما استطاع من جميل العطاء، ولكنه بذلك يؤكد لنا ماوصف به ميوله العلمية في بعض إجاباته، إذ يقصرها على (العقليات والتحليليات والأدبيات..) ..

مع الكتاب والسنة

وقبل أن أختم هذه الملاحظات حول بعض مؤلفاته أحب أن آقف قليلا على كتابه في (العقيدة الإسلامية وأسسها) وهو باكورة مؤلفاته، إذ كان بعضه مذكرات كتبها لمادة التوحيد في الثانويات الشرعية، ثم أتمها في صورة كتاب أيام ألقت به السياسة في تلك الغرفة ــ أو الزاوية ــ باسم (عضو بحوث) ..

ومن إحدى إجاباته عن الاستطلاع يفهم أنه بدأ تدريس هذه المادة أول الأمر على طريقة المتكلمين ثم اتجه (لدراسة العقائد على منهج السلف غير ملتزم بآراء أشعرية أو ماتريدية خاصة، بل بما تدل عليه آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ الصحيحة الصريحة..) وهذا مادفعه إلى إجراء بعض التعديلات على الكتاب في طبعته الثانية والثالثة.. وبخاصة في موضوع الصفات.. ولا ريب أن في ذلك التعديل دليلا على التحرر من العصبية التي تفرض نفسها على كثير من أهل العلم، حتى لايجدوا غضاضة في مخالفة صحيح الحديث لمجرد أن بعض شيوخهم لم يأخذوا به!..

الإسلام هو البديل

وانتقلنا إلى استطلاع رأيه في مستقبل الإسلام على ضوء الوقائع المتعلقة به والحملات المركزة في تشويه صورته، والإساءة إلى سمعة دعاته فكان جوابه: إن الإسلام هو قاعدة الحضارة التي ستخلف حضارة الغرب الراهنة، بعد أن أخفقت هذه في ميدان السلوك الإنساني، على الرغم من تقدمها الباهر في نطاق استخدام المادة.. ومن هناك يأتي التوكيد على أن البديل الوحيد لتلك الحضارة المفلسة هو العودة إلى الدين، وقد أثبتت التجارب البشرية أن الدين المؤهل

لمهمة الاستخلاف، والجامع بين المادية والإنسانية هو الإسلام، ولا عجب فإن الدين عند الله الإسلام..

أما بشأن موقف الإعلام المفسد من حملة الدعوة الإسلامية فهو يرى أنه موقف المهزوم، الذي لم يبق لديه من سلاح يواجه به الخصم سوى المفتريات، التي يحاول بها صرف العامة عما لدى ذلك الخصم من الحقائق.. وهي محاولة يتضح إخفاقها يوما بعد يوم، وستنتهي إلى نفس المصير الذي انتهت إليه محاولات المفترين السابقين.

رؤى غير متفائلة

وهنا يأخذ الشيخ في بسط أفكاره عن أصناف الدعاة فلا يكاد يلمح بينهم الجماعة التي يريد، وكأنه بذلك يسوغ عزلته عن المشاركة في أي من الأنشطة الجماعية، التي يموج بها العالم الإسلامي في مختلف أقطاره، وهو موقف لايكاد يجد من يقره عليه غير أولئك الذين ضعفت كواهلهم عن المشاركة في تحمل المسئوليات العامة، وليس هو منهم ولله الحمد..

والحديث عن مستقبل الإسلام ودعاة الإسلام لابد أن يخلص بنا إلى الكلام عن أثر الأستاذ الجامعى فى تكوين الجيل الإسلامى الصالح للإسهام فى بناء المستقبل. وفي هذا الصدد يقول فضيلته: إن مردود النظم الجامعية في هذا الميدان دون مايتوقع بكثير.. لأن القيود التي تثقل هذه النظم لاتسمح للمدرس الجامعي مهما جد وأخلص أن يتحرك في محاولة الاصلاح إلا في نطاق محدود..

وفي رأيه أن العمل الوظيفي المأجور يظل محدود الأثر لدى المتلقين، فهو قد يعطي علما بيد أنه لاينشىء النماذج المنشودة. ذلك لأن الجيل الناشىء في أوساط الجامعات ومعاهد التعليم المنظورة مؤلف من أخلاط غير متناسقة ولا منسجمة فالنتيجة أن يكون جيلا غير موحد الاتجاه..

مع الأدب الإسلامي

أما وقد شارفنا نهاية الاستطلاع فليكن في أخرياته هذا السؤال:

الدعوة إلى الأدب الإسلامي أخذت سبيلها إلى التركيز والتثبيت، فكيف تنظرون إلى حاضرها ومستقبلها ؟!..

ويجيب الأستاذ الأديب الشاعر قائلا : هذه الدعوة ظفرت ببعض الاهتمام من ذوي التخصص الأدبي وحاضرها ماثل بين الاندفاع العاطفي ومحاولات التأصيل إلى جانب عقبات تواجهها من أنانيات وخصوم .

أما مستقبلها فمتوقف على توافر الموهوبين الذين يكتبون أدبا إسلاميا.. وهو أدب لاتكفي فيه العاطفة، ولا يصلح له المتحمسون غير الموهوبين.. وعلى أنصار الأدب الإسلامي الحق من ذوي الاصالة أن يعملوا على إبراز أعمال أولي المواهب من المعنيين بالأدب الإسلامي أو أدب الدعوة في إنصاف بريء من الأنانيات الفردية و(التكتلية..) !

ونحن نثبت تعبيره الأخير دون أن نتبين مراده منه، إلا أن يكون ذا صلة بموقفه الآنف ممن يسميهم (المتصدِّين للدعوة).. وهو موقف لايخلو من بعض حرارة النقد التي من شأنها إحداث الاهتزاز في بعض أفكاره ..

وأخيـــراً

وكان بودنا أن نختم هذا العرض بنماذج من شعر الأستاذ الممثل لخصائصه الفنية ذات التذوق البلاغي الرفيع، ولكن الذي تفضل به علينا من مطبوعاته الشعرية لايعدو أن يكون لونا من الشعر التعليمي ذي الطابع الموضوعي، وهو في رأينا غير الشعر الوجداني المنطلق من أعماق المشاعر الذاتية.. ولعل الصديق الكريم يتحفنا ببعض مايمثل هذا الجانب الخاص من حياته الوجدانية، فنجعله خاتمة المطاف.. والله الموفق والمستعان .

* * *

الشيخ عبد الرحمن الدوسري

عرفته لأول مرة فى الجامعة الإسلامية ، وكان سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز نائب الرئيس — يومئذ — قد دعا المدرسين وطلاب الكليات والمعهدَين إلى قاعة المحاضرات ، وهى دعوة نفهم منها أن ثمة محاضراً من الزائرين يرى سماحة النائب من الخير أن نلتقيه ونستمع إليه ، ومضيت مع طلابى فى كلية الشريعة إلى القاعة — القديمة — وتتابع الجمهور حتى ملأها ، وجلس المشايخ فى صدرها ينتظرون ، حتى إذا اكتمل الجمع نهض سماحة النائب يقدم الزائر بكلمة موجزة ، علمنا منها أن خطيبنا اليوم هو أحد الدعاة الثقات الشيخ عبد الرحمن الدوسرى . . وشاهدنا عقيب ذلك رجلاً عليه سمة الفضل والنشاط ينتصب على المنبر ليلقى علينا حديثاً مرتجلاً يستغرق قرابة الساعة ، وعلى الرغم من الحبسة التى تعترض لسانه بين الفينة والأخرى ، والتى كان يتغلب عليها بالتصميم والإرادة ، فقد استطاع أن يجتذب إليه الأذهان والآذان بما كان ينثره من جميل الحكمة وحسن الموعظة . . .

ثم تتابع لقاؤنا معه ، من خلال زياراته للجامعة ، ومحاضراته التى كان يلقيها على الطلاب فى مثل ذلك الاجتماع . . ولقيته أكثر من مرة فى غير الجامعة ، فكنت فى كل مرة أستشعر الأنس به والارتياح إلى حديثه ، والإعجاب بذلك النشاط الذى لا يعرف الكلل فى الدعوة إلى الله على بصيرة .

لقد علمت من خصائص هذا الرجل أنه يعمل فى التجارة ، ولكنه واقف نفسه على خدمة الدعوة فما تلهيه عنها تجارة ولا شىء مما يشغل أبناء الدنيا ، ومن أجل الدعوة نراه ينتقل من مكان إلى آخر حتى ليخيل إلىَّ أنه لم يدع حاضرة ولا بادية من أقصى الكويت إلى أقصى المملكة العربية السعودية ، دون أن يلم بها أو يكرر زيارته لها فى نطاق هذه المهمة . . والذين يعرفون سيرة السلف من صالحى علماء الإسلام لا ينكرون علىَّ القول أن فى هذا الرجل ، بهذه

الصفات ، مشابه من شخصية الإمام عبد الله بن المبارك الزاهد المحدث المجاهد ، الذى جعل من تجارته الواسعة وسيلة إلى خدمة العلم ، وصيانة أوجه العلماء عن الحاجة إلى الأمراء ، وجمع الطلبة الأنقياء من أجل إعدادهم للعلم والجهاد . .

ولا أعرف له مثيلاً بين معاصريَّ سوى اثنين أحدهما المهندس الزراعى عبد المعطى بهجة ، الذى هجر الوظيفة فى سبيل الدعوة ، فهو حركة متصلة ما بين نيجيرية ومصر والمملكة ، لا يعرف الفتور إلى نفسه سبيلا ، ولا يكاد يضيع لحظة من حياته إلا فى صالح الدعوة . . ونظيره الآخر محمد عمر الداعوق ، الذى عاد من دراسته فى ألمانية مهندساً آلياً وداعية ، فهو كذلك لا يستريح إلى قرار إلا فى ظل الدعوة إلى الله ، ولا يستشعر حاجة إلى غير الله ، حتى إنه ليحمل زاده فى حقيبته حفنات من التمر يتبلغ بحبات منها كلما أحس لذعة الجوع ، ولا يستجيب إلى دعوة أخ إلا تحقيقاً لأمر رسول الله ، صلوات الله عليه وآله وسلامه ، الذى يجعل إجابة الدعوة إحدى خصال الإسلام .

هذه الخصائص التى عرفتها فى هذا الرجل هى التى وجهتنى إلى تقديمه لقرائى بعد أن حالت الظروف دون ذلك فى الكتابين السابقين من « علماء ومفكرون عرفتهم » .

ومن توفيق الله أن ترجمته التى أعرضها فى ما يلى إنما أنقلها من أوراق كتبها لى بيده ، جواباً على استطلاع سلمته إياه ، وإنه لمما يسرنى أن يتفق إخراج هذه الترجمة مع عمل الطالب فى الدراسات العليا بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الشيخ سليمان الطيار ، الذى استعان بهذه الأوراق نفسها فى رسالته للماجستير عن هذا الداعية الذى أخلص عمله لله ــ ولا نزكى على الله أحدا ــ فهيأ له من أمره رشدا ، وجعل له لسان صدق بتلك الرسالة وهذا الكتاب ، تغمدنا الله وإياه برحمته ، وأجزل له ولنا كريم الثواب .

* * *

يقول الشيخ غفر الله لنا وله : إنه عبد الرحمن بن محمد بن خلف بن عبد

الله الفهد آل نادر الدوسرى ، نسبة إلى قبيلة الدواسر ، ومن أسرة منها أمراء بلد « السليّل » المشهور .

ولد فى مدينة البحرين وسافر به والده إلى الكويت بعد أشهر قليلة من ولادته ، ذلك أن جده عبد الله قد نزح عن قومه وبلاده ، إلى قرية « الشماسية » من مقاطعة القصيم ، فيها تزوج وأنجب ولم يبق من بنيه سوى محمد الذى انتقل بزوجته إلى الكويت ، ثم سافر بها إلى البحرين لزيارة والدها الشيخ على بن سليمان اليحيى ، ثم عاد بها وبطفله عبد الرحمن إلى الكويت . وهناك نشأ وتعلم ما شاء الله ، وظل أكثر عمره يزاول التجارة ليستغنى بها عن ابتذال علمه بالوظائف التى تعرض صاحبها لصرفه عن الصراحة إلى مسايرة الرغبات ، فكان لجوؤه إلى العمل الحر صوناً لدينه وارتفاعاً بكرامته . .

وقد نشأ فى بيئة صالحة محافظة من أحياء الكويت تسمى « المرقاب » لا يقطنها غير النجديين ، ومعظم أهلها من عمَّار المساجد الموسومين بمحاسن الأخلاق ، يحض بعضهم بعضاً على الخير والفضيلة ، فلذلك يسيطر الحياء عليهم أجمعين .

وعن دراسته يجيب بقوله : لقد طلبت العلم فى المدرسة المباركية ، وكان اسمها مطابقاً لمعناها ، إذ كانت أهلية لا علاقة لها بالحكم والحكام ، ولم تتقيد بالمناهج المخططة على الطرائق الأجنبية ، فكانت بآثارها العلمية تفوق المعاهد والكليات الدينية ، فالحفظ فيها إلزامى ، بحيث لا يتخرج الطالب فيها إلا وهو حافظ لثلاثة الأصول مع بعض شرحها ، ومستظهر كذلك للدرة المضية من نظم السفارينى مؤلفة من ٢٠٩ أبيات فى التوحيد مضافاً إليها الرحبية والبرهانية فى الفرائض ، ومنظومة « هدية الألباب فى جواهر الآداب » للشيخ محمد الجسر ، ومنظومة الآداب المشهورة لابن عبد القوى ، ولامية ابن الوردى ولامية العرب ولامية العجم ، وقصائد كثيرة ومتنوعة . . هذا إلى بعض الفقه مثل « دليل الطالب » وغيره . .

ويتابع الشيخ حديثه عن محفوظاته فيذكر أن الله يسَّر له حفظ كتابه الكريم فى أسابيع معدودة ، وقد مرن على الحفظ حتى كان يستظهر كل ما يعجبه ، ولا يرى كتاباً

* * *

معروضاً فى السوق إلا حاول تصفحه وهكذا جمع فى قلبه وذاكرته مجموعات قيمة من المحفوظات ، ناهيك بالسيرة النبوية ، والكثير من الأخبار التاريخية ، وجملة صالحة من نونية ابن القيم الكافية الشافية ، وكان بوده لو استظهرها كلها ، ولكن حال دون ذلك غموض بعض معانيها عليه ، وهذا كله إنما كان من خلال وجوده فى المدرسة المباركية ، فلما فرغ منها عمد إلى ملازمة بعض كبار الشيوخ فدرس الفقه والتوحيد على المرحوم الشيخ عبد الله بن خلف الدحيان وعلى الشيخ صالح بن عبد الرحمن الدويش رحمه الله ، وفى أثناء رحلاته إلى البحرين كان يحظى بمقابلة العلامة قاسم بن مهزع ، ويتدارس معه البحوث المهمة . ويعتبر هذين الشيخين من ذوى التأثير العميق فى نفسه .

ويطلعنا الشيخ على بعض آرائه فى ما يتعلق بالفقه والحديث ، فهو لا يقر الفصل بينهما ، فلا يقبل الفقه خالياً من الدليل ، ولا يرضى عن تطرف الذين يزعمون أنهم من أهل الحديث وهم يرفضون الفقه ويناصبون الفقهاء العداء ، ويهونون من شأن أهله بالتحقير المهدر لكرامتهم والمتنكر لجميلهم . .

ولنقف مع القارىء قليلاً للتأمل فى هذا النوع من الدراسة ، ولتقويم مدى آثارها فى تكوين الرجال ، فنحن ، وإن كنا لا نشارك المترجم فى قبوله تحميل طالب العلم كل هذه الأثقال من المحفوظات ، لا نستطيع الاستهانة بذلك المنهاج الذى يقوم على الحفظ والعلم معاً ، ومقارنة قصيرة بين خريجى هذا المنهج التراثى المرهق ، وخريجى المنهج الحديث ، المستهدف مجرد الحصول على درجات النجاح ، دون تقدير للمحصول العلمى ، توضح الفرق بين النوعين ، وأثر كل منهما فى تكوين الرجال . .

وفى تقديرنا أن لكل من المنهجين مميزاته ، وعلى كل منهما مآخذه أيضاً ، فمن ميزات المنهج التراثى الذى حدثنا به الشيخ عمق آثاره فى تكوين الفكر وطبع نفس الدارس بروح الجد والتزام الأصالة ، ولكن يؤخذ عليه إرهاق الطالب وابتعاده عن واقع الأمة فى مسيرة البشرية ، حتى ليكاد يكون ترديداً لأقوال السابقين من فضلاء العلماء ، دون ما اهتمام بحاجة المسلمين للعلوم الكونية . التى لا غنى عنها للخلاص من سلطان الكافرين ، وهو الجانب الذى

عنيت به المناهج الحديثه فكان من مميزاتها الواقعية ، ولكن الذى يؤخذ عليها أيضاً هو تهاونها فى الجانب التراثى حتى حدود الإغفال ، فيتخرج طالبها وهو لا يكاد يعى شيئاً من تراثه الإسلامى خارج نطاق الهوية ، كما يتخرج طالب التراث وهو خالى الذهن أو يكاد من كل علم بما يحيط به من واقع الحياة الحديثة ، ثم تكون عاقبة ذلك تكوين جيل أو أجيال لا تعدو كونها عالة على الأمم السباقة فى مضمار التكنولوجية ، ولا قدرة لها حتى على التفكير بتغيير واقعها المتخلف . . .

وطبيعى أن الطريق الصحيح للتحرر من كلا الخطأين هو الجمع الواعى بين ناحيتى السداد فى كلا المنهجين ، حتى يتخرج الجيل الذى يؤمن ويفقه ويطبق على واقع حياته قول ربه الحكيم العليم ﴿ **وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه** ﴾ الجاثية .

ولا مندوحة مع هذا من تخفيف الأثقال التى فرضها المنهج التراثى على طالب العلم من حيث تكثيف الحفظ ، والاكتفاء باستظهار القرآن العظيم مع ضبط التلاوة والتركيز على معانيه ، ثم العناية الدقيقة بالصحيح من السيرة النبوية ، التى هى المجال الأول لتطبيق المضمون القرآنى . . وهو النهج الذى تتحرك نحوه المعاهد والجامعات الإسلامية ، فى معظم ديار الإسلام ، خارج نطاق الحكومات المتجهة إلى غير الإسلام . .

ونسأل الشيخ غفر الله له عن أهم الأحداث التى عاصرها وانفعل بها فيجيب بما يلى :

يقول : إنه عاصر آخر المنازعات التى أثارها الإنجليز بين الكويت والسعودية ، وشاهد بأسف عميق ما جرته من اندفاعات الغضب والتراشق حتى بتهم التكفير . . مما حفزه إلى البحث والتمحيص فى حجج كل من الفريقين ، فزاد ذلك من ولعه بكتب البحث والمناظرة والردود ، وكان لهذا أثره الفعال فى تكوينه العلمى والروحى ، إذ أثار نشاطه فى خدمة العلم والتوعية الروحية ، ودفعه حثيثاً إلى إلقاء المواعظ والمحاضرات فى المدارس والمساجد والأسواق ، وعلمه كيف يراعى حال المخاطبين ، فيعطى كل موقف حقه بالأسلوب المناسب ، فللمسجد وسائله التى يلتقى عليها أصناف

المستمعين ، وللمدرسة طرائقها التى تنسجم مع مستويات الطلاب وأفهامهم ،وهكذا القول فى كل لون من المناسبات . . وكثيراً ما تنهال عليه الأسئلة فيجيب عليها شفهياً ، فإذا ضاق بها المجال نشر بقية الإجابات فى الصحف . . وقد علم أن الأحاديث المسموعة مهما بلغ من سموها لا تثبت على الزمن ، فلا بد من الاستعانة معها بالكلمة المكتوبة ، لذلك درج على شراء المجاميع من الكتب النافعة بماله وتوزيعها بالمجان على مكتبات المدارس والجامعات وغيرها من المكتبات العامة ابتغاء مرضاة الله .

آثاره المكتوبة :

وعن مؤلفاته يذكر الكتب التالية :

١ ــ الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة .

٢ ــ الجواهر البهية فى نظم المسائل الفقهية وقد استغرقت اثنى عشر ألف بيت .

٣ ــ إيضاح الغوامض من علم الفرائض .

٤ ــ الجواب المفيد فى الفرق بين الغناء والتجويد .

٥ ــ مسلَّم الثبوت فى الرد على شلتوت .

٦ ــ السيف المنكى فى الرد على حسين مكى .

٧ ــ إرشاد المسلمين إلى فهم حقيقة الدين .

٨ ــ الحق أحق أن يتبع ــ فى مناقشة القوانين الوضعية بثلاثة أجزاء .

٩ ــ الإنسان العامل الشريف والحيوان الناطق المخيف .

١٠ ــ صفوة الآثار والمفاهيم فى تفسير القرآن العظيم .

١١ ــ معارج الوصول إلى علم الأصول .

١٢ ــ مشكاة التنوير على شرح الكوكب المنير . .

ويستمر ثبت كتبه حتى يبلغ الرقم الثالث والثلاثين ، وفى العنوانات التى

اخترناها نموذج يشير إلى بقية مؤلفاته ، ومعظمها فى العلوم الشرعية ، وسائرها فى مختلف الأغراض الاجتماعية والسياسية والنقد الخلقى ، والرد على المخالفين والمقلدين . . وبينها غير قليل من الشروح والحواشى على كتب مشهورة ، علاوة على المنظومات التى تبلغ المجلدات ، وهى بمجموعها وتشعُّب أغراضها إنما تعطينا صورة واضحة لاتساع أفقه فى الموضوعات الإسلامية ، وارتفاع مستوى نشاطه الذهنى ، الذى لم يكتف بالكلمة المسموعة يقرع بها القلوب والآذان فى مختلف البلدان ، حتى أعطى التأليف من جهده كل هذا الإنتاج الوفير . وهو يقول رحمه الله فى كلامه عن هذا الجانب من مجهوده الثقافى : ان له تعليقات كثيرة ومتنوعة على العديد من الكتب التى قرأها ، فقلما تجد مؤلفاً فى مكتبته خلا من تعقيب حتى « فتح البارى فى شرح صحيح البخارى » قد وصل فى تعليقاته عليه إلى الجزء الثالث .

وتلاحظ بين هذه العنوانات التى اقتصرنا عليها من مؤلفاته عدة كتب تشير إلى معارك خاضها مع رجال معروفين ، فهناك رده على كبير الأزهريين الشيخ محمود شلتوت ، والغالب أنه يدور حول موقفه من الربا ، إذ كان لشيخ الأزهر هذا رأى معروف فى التفريق بين ربا الفضل وربا النسيئة ، حيث يقرر أن التحريم منصب فقط على الأخير دون الأول ، وهو كلام يصادم إجماع الجمهور على أن تحريم الربا شامل أنواعه جميعاً بغير استثناء . .

ومن سمات الشيخ رحمنا الله وإياه شدته على المخالف ، فما يكاد يقع على زلة من أديب أو عالم أو شاعر فى حق الدين بخاصة حتى ينقض عليه بكل ما يملك من القوة والأسلحة . . ومن هؤلاء صديقنا الشاعر القروى ، الذى هاله ما رآه من تكالب المستعمرين على بلاد العرب ، وانشغال هؤلاء بالخلافات الدينية فيما بينهم عن مجابهة أولئك المجرمين ، فراح يلومهم ويحمسهم ويثير حميتهم القومية للتضافر على مكافحة عدوهم ، حتى بلغت به الثورة إلى أن يقول لهم ما معناه : إذا كانت التفرقة من عمل الدين فمرحباً بالكفر الذى يؤدى إلى الوحدة . . .

فما إن واجه الشيخ هذه القولة من الشاعر القروى حتى تفجر بوجهه بركاناً يقذف الحمم ، ولم تتوقف ثورته النفسية بإزائه حتى قاربت منظومته فى

الرد عليه المئتين من الأبيات . . . وكان يقدمها إليَّ قطعة بعد أخرى على مدى أيام ، وكذلك كان يبعث بها قذائف متفرقة إلى مجلة « البعث الإسلامى » أو « الرائد » الهندية

وطبيعى أنه لم يقف هذه المنظومة المطولة علي القروى وحده ، بل تناول فيها كل فكرة منافية لدين الحق ، وكل مناصر لها من شرق أو غرب . . .

ومع تأييدى التام لانتفاضة الشيخ يومئذ ، فقد وددت لو اطلع على قصائد القروى فى مدح الإسلام وفى تمجيده لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه إذن لخفف من قسوته عليه ، ولاستحالت ثورته به عتاباً وحواراً وتذكيراً وتعليماً وجدالاً بالتى هى أحسن . . وإلا فمن يقرأ مثل قول القروى :

إذا ما رمت رفع الضيم فاضرب بسيف محمد واهجر يسوعا
« أحبوا بعضكم بعضاً » وعَظْنا بها ذئباً فما رحم القطيعا

أو قوله الآخر فى ذكرى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

عيد البرية يوم المولد النبوى فى المشرقين له والمغربين دوي
يوم النبيِّ بن عبد الله من طلعت شمس الهداية من قرآنه العلوى

من يقرأ مثل هذا — وغيره فى ديوان القروى — ثم لا يقدر للشاعر عاطفته ، ولا يعذره فى بعض الشطط الذى ساقه إليه الغضب لكرامة المسلمين والعرب ، التى ما زالت فى انحدارها حتى أصبحت نهبة الأذلين . . . وقد أكرم الله نظر الشيخ عبد الرحمن فنقله إلى جواره قبل اقتحام جيوش بيغن بأسلحة ريغان ، لبنان ، فلم يشهد مصارع عشرات الألوف من المسلمين تمتلىء بجثثهم الأرض ، ولم يسمع بمجازر صبرا وشاتيلا ، التى ذهبت بآلاف النسوة والشيوخ والأطفال ، بأيدى متعصبة الصليبيين من أحفاد المرديت ومارمارون ، ولم يبصر أخيراً لا أخراً تمزق بقية وشائج الأخوة فى منظمة فتح ، على مرأى ومسمع من إسرائيل وعملاء إسرائيل ، فوق صعيد البقاع والشمال اللبنانى الغارق بدماء المسلمات والمسلمين .....

وعن مستقبل الجيل الإسلامى يسرد فضيلته بعض أفكاره فى ما يلى :

يقول رحمه الله : من أجل تصحيح مسيرة هذا الجيل وضبطها فى الطريق الصحيح لا بد من التعاون المخلص بين علماء الإسلام وولاة أمر المسلمين ، لمراقبة مخططات الأعداء والإعداد لها ، بما يقابلها ويحبطها ، وفى مقدمة واجباتهم فى هذا الصدد إنشاء المدارس الدينية والروضات التربوية والروحية ، لكى يصنع أبناء المسلمين على أعينهم لا أعين أعدائهم وتلاميذ أعدائهم . . ثم إصلاح الأجهزة الإعلامية بإقامة الركائز الصالحة فيها ، وتغيير برامجها تغييراً جذرياً . .

وطبيعى أنه يريد بهذا التغيير الجذرى صياغتها وفق تعاليم الإسلام ومقاصده العليا ، فتنطلق من صميم ذاتيتنا الإيمانية بريئة من المسخ والتقليد ، فلا يتسلل إليها من خارج هذه الذات أى دخيل ، إلا بعد أن ينسجم كلياً مع روح الإسلام ، لذلك قدَّم الشيخ على التغيير إقامة الركائز الصالحة فى حقل الإعلام أولاً ، لأن مجرد توسيد الأمر هناك إلى الأكفاء من ذوى الرؤية الإسلامية كاف لتصحيح الوضع من جذوره .

ويتابع رحمه الله فى عرض أفكاره الإصلاحية قائلاً : إن من واجب علماء الإسلام أن يبثوا الوعى الدينى الصحيح فى طبقات الأمة ، ويلهبوا حماسة شبابها وأثريائها ليقبلوا على القيام بكل ما يكفل عودة القيادة الفكرية إليهم ، فإذا نجحوا فى التربية الروحية ، وحازوا القيادة الفكرية ، التى انتزعها منهم الأعداء وهم سادرون ، كانوا جديرين بالحياة الصحيحة ، وإلا فإن مجهودهم يشبه عمل من يعالج الجرح فى جسد قُطِعَ رأسه . . وكل مخطط معادٍ لا يحبطه إلا ما يوازيه أو يزيد عليه ، والمتآمرون على الإسلام ، من يهود وصليبيين وماسون، وإن سبقونا أشواطاً بعيدة فى هذا المضمار، مغلوبون فى النهاية إذا أحسنا استغلال طاقتنا لمواجهتهم بوعى وصدق ، بقوة الله وتأييده ، وقديماً جاء فى المثل « إذا جاءنهر الله بطل نهر معقل » .

ثم يأخذ فى تفصيل الأسباب التى لا مندوحة عن توفيرها لتحقيق النصر : وهى :

١ ـــ الوعى العام الصحيح .

٢ ـــ العمل الجاد المتواصل .

٣ ــ إطراح الجبن والشح اللذين هما أصل البلاء ومجمع الشرور .

٤ ــ البصيرةالنافذة فى اختيار الركائز الصالحة فى كل ميدان وإعطاء كل عمل حقه .

٥ ــ سد كل فراغ فى كياننا يمكن أن يستغله العدو .

٦ ــ مجابهة كل خطةبما يبطلها . .

على أن يقوم ذلك كله على أساس الصدق مع الله والإخلاص لدينه فلا يشوبه رياء ولا سمعة ولا شبهة من أنانية . وهنالك يسدد سبحانه الخطى ، ويأخذ بنواصينا فى طريق النجاح ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴿ **والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[1] .

وقبل أن أصير بالقارىء إلى اللمسة الأخيرة ، أحب أن أقدم لها بإشارة خفيفة إلى ميزات الشيخ الأسلوبية فى نثره وفى شعره جميعاً .

فالشيخ أجزل الله مثوبته على الرغم من إكثاره فى الكتابة والشعر ، لم يكن من الذين يعنون بأناقة الأسلوب ، واختيار الصور البيانية والمحسنات البديعية فى ما يكتب أو ينظم ، ذلك لأن انشغاله بالموضوع حبس جهده فى نطاق الفكرة ، فلم يهمه من التعبير إلا أن يكون قريباً من أفهام القراء أياً كان مستواهم الثقافى ، ولو خالف بذلك بعض القواعد ، فيحسن بالقارىء أن يتذكر هذه النقطة عندما يقرأ له منثوراً أو منظوماً ، فنحن من أجل ذلك لم نقدمه بوصفه أديباً بليغاً ، أو شاعراً مغلقاً ، وإنما قدمناه إلى القارىء رجل دعوة همه مخاطبة العقول ، وإيقاظ الضمائر ، وتذكير الغافلين بالعبارة الميسرة دونما تعمل أو تكلف . .

وإلى القارىء الآن أنموذجاً من نثر الشيخ ننقله من تفسيره لسورة الفاتحة ، الذى استغرق ثلاثمائة صفحة هى مجموع الجزء الأول من تفسيره الذى سماه « صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن » وقد ظهر منه حتى الآن

---

١ ــ نسخنا هذه المعلومات الخاصة من أجوبة الشيخ التى كتبها لنا بخط يده ، ورأيناها فيما بعد مثبتة فى مقدمة تفسيره المسطور بقلم ولده وفيها يقول أن أباه كان قد كتبها جواباً على سؤال من بعض دور العلم ، وإنما كتبها لنا رحمنا الله وإياه .

ثلاثة مجلدات ، والظاهر أن هناك رابعاً وخامساً لا يزالان تحت الطبع .

يقول الشيخ رحمه الله ــ ص ٢٠١ ــ فى حديثه عن القوة تحت عنوان « بقاء الدول المادية الكبرى موقوف على تخلى المسلمين عن القيادة وعدم حملهم للرسالة » .

« من المؤسف أن كثيراً من الناس يرى أن القوة هى الحصول على العدة الضخمة من العتاد الحربى ، أو كثرة الصناعات التى تغمر الأسواق ، أو ثروة المحاصيل الأرضية من منتوجات أو معادن ، فهذا هو قياسهم ، ويرون أن الذى يحصل على ذلك هو القوى الغالب ، الذى لا يصارع ، ولكن الحقيقة بخلاف ذلك ، فإن الدول والأمم لا تسود بالحديد والنار ، ولا تعلو بالمال والصنائع ، إلا على أشكالها من الماديين ﴿ **وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين** ﴾ .

وإنما السؤدد الصحيح والقوة التى لا تغلب ، تكون بالخلق الصالح المتين المتماسك ، الذى يجمع أهله ويشد بعضهم إلى بعض فى هدف ربانى سماوى ، وذلك لا يكون إلا بالدين الصحيح الخالص الصادق ، الذى تتجلى فيه العبودية لله بمعانيها ومبانيها ، فإنه هو الذى يجمع أهله على التوادّ والتراحم ، ويعطف بعضهم على بعض ، ويشد بعضهم إلى بعض ، ويقيهم مما طبعت عليه النفوس من الشح والهوى ، ويمنع عنهم عناصر الفرقة ، ويقيهم أسباب الفساد ، ويلهب حماسهم للقيام بالواجب لله سبحانه ، من حمل رسالته وقمع المفترى عليه ، وتوزيع أنوار هدايته ، والزحف بدينه المقدس ذات اليمين وذات الشمال ، فيفجر طاقاتهم فى ذلك ، ويجعلهم يبذلون النفس والنفيس . ويتعشقون الشهادة فى سبيل الله ، فيكون حرصهم على الموت أشد من حرص أعدائهم على الحياة .

ثم بصدق نياتهم مع الله ، وإخلاصها لله . وطهارة جوارحهم وصلاح أعمالهم ، يستمطرون رحمة الله بمدد السماء وحصانته ، التى لا يغلبها غالب أبداً وهذه الحقيقة لا يفهمها إلا حملة الرسالة ، وقليل

من المؤرخين ذوى الفكر الصريح المستقل ، أما كثير من الناس فإنه تبهره ضخامة الدول المادية وينضبع بها ولا يهضم كلامنا ، لأنه لا يحمل ما حمله أصحاب العقيدة ، ولم يمتلىء قلبه من تعظيم الله بدلاً من تعظيم المادة ، فتعظيمه للمادة جعله يستصغر دينه ، ويكفر بذاته أمامهم ، ولا يثق بربه أولاً ثم بنفسه ثانياً ، لأنه نسى الله فأنساه الله نفسه . . »

أما شعره فهاك أفضل ما لدينا منه ، أبياتاً اخترناها من مئات ، وهى كمعظم منظوم الشيخ عليه رحمة الله لا تعدو حدود الموعظة والجدل والدعوة إلى الحق ، وقلما تخلو من تهاون بقواعد اللغة والعروض .

يقول من مطوَّلة أنشأها عقيب كارثة السبعة والستين ، فى حرب الأيام الستة ، بعد أن يعدد أسباب الهزيمة :

ففى أى شىء نقهر الظلم والعدا ... ونحن على ذا الحال ياطالب النصر
أنهزم إسرائيل فى راقصاتنا ... وفى مسرحيات الأباطيل والزمر
وفلسفة الساقين أو فى تزحلق ... وشتى بلاجات الخلاعة والفجر

إلى أن يقول :

ولايستعن إلا بــه بالله ــ فى توكل ... مع الصدق فى الأعمال والمقصد الطهر
ولا يغترر فى قوة أو مؤيــد ... من الدول اللاتى تقيم على الفجر
ولكن يصد الجيش جيش عقيدة ... حنيفية لله طاهرة الفكــر
ويسعى لتطهير الفساد بكل ما ... تجدد من أنواع أسلحة العصر
فذا طابع الإيمان زحف مقدس ... وما دونه زحف الضلالة والعهر
لئن سيَّروا ركب العروبة هكذا ... سيحظون بالتأييد والعز والنصر
وإن درجوا فى ما عليه فحظهم ... شقاء وتنكيل إلى آخر الدهر

* * *

الأستاذ عبد العزيز الربيع

بالأمس القريب فجعني القدر بالأخ الحبيب أبي هاشم محمد المبارك. وكان في جفني صبابة من الدمع لم يلبث أن استنزفها. وقبل المبارك جعلت الفجائع تتلاحق باخوة وأبناء فى الله كان واسطة العقد فيهم أمير المنابر والملاحم الدكتور مصطفى السباعى ثم آخرون فمن لايتسع القرطاس لتعدادهم، ولظروف مصارعهم، وكما يستعيد النبع المتلاشي بعض الرشح بين الحين والحين.. هكذا استعادت مقلتاي بعض البلال، لتساعداني على بكاء الحبيب الجديد، الذى فاجأنى ولدى غسان بنعيه على حين غرة،حين ألقى على مسمعي كلمتهالصادعة: عظّم الله أجرك بالأستاذ عبد العزيز الربيع!. وخلخلت المفاجأة انتباهي فلم أكد أثبت ماسمعت.. ولكن الصريح سرعان ماانجلى عن الرغوة، فإذا النبأ جد، وإذا أنا تلقاء الحَدَث الذي ماكنت أتوقع هجومه بهذه السرعة.

وإذن لقد أنزلقت الحبة العزيزة لتلحق بأخواتها الغوالي من العقد العزيز، ولتفسح الممر من بعدُ للأخوات الأخريات، اللواتي يتهيأن للمصير نفسه.. وأتطلع في أسى الثكلان نحو الموكب الزاحف إلى ماوراء المنظور، وكأني أسمع من خلال كل تكة منه نذيرا يهتف بي: أن تهيأ.. ولكني لاأدري أأتهيأ لرحيل، أم أستعد لتشييع خليل!.. وتشاء حكمة الله تبارك اسمه أن ينتزعنا النسيان أبدا من غمرات الصحوة العابرة فنرجع إلى غفلتنا المألوفة، حتى تفاجئنا صدمة جديدة بنذير جديد، فنتذكر الحقيقة التى طالما شُغِلْنَا عنها، مع كونها أكبر حجما من كل وقائع هذا الكون.. حقيقة أننا قوم سَفْر لاقرار لهم إلا في العُدوة الأخرى من الوجود الكبير، الوجود الذي يبدأ بتجربة الحياة المتقلصة، لينتهى إلى الحياة المتجددة الممتدة إلى أبد الآباد..

وما أشد شقاءَ الإنسان حين تنطمس في وعيه ذكرى ذلك المصير الذي هو، برغم أنفه، كادح إليه كدحا فملاقيه.. فلا تعدو تطلعاته حينئذ حدود

المضطرب الصغير الذي يكتنفه من عالم التراب، وقد خنق في صدره أشواق الفطرة إلى ماوراءه، حتى استحال هو واحدة من ذراته التائهة أو نثارة من هباءاته التافهة!.

ولكن.. ماأعظم غبطة الإنسان، حين يُكشَف عنه غطاء الغفلة، فيطل من ورائه، بالبصر السديد الحديد، على عالم الإيمان، الذي يدرك به ذاته ومهمته، فيعلم يقيناً أنه مركز الدائرة فى هذا الكون، الذي سخره مبدعه لخدمته، وجعل منه منطلق عودته إلى الملأ الأعلى. ومن هنا كان التفاوت بين ذوي الحظوظ قائما على تفاوت نشاطهم في ميدان البناء، ومدى إخلاصهم في نطاق العمل، حتى لتثقل موازين بعضهم منهما فيكون من السعداء، الذين نعرف في وجوههم نضرة النعيم، وتخف موازين آخرين حتى يكونوا من الكالحين المقبوحين.

ولعمر الحق إن تعزيتنا الكبرى حين نشيع أحد أحبابنا إلى مقره الجديد إنما هي ثقتنا الكاملة بأنه سابقنا إلى الموعد، الذي نطمع أن نلقى فيه الأحبه محمداً وصحبه..

ولئن كان زادنا فى هذه الرحلة زهيداً لايؤهلنا للوصول إلى تلك الغاية فلنا من الرجاء برحمته تعالى مايجبر هذا الكسر ويصير بنا إلى اليسر بعد العسر بمنه وفضله..

من خلال هذهالرؤية أنظر اليوم إلى فراق هذا هذا العزيز فأمسح عن عينى غشاوة الأسى لأطلق البصر إلى البعيد من الآفاق حيث يتراءى لى أننا على وشك اللقاء الذى لا فراق بعده .. وبهذه الرؤية سأستقبل نعى كل عزيز أفاجأ به بعد اليوم ، وبها أرجو أن أستقبل قدرى الذى أتوقعه بين لحظة وأخرى ، بعد أن تذكرت ما كدت أنساه من أن الموت الذى نجزع منه ونتهيب وقوعه ، ليس سوى نقلة من الفانى إلى الباق ، ومن الحلم إلى اليقظة ، وأن هذا الجثمان الذى نواريه أطباق الثرى ليس فى حقيقته سوى الثوب الذى كُتِبَ علينا أن نرتديه إلى أمد ، لنتخلص من أوزاره إلى جوهرنا الأسمى الذى نفخ فيه من روحه الواحد الصمد ، تبارك اسمه وعز جلاله ..

وأعيد النظر في ماسطرته فأتساءل: أهذا ماينبغي أن أشيع به ذلك

الصديق العزيز عبد العزيز؟! أغلب الظن أن ذلك الأخ الراحل لو قرأ هذه الأسطر لرضي عنها، لأنه واجد فيها التذكرة التي يثيرها الموت فى ضمائر أولي الألباب. ولئن كان من طبيعة الرثاء الحق تميزه بحرارة العاطفة، وإثارة الأشجان، واستنزاف الدموع من عيون الحزانى والثكالى، فإن له فى رثاء أرباب الفكر معنى آخر من شأنه أن يقدح في صدورهم الوهَجَ الذي يفجر الذكريات، ويبعث التأملات. ولقد كان عبد العزيز الربيع واحداً من إخوة الفكر، الذين مافتئوا حتى اللحظات الأخيرة من حياتهم ينفحون قراءهم بالكلمة الطيبة، التي تعلم وتُمتع وتُحَرك. عرفته لأول مرة قبل عشرين سنة، وكنت في بعثة للحج من أسرة التعليم فى سورية الجريح. ثم عرفته أكثر فى عام تال حين قدمتُ المدينة المنورة الحبيبة مُدَرساً في جامعتها الإسلامية، ومنذئذ وحتى الأمس لم نكد نفترق، إذ جمعنا نادي المدينة الأدبي على خدمة الفكر والأدب:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا ... لطول اجتماع لـم نبت ليلة معا

ولقد وجدت فيه وفي اخوانه من أعضاء ذلك النادي الأثير الأنس الذي جلا عن مشاعري وحشة الغربة، وعوضني عن الوشائج التي فقدتها في الشام روابط أخوة كريمة تضمخها وتباركها نفحات طيبة الطيبة.. وهكذا أتيح لي أن أعلم من خصائص هذا الفقيد الغالي ماملأ قلبي به إعجاباً وله تقديراً، فلا غرو أن يعقبني فقده فنون الشجون..

كانت الصورة الأولى التي التقطتها لهذا الراحل هي التي توهم كل ناظر إليه لأول مرة أنه واحد من ذوي العنجهية الذين لايؤلفون ولا يألفون.. على أني لم أكد أحاوره حتى بدأت تلك الصورة بالتلاشي لتحل مكانها السمة المضادة.. سمة الصفاء الذي لايعرف التصنع، والأدب الرفيع الذي سرعان مايقنعك بأنك تلقاء أخ لك لم تلده أمك..

إذا حدثك ــ وقلَّما يبدأ الحديث ــ فبلغة القلب، التي تأخذ سبيلها إلى قلبك.. وتحدثه بما في نفسك، فيصغى إليك بإهتمام المستمع لجديد لاعلم له به من قبل، وربما كان أدري به منك نفسك.. وليس لي أن أعرض لعمله في إدارة

التعليم أثناء السنين التي قضاها في خدمة منطقة المدينة الحبيبة، فأحق بذلك إخوانه العاملون، الذين شاركوه في رعاية هذه المهمة، ولمسوا عن كثب مقدار إخلاصه في تنظيم شئونها، ومدى حرصه الصميم على النهوض بتبعاتها.. بيد أن من حقي أن أنوّه بما لمسته من ميزاته الأدبية والفكرية خلال عشرين عاماً من الصداقة التي ألفت بيننا على خدمة الكلمة المؤمنة.

لقد كان الفقيد الغالي أديباً من رأسه إلى أخمصه، يكتب كما يتكلم وكما يحاضر، في أسلوب أبرز-خصائصه الوضوح والعفوية والبراءة من التكلف، حتى لكأن أبا عُبادة لم يُرِدْ سواه بقوله:

(ومعان) كأنها الزهر الضا — حكُ في رونق الربيع الجديدِ
حُزْنَ مستعملَ الكلام اختياراً — وتجنبن ظلمةَ التعقيد

ومع أني لاأعرف له شعرا من منظومه، فهو شاعر بإحساسه الذي يتذوق الصورة والنغم، وينفعل بهما في نشوة لايعرفها إلا ذوو الشعور، الذي به يسمى الشاعر شاعرا.

وبهذا الحس الفني يتصدى لممارسة النقد، الذي كان أحد الجوانب البارزة من مواهبه الأدبية، إذ يتناول الفن أو النص فيكشف مقوماته الجمالية، ويشير في تلطف بالغ إلى هناته، كشأن الصديق الرفيق الذي يتخذ من صديقه موقف الراغب في معاونته للوصول بالعمل إلى المستوى الأمثل. وقد أعانه حفظه لكتاب الله، وتأثره العميق ببيانه الأعلى، على إعطاء الحكم الصالح في شئون النقد، فلا يقف منه على حدود العبارة دون المضمون، ولا المضمون دون التعبير السليم، لأن ملكته البيانية قد ألقت في رُوعِه أن الجمال لايستكمل عناصره إلا في التأليف المتناغم بين المعنى الشريف والأسلوب البليغ.. وإلا فالكلام الخالي من هذا أو ذاك لايعدو أن يكون ضرباً من اللغو لامردود له سوى الهيام في متاهات الأوهام.

وبهذا الحس المستمد من نفحات القرآن أثبت الأستاذ الراحل وجوده في حلبة الفكر والأدب، فكان ذلك المعلم والمربي الذي عم أثره جيلاً بأسره، سواء في منطقة طيبة الطيبة، عن طريق التعليم المدرسي، أو على مستوى المملكة عن طريق الصحافة التي مافتيء يغذيها بنتاجه الأدبي منذ العشرات من السنين،

أو بوساطة مؤلفاته في مختلف الفنون المتصلة بعمل التربية والتعليم والنقد الرصين.. وأخص بالذكر منها تلك المذكرات النفيسة (ذكريات طفل وديع) التي سجل فيها من تاريخ المدينة المنورة صوراً توشك أن تغيب عن الأعين، فكان لها فضل التثبيت لصلة كريمةٍ لاينبغي أن تنفصم عراها بين ماضيها الحبيب وحاضرها العتيد، ومستقبلها البعيد..

وهكذا تصبح النازلة بمثله خطباً يشترك في الأحساس بوقعه الآلاف الذين شملتهم رعايته مربياً، أو أمتعهم أدبه كاتباً، وفي كل مكان وصلت إليه آثاره من رحاب الضاد.. ثم يبقى لهذا الفقيد بعد ذلك كله ميزة أخرى، هي أنه أحد أفراد الثلة المباركة التي أسهمت ولا تزال تسهم في حراسة الميراث الأدبي للمدينة التي أكرمها الله بمثوى سيد الخلق، فجعلها منطلق أنواره إلى العالمين، ورشحها منذ ذلك العهد لقيادة الفكر الإسلامي وآدابه إلى يوم الدين..

ومن ثم كان حق عبد العزيز الربيع على عارفيه بعامة، وعلى كل نزيل ومقيم في طيبة المباركة بخاصة، أن يسأل الله له المثوبة الواسعة كفاء ماأسلف من خدمة للغة القرآن، وما قدم من جهد مبرور لمأرز الإيمان..

فاللهم اغفر لنا وله واجمعنا به في ظل رحمتك مع محمد، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

* * *

الشيخ عبد الله الأنصاري

لا أذكر بالضبط متى عرفت هذا الداعية الفاضل، ولكن الذي أذكره أن أول لقاء بيني وبينه كان في مدينة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله، ولعله كان في الجامعة الإسلامية، قبل مايقارب العشرين من السنين، وقد ترك ذلك اللقاء أثره البعيد في نفسي، إذ أصبحت أسعى إلى تجديده كلما علمت بوجوده في طيبة المباركة.. ولا عجب في ذلك فللشيخ، بارك الله في حياته، مميزات عقلية وروحية من شأنها أن تجتذب إليه قلوب عارفيه، فيودوا ألاَّ تنقطع صلتهم به، ولعل أبرز هذه المميزات حديثه الرصين الذي يشد السامع إلى مافيه من العلم والحكمة والعاطفة الجياشة، التي تغمر كل عبارة تصدر منه، لأنها حديث القلب إلى القلب، فلا تكاد تمس السمع حتى تستقر في الأعماق..

وكم من كلام يجمل في النطق دون أن يلامس وجدان المستمع، تحقيقا لما ورد في المأثور «ماخرج من الجنان فمقره الجنان، وما صدر عن اللسان فلا يتجاوز الآذان» ولعمر الحق لقد استمعت إليه محدثا ومقررا ومناقشا في العديد من المناسبات والندوات والمؤتمرات فأشعر أني أزداد له كل مرة تقديراً ووداً وطبيعى أن مثل هذه الخصائص لا تتوافر إلا فى الشخصيات النقية ذات الأصالة الثابتة ، وذلك هو أحد البواعث التى حفزتنى إلى تقديمه لقراء هذا الكتاب ، مع التقدير بأننى لا أعرفهم بمجهول ، ولعل بعضهم أعلم به وبمآثره الفاضلة منى ..

إنه الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ولد في مدينة الخور من قَطَر عام ١٣٤٠هـ وكان أبوه قاضيا فيها، وفي كنفه نشأ، وعلى يده تلقى دراسته الأولى، فحفظ القرآن العظيم ولما يتجاوز الثانية عشرة، ثم مضى في تلقيه فدرس مجموعة من كتب الفقه الشافعي، وحفظ الأربعين النووية مع شرحها

للمؤلف، ومما درسه على ذلك الوالد أيضا مبادىء علم الميراث، وبعض الأبواب من ألفية ابن مالك في النحو، ثم كتاب بلوغ المرام. وبتوجيهه بدأ اتصاله بعلم الأدب الذي طبع أسلوبه ولايزال بالبليغ من البيان ..

وعلى سنة السلف، وقد بلغ السادسة عشرة، لم يجد مندوحة عن الرحيل في طلب المزيد من العلم فاتخذ سبيله إلى مدينة الأحساء التي كانت مقصد الطلبة آنذاك في المملكة العربية السعودية، وهناك لزم حلقات الجلة من الشيوخ، كالشيخ أبي بكر الملا والشيخ محمد الملا، والشيخ عبد العزيز بن صالح، وعبدالله بن عمير والشيخ عبدالله الخطيب، والشيخ عبد العزيز بن المبارك، وعليهم درس العديد من الفنون الإسلامية، كالفقه المالكي والمواريث والتجويد والنحو والحديث والتفسير، وبعد ثلاث سنوات في هذا الجو العلمي عاد إلى مسقط رأسه بأمر والده الذي استأنف دراسته عليه سنة كاملة، ومن ثم قصد إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وكان طبيعيا أن يحضر بعض الندوات الدينية وبعض حلقات العلم، فطاب له المقام في ذلك الجو الذي يستقطب قلوب المؤمنين، فكتب إلى والده يستأذنه بالبقاء هناك ليأخذ بحظه من علماء البيت الحرام، ولم يضنَّ عليه الوالد بالموافقة، فانتظم في الفترة الصباحية بالمدرسة الصولتية، التي أنشأها العلامة الشيخ رحمة الله الدهلوى مؤلف كتاب (إظهار الحق) رحمات الله عليه ..

وكان من شيوخه في البلد الأمين الشيخ محمد عبد الرزاق إمام الحرم الذي درس عليه في موطأ مالك، وكتاب التوحيد وصحيح مسلم. ومنهم الشيخ محمد بن مانع الذي قرأ عليه بلوغ المرام وزاد المستقنع ومفردات الإمام أحمد مع كتاب التوحيد أيضا والشيخ علوي مالكى الذي حضر دروسه في التفسير والأصول والبلاغة. وكذلك كان للشيوخ الأجلة: حسن مشاط ومحمد العربى وعمر الحمران أثرهم البالغ فى ثقافته الإسلامية والعربية، سواء فى الكتب التى سبق له دراستها أو غيرها من المؤلفات المعتبرة.

وبعد خمس سنوات من الاجتهاد المتصل في مكة المكرمة فوجىء بما أصاب والده من فقدان البصر، فأسرع بالعودة إليه ليكون بجانبه، وليرافقه في

رحلته لطلب العلاج...

حياته العملية في السعودية

ومن هنا بدأ حياته العملية بعد مرحلة الدراسة، التي استغرقت كل تلك السنين التي قضاها طالبا للعلم في مختلف الأنحاء وعلى أيدي العديد من أكابر علماء المنطقة ..

والظاهر أن نهضة المملكة العربية السعودية في نطاق التعليم والتنظيم قد اجتذبت اهتمام الشيخ، فقصد إليها بنية العمل، وفي الدمام بدأ هذا الشوط، وفيها تعرف على أحد فضلائها الذي صحبه إلى قريته (دارين) وما هي سوى فترة قصيرة حتى أقبل عليه محبو الخير والعلم. فكان يؤمهم في الصلاة، ويخطب فيهم الجُمَع، ويُلقي عليهم بعض الدروس المسجدية، ومن ثم أسندوا إليه إدارة أول مدرسة شبه رسمية تم افتتاحها في دارين، وفي هذه المدرسة بدأ دروسه النظامية في التفسير والفقه والحديث والعربية والحساب لمدة سنة، حتى استدعاه قاضي القطيف ليكون مساعدا له في عمله القضائي واستمر على ذلك سنة أخرى، خُتِمت بتعيينه مديرا للمدرسة الرسمية التي أنشأتها وزارة المعارف، وفيها قضى سنوات ثلاثا مديراً ومعلماً، مع استمراره على الإمامة والخطابة في المسجد الجامع، إلى جانب مهامه في معالجة الخلافات التي تحدث في دارين، وقيامه باجراء عقود الزواج والبت في قضايا الأحوال الشخصية الأخرى...

ثم في قطر

وهنا تبدأ المرحلة الثانية من حياته العملية، وكان ذلك عام ١٣٧٢ هـ حين ورد خطاب حاكم قطر الشيخ على بن عبدالله الثاني إلى الملك سعود بن عبد العزيز ــ رحمهما الله جميعا ــ يطلب السماح لمترجمنا بالعودة إلى بلده، فصدر الإذن الملكي بذلك، وعاد الشيخ إلى وطنه الأول ليهب له كل مايملك من الخبرة والجهد، اللذين تجاوز أثرهما قطر إلى الكثير من مواطن المسلمين وشعوبها.

لقد بدأ رحلته العملية في قطر بالحصول على إذن حاكمها بافتتاح أول

معهد في تلك الدولة عام ١٣٧٤ وتولى هو إدارته والاشراف على مسيرته، والمشاركة في دروسه على مدى ثلاث سنوات، نُقِل بعدها للتدريس في الابتدائية الجديدة التي أطلق عليها اسم البطل الإسلامي المنقذ صلاح الدين الأيوبي، ولما أنشئت مصلحة الشئون الدينية والقروية التابعة لوزارة المعارف عهد إليه بإدارتها، وهي إدارة هامة تتطلب الكثير من الخبرة والدأب، لأن مسئوليتها تشمل كل مايتعلق بالقرى التابعة لقطر، من حيث الاشراف على تنظيم العلوم الشرعية وما تتطلبه من الكتب والمناهج، وما يتصل بها من أعمال التعليم، ويدخل في اختصاصها سائر الخدمات العامة في الطرق والمواصلات وقضايا السكان.. فكان الشيخ ينهض بكل هذه المسئوليات مع قيامه بالإشراف على مدرسة صلاح الدين.

وقد استمر هذا الوضع لمدة سنتين، حتى إذا كان العام ١٣٧٩ برزت إدارة مستقلة أخرى باسم (إدارة الشئون الدينية) على مستوى الدولة، وإليه أسندت رئاستها التي (تختص بالوعظ والإرشاد ونشر التراث الإسلامي وطباعة الكتب الإسلامية وتحقيقها ومراجعتها، إلى إنشاء المراكز الخاصة بتحفيظ القرآن الكريم).

وإنها لمهام تنوء بها العصبة أولو القوة، ويلمس آثارها كل من يعرف مدى اهتمام ذلك القطر القطري بنشر الدعوة الإسلامية في سائر هذه المجالات التي عرضنا لذكرها، وبخاصة في نطاق المنشورات التي تقوم تلك الإدارة بإيصالها إلى الأفراد والجماعات والمعاهد التعليمية، في مختلف الأنحاء من مواطن المسلمين.. وفي المطبوعات التي تتولى نشرها شواهدُ لايحسن إغفالها من مجهودات الشيخ سواء ماكان منها تأليفا أو تحقيقا أو إشرافا علاوة على الإيضاحات الملحقة بها، مما يبعث على التقدير والاعجاب، ويرجى له فيها جزيل الأجر والثواب إن شاء الله..

ولكي يكون القارىء على بينة من هذه الجهود أورد له كشفا مختصراً عما وقعت عليه من أعمال الشيخ في نطاق النشر والتأليف والإشراف والإعداد، وذلك من خلال الجداول التي تحمل مائة وواحدا وخمسين مطبوعا تنطوي على الأقسام التالية:

المطبوعات التي قام الشيخ بتحقيقها أربع وستون .
المطبوعات التي أشرف على نشرها خمس وستون .
المطبوعات التي هي من تأليفه اثنتا عشرة .
المطبوعات التي قام باعدادها عشر .

وبين هذه المطبوعات المجلدات من ذوات المئات من الصفحات، ومن النفائس التي يتطلع إليها كل ذي هوى علمي وروح إسلامي ..

ولقد استمرت جهود الشيخ في رعاية هذه الإدارة وتوسيع مساحة نشاطها طوال عشرين سنة، كان آخرها عام ١٤٠٢هـ حيث اقتضت التطورات الجديدة تركيز اختصاصاتها تحت اسم (إدارة إحياء التراث الإسلامي) وهي التي لايزال يتولى إدارتها حتى ٦/٤/١٤٠٦هـ وهو تاريخ الخطاب الذي تلقيناه من فضيلته جوابا على استطلاعنا الموجه إليه

ولا تفوتنا الإشارة إلى أن من أعماله التي وكلت إليه رسميا إمارة الحج القطري التي استمرت خمس عشرة سنة حتى تخلى عنها عام ١٣٩٨ هـ .

وكانت هذه المهمة فرصة طيبة أمام محبيه ومقدري فضله للظفر بلقائه في ظلال الحرمين في كل موسم ..

في خدمة الدعوة

وما دمنا في صدد الحديث عن أعمال الشيخ، التي وهب لها معظم حياته المباركة إن شاء الله، نجد من متممات هذا الحديث إعطاء صورة مصغرة عن مشاركاته في أنواع من الأنشطة التي تصور جهوده المبرورة في خدمة الدعوة إن شاء الله وإلى القارىء الكريم بيان ذلك في هذه الفقرات المحدودة :

(١) تأسيس أول معهد ديني في قطر .

(٢) إخراجه التقويم السنوي لقطر بصورة خاصة والخليج والمملكة العربية السعودية بصورة عامة منذ عام ١٣٧٦ هـ وإلى عامنا هذا .

(٣) عضويته في رابطة العالم الإسلامي .

(٤) عضوية مجلس أمناء المركز الإسلامي الافريقي .

(٥) رئاسة لجنة تبرعات مجاهدي أفغانستان .

(٦) عضوية لجنة تحكيم الشريعة الإسلامية .

(٧) عضوية لجنة التحكيم لاتحاد مجاهدي أفغانستان .

(٨) مشاركته في مؤتمر السيرة والسنة النبوية الأول والثاني .

(٩) التهيئة والإعداد ورئاسة مؤتمر السيرة والسنة النبوية الثالث المنعقد في الدوحة بقطر عام ١٤٠٠ هـ .

(١٠) افتتاح المراكز الإسلامية في كوريا الجنوبية والهند واليابان والفليبين .

(١١) الإشراف على البعثات العلمية المرسلة من قطر إلى كوريا والهند واليابان .

(١٢) عضوية مجلس ندوة العلماء في لكنهؤ في الهند .

(١٣) الإشراف على بناء تسعة مساجد في باكستان .

(١٤) الإشراف على بناء أربعة مساجد في الهند .

(١٥) افتتاح الكلية الإسلامية العربية في كوتيادى كيرالا بالهند عام ١٤٠١ هـ.

(١٦) تأسيس الندوة القرآنية الأسبوعية في مسجد الندوة في عام ١٣٨٢ هـ ومتابعة استمرارها إلى يومنا هذا في أداء رسالتها خدمة للقرآن الكريم .

(١٧) مشاركة رجال القضاء بقطر في كثير من الأمور القضائية وبخاصة فيما يتعلق بالأحوال الشخصية والطلاق والزواج .

(١٨) تأسيس مراكز تحفيظ القرآن الكريم والإشراف عليها من عام ١٣٩٠ هـ للبنين والبنات في دولة قطر .

(١٩) الإشراف على المسابقة السنوية لحفظ كتاب الله الكريم وتقديم المكافآت القيمة للفائزين فيها وذلك ابتداء من عام ١٣٧٥ هـ وإلى تاريخه .

(٢٠) الإشراف على إنشاء عشرة مساجد في مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف.

(٢١) عضوية اللجنة التحضيرية للمؤسسة الخيرية الإسلامية العالمية فى الكويت.

(٢٢) مشاركته في مؤتمر ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر.

(٢٣) عضويته في المجلس الأعلى العالمي للمساجد في مكة المكرمة.

(٢٤) مشاركته في مؤتمر الأدب الإسلامي في لكهنؤ بالهند.

(٢٥) إمداد الإذاعة والتلفزيون بالأحاديث الدينية الأسبوعية وفي كل المناسبات الدينية ـــ وبدون مقابل.

(٢٦) الاشتراك في المؤتمر العالمي الرابع للسيرة والسنة النبوية الذي عقد بالقاهرة في تاريخ ١٧ / ١٢ / ١٤٠٦ هـ بصفته رئيسا للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، وتسليم رئاسة المؤتمر للشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر.

إسهامات صالحة

ومعلوم أن لفضيلة الشيخ جولات واسعات في أنحاء العالم الإسلامي، وفي مهاجر المسلمين خارج وطنهم، ولها مردودها من الخبرات العميقة والمعرفة المكثَّفة، التي لايحسن إغفالها في مثل هذا الاستطلاع. ولهذا رأينا أن نستوضح فضيلته عن مرئياته حول أحوال المسلمين، وأهم الأحداث التي يواجهونها، وحاجاتهم الأساسية، والواجبات التي تفرضها الأخوة نحوهم على أولي الأمر والقدرة من حكام المسلمين وموسريهم ...

فكان من إجاباته الشافية أن تنقلاته في مختلف بقاع المعمورة، تقصيا لواقع المسلمين ودراسة لأوضاعهم، قد وضعت يده على أهم مشكلاتهم واحتياجاتهم.. وكان لذلك أثره الطيب في نفوس أولي الأمر، الذين سرعان مااستجابوا للواجب، وأسهموا في علاج تلك الأوضاع بما قدر الله لهم من التوفيق.

ويحدثنا فضيلته عن بعض هذه الإسهامات التي شارك في تحقيقها حيث أنشئت المساجد والمدارس ودور اليتامى، وما إلى ذلك في شتى الأقطار، كالهند وباكستان وأفغانستان وكوريا والفليبين والسودان وأمريكة وبريطانية، وغيرها من البلاد الأفريقية والأسيوية والأوروبية ...

وإلى جانب هذه المنشآت بدأ تدفق آلاف الطرود من المطبوعات الإسلامية على مسلمي تلك الأقطار من قبل حكومة قطر، ومازال الكتاب الإسلامي القطري يأخذ سبيله إليها بكثافة مشهودة، مابين عربي ومترجم إلى مختلف لغات المسلمين .

وقائع ونصائح

ويرى الشيخ أن أهم مشكلات المسلمين المشتركة يتمثل في الاضطهاد الذي يعانونه على أيدي الهندوس والسيخ في الهند حيث تتوالى عمليات القتل فيهم، ثم يلي ذلك مؤامرات المنصِّرين في العديد من ديارهم الشرقية، وبخاصة أفريقية...

ولعل فضيلته لم يصل برحلاته الاستطلاعية إلى أندونيسية، ولو فعل ورأى مارأيناه هناك من غارات المنصِّرين الذين فتحت لهم أبواب البلاد على مصراعيها حتى أصبحوا شبه دولة داخل الدولة الأندونيسية، يملكون المطارات والبواخر والمواصلات البرية على اختلافها، حتى تمكنوا من اقتلاع الملايين من فقراء المسلمين وتحويلهم من عبادة الله إلى عبادة المسيح والقديسين.. أجل.. لو رأى من ذلك مارأينا لما توقف عن ذكر أندونيسية مع أفريقية في هذا البلاء الذي لاكاشف له إلا الله.. وفي كتابنا (ذكريات لاتنسى) ثم في الجزء الثاني من كتابنا « علماء ومفكرون عرفتهم » صفحات داميات من هذه الأوضاع التى من حق كل مسلم أن يعرفها .

وفي تقدير الشيخ حفظه الله أن تكثيف الاهتمام بشئون هؤلاء المسلمين واجب لابد من الوفاء به على كل ذي طاقة ومسئولية من أهل الإسلام، وفي مقدمة هذا الواجب الكبير العناية بإقامة المساجد التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وبخاصة المدارس التي تتولى إنشاء الجيل الصالح من أبناء البلاد،

للقيام بنشر التوعية الإسلامية السليمة بين أقوامهم، ثم لابد من تضافر الجهود لتزويد المسلمين، أفرادا وجماعات ومدارس ومساجد، بالكتب الإسلامية الموضحة لحقائق الإسلام بلغات هؤلاء الأخوة ..

ومن أجل ذلك يرى فضيلته أن ثمة أمرين متلازمين لابد من توافرهما لانجاح العمل، أحدهما معنوي هو الدأب على نشر الوعي الديني في أوساط جماهير المسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة، عن طريق دعاة أكفاء أعدوا خصيصا لهذه المهمة، والآخر مادي بتأمين الروافد المالية التي تحقق متطلبات الدعوة وهي موفورة ولله الحمد سواء لدى أولي الأمر من حكام المسلمين، أو ذوي اليسار الذين يهمهم أمر دينهم، ويستشعرون مسئوليتهم أمام ربهم يوم يسأل كل نفس عما أسلفت ...

ولا ينسى فضيلته أن يوجه أنظار هؤلاء المسئولين كذلك إلى مالامسه في بعض الأقطار الآسيوية كالفليبين وكورية ـ الجنوبية طبعا ـ من استعداد لقبول الإسلام، حيث أخذ ينتشر بخطى واسعة .. فيقول إنها فرصة ذهبية على المسئولين أن ينتهزوها لإقامة الدين الحق، وتوسيع رقعته العالمية تحقيقا لوعد الله بإظهاره على الدين كله، رحمة بالإنسانية الضائعة، وأخْذاً بيدها إلى نور الله .. ويكرر التوكيد على حسن الاختيار للمبعوثين، الذي يملكون الاستطاعة التي تمكنهم من مخاطبة العقول والقلوب .

هجرات المسلمين إلى الغرب

وفي ختام هذا الاستطلاع رأينا أن نقف على رأيه في مسيرة الجيل الإسلامي وما يتوقع له، وما يقترح بشأنه، على ضوء مرئياته ومشاهداته في المواطن التي جابها من ديار المسلمين ...

ولقد جاءت أجوبته خلاصة مركزة من خبراته العميقة النافعة إن شاء الله.

يقول فضيلته: لقد غزت مفاسد الحضارة الغربية وجود المسلمين وتسربت سمومها إليهم من كل جانب .. ولعل من أهم هذه المنافذ هجرة الشباب المسلم للدراسة وطلب العلم، وهو أمر لامفر منه، ولكنه يفرض على

المسئولين عن هذا الابتعاث أن يحسنوا اختيار أفراده من الشباب الذين حققوا درجة عالية من الوعي والثقافة الدينية الصالحة لتحصينهم من تلك الأوبئة، التي باتت تهدد الإنسانية كلها بالفواجع المدمرة.

ويتابع فضيلته نصائحه القيمة قائلا: وإننا لننتظر من المسئولين في بلاد الإسلام أن يقللوا ماأمكن من الابتعاث، ولاسيما بعد أن توافرت الجامعات ذوات التخصصات العالية في الكثير من أقطار المسلمين، فأغنتهم عن إرسال البعوث إلى ديار الكفر والتيارات الهدامة.. ولا حاجة لتذكيرهم بما وصل إليه الحال من فساد المجتمعات الغربية التي أصبحت مهبَّ السموم والأرزاء على العالم بأسره، وحسبها من عقاب الله هذه الأمراض التي تهددها بالاجتياح، وقد عجز عنها كل ماوصلت إليه حضارتهم من علوم الطب والأدوية والمختبرات.. وعميت قلوب هؤلاء الضالين حتى نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فلا يتوبون إليه ولا هم يذَّكرون...

هذا وليس البلاء مقصورا على أبنائنا المبتعثين وحدهم، فهناك الملايين من مهاجرينا إلى تلك الأقطار الموبوءة يتجرعون المرائر من تعصب أهلها، ويتمرسون بالكثير من سلوكياتهم الخاطئة، حتى كادوا ينسون أصولهم وخصائصهم الإسلامية، ويعرضون ذرياتهم للانسلاخ نهائيا من وشائج الانتماء إلى صبغة الأجداد والآباء.. فهؤلاء كذلك في أمس الحاجة إلى الأخذ بأيديهم وانقاذهم من هاتيك المستنقعات، وإنما يحول دون عودتهم إلى أوطانهم الإسلامية اضطراب الأحوال فيها، والأوضاع التي توهمهم وغيرهم أنهم لن يجدوا مستقرا لهم صالحا في بلادهم الأصيلة.. مع أن بلادهم في مسيس الحاجة إلى جهودهم وخبراتهم.. وكل ماعلينا هو أن نؤمن لهم فرص العمل المناسب، ونشعرهم بحق الأخوة والكرامة.. ولو وُفقنا إلى هذا الحل لقضينا على هذا النوع الآخر من الهجرة، ولعاد ذلك علينا وعلى مهاجرينا وعلى أجيالنا القادمة بالخير الكثير..

الإعلام ومسئولياته

ولا ينسى فضيلته في نهاية الحديث أن يركز على وسائل الإعلام

ومسئولياتها الثقيلة نحو كل ماتقدم ذكره من المهام الجليلة. **فهو يرى أن الإعلام في الدول الإسلامية مقصر في أداء ماعليه في هذا النطاق، وكان عليه أن يكون هو الخط الأول في الدعوة إلى الخير، وفي التصدي لكل المفاسد التي تريد** اقتحام حصون الإسلام، وتنبيه الجماهير إلى وجوب التشبث بالمميزات التي جعلت من السلف الصالح خير أمة أخرجت للناس، ومن ثَم تذكيرهم بسنن الله في عواقب الطاعات والمعاصي، والاعتبار بما سبق للأمم الماضية من القواصم جزاء انحرافها عن سبيل الله، وما تتعرض له البشرية الحاضرة من المحن الماحقة التي سلبتهم الأمن والاطمئنان، وأصبحت تهددهم بالفناء وأنواع الحدثان.. وألاّ سبيل لتفادي هذه الكوارث إلا بالعودة إلى الله والاعتصام بحبله، والالتزام لكتاب الله وسنة نبيه، وبذلك وحده يتحقق لهم نصر الله الذي لايتخلف عن القوم الصالحين. وقد ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليُمَكِّنَنَّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم وليُبَدِلنَّهم من بعد خوفهم أمنا**..﴾ ومن أصدق من الله حديثا!...



الشيخ عبد الله بن إسماعيل السورتي

كان مولده عام ١٣٥٢ هـ في مدينة (هيربو) من إقليم بورما، حيث كان والده يعمل في التجارة، ولم يستقر هناك سوى سنوات ثلاث إذ عاد مع والده إلى وطنهم الأصلي بالهند، واتخذ مقامه في قرية (كافودره) من أعمال (بروس) وهي كما يقول موطن أسرته التي كانت تقطن مدينة (جيتالي) في تلك المديرية.. ويصف أسرته بأنها متوسطة تعمل في الزراعة، وتجمع إليها التعلم والثقافة العصرية، مما أتاح لكثير منهم أن يتولى مناصب القضاء في محاكم الهند الرسمية..

أما والده فكان معلما في إحدى مدارس الحكومة، إلا أنه مالبث أن هجر التعليم إلى التجارة، ثم سافر إلى رنغون ــ عاصمة بورما ــ التي عاد منها بأسرته إلى مسقط رأسه..

وبدافع من تربية هذا الوالد الذي كان شديد التعلق بالعلماء، مواظبا على واجباته الدينية، ويقضي أوقات فراغه في تلاوة القرآن الكريم ومطالعة الكتب الدينية.. نشأ ابنه على حب العلماء وارتياد المساجد، والتخلق بآداب الإسلام. وفي السادسة من عمره أدخله والده كتاب القرية حيث بدأ دراسته بإحسان التلاوة إلى جانب الدروس الأولية من الفقه والعقيدة، ومن هناك انتقل إلى المدرسة الحكومية حيث قضى سنواتها الست في تعلم اللغة الكوجراتية ــ لغة إقليمه ــ إلى مايرافقها من العلوم العصرية المختلفة، وبذلك تهيأ للالتحاق بالجامعة الإسلامية المعروفة باسم (تعليم الدين) في منطقة دابيل. فتلقى على علمائها الأفاضل مقرراتها في اللغات الأوردية والفارسية والعربية، وتوسع في دراسة الفقه والحديث والتفسير، حتى حصل على شهادتها النهائية (الفضيلة) بعد ثمان سنوات متتابعات، سافر بعدها إلى ديوبند حيث التحق بجامعتها

الشهيرة بـ (دار العلوم) التي عرفت كذلك باسم أزهر الهند، وداوم فيها مايزيد على السنتين يتزود بالمزيد من العلم على أيدي أساطينها ذوي الشهرة الواسعة في علوم الدين واللغات الإسلامية ..

ويعد الشيخ من أساتيذه الذين يحمل لهم أطيب الذكريات عددا غير قليل، منهم في (تعليم الدين) ــ دابيل ــ الشيخ محمد إبراهيم الدابيلي، والشيخ محمد محمود السورتي، والشيخ فضل الرحمن البيشاوري، وأستاذي الحديث الشيخين عبد الرءوف البشاوري والشيخ عبدالجبار الأعظمي. ومن (دار العلوم) ــ ديوبند ــ المشايخ الكبار نصير الدين أحمد خان، ومعراج الحق، والسيد فخر الحسن، وأختر حسين، وسيد حسن ديوبندي، والمحدث فخر الدين أحمد المراد آبادي، والعلامة إبراهيم بلباوي، والسيد المفتي مهدي حسن الشاه جها نفوري.. ويخص بالذكر العلامة عبد الحي بسم الله، الذي يرد إليه كبير الأثر في إثارة أشواقه العلمية.

والشيخ في سرده لأسماء هؤلاء الفضلاء إنما يسجل آثارهم العميقة في تكوينه الفكري والروحي، وإننا لنشعر، ونحن نمضي معه في ذكرهم، أننا نشاركه مشاعر التقدير لفضلهم في خدمة الإسلام والمسلمين، وتثبيت خطاهم في الطريق الذي شقه سلفهم الصالح، الذين إليهم يعود الفضل في استمراره حياً متوهجا، على الرغم من كل النوازل التي عاناها أهل الإسلام على أيدي جلادي الانجليز من قبلُ، ويعانونها هذه الأيام بسكاكين القتلة من متعصبي الهندوس..

ولقد كان من فضل الله على كاتب هذه السطور أن يتعرف بعض هؤلاء المجاهدين في نشر المعرفة الإسلامية، خلال جولاته غير القصيرة في بعض مواطنهم، مثل لكهنؤ وأورانسي، وأعظم كره ودابيل، وتركيسر، ودهلي، وبومباى، فيشاهد على الطبيعة آثارهم الشاهدة بفضلهم وروائع مآثرهم، التي قل نظيرها على مستوى العالم الإسلامي. ثم إن من تمام فضله تعالى على هذا الكاتب مايسر له من تسجيل مرئياته هذه في كتابه (مشاهداتي في الهند) الصادر في القاهرة قبل العام الماضي ١٤٠٥ هـ .

وطبيعي لفتى تتاح له مثل هذه النشأة العلمية والتربوية ألاَّ يكتفي بما حصله من العلم في المعاهد المختلفة، وعلى أيدي الجلة من أهل الفضل، كما يفعل بعض المتعلمين حين يفرغون من الدراسة التقليدية، فلا يلبثون أن يلقوا بكتبهم وراء ظهورهم، ويقطعوا صلتهم بكل مايمت إلى العلم بصلة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.. بل كان صاحبنا من الطراز الآخر الذي يؤمن بأن رحلة طالب العلم لاتنتهي إلا بنهاية الحياة، وأن العقل الذي يُعزل عن طريق المعرفة المتجددة مصيره الذبول، فلا سبيل إلى استبقاء حيويته إلا بمواصلة تغذيته..

وهكذا أقبل الشيخ على الثقافة الحرة يعبُّ منها أنى وجدها. ولابد أن يكون في مقدمة مطالعاته كتب الصفوة من علماء الهند، أمثال السيد سليمان الندوي، والسيد شبلي النعماني، ومقالات أبي الكلام أزاد، ومؤلفات الإمام أبي الأعلى المودودي في أصولها الأوردية.. ووجه مثل ذلك الإقبال إلى كتابات المشهورين من مفكري العرب وأدبائهم كالدكاترة أحمد أمين وطه حسين ومحمد حسين هيكل، ومصطفى السباعي، وسعيَد رمضان، وعبد الرحمن رأفت الباشا، والأساتذة المنفلوطي والعقاد والرافعي.. ويأبى حفظه الله إلا أن يذكر اسمي في قائمة هؤلاء الذين قرأ لهم.. ثم يخص بالذكر كتب الداعية الإسلامي الكبير الشيخ أبي الحسن الندوي، قائلا إن لها أكبر الأثر في عقله وثقافته..

ومن هناك جاءت ذخيرته العربية وحسن بيانه، الذي يوهم السامع، الذي لم يعرفه من قبل، أنه قضى سنيه كلها في أوساط الفصحاء من بلغاء الناطقين بالضاد..

وعلى طريقة الأوائل من خَدَمة العلم الإسلامي لم يرض لنفسه أن تحرم من الترحال في طلب المزيد من المعرفة، وأتاح الله له ماأحب من ذلك فيسَّر له زيارة العديد من معاهد العلم في الهند وبلاد العرب، وكان بينها جامعة عليكره الإسلامية، والجامعة الملية، وجامعة دهلي، والجامعة العثمانية، وجامعة ديوبند، وجامعة مظاهر العلوم، وندوة العلماء، وهي تنتشر في كبرى حواضر الهند من دهلي إلى حيدر أباد وسهار نفور ولكناؤ.

ثم كانت زياراته للبلاد العربية التي تعرَّف فيها عن كثب للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وجامعة الملك عبد العزيز بجدة، وجامعة الأزهر بالقاهرة.. وزاد على ذلك جامعة لوساكا في زامبية وهراري من إفريقية الوسطى.. وكانت هذه المناسبات فرصا نافعة للشيخ، لأنه لم يتحمل وعثاء هذه الأسفار طلبا للمتعة السياحية، كما يصنع المترفون العابثون، بل قصد منها الاطلاع على حركة التعليم والأنظمة التي يقوم عليها في مختلف هذه المؤسسات. وكان طبيعياً أن يجد مردود ذلك في أعماله المختلفة التي تولى أمرها أثناء ذلك وبعده..

بين التعليم والصحافة

ويحدثنا الصديق عن هذه الأعمال فيقول: عقيب تخرجه في الجامعة الإسلامية عام ١٩٥٣م عين في قسم التعليمات بمجلس خدام الدين ــ سملك ــ وهو هيئة تعليمية إسلامية، من أهدافها تنظيم المعاهد الإسلامية ونشر الدعوة، وكان يتجول في مختلف مواطن المسلمين، يتفقد أحوالهم التعليمية والدينية.. وبعد سنتين في هذه المهمة التحق بالجامعة الإسلامية في دابيل ليقوم بتدريس الفصول العربية، ثم اضطر للانتقال إلى قريته ليتولى نيابة الادارة لمجلة (التبليغ) الصادرة أيامئذ باللغة الكجراتية من كافودره، ثم يعود إلى (مجلس خدام الدين) ومنه إلى الجامعة الإسلامية بدابيل كرة أخرى ليستأنف نشاطه التعليمي، حيث قضى أربع سنوات في تدريس الكتب الأدبية مثل مقامات الحريري، وديوان المتنبي وبعض الترجمات من القرآن الكريم، إلى بعض المقررات الفقهية. وفي نهاية هذه المدة تم انتقاله مدرسا إلى المعهد الفتي الذي كان يسمى (دار العلوم فلاح الدارين) في مدينة تركيسر، ثم مالبث أن تولى إدارته، ومنذ ذلك العام ١٩٦٦ حتى اليوم لايزال على خدمته لهذا المعهد الذي أصبح معروفا بصفته الجامعية، وهو لعمر الحق جدير بهذه الصفة، ولولا خشية الاطالة لنقلت إلى القارىء ماكتبته بوصفه في كتابي عن الهند الذي سبقت الإشارة إليه، فهو من حيث البناء على غاية من التنسيق، والداخل إلى ساحته لايستطيع إلا الموافقة على قول سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي عنها بأنها **﴿جنتان عن يمين وشمال﴾** وحدث ولا حرج عن مدرسيه الراسخين في

العلم، وعن طلابه النظاميين، الذين وجدنا فيهم من يستظهر الأجزاء الكثيرة من كتاب الله، ويتلوها في تجويد يكاد يزاحم به كبار المقرئين المشهورين، وهو الذي لم يبارح سنّ الحداثة ..

هذه المُنشأة الإسلامية

ولنستمع إلى مديرها الفاضل يتحفنا ببعض المعلومات عن جامعته:

إنها تقع في تركيسر على أربعين كم من مدينة سورت، الواقعة إلى الشرق الشمالي من ولاية كجرات الشهيرة بتاريخها الإسلامي ووفرة علمائها وكثرة حُفّاظها، الذين لايقلون هذه الأيام عن مئتين وخمسين مابين ذكر وأنثى، وقد بلغ عدد جامعييها من أهل العلم والفضل حوالي المئة مع أن سكان تركيسر لايزيدون عن السبعة الآلاف إلا قليلا...

وقد بدأت جامعة (.. فلاح الدارين) نشأتها الأولى على صورة كُتّاب عام ١٣٤٩ هـ لتعليم الأطفال من الذكور والإناث مبادىء الدين الإسلامي، والأحكام الشرعية الضرورية في العبادات والمعاملات، ولكن لم ينقض عليه إلا يسير من الزمن حتى أخذ سبيله إلى النمو والتفوق، وأقبل عليه التلاميذ من أبناء القرى المجاورة، مما دعا المحسنين من أعيان المحلة، الذين كان لهم فضل تأسيسه إلى تطوير أرضاع هذا الكُتّاب، ليؤمن لطلابه حاجتهم إلى الأعلى من المستويات.. وهكذا استقر الرأي على استكمال المشروع، فَوُضِع أول حجر في بناء الجامعة بيد سماحة أبي الحسن الندوي، وتداول على إدارتها عدد من الشخصيات العلمية حتى انتهت إلى مترجمنا الفاضل عام ١٩٦٦ كما أسلفنا ...

ولم تزل في تناميها حتى توافر لها كل الأقسام التي وجد المعنيون بأمرها أنها ضرورية للوسط الذي يقوم فيه. فلكل من فروع العلوم قسمه الخاص، إلى جانب الأعمال المهنية التي فطنت لها مؤسسات التعليم الإسلامي الكبرى في الهند، فعنيت بتدريب طلابها على بعض الحِرَف التي تساعدهم على تأمين العيش الكريم، فلا يضطرون إلى التعرض للفاقة وللمواقف المسيئة لكرامة أهل العلم، كالذي رأينا عليه بعض المعلمين في بعض أنحاء أندونيسية، حيث يضطر بعضهم إلى العمل في التعليم براتب لايكاد يفي بثمن الخبز، فلا يجدون لهم

مندوحة عن شهود الاحتفالات البدعية، طمعا في الحصول على بعض المعونات التي يجود بها المحسنون أثناءها!...

وهكذا يتاح للطالب في (دار العلوم ـ فلاح الدارين) أن يتخرج إلى جانب دراساته العلمية في إحدى الحرف العملية كالخياطة والكهرباء واصلاح الساعات، فيستعين بها عند الحاجة، كشأن الكثيرين من علماء السلف، الذين جمعوا بين الفضيلتين فصانوا كرامة العلم عن الهوان.. ولقد كان من توفيق الله لهذه الجامعة أن تزايد إقبال الطلاب عليها من مختلف الأنحاء حتى بلغ عددهم الألف، وحتى رأينا بينهم من قصد إليها من كوبا والرينيون وموريش.. يدرسون ويطعمون ويسكنون، في أُخوة يغمرها الحب والتعاون.. وبلغ مدرسوها الواحد والثلاثين، وفيهم من يضاهي أكابر علماء العالم الإسلامي...

وقد عَرَفَتْ لها الجامعات الإسلامية الكبرى مكانتها ونجاحها، فقررت قبول خريجيها، ومن هؤلاء من يتابع اليوم دراساته الإسلامية والعربية في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وجامعة أم القرى بمكة المكرمة، والجامعة الإسلامية في عليكره.. وينتظر أن يكتب لطلابها حظ القبول في جامعة الملك عبد العزيز في جدة، وجامعة العين في دولة الأمارات، بعد أن تم اعترافها بشهاداتها..

وهناك أفواج من خريجيها ينتشرون في شتى أنحاء العالم معلمين داعين إلى الله، فمنهم من يعمل في أمريكة وانجلتره وجنوب أفريقية، وزامبية، ونيروبي، وجزر فيجي والرينيون.. ولبعض هؤلاء الحريجين مؤلفات قيمة باللغة المحلية واللغة الانجليزية...

وإنه لما يسعدني أن وفقني الله للمشاركة في تقرير القبول لشهادة هذه الجامعة أثناء عملي في لجنة المعادلات بالجامعة الإسلامية، إلى جانب قيامي بالتدريس فيها. وما انتهى إليه ذلك من قبول طلاب منها كنت السبب في استقدامهم للدراسة، وقد أبقاني الله حتى شاهدت طلائعهم تتخرج فيها ليعودوا إليها مدرسين ناجحين إن شاء الله..

عنايته بالعربية

وعلى استفسارنا عن العوامل التي ساعدت الشيخ على إتقانه العربية خطابا

وكتابا أجاب فضيلته : لقد بدأت دراسة العربية في جامعة تعليم الدين بدابيل، وذلك بعد إتمام دراستي الأوردية والفارسية فيها .. وقد قضيت أربع سنوات في هذا المجال حيث قرأت الكتب المقررة والمؤلفة لتعليم قواعد العربية وآدابها، وبين هذه المؤلفات (الكافية) والمتنبي، والحماسة والمعلقات السبع، وأقبلت على دراسة مقررات التفسير والحديث بالعربية، فكان لذلك أثره العميق في لساني وتفكيري جميعا، ثم لم أدع فرصة تفوتني لزيادة معلوماتي في هذه اللغة الكريمة إلا انتهزتها، ومن ذلك صحبتي للمرحوم الشيخ منادي محرر مجلة (مسلم كجرات) الذي كان واسع الألمام بالكجراتية والعربية جميعا، وقد أفدت منه كثيرا وبخاصة ماأتاحت لي صحبته من مطالعة في الصحف والمجلات التي كانت ترد إلى مكتبه .

ويخص الشيخ بالذكر فترة وجوده في دار العلوم بديوبند، حيث نال الكثير من الخير في كنف شيوخها الأجلة، ولاسيما مبعوث الأزهر فيها آنذاك الشيخ محمود عبد الوهاب، الذي وثَّق صلته به فكان لها الأثر البالغ في توسيع مداركه وممارسته للسان العربي ...

وقد سبقت الإشارة إلى رحلات الشيخ في البلاد العربية، وما فاءت عليه من التجارب والخبرات، ولقاء العلماء والشخصيات الأدبية، ولاسيما شهوده حلقات المدرسين في الحرمين الشريفين أثناء حجه الأول عام ١٩٥٣م وأيام حجتيه الأخريين في عاميّ ٥٩، ٦٨ ثم أثناء عمرته عام ١٩٧٨م .

ويقول أخيراً: سأكون جد مقصر إذا لم أؤكد هنا ماأفدته من مؤلفات فضيلة الشيخ أبي الحسن على الندوي: التي أنشاها بأزهى الأساليب العربية، هذا إلى ماحفلت به مؤلفاته من الثقافة الإسلامية والفكر الصحيح، والمعلومات التاريخية الموثَّقة، والتوجيهات السديدة في مجال العقيدة والدعوة والمميزات الإسلامية الأصيلة.

السبيل إلى تجاوز المحنة

وكان علينا أن نحاور الشيخ في واقع المسلمين والظروف الحرجة التي يعيشونها هذه الأيام تحت كابوس التعصب الوثني بالهند .. فكان من جوابه

الخلاصة التالية:

أهم مايعانيه المسلمون هذه الأيام هو تلك المحاولات التي تبذلها بعض المنظمات الهندوسية وعلى رأسها جماعة (آر. ايس. ايس) لصهر جميع الحضارات والثقافات، وبخاصة الحضارة الإسلامية، في بوتقة قانون مدني موحد، وليس الحكم القضائي، الذي أصدرته المحكمة العليا أخيراً في شأن النفقة الأبدية على الزوج لمطلقته إلا مثالاً واحداً للنوايا المبيتة على قوانين الأحوال الشخصية الإسلامية تمهيداً للضربة الكبرى ...

ولكن هذا الهجوم على المقومات الإسلامية قد أدى بالمسلمين إلى توحيد صفوفهم لمقاومتها ..

وفي رأي الشيخ أن المسلمين قادرون ــ بفضل الله ــ على تجاوز المحنة إذا استطاعوا الحفاظ على هذه الوحدة عن طريق الاعتصام بحبل الله، والتمسك بأهداب الشريعة المطهرة، فلا يذهبون بقضاياهم إلى المحاكم المدنية بل يلجئون بكل مشكلاتهم إلى علماء الإسلام والمفتين والمحاكم الشرعية، التي ينبغي أن تقام في سائر أنحاء الهند ..

بيد أن هذا الحل سيظل في نطاق الأحلام مالم يسبقه أو يصحبه إصلاح عام لأوضاع المسلمين، يعالج مشكلاتهم الاقتصادية والتعليمية حتى يعم الوعي كل جماعاتهم.

والحق إنه لَلْحلُّ الأفضلُ ليس لمسلمي الهند فحسب، بل لعامة المسلمين، وبخاصة تلك الشعوب الإسلامية التي ابتليت بالحكم العلماني الذي عطل أحكام الشريعة ولاسيما في نطاق الأحوال الشخصية.

وإلى نشر الدعوة

إن واقع المسلمين في هذه الأيام قد أعطى الجاهلين بحقائق الإسلام صورة مشوهة عنه من شأنها أن توهمهم أن الإسلام ليس إلا هذا الذي يشاهدونه في المسلمين من الفرقة والتمزق والتناحر وإهدار الدماء والاستهانة بحقوق الإنسان، وطبيعي أن تكون نتيجة ذلك هو النفور والاعراض والامعان في الكراهية، وقد

جربنا ذلك من خلال وقائع التاريخ أيام كان السلوك الفاضل للمسلمين هو الوسيلة الناجحة إلى قلوب الشعوب والأمم التائهة ...

أما المثقفون ومنهم الهنود بخاصة فجل مايعرفونه عن الإسلام هو الذي يتلقونه عن اعدائه من المستشرقين والمنصرين وعن طريق الإعلام السياسي الغربي.. ولا سبيل إلى تصحيح هذا الوضع إلا بتخطيط صحيح يقدم الصورة الحقيقة للإسلام، عن طريق المؤلفات الموثقة التي تخاطب العقول والقلوب.. ثم تأتي دور الاتصال بهذه الطبقة بوساطة الحوار المباشر، ودعوتهم لزيارة المعاهد والمراكز الإسلامية السليمة، التي تصلح لعرض الإسلام كما أنزله الله.. وبذلك تتهيأ الأرضية الصالحة للعمل المنتج ..

ويقول الشيخ: لقد جربنا بعض هذه الوسائل فاتصلنا بعدد من كبار المثقفين الهندوس وتمت لهم زيارات لجامعتنا أطلعتهم على خصائص الجو الإسلامي والبيئة التعليمية الدينية، فكان لذلك أثره الطيب في نفوسهم.. وقمنا بتوزيع بعض المطبوعات النافعة. وبينها كتاب من تأليف الدكتور محمد حميدالله، كان قد صدر بالانجليزية ثم ترجم إلى اللغة الكجراتية، وفيه تعريف موجز ومركّز للإسلام، أثار في قرائه من مثقفي الهندوس الكثير من الرضى، وتلقينا من بعضهم رسائل تنوه بارتياحهم إلى ذلك الكتاب وتقديرهم لتلك الحقائق.

وقصارى القول أن العالم كله في أمس الحاجة إلى الإسلام في هذه الأيام، ولكن لابد من معرفة الطريق الذي يستطاع به إيصاله إلى قلوبهم وعقولهم..

نصيحة إلى الشباب

وأخيراً رأينا أن نتلقى من فضيلته نصيحة أبوية يوجهها إلى شباب الجيل المسلم، الذي هو أحوج مايكون إلى خبرة العاملين في ميدان التربية والتعليم الإسلاميين، فرأى أفضل مايقدمه إلى هؤلاء الأبناء الأحباء هو توجيه أفكارهم إلى الأمور التالية:

١ ــ أن يهتموا بالحفاظ على شخصيتهم الإسلامية أينما حلوا..

٢ ــ وأن يعتزوا بما هداهم الله إليه من نعمة العقيدة الإسلامية الصحيحة والتي كانت المصدر الأول لأكرم الحضارات على هذه الأرض ...

٣ ــ وأن ينأوا بأنفسهم عن مظاهر الترف المفسد ...

٤ ــ وأخيراً عليهم أن يسموا بأنفسهم عن مواطن العبث الذي يصرفهم عن أهم الواجبات، التي تدعوهم لتوجيه طاقاتهم الفعالة إلى كبار الأعمال، بدلا من تبديدها في التوافه والسفاسف..

والله المستعان وعليه التكلان ...

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله محمد بن مصطفى المجذوب / إلى أخيه في الله فضيلة العلامة الشيخ عبد الله بن إسماعيل السورتي أدام الله توفيقه إلى كل مايحبه من قول وعمل.

أما بعد فإني أحمد الله الذي جمعنا على الهدى وأصلي وأسلم على صفوته من خلقه إمام المرسلين وقائد الغر المحجلين محمد بن عبد الله وآله وصحبه أجمعين.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. ولكم أخلص الشكر على هديتكم النفيسة (أضواء على تاريخ الحركة العلمية والمعاهد الإسلامية والعربية في غجرات) وإنه كتاب قيم أتمنى لو يتاح توزيع مقادير منه على ذوي الثقافة في المواطن العربية ليتعرفوا من خلاله جهاد الأجيال من أئمة العلوم العربية والإسلامية في الهند، أولئك الجهابذة الذين ماانفكوا يتتابعون على إعلاء كلمة الله تحت راية القرآن والسنة، وفي حراسة اللسان المبين الذي جعله الله الوسيلة المثلى لفهمهما والاستضاءة بنورهما..

والحق إنني لم افاجأ بروعة المضمون ولا بسلامة الأسلوب، لأن الذي

عرفته عنكم خلال الأيام المباركة التي تلاقينا بها في تركيسر وندوة العلماء قد ملأ نفسي إعجابا بمواهبكم (وعربيتكم) وانتظام أفكاركم العميقة، لذلك كانت مطالعتي في الكتاب فرصة جديدة لاستئناف ذلك اللقاء السعيد، الذي أضاف إلى شخصكم الكريم صحبَة العشرات من فضلاء الأمة الذين كان لهم النصيب الأوفى من الفضل في الدعوة إلى الوحيين، وفي إعطاء العربية موطنا جديداً تخرج فيه الأكبرون من حماة الفصحى وآدابها.

وحسب الكتاب بعد ذلك أن يضع بين يدي طلبة العلوم الإسلامية فيضاعَمَماً من المعرفة في صفحات محدودة دون المئتين عددا، ومن أولى ثمراتها أن تزيد وشائج الأخوة بين مسلمي الهند والربوع العربية قوة وتوثيقا. وقد قدح جهدكم المبرور في نفسي خاطرة وددت لو تجد قبولا لدى أولي الفكر والأدب لافي الهند فقط بل في مختلف ربوع الإسلام.

لقد وفيتم حق غجرات بما عرضتم من وجوه إسهاماتها في نطاق الحضارة الإسلامية على مر العصور فرأينا مواكب العلماء والحكام الصالحين والمنشآت العلمية على اختلاف مستوياتها، ولم تغفلوا الحديث عن لغتها وتفاعلها مع لغة القرآن العظيم.. وما إلى ذلك من ألوان النشاط الذي كان له مردوده الملموس في عالم الفكر الإسلامي على امتداد أمكنته وأزمنته.. فجزاكم الله خير مايستحق هذا الجهد من بركاته، وحبذا لو نهض في كل ولاية من الهند من يواصل سبيلكم فى عرض مثل هذه الصور عن نشاط ولايته وأساطين علمائها ومراكز ثقافاتها.. بل أتمنى أن يمتد ذلك إلى كل بلد إسلامى، على أن يتاح لهذه المجهودات من وسائل النشر مايحقق إيصالها إلى أكبر عدد من مناطق المسلمين.. وفي ذلك إحياء لسنة سبق إليها العديد من مؤرخي حضارتنا الفاضلة.. ولعلي قد أسهمت ببعض الجهد فى ذلك في الأجزاء الثلاثة من كتابي (علماء ومفكرون عرفتهم) التي ترجمتُ فيها للعشرات من معاصري العلماء والمفكرين في عالم الإسلام.

وأخيراً لاأشك أنه سيكون من الخير لو قيض لكتابكم من يترجمه إلى سائر لغات المسلمين، وبخاصة بعد التحرك الجديد نحو وحدة الأدب الإسلامي، ذلك التحرك المبارك الذي كان لندوة العلماء في لكناؤ، ولشيخها الجليل فضيلة الأخ أبي الحسن الندوي، أثرهما المحمود في إبرازه وإثارة الهمم لدفعه إلى

الأمام. وليس بعزيز على همة الداعية الموفق أبي الحسن أن يكون سببا في ترجمته إلى أكثر من لغة إسلامية لتعم فائدته ويجزل أجر المهتمين به إن شاء الله.

وانتهز هذه الفرصة السارة لأوكد تقديري لكم ومودتي القلبية لسائر الفضلاء من أسرة (دار العلوم ــ فلاح الدارين) الذين تركوا في قلبي ووجداني أعمق الآثار.

والله أسأل أن يختم لنا جميعا بالصالحات وأن يقدر لنا الاجتماع في ظل رحمته يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً

محبكم/ محمد المجذوب

المدينه المنــورة ص ب ٤٣
هاتف المنزل ٨٢٢١٨٠٥

* * *

الشيخ عبد الله نديم الجسر

الذين كانوا يتابعون أعداد « الرسالة » فى عهود ازدهارها ، لا بد واجدون فى ذاكرتهم صورة ثابتة لهذا المفكر الذى نترجم له الآن . .

ومن هناك بدأت معرفتى إياه من خلال كتاباته المميزة بالعمق والسمو البلاغي . . وعهد الرسالة ذاك يمثل المرحلة المتألقة فى مسيرة البيان العربى خلال النصف الأول من هذا القرن ، فقلما يقع منها القارىء على مقال من النوع الوسط ، فكيف بالدون ، ولم تكن مقالات الشيخ نديم الجسر بأقل محتوياتها إشراقاً إن لم تكن فى قمتها ..

ولقد كان لأسلوبه الأنيق الجزل أثره فى نفسى ، يدفعنى إلى البحث عن اسمه فى كل عدد يصلنى من مجلة الزيات — غفر الله له — فإذا وقعت عليه حجزت لمقاله حصة خاصة من وقتى نشدانا للمتعة بتلك الجزالة الأنيقة . ولهذا وجدتنى أعجل بالحصول على نسخة من كتابه « قصة الإيمان » فور علمى به . ولم يخب ظنى فقد وجدت فى كتابه هذا جماع ما عهدته فى بحوثه السابقة من روعة البيان ، مضافاً إليها طرافة الموضوع الذى كان به — فى نظرى — واحداً من نوادر الأسفار التى أخرجتها المطابع العربية خلال عشرين سنة على الأقل . .

ولم أتمالك أن سجلت انطباعاتى عن ذلك الكتاب فى عرض واف نشرته مجلة حضارة الإسلام ، ولم يمض على نشره سوى القليل حتى تلقيت من مؤلفه رسالة قيمة تفيض بالتقدير الجميل ، وتَعِد بمراعاة ملاحظاتى حوله فى طبعته التالية ، وقد وفَّى الشيخ وعده ، وتدارك بعض تلك الملاحظات فى بعض طبعاته اللاحقة . . ثم شاء الله أن ألقاه بمصيفه فى أعالى « سير » وتعارفنا عن كثب بعد أن تلاقينا على صفحات الأوراق . .

ويومئذ أبلغت الشيخ نديم رغبتى فى إخراج كتاب بعنوان « علماء ومفكرون عرفتهم » أترجم فيه لصفوة مختارة من رجال لقيتهم وأعجبت بهم . . وقدمت إليه ببعض الأسئلة التى وعد بالإجابة عليها ، لأتخذ منها منطلقاً إلى الكتابة عنه ، ولكن تأخرت أجوبته حتى اضطررت إلى تقديم الجزء الأول من الكتاب للنشر فى بيروت ، ثم طبع للمرة الثانية دون أن يحمل عنه شيئاً . .

وها أنذا أنهى كتابى هذا بعد أن وافاه الأجل ــ رحمه الله ــ فكان علىَّ أن أتدارك ذلك بالاعتماد على معارفى الخاصة من خلال لقائنا الشخصى ، ثم من خلال أفكاره المعروضة فى كتابه « فلسفة الإيمان » الذى يعكس فى مباحثه الكثيرة صوراً حية لتصوراته العقلية ، وللصراع الذى نشب ذات حين بين عقله وفطرته . .

والشيخ نديم هوابن عالم طرابلس الشام الكبير المعروف بالشيخ حسين الجسر ، وهو الذى تعرفت منزلته العلمية لأول مرة من خلال كتابه « الرسالة الحميدية » ذلك الكتاب الذى سبق به محيطه ، وعالج به أعمق القضايا الفكرية التى شغلت عصره ، وبخاصة فى العالم الغربى ، من خلال رؤية إسلامية أبرزت تفوق الإسلام على سائر النظريات الحديثة فى أدق هذه القضايا . . تماماً كما فعل بعده وليده النديم فى كتابه عن الفلسفة والإيمان والقرآن ، الذى جاء تفصيلاً لمجملات تلك الرسالة ، وتكملة تقتضيها التطورات المعاصرة فى ميادين العلوم الكونية ، الأمر الذى يبعث على العجب والتساؤل عن السر الذى جمعهما معاً على هذا الاتجاه ! . .

وقد سمعت ذات يوم فقيد جدة والعالم الإسلامى الشيخ محمد نصيف ــ تغمده الله برحمته ــ يحدث عن الشيخ حسين الجسر هذا فيخصه ببالغ الثناء ويذكر أنه استمع إلى بعض دروسه التى كان يلقيها فى المسجد الحرام أثناء حجه ، فوجد لديه من العلم ما استحوذ به على الألباب ، واجتذب إليه جماهير المستمعين من حجاج العالم الإسلامى . ويلحظ من تسميته ذلك الكتاب القيم بالرسالة الحميدية أنه يريد إهداءه للخليفةالمؤمن السلطان عبد الحميد ، رحمه الله ، ولعله يريد بكلمة « الرسالة » تنبيه السلطان إلى مسئوليته نحو أمته التى

كانت فى أمس الحاجة إلى الانتفاع بالكشوف العلمية الحديثة ، ثم نحو دينه الذى يملك من الطاقات الحضارية ما يتجاوز واقع الحضارة الغربية بل العالمية جميعاً . .

أما ابنه النديم فقد أحاط بما يعج به المجتمع الإسلامى الذى يعاصره من النزعات الدخيلة ، التى حملها المتأثرون بالثقافة الغربية وراحوا يعرضونها على المسلمين فى موكب من المغريات ، التى تشد النفوس الفارغة إلى كل ماهو غربى ودخيل ، مع الإغفال التام لمعطيات الإسلام وموقفه من مختلف المذاهب الفكرية الوافدة ، فرأى من مستلزمات الفكر السليم أن يواجه ذلك الهجوم بما يعسمه من حقائق الوحى ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . وقد بلغ عمله من الإحسان والتجويد إلى أن ينتشر كتابه على مستوى العالم العربى ، وفى أوساط الكبار من المثقفين ، الذين تلقوه بإعجاب بالغ ، إذ وجدوا فيه الحجةالمروية لظمئهم إلى الحقيقة . .

وعلى الرغم من إعادة طبعه العديد من المرات فقد أبى مؤلفه أن يتقاضى أى فائدة منه ، بل جعله نهباً مباحاً لكل ناشر فى أى مكان ، لمجرد إشاعة المعرفة وابتغاء لما عند الله . . وبذلك يتلاقى كتابا الوالد والولد على الهدف الواحد ، الذى هو تثبيت الذاتية الإسلامية بوجه المد الغربى ، الذى يوشك أن يطغى على كل شىء فى حياة المسلمين . .

وما دمنا فى صدد التعريف بمنشأ هذا المترجم فيحسن أن نذكر القارىء بأخ له كان له أثر كبير فى الحياة السياسية بلبنان ، ذلك هو الشيخ محمد حسين الجسر ، الذى شغل لسنين طويلة منصب الرئاسة التشريعية فى ذلك القطر ، أيام الانتداب الفرنسى ، وكان من أقوى الشخصيات التى عرفها لبنان حتى الآن ، سواء من الناحية الفكرية أو الخبرة السياسية ، إذ كان من أقدر الناس على تحقيق المبدأ القائل « لو كان بينى وبين الناس شعرة لما انقطعت . . إن أرخوا شددت وإن شدوا أرخيت . . » وأكثر ما ظهرت فاعلية هذه المرانة السياسية ، فى علاقته مع الفرنسيين ، فقد أرادوا استغلال وجوده فى السلطة لترسيخ التفوق المارونى على حساب الكثرة الساحقة من المسلمين فلم يوفقوا إلى تطويعه ، إذ كان يقابل محاولاتهم بالحجة التى لا يستطيعون ردها ، وهى

إجماع الطوائف المسيحية الأخرى على رفض الهيمنة المارونية ، فضلاً عن المسلمين الذين أصبحوا ، بعد ضم الشمال والجنوب إلى لبنان الكبير ، يؤلفون الكثرة الساحقة لمجموع سكانه . . فخير للفرنسيين أن يقدروا الواقع فيكسبوا تقدير الجميع ولم يزل بهم حتى أقنعهم بإجراء انتخابات تمكن لسكان لبنان أن يعبروا عن إرادتهم باختيار ممثليهم الذين يتولون تركيز الأوضاع النهائية لأجهزة الحكم . .

وقد استراح المسئولون الفرنسيون لهذه الفكرة ، إذ تصوروا أن تطويع المجلس لأغراضهم أقرب منالاً وأقصر طريقاً لتحقيق ما يريدون . .

ومكروا ومكر الشيخ الداهية ، إذ راح كل من الفريقين يعمل لإعداد الجو الملائم لمصلحته من وراء ستار . . غير أن الفرنسيين ما لبثوا أن أحسوا بالهوة التى يحفرها لهم الشيخ ، فإذا هم يلغون فكرة الانتخابات ، ويصدرون أمرهم بحل المجلس القائم ، وعادوا لتجربة الحكم المباشر . . وهكذا نفذوا خطتهم بالتمكين للموارنة من أزمة القطر . . فلما اضطروا لمغادرة ما يسمونه بالشرق الأوسط لم ينسوا أن يشددوا من بنيانهم الذى أسسوه ، وذلك بالتوفيق بين الموارنة والطوائف الأخرى على أساس الاعتراف بتفوق القلة المارونية . . وقد وجدت الجماعات الإسلامية نفسها مضطرة فى سبيل التخلص من الطغيان الفرنسى إلى القبول بالأمر الواقع ، فكانت أول حكومة بعد الاستقلال هى التى رأس جمهوريتها بشارة الخورى ، ورأس وزارتها رياض الصلح . . . ومنذ ذلك اليوم بدأ التنازع بين الشركاء لأن النظام الذى فرضه الأجنبى كان يعطى رئيس الجمهورية حق الحكم فى كل شيء ويعفيه فى الوقت نفسه من المسئولية عن أى شيء. ولا حاجة إلى السؤال عن نتيجة ذلك الوضع الغريب ، ففى المذابح الأهلية التى يعانيها لبنان اليوم أوضح بيان لنتائج المؤامرة الفرنسية عليه ، وأبرز الأدلة على حكمة ذلك الشيخ الذى لو أُخِذَ برأيه يومئذ لوفر على سكان لبنان عشرات الآلاف من الضحايا ، الذين كانوا الحصيلة التى لا مناص منها للخطة الفرنسية الظالمة . . .

فى هذه البيئة المميزة نشأ الشيخ نديم الجسر ، فتأثر أول ما تأثر بموحيات والده الاجتماعية والعلمية . . وليس باليسير أن يجد هذا الغلام نفسه فى أسرة

تتمتع باحترام الكافة من سكان بلده ، ويرى إلى كبار العلماء يحدقون بمجلس ذلك الوالد يتلقون عنه علوم النقل والعقل ليقوموا هم بنشرها فى الأنحاء المختلفة والمتباعدة . . .

وكان لأخيه الأكبر أثره العميق كذلك فى تكوينه الفكرى فليس بالأمر اليسير أيضاً أن يشاهد تصرفات ذلك الداهية ، وقدرته على مقارعة التيارات السياسية ، ثم لا يتعلم منها شيئاً ولا ينتفع بشىء من خبراته الكثيرة . . .

أضف إلى ذلك تلك البيئة الطرابلسية التى عايش مترجمنا رحمه الله مرحلتيها الاثنتين قبل الاحتلال وبعده .

والذين يعرفون منطقة طرابلس الشام خلال أوائل هذاالقرن ــ العشرين ــ يدركون أهميتها بالنسبة إلى العلوم الإسلامية ، فقد كانت إحدى منائر الثقافة الإسلامية فى الشرق الأوسط ، إليها يأرز طلبة هذه الثقافة من مختلف الأرجاء الشامية ، وعن شيوخها يتلقون ما يصححون به عبادتهم ومعاملاتهم وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية ، حتى مصرــ التى برزت عن طريق جامعها الأزهر منطلقاً للأشعة على مستوى العالم الإسلامى منذ أيام صلاح الدين ــ لم تغضَّ من مكانة طرابلس الشام ، بل كان بين علمائها من يُذكر مع أساطين الأزهر نفسه ، مثل السيد رشيد رضا صاحب المنار ، والشيخ حسين الجسر ، والشيخ محمد الحسينى ، والشيخ عبد الكريم عويضة ، والشيخ سعيد طنبوزة ، وغيرهم ممن لا يحضرنى ذكره الآن . .

وما إن منيت الديار السورية باحتلال الفرنسيين حتى بدأت مرحلة جديدة فى حياة طرابلس وما حولها ، إذ كانت أحد مراكز المقاومة الوطنية ، لا تدع للمحتل فرصة للراحة ، وقلما تعبر بها فترة لا تشهد تظاهراتها الصاخبة احتجاجاً عليه وتأييداً لكفاح شقيقاتها من المدن السورية الأخرى ، ولم يكن حظها من رصاص الفرنسيين وأعوانهم باقل من حظوظ دمشق وحمص وحماة وحلب ، وقد شارك أحرارها إخوانهم ظلمات السجون والمعتقلات طوال مدة الاحتلال . .

ثم لا ننسى ما جلبه الاحتلال من ألوان التغيرات الفكرية والاجتماعية

والثقافية التى كان لها آثارها العميقة فى تطور الحياة واهتزاز المعايير ، فكان لزاماً على ذوى المواهب أن يتفاعلوا معها سلباً أو إيجاباً . . . وكان طبيعياً أن يتجلى أثر هذا التفاعل فى السلوك والعمل ، وبخاصة فى الإنتاج الفكرى الذى جعل يتنامى بكثرة ، وعلى تباين فى النوع والكم فيعكس عمل ذلك التطور فى نفوس أصحابه ، وفى ما يخرجون للناس من أدب وفكر . وطبيعى آن يمتاز حملة القلم الإسلامى باللون الذى تسبغه تربيتهم وثقافتهم على إنتاجهم ، فلا يسمحوا للغزو الفكرى بالتسلل إلى تصوراتهم الأصيلة ، بل يهبون لمواجهته بالتصحيح الذى يثبت النفس المسلمة بالقول الثابت . .

وهكذا كان مردود تلك البيئة وما تعرضت له من اهتزازفى نفس الشيخ نديم ، وفى إنتاجه الأدبى والفكرى ، كالذى سبق بالنسبة إلى والده ،الذى واجه مع رواد جيله مطالع ذلك الغزو ، فصمد له بالفكر الأقوى والحجة العليا ، وترك للناس رسالته الحميديةالتى كانت مَعْلَمَةَ الفكر الإسلامى الصحيح فى تلك الأيام . .

ولقد كان مترجمنا رحمه الله بالنسبة إلى طرابلس هو البقية المنظورة من جيل الأمس جمع بين فضائل التراث الإسلامى والجديد المختار من معطيات الثقافة الحديثة ، وقد أدَّى ذلك من خلال بيانه الذى احتفظ بأحسن خصائص البلاغة الأصيلة ، ثم من خلال مؤلفه « قصة الإيمان » التى قدم بها إلى الجيل المسلم قبساً من الوحى الإلَهى ، يملؤه يقيناً بدينه وثقة لا حد لها بطاقات هذا الدين الذى يهدى أبداً للتى هى أقوم . . وقد أعانه فى ذلك إتقانه للغة الفرنسية ، فجمع بذلك ملكة البيانين ، فمن أسلوب ابن المقفع والجاحظ قبس الألق الأخاذ من روافد الأصالة العربية ، واستهواه من أدب هوجو ولامارتين عمق التجربة الذاتية ، فكان لإنشائه ذلك الرونق المحبب إلى العقول والقلوب . . .

وكان رحمه الله ظاهر الاعتزاز بمواريثه البيتية ومكتسبات الثقافة ، يعرف قدر ما أوتى منهما ، فلا يحجب مطامحه إلى أعالى الأمور ، ولعله كان يتطلع إلى مكان أخيه من مراكز القيادة السياسية ، وإنما صرفه عن ذلك موقف السلطة الفرنسية وأعوانها من أمثاله ، وبخاصة بعد تجربتهم مع أخيه ، فقرروا

ألّا يعاودوها مع واحد من آل الجسر ، ومن هنا كان إقباله على الناحية الفكرية يغذى بها مواهبه عن طريق الكتابة ثم التأليف ، واكتفى من المراكز الرسمية بمنصب الإفتاء الذى لايعدو فى سورية ولبنان أثنائذ إحدى الصور الفخرية ، فلها مردودها المالى من صندوق الأوقاف دون أن يكون لها عمل رسمى يتجاوز رئاسة مجلسها . . أما الإفتاء الشرعى بمعناه المعروف فى المملكة العربية السعودية فلا وجود له هناك ، إذ قلما يوجه إلى المفتى استفسار يتعلق بالحرام والحلال ، أو أى قضية من أحكام الدين حتى اليوم .

ولقد كان لقائى الشيخ رحمه الله فى قصره الصيفى من أعالى « سِير » حيث يطل على أروع المشاهد الطبيعية ، من الجبال المكسوة بأنواع الأشجار ، والأودية المنتشية أبداً بأناشيد الجداول ، وقد تناثرت القرى على رؤوس التلال المواجهة ، أشبه بمواطن النسور ، تزينها المساجد الأنيقة بقبابها المستديرة ومآذنها الشامخة . . ولا بد أن يكون قد اختار لقصره ذلك الموقع جرياً مع ذوقه الذى يواجهك بألوان الترف فى كل شيء من الظاهر والباطن . .

وحتى حديثه المثقف لا يخلو من الاعتداد بنفسه وبيته ، فهو يحدثك عمن كتبوا عنه ومن كتبوا إليه ، والمدائح التى صيغت فيه ، ولكن فى بساطةتشعر من خلالها بالصفاء القلبى الذى يغمر وجوده ، وبالخشية الروحية التى تشد رجلاً مثله فى الثمانين من عمره للتطلع الخاشع إلى رحمة الله وعفوه . .

وقد تناولنا أثناء تلك الجلسة أشتات البحوث فى صراحة صافية ، وكان الغالب على أسلوبه خلالها طابع الجدل العقلى الذى طالعناه فى « قصة الإيمان » فهو به أخبر منه بموضوعات العقيدة وعلوم الحديث النبوى ، ولكنه على أتم الاستعداد لإلزام نفسه بحقائق الكتاب والسنة . .

وكان فيما عرضنا له من حديث بعضُ الهنات التى زلَّ بها قلمه فى كتابه النفيس فوقفنا منها على بعض العبارات التى توهم أنه مع القائلين بفناء الروح وإعادة الله خلقها من جديد عند البعث ، ثم انسياقه مع القائلين باللجوء إلى قبور الأولياء للاستشفاع بكراماتهم . . وكذلك تقريره العجلان ضعف الدليل

القرآنى الواحد أمام ضغط الشك[1] فاستبعد أن يكون قد ارتكب هفوة القول بفناء الروح واستئناف خلقها واستغفر الله منها . . ولكنه حاول الجدل فى القضيتين الثانية والثالثة على طريقة المتفلسفين . .

وكان آخر ما عرضنا له يومئذ ما قصه علىّ من خبر تلك الصحيفة الفرنسية ، التى يقول إنها نشرت مقالاً شديد اللهجة حول مقولة للعلامة القرآنى الشيخ محمد الأمين الشنقيطى غفر الله له أثبتها فى كتابه « أضواء البيان .. » حول كروية الأرض وإنكاره على المثبتين لها ، وفى رأيه أن فى مثل هذه المقولة ضرراً كبيراً يلحق بالدعوة الإسلامية فى الغرب ، إذ تمكن لأعداء الإسلام منالتشكيك فى عصمة القرآن ..

وقد طمأنت الشيخ نديماً إذ ذاك بأن كلمة الشيخ أمين لا تعدو اجتهاداً شخصياً وقد عقب عليه بقوله : « هذا ما ظهر لنا فقلنا به فإذا أثبت العلم بالدليل اليقينى دوران الأرض رجعنا عن قولنا إلى الحق الثابت » .

ورحم الله الأخوين الكريمين : الشيخ محمد الأمين مؤلف « أضواء البيان » والشيخ نديم الجسر مصنف « قصة الإيمان » وجزاهما عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

* * *

١ ــ انظر « قصة الإيمان » ٢٧١ و ٣٨٥ .

الشيخ عبد الله نوح

أثناء زيارتى السعيدة لأندونيسية أكرمنى الله بلقاء ثلة من كبار المفكرين والعاملين للإسلام فى كل جزيرة قُدِّرَ لى مشاهدتها وغشيان معاهدها وجامعاتها ، وقد وفقنى الله إلى تسجيل « ذكريات لا تنسى . . . » عن تلك الرحلة التى شدّ ما أتطلع إلى إعادتها ، وإلى الاجتماع ثانية وثالثة ورابعة بأولئك الإخوة الأحبة من شبابها وشيوخها ، فكان من ذلك كتاب نشرت فصوله فى بعض الصحف السعودية ، وَتَسَلَّمَتْهُ دار تهامة للنشر ، ومع أنها كتبت إلىّ عن إعجابها بالكتاب ، ورغبتها فى نشره ، وتقديمه بالفعل إلى المطبعة ، وعلى الرغم من اطلاعى على تجربته الأولى منذ عشرة أشهر ، لم يُقَدَّر له الظهور حتى الآن ولم أعد أتوقع ظهوره لديها ، بعد أن علمتنى عشرات المواعيد غير النافذة أن عَلَيَّ أن أبحث عن جهة أخرى تتولى نشره وأخويه الجاهزين « مشاهدات وتأملات فى ربوع الهند » و « مع المجاهدين والمهاجرين فى باكستان »[1] .

أجل. .إن لقائى لأولئك الصفوة من أهل العلم والسابقة فى أندونيسية ، حفزنى على التساؤل : أليس ثمة من نهضة أدبية يمكن أن نتصل بأهلها ، ونعمل معهم لإيجاد نوع من التعاون لخدمة الأدب الإسلامى ، الذى ما زلت أقوم بالدعوة إليه منذ ثلاثين سنة ! . . . إن الأدب الإسلامى موجود فى كل قطر يتحرك فيه المسلمون ، ولكنه منطوٍ على ذاته بحيث لا يعرف أدباء قطر إخوانهم فى القطر الآخر ، ومن ثمّ فلا صلة للجماهير المسلمة بإخوانها لأن الأدب هو الوسيط الوحيد الصالح للتوصيل والتلقيح فى ما بينها ، وهو مشلول من هذه الناحية ومعطل ، وقد زاد التفرقة سعة نجاح الاستعمار الصليبى فى تحويل العديد من أقطار المسلمين إلى حَرْفِه ، فتكاثفت الحجب بين المسلم العربى والمسلم غير العربى ، حتى لا يكاد يعرف أحدهما عن الآخر شيئاً . . وأحسن

١ ــ وقد شاء الله فصدر الكتاب أخيراً عن مؤسسة تهامة نفسها ولله الحمد ثم تلاه الكتابان الآخران .

الله إلى الأخ أبى الحسن على الحسنى الندوى الذى حدثنا بما جرى ذات يوم من حديث بينه وبين أحد مثقفى العرب ، وقد دُهِشَ هذا لما سمعه عن رجال من الهند يكتبون بالعربية ويسهمون فى نشر الثقافة العربية بين شعوبهم ، وما كان له من علم بذلك ، بل كان على مثل اليقين بأن للعربى لسانه وللهندى ــ المسلم ــ لسانه ، ولا علاقة ولا سبيل للتلاق بين اللسانين . . . ولو رأى هذا العربى المحجوب ما رأيناه فى الهند وأندونيسية وباكستان والفليبين وتركية ، من عناية بلغة القرآن ، وإتقان بالغ لها ، لخجل من جهله أخبار هؤلاء الإخوة ، ولأدرك أن القصور فى حق هذه اللغة الكريمة أشدّ ما يكون فى بلاد العرب بوجه أخصّ ، لأنهم الوحيدون الذين يحصرون استعمالها فى لغة العلم والأدب ، حتى إذا رجعوا إلى أنفسهم عمد كل منهم إلى لهجته المحلية التى لايفهمها سواه ، على حين أن كل مسلم غير عربى لا يعرف من العربية إلا اللسان الذى نزل به القرآن ، ونطق به سيد ولد عدنان ، فلا صلة له بعامية الشام ومصر والعراق والمغرب المتعدد اللهجات ، وأنه لا يزال فى هذه الأقطار الإسلامية رجال يعنون بهذا اللسان الشريف تعليماً وتأليفاً وكتابة ونظماً . . امتداداً لدور آبائهم السابقين فى خدمة العربية ، وتيسير الوصول إلى معانى الكتاب المبين . .

وأعود إلى حديث الأدب فى أندونيسية فأقول : لقد ذكرت رغبتى لبعض الاخوة فى جاكرتا ، وسألت : أليس هنا من شاعر تجمعوننا به ، فنتفهم من حديثه ملامح الأدب الأندونيسى ؟ ! وجاء الجواب المفاجىء : إن ها هنا شعراء كباراً ، ولبعضهم شعر بالعربية وفير .

ويومئذ ولأول مرة سمعت اسم عبد الله نوح أنه الشاعر الكبير والمؤلف الذى لا يكاد أحد يجهل أثره . . .

وكنا على وشك التحرك نحو مدينة تشايمس ، وبشرنى رفيقى العربى الأصل . . . أننا سنمر فى طريقنا بمصيف أندونيسية الساحر « بوقور » وفى بوقور سنلتقى بالشيخ عبد الله نوح إن شاء الله . . .

وسلكنا طريقنا اللاحب خلال الحقول التى لا تنتهى ، وفى ظلال الأشجار التى تذكرنا بشعب بوان فى شعر المتنبى ، الذى يقول بوصف شجره الحاجب

للشمس إلا رقاعاً صغيرة تقفز عليك من هنا وهناك :

وألقى الشرق منها فى ثيابى دنانيراً تفر من البنان

أو بظلال وادى آش الأندلسى الذى يقول شاعره .

يصد الشمس أنَّى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم

وفى القاعة الكبيرة الجامعة بين الأناقة والبساطة من مقر الشيخ جلسنا ننتظر قدومه ، ولم يطل بنا المقام فإذا هو مقبل يتوكأ على عصاه . .

إنه فى السبعينات من سنيه ، متوسط الحجم ، مشرق الابتسامة ، ذو عينين تنمان عن عميق الذكاء والطيبة ، وفى لحيته البيضاء الوقور صورة موحية بالفضل والدين . . وبروح الإنسان المتعود لقاء الضيفان تلقانا بالعناق الحار ، وبدأنا الحديث فى مختلف الشئون كأننا على عهد بصداقة قديمة . . ولم نجد أى حاجة لاختيار العبارة الأقرب إلى فهم الغريب ، بل كان حديثنا فى أسلوب صحيح من عربية سليمة غير متكلفة .

ورجوت من الشيخ أن يترجم لنا شيئاً من شعره إلى العربية فقال : بل أقرأ لكم من شعرى العربى ! . .

وكانت مواجهة مدهشة حين سمعناه يتلو علينا بعض شعره الذى ما كان لى أن أصدق أول الأمر أنه من صنع أندونيسى . .

إنه شعر من الصنف الذى لا يحسنه إلا من أسلس له البيان العربى البليغ ، وتمرس بمطالعة المئات من أروع قصائده حتى أتقن مداخله ومخارجه ، وخالط نغمُه لحمَه ودمه . .

ولم يكن لنا مندوحة من مواصلة السفر فذكرت أسفى الشديد لفراقه ، وتركت لديه ورقة عليها بعض الأسئلة واتفقنا على أن نمر به أثناء العودة إلى جاكرتا لنتسلم رده المنشود عليها . . .

وامتد الطريق حتى بلغ مئات الكيلات ، ولم نصل إلى تشايمس الاقرابة نصف الليل ، وبعد الأيام الأربعة فى « جامعة دار السلام » وفى زيارة المعاهد الأخرى ، أخذنا سبيلنا الأول باتجاه جاكرتا ، ولم نصل بوقور الجميلة الفاتنة

إلا وسط الليل ، فطوينا كشحاً عن زيارة الشيخ خشية إزعاجه ، وقررت أن أتصل به هاتفياً رجاء أن يبعث لى بالأجوبة إلى موضع نزولى فى جاكرتا . . وفى جاكرتا كلفت الأخ حلمى . . . . تأمين الاتصال بالشيخ وإبلاغه اعتذارى وانتظارى . . . وكم كان فضل الشيخ كبيراً حين أقبل بنفسه إلى حجرتى فى فندق « منتقن » وهو يحمل أجوبته ، ومعها مجموعة من شعره الذى أرجو أن أفرغ لنشره فى كتاب مناسب إذا وفق الله .

حوار مع الشيخ

م : الاسم والمولد والبلد . . . .

نو : اسمى عبد الله بن نوح ، ولدت فى مدينة شيانجور يوم الخميس لثلاث خلون من جمادى الأولى من عام ١٣٤٢ هـ فأنا الآن فى السادسة والسبعين . . ومن جهة الأصل فأندونيسى سندوىّ من جاوا الغربية .

م : والدراسة ؟ .

نو : تلقيت العلم فى مدارس إسلامية ، وقرأت على مشايخ من عرب وأندونيسيين .

م : معلوم أن لكم آثاراً مطبوعة فى مختلف اللغات .

نو : أجيد اللغات الأندونيسية والسندوية والعربية ، وأفهم اللغتين الهولندية والإنجليزية .

م : أى العلماء والأدباء الذين أخذتم عنهم كان أعمق أثراً فى توجيهكم ؟ . .

نو : كثيرون هم المؤثرون فى توجيهى ، ومنهم أندونيسيون وذوو أصول عربية .

م : أهم الأحداث التى عاصرتموها وانفعلتم بها ؟ .

نو : الثورة المسلحة لتحرير أندونيسية ، ثم قيامى برحلات إلى بلاد العرب وماليزية وأسترالية ، فضلاً عن أسفارى داخل أندونيسية .

م : لو تفضلتم بذكر بعض أثاركم العلمية والأدبية ؟ .

نو : هناك كتب عدة بعضها بالأندونيسية ، والبعض الآخر بالسندوية ، وأخرى بالعربية ، ومن مؤلفاتى « أنا مسلم » و « نحن أمة واحدة » .

وقد ألفت معجمين أحدهما عربى ــ أندونيسى ــ إنجليزى . والثانى : أندونيسى ــ إنجليزى ــ عربى .

وقد ترجمت بعض كتب الإمام الغزالى إلى الإندونيسية والسندوية ، ولى ديوان يحوى بعضَ قصائدى العربية . وهناك مقالات وبحوث كتبتها بالعربية ، وقد رأست هيئة لتحرير مجلة « فمبينا » وهى أسبوعية باللغة الإندونيسية ومعنى اسمها « البناء » .

م : وعن الأعمال التى تولاها ويتولاها يقول :

نو : لقد كنت فى الجيش ضابطاً برتبة ميجر ــ وهى تعادل رتبة لواء ــ وفى ما عدا ذلك تكاد أعمالى تنحصر فى النطاق العلمى والتعليمى ، فأنا أقوم يومياً بإلقاء الدروس العلمية وأتولى رئاسة « هيئة البحوث الإسلامية » . . .

وقد عرفت أن للشيخ معهداً إسلامياً باسم « الغزالى » وكان المتوقع أن يذكر مهمته فيه ضمن أعماله .

م : كيف تنظرون إلى مستقبل الحركة الإسلامية فى إندونيسية ؟ .

نو : أرى مستقبل الإسلام فى إندونيسية وما يجاورها إلى خير ، وأعتقد أن لواء النصر سيعقد للإسلام إن شاء الله .

م : إن شعرك العربى الوجدانى الرصين يفرض علينا أن نسألك عمّن تؤثر من شعراء العرب ، وأيّهم أبعد أثراً فى نفسك . .

نو : أنا مولع جداً بالأدب العربى نثره ونظمه ، وقد تأثرت بكثيرمن شعراء العرب ، أذكر منهم أبا تمام والمتنبى والشريف الرضى وأبا عبادة البحترى ، وأبا العتاهية والحسن ابن هانى ، أبا نواس والفرزدق وجريراً وغيرهم من شعراء العصور الماضية ، ومن العصر الحديث شوقياً وحافظ

إبراهيم . . ولكن تأثرى بهم يقف عند حدود الإعجاب ، أما شعرى فلا أقلد فيه أحداً .

م : وقلنا للشيخ : من شأن الشاعر كما يقرر ابن رشيق صاحب العمدة ، أنه الوحيد بين أهل الأدب الذى لا يستطيع كتمان ما ينظم من الشعر ، فإذا ما أنجز عملاً شعرياً لا يستريح حتى يجد من يشركه فى تذوقه . . وأنا أراك هنا نسيج وحدك فى العربية ، وها هم أولاء كل من حولك لا ينطقون حرفاً منها ، فلِمَن تقرأ شعرك ، وكيف تستطيع المثابرة على نظمه وأنت لا تجد من يسمعه أو يتذوقه ؟ ! .

نو : حقاً إن شعرى كالزهرة فى الصحراء لا تجد من ينظر إليها أو يهتم برائحتها ، ولكن هذا لا يمنعنى من معالجة الشعر العربى ، لأنى إنما أمارسه حباً وهواية لا رغبة فى شهرة أو نشداناً لمنفعة .

م : وسألنا الشيخ الفاضل هل فى الإمكان إقامة تعاون فكرى أدبى بين العاملين فى هذا الحقل بإندونيسية والبلاد العربية ؟ . .

نو : بلى . . إن ذلك لممكن إذا صحّت النيّة وعلت الهمة ، وتوافرت الشروط المادية والأدبية . . .

م : واستطلعنا رأيه كذلك فى مدى الوعى الإسلامى لدى الشباب الأندونيسى . . فاكتفى بالقول :

نو : نعم إن فى شباب إندونيسية رصيداً كافياً من الوعى الإسلامى الصحيح .

م : وأخيراً . . إن اهتمامك بكتب الإمام الغزالى ، واقتباسك اسم معهدك من لقبه ، يدفعنا إلى استبانة رأيك فى أفكار هذا الإمام العبقرى ، وهل أنت موافق عليها جميعاً ؟

نو : أنا من أسرة إسلامية مثقفة ومتأثرة بما أنتجته عبقرية حجة الإسلام أبى حامد الغزالى ، ومع ذلك فإننى متحرر من قيود التعصب ، ومتجاوب مع سائر الجماعات والمذاهب الإسلامية السليمة .

وكنا نود لو أتيح لنا استيضاح الشيخ حول فقرته الأخيرة فى هذا الجواب

المكثف ، الذى جاء كبيت بشار لخياطه زيد . . ومهما يكن فقد أحسن بتقييده تجاوبه فى السليم من أهل المذاهب .

على أن الغموض لم يقتصر على هذه الفقرة وحدها ، بل هو مستحوذ على معظم أجوبته ، وكان فى الأسئلة متسع لتبسط أوسع وأوفى بالمنشود ، ففى كلامه عن أساتذته المؤثرين اكتفى بالإشارة إلى جنسيتهم دون تحديد أو تسمية لأى منهم .

وكذلك الأمر فى الجواب الخامس فهو يذكر الثورة المسلحة لتحرير إندونيسية دون أن نعلم شيئاً عن علاقته بها ، مع العلم بأنها فى الغالب كانت ثورة إسلامية يقودها العلماء ، وفى سرده لأسماء الأقطار التى رحل إليها لم يزد على مجرد السرد ، دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى أى اتصال بأحد من أهل العلم والأدب هنا وهناك ، مع أنه حدثنا عن محاضرات ألقاها فى الأردن ، التى زارها بدعوة من ولىّ عهدها . . .

ومن الجواب السابع نعلم أنه كان ضابطاً غير صغير فى الجيش . . ولكن . . فى أى جيش ؟ . . وما أثر ذلك فى تكوينه الفكرى ؟ ! . .

ومع أن له معهداً باسم « الإحياء » إعراباً عن إعجابه بكتاب الإمام الغزالى « إحياء علوم الدين » لم يعرض له بأى ذكر ، وكان المتوقع أن يوضح لنا سبب اختياره ذلك العنوان ، وما صلة مناهجه بكتاب الإحياء . . .

وما أوجز عبارته عن مستقبل الإسلام فى إندونيسية أثناء الجواب الثامن إذ لم يزد عن القول أنه « إلى خير » أما لماذا ؟ . . وكيف ؟ . . وبأى الأسباب والأعمال والخطط سيتحقق هذا الخير فذلك متروك إلى تخمين القارىء ومرئياته الخاصة . . .

ولا يقلّ عن هذا غموضاً جوابه الحادى عشر فى شأن التعاون فى حقل الأدب الإسلامى ، فهو يرى إمكان ذلك مشروطاً بأمور تتطلب بنفسها الكثير من الشرح والإيضاح ، فنحن نعرف صحة النية وعلو الهمة ، ولكننا نجهل المراد بالشروط المادية والأدبية ، ولا نعلم عن أى طريق يمكن لهذه الشروط أن تتوافر .

أما عن إجابته الثانية عشرة فأعرقُ فى الغموض وأعزق ، إنه واثق بوجود الرصيد الكافى من وعى الشباب الإسلامى فى بلاده ، ولكن هذالا يُروى الظمأ لمعرفة التفاصيل الضرورية عن ذلك الوعى ، بالنسبة إلى العاملين للإسلام خارج أندونيسية ، وكان بوسع الصديق أن يؤكد نظرته ببعض الأمثال من الوقائع التى يشاهدها ويسمع عنها ولعله من الذين يعانونها أيضاً . . .

وفى الجواب الأخير عن موقفه من أفكار الغزالى يأتى رده بينَ بينَ ، فهو كأسرته متأثر بعبقرية ذلك المفكر الكبير ، إلا أنه غير متعصب له . . فكأنه بذلك يشير إلى بعض الهنات التى علقت ببعض مؤلفاته ، مما لم يسلم من مثلها أحد من العلماء ، وبخاصة فى بحوثه المتعلقة بالنفس والروح والأحوال ذات التعاريج الخطرة . وليت الشيخ توسع فى هذا الجانب بعض التوسع ، فيسهم مع المصلحين فى التمييز بين القوى والضعيف من أفكار حجة الإسلام ، رحمنا الله وإياه . .

ومن الحوار إلى الآثـار

وإلى القارىء الآن بعض النماذج الحية من نثر الشيخ وشعره ، فقد يكون فيها ما يسد بعض الفجوات التى تركها فى أجوبته .

وقد علم القارىء مما أسلفنا أن الطابع الغالب على هذه الشخصية هو الأدب ، فسمة الأدب بارزة فى حديثه ومحفوظه وبيانه الجذاب ، وسيرى من النصوص التالية أن الصياغة الشعرية هى التى تغلب على إنتاجه من النثر والشعر على السواء .

يقول الشيخ فى المقطع الثانى من رسالته التى أسماها « العالم الإسلامى » :

العالم الإسلامى وطن واحد

لنا معشر المسلمين رابطة دينية يجب أن تذوب فيها جميع الفوارق ، من جنسية وغيرها ، وتنهزم أمامها العصبيات الضيقة المحدودة . فنحن إخوة

أشقاء ، بل جسد واحد ، فهل تقول اليد للرأس مثلاً : إليك عنى ما لى بك حاجة ؟ . . أو تقول الأعضاء بعضها لبعض : نفسى نفسى ! . .

أنا أندونيسى كسائر الأندونيسيين ، أحب وطنى ، لا لأنه وطنى فحسب ، بل لكونه ثغراً من ثغور هذا العالم الإسلامى العظيم .

من كان يعبد أرضه ومسقط رأسه فبئس العابد وذّل والله المعبود . ومن كان يعبد الله تعالى فإن الله ناصره ، وجاعل له بعد هذا الوطن وطناً هو فيه من الخالدين . .

فلنتق الله فى أنفسنا أن نوردها الموارد ، ونرغب بها عن هذه العروة الوثقى العظيمة . إن الرأى لمثلنا الاجتماع ، فإنا إذا اجتمعنا لن نغلب من قلة ، وإنِ تفرقنا لا تقوم كل فرقة بمن يقابلها . . .

أبعد الاجتماع فى عبادة الرب الواحد ، والاهتمام بكتابه الواحد ،والسير تحت لواء رسوله الواحد ، والاتجاه نحو بيت واحد . . أبعد هذا كله تتفرق بنا الأوطان ، وتبددنا الجنسيات والوطنيات والقوميات ؟ ! . بئس لعمر الله خَلْفُ الأمة نحن إذن . .

ماذا جنينا من التقاطع والتدابر طوال هذه القرون ؟ . بذرنا بذراً فنجم ونما حتى أثمر ، فإذا مرارة ثماره ما زالت حتى اليوم فى أفواهنا ، فأى مجنون فينا يعود فيأتى بمثل ذلك البذر ليستنبت منه مثل ذلك الشجر ؟ . لا والله لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . إن اليوم له ما بعده ، فانفروا خفافاً وثقالاً ، والبدار البدار ، فوالله لئن لم يسرع بنا العمل لم تبطىء عنا الخيبة والفشل . ماذا ننتظر بعد ما يتداعى الأَكَلَةُ على القصاع إلا أن يلتهموا ما فيها ثم يكسروا القصاع ؟ ! .

لا . . والله لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، ولن نرقى إلى هذه القمة إلا فى السلَّم الذى رقى فيه أسلافنا ، فإن أبينا ذلك فلنتخذ نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء ، ثم لننظر هل نستطيع أن نأتى بذرة من الخير بدلاً من الفشل والحرمان ؟ . .

ليس الانقسام لنا برأى ، فليكن علينا جميعاً من يأخذ أمرنا بالحزم ،

ولا يدُرْ فى خلدِ أحد منا أننا نستطيع أن نعيش جسداً بلا رأس ، ولنعلم أنه لا شيء أضر من التنافس وحب الرئاسة ، فإنها فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده .

وإنه لمن العار أن يقول أحد إنى مسلم ثم لا يرمى ببصره مشارق الأرض ومغاربها ، ليرى إخوته فى الإسلام ويعلم علمهم ، فإن وجد خيراً حمد الله تعالى ، وإلا بذل كل ما بوسعه لإعانة من يحتاج إلى العون وشدّ الأزر .

روى الحافظ بن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهرى عن أبى سلمة عن عبد الرحمن قال : جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى ، فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل — يعنى النبى ﷺ — فما بال هذا — أى فما الذى يدعو إليه هؤلاء ؟ ! . . فقام إليه معاذ بن جبل رضى الله عنه فأخذ بتلابيبه ثم أتى به النبى فأخبره بمقالته ، فقام ﷺ مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد ، ثم نودى الصلاة جامعة . وقال : أيها الناس . . إن الرب واحد والأب واحد وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى » فقام معاذ فقال : فما تأمرنى بهذا المنافق يا رسول الله ؟ . . قال : دعه إلى النار . . فكان قيس ممن ارتد فى الردة فقتل . .»

وما أرانى فى حاجة إلى أى تعليق على هذا البيان المبين ، وحسبى أن أوجه نظر القارىء وفكره إلى روعة الأفكار التى يسكبها الكاتب من عقله وقلبه جميعاً فيمنحنا فرصة للتفكير فى وحدة المسلمين التى أوشكنا أن ننساها تحت ضغط الدعوات العصبية ، والمطامع الاستعمارية ، والدسائس اليهودية ، ثم تُرينا فى الوقت نفسه أن فى أندونيسية ذات المائة وأربعين مليون مسلم إيماناً لا يتزعزع بهذه الحقيقة على الرغم من انحراف حكامهم عن سبيل الله ، وشنهم الغارات الرهيبة المتعددة الألوان على دعاة الإسلام . . وما أحوج العالم الإسلامى كله إلى التجاوب مع هذه الروح الأخوية تجاوباً يزيل الغشاوة عن الأعين ، ويغسل الأدمغة من مفسدات التصور ، ويجلو عن القلوب الران الذى أنساها نداء الله الذى يُدَوِّى فى مسمع الدنيا ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ الحجرات . . وحكمة رسول الله القائلة لكل مسلم فى كل مكان وزمان فى شأن العصبيات الحائلة

بين المؤمنين « دعوها فإنها منتنة . . »

وهل أنا فى حاجة لتنبيه القارىء إلى هذه الصياغة الفنية التى قلما يقع على مثل جمالها إلا فى النادر من أدب بلغاء العرب . .

ودعنى أصلك — أيها القارىء — بأنموذج آخرمن أدب هذا الإندونيسى ، وليكن هذه المرة من المواعظ العالية التى تخاطب مشاعرك كلها . . وقد جعلها خاتمة تلك الرسالة ، واختار لها هذا العنوان « سعادة الدارين » إنه يحاورك فأَصْغِ إليه . . .

سـعادة الدارين

قل بربّك هل وجد السعادة فى الدنيا أحد ؟ أين الجبابرة الذين دوخوا البلاد وظلموا العباد ، ورفعوا لشرفهم المزعوم العماد ؟ أين من أجروا سفنهم فى بحار دموع المساكين وعجنوا طعامهم بعرق جباه الفقراء المحرومين ؟ ومزجوا شرابهم بدماء البؤساء المنكوبين ، وبنوا مساكنهم من جماجم الضحايا المظلومين ؟ . أين الألى جمعوا الدثور ، وشيدوا القصور ؟ . وواتهم الأمور . . فاستمرؤا مراتع الغرور ؟ . أين الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والأباطرة والملوك والاقيال والسلاطين ؟ . . أين ملاك القناطر المقنطرة ؟ . أين كنّاز الذهب والفضة ؟ . أين خُزان الدراهم والدنانير ؟ . . أين عبّاد الصفراء والبيضاء ؟ .

دالت دولتهم ، وانقضت أحلامهم ، فلا ملك ولا ثراء ولا نعيم . فقل لى بربك هل نال السعادة فى هذه الدنيا الفانية أحد ؟ أَوَ تُجَامِعُ السعادةَ الفناءَ ؟ . أم كيف يستطيع امرؤ أن يعدّ نفسه سعيداً وهو مع ذلك أسير قد صدر عليه الحكم بإعدامه ؟ .

كلنا ذلك الأسير . ويا ليتنا إذ وقعنا فى الأسر علمنا متى ينفذ علينا ذلك الحكم . . وليتنا إذ لم نعلم ذلك تيقناً أن الموت آخر عهد لنا بالآلام والشقاء . وليتنا إذ لم نتيقن ذلك شربنا هذه الأفاويق من الدهر صفواً من الأقذار والأكدار .

فلا سعادة بل ولا شقاء على التحقيق إلا مع البقاء ، ولا حياة إلا حيث يموت الموت ويفنى الفناء . ﴿ **وما هذه الحياةالدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة هى الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾ .

أما السبيل فقد أبانه رسول الله ﷺ إذ قال : « والله لَتَمُوتُنَّ كما تنامون ، ولَتُبْعَثُنَّ كماتستيقظون ، ولَتحاسَبُنَّ بما تعملون ، وَلَتُجْزَوُنَّ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنّة أبداً أو النار أبداً » .

أما سلوكه فبنور العلم بما فى كلمتى الإحسان والسوء من معان وتفاصيل وحدود . وعلى مطيّة العمل بذلك العلم فى دائرة الطاقة والإمكان . ولمّا كان ذلك ممّا لا يدركه الإنسان بعقله الضعيف أرسل الله الرسل وأنزل معهم الكتب لتوضيح ذينك الأمرين العظيمين ، أعنى العلم والعمل . كلّ ذلك جار على سنّة الله فى خلقه على الترتيب والتنظيم من عهد آدم إلى اليوم الذى نزل فيه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينَكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ .

وهذا الإسلام الذى رضيه الله تعالى ديناً لعباده ، وأكمله لهم وأتمّ به نعمته عليهم ، وجعله السبيل الوحيد لسعادة الدار الآخرة ، كان من واسع رحمته تعالى وعظيم فضله أن جعله بحيث لو عُمِل بأوامره وابتُعِدَ عن نواهيه لأدّى ذلك إلى ما يصبو إليه عقلاء البشر فى الحياة الدنيا ، من صلاح الفرد وسلامة المجموع ورخاء البلاد ، والأمن بين العباد ، والعافية فى الأرواح والأجساد ، فيحصل بذلك عزّ الحياتين وسعادة الدارين .

أمّا صلاح الفرد فإن المؤمن الصادق إذا قال : « لا إله إلا الله » خالصاً من قرارة نفسه زاحت عن قلبه حجب الباطل ، واندكت أمام بصيرته جبال الوهَم ، وتجلّت له الحقيقة ناصعة لا غبار عليها : أن لا معبود بحق فى الوجود إلا الله ، فلا طاعة إلا له ، ولا توكُّل إلا عليه ، ولا ثقة إلا به ، ولا رضى إلا عنه ، ولا خوف إلّا منه ، ولا رجاء ولا خير إلا لديه ، ولا ملجأ إلا إليه ، وإذا قال « محمد رسول الله » أشرف فى قلبه النور الذى جاء به ﷺ ، وتراءى له جميع مكارم الأخلاق التى لم تكمل إلا ببعثته ورسالته . أضف إلى ذلك قيام الخاشع بين يدى ربه العليم بالسرائر خمس مرات أو أكثر فى

اليوم والليلة ، وصيام الصائم وترديد آى الذكر الحكيم وغير ذلك من وسائل التهذيب والتطهير .

وأمّا سلامة المجموع فكيف يهلك قوم عمرت بالإيمان قلوبهم ، وطهرت بضروب العبادات أرواحهم ، وتحلّت بمكارم الأخلاق نفوسهم ، وتألّفت بطبيعة دينهم أرواحهم ، وقد نصبوا على أنفسهم رجلاً هو أعقلهم وأتقاهم وأشجعهم وأحزمهم وأعلمهم ، فبايعوه على شريعة لو اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثلها لا يأتون به ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . وأما رغبتهم وإخلاصهم فى الدفاع عن حوزتهم فحسبك أن تعلم أن لهم فى ذلك إحدى الحسنيين : الموت مع الأجر والشهادة ، أو الحياة بالعز والسعادة . .

وأمّا رخاء البلاد فلأن الخلق فى نظر المسلم عيال الله ، فأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله ، وبقدر الجد فى العمل لمصالح العباد الدنيوية والأخروية ، تعلو درجة المسلم عند الله وعند رسوله وعند النّاس أجمعين . .

وأمّا الأمن بين العباد فإنما ترتكب الجرائم لثلاث : كفران الفقر وبطران الغنى وطغيان النفوس . وفى مواعظ هذا الدين وزواجره ، وفى فرضه الزكاة وترغيبه فى الصدقات ، وفى أنواع حدوده وضروب عقوباته ، فى ذلك كله ما يضمن درء المفاسد والآفات .

وأما العافية فى الأرواح والأجساد فإنّ الإيمان إذا رسخت عقائده فى النفوس وخالطت بشاشته القلوب تحررت العقول من الأوهام والخرافات ، وأمسكت الطباع عن اتباع الشهوات المهلكات » ..

ولن أعقب على هذه النفحات الروحية بشيء لأنِّى أوثر أن لا أعكر على القارىء صفوها ، وألا أشغله عن معانيها الآسرة ، وصياغتها الباهرة بنقد ولا تحليل . . ولكن لا بأس أن أسترعى انتباهه إلى الصلة الوثقى بينها وبين مواعظ الغزالى فى الإحياء وغيره من كتبه ، التى عُنِيَتْ بهذا الضرب من المواعظ المحرّكة للقلوب .

والآن هلمَّ نسرح النظر فى بعض أزاهيره الشعرية . ولنقرأ معاً قصيدة « أندونيسية » التى صاغها الشاعر أيام الثورة الاستقلالية ، فهو يبدؤها بحديث

مترف عن جمالها الذى فتنه وهو يتطلع إليه من الطائرة ، ثم ما لبث أن قاده حديث الجمال إلى ذكريات النضال ، فإذا هو يسجل بطولات الأحرار فى كفاح الاستعمار ، على نحو يثير الإعجاب ويذكر القارىء المسلم أينما كان بأنّ معركة الحرية شاملة كل مكان من وطن الإسلام . .

أندونيسية

ركبت يوماً بجاوا متن طائرة ... فحلّقت فوق أطواد ووديان
مختالة فى ثياب سندس خَضِرٍ ... كغادة كملت فى حسن ريعان
من تحتها تلتقى الأنهار جارية ... كما التقى فى صفاء الدهر حِبّان
وزيّن الكون نور للضحى فبدا ... كعالم فى خيال الشعر نورانى
ليست لخلد ولكن الأنام بها ... فى وسط روح وجنّات وريحان
وفى خمائل تزهو فى أزاهرها ... من بين ورد ونسرين وقحوان
وكم جآزر بين الزهْر راتعة ... ميّاسة القدّ من حور وولدان
تعاون القطر والينبوع فالتقيا ... لسَقى جنّتها الغنّاء ما آن
قل لى بربك هل فى الأرض من شبه ... بأندونسيا وهل فى الحلم من ثان !
لا تعجبوا من فنائى فى محبتها ... قد علّمتنى بأن الحب روحانى
كم أنجبت من صناديد مروعة ... من كلّ قرم شديد البأس معوان
يفنون فى الذبّ عنها والكفاح لها ... كما يعزز فردوس برضوان
فاسأل بنى الغرب إمّا كنت جاهلهم ... ماذا لقوا من بنى أسد وعقبان
ينبئوك بما لم يلقه أحد ... ولا رأت مثله للدهر عينان
ومورد الموت فى سرباى إذ وردوا ... يخبرك ما لم تخبر عنه أذنان
فإندونسيا لديها كلّ مردية ... من كلّ مأسدة تزهو بفرسان
إن سولموا فنسيم الروض مكرمة ... أو حوربوا فأعاصير بنيران
مشتقة من جمال الكون صورتهم ... لكن حربهمو نيران بركان
مهلا هلندا ـــ وإنا معشر صُبُر ـــ ... ما للنطاح لديك اليوم قرنان
فى غفلة الحق واتتك الأمور فلم ... يكن لك اليوم فينا أىّ سلطان
فسائلى النجم هل من أمة بقيت ... عند النضال على حال كعبدان ؟

ألم تري جحفل الحق المبين وكم | لمجدنا اليوم من راع ومن بان
جزى الإله رجالاً أخلصوا وسعوا | وإنّما السعى والإخلاص جندان
وقد علمت بأنّ الحق منتصر | وأن شانئه يمنى بخسران
فاستبشروا واشكروا لله نعمته | أعظم بملك بنور الحق مزدان

* * *

الشيخ علي بن حسين يعقوب

في منزل متواضع من حي الفاتح في اسلامبول لقيت لأول مرة ذلك الرجل، الذي تطل عليك من عينيه النافذتين العسليتين، ومن خلال تلك الشيبة الوقور، شخصية إنسان توحي إليك أنك تلقاء جزء حي من تاريخ لاينبغي أن تفوتك معرفته.

ومما يحببه إليك تلك الابتسامة المطبوعة على ذلك الوجه الذي ينبئك دونما حاجة إلى استفساره بأنه في نهاية السبعينات، وإن خيل إليك الشلل الذي جمد ذراعه اليسرى، وترك أثره بارزا في مشيته أنه فوق ذلك بكثير.

واستقبلني بعناق الصديق الذى يستقبل صديقا قديما، والظاهر أنه كان يعلم عني بعض الشيء عن طريق الأستاذ علي نار. وليأذن لي القارىء بتفسير (النار) التي تؤلف شطر هذا الأخ، فهي اسم للرمان بالتركية، وربما في الفارسية أيضا، وهي مألوفة عند العرب في اسم (جلنار) الذي معناه (زهر الرمان) لأن كلمة (جل) ــ بالجيم الفارسية ــ تدل على الزهر...

وبعد التعارف والترحيب بدأت عرض أسئلتي عليه، وجعل يتدفق بالأجوبة المحكمة في عربية لاتلمح فيها شائبة من اللحن..

إنه علي بن حسين يعقوب ولد عام ١٩١٣ من أبوين ألبانيين في جيلان قوصوه جنوب يوغسلافيه، حيث يؤلف المسلمون معظم السكان، ويؤلف العنصر الألباني معظمهم إلى جانب قلة من العرب والترك.

وكان أبوه من المشتغلين بالعلم حافظا للقرآن متقنا للعربية والتركية، تلقى دراسته في مدرسة الفاتح المعروفة في إسلامبول، وكان والده الحاج يعقوب ــ جد المترجم ــ من أهل العلم والفضل ومظنة التقوى في أعين الذين يعرفونه،

فهم من أجل ذلك يحوطونه بالتقدير والتكريم ...

ويذكر الشيخ أن أحد عمامه كان يشغل منصب الافتاء وهو حافظ كذلك لكتاب الله وقد أقبل على حفظه بعد أن رأى أخاه حسيناً .قد سبقه إلى ذلك فأتم حفظه وأحسن تلاوته وهو فى الثامنة فاجتهد المفتى في أمره حتى استظهره خلال تسعة أشهر.

ويضيف الشيخ أن ثمة أختين له توفيتا وهما تحفظان كتاب الله ...

ومما ساعد على توجيه الأسرة في هذا الطريق القويم اصطباغ البيئة كلها بالطابع الإسلامي، الذي يجعل الدين والعلم الديني غاية مايتطلع إليه المسلم، في تلك الأصقاع.

يحدثنا فضيلة الشيخ عن دراستة فيذكر من أوائل معلميه والده ثم الشيخ عبد الرحيم، الذي تخرج في مدرسة الفاتح أيضا، ويصفه بأنه كان على مستوى رفيع من العلم والتقوى، فإذا مااستكمل المترجم له هذه الرحلة شخص إلى أسكوب عاصمة الجنوب اليوغسلافي، يستأنف دراسته، ومن ثم أخذ طريقه إلى سراجيفو، حيث مكث ثلاث سنوات في طلب العلم بمدرسة القضاء الشرعي ولم يكملها وكانت مدة دراسته حينذاك خمس سنوات.. ومن هناك واصل سبيله إلى مصر حيث التحق بالأزهر، وبنهاية عشر سنوات من الدراسة المتصلة هناك تخرج بالشهادة العالمية الخاصة بالغرباء.

وبذلك استتم مرحلة الدراسة ثم بدأ مرحلة الحياة العملية، موظفا في قسم الفهارس بمكتبة الجامعة المصرية على مدى عشر سنوات، وبعدها ألحق بسفارة الجمهورية العربية المتحدة في أنقرة حيث أمضى سنتين في وظيفة مترجم، ثم ترك السفارة لينقطع إلى مذاكرة الطلاب، وهي الهواية التي لم يفارقها قط، ولم يكن ليتلقى عليها أي أجر، وهذا ماأضطره إلى البحث عن عمل يؤمن به معيشته فوجد طلبته في أحد مصانع النسيج الذي عينه محاسبا، ولم يزل في هذا العمل حتى أحيل على المعاش، ومن هنا استأنف، أو على الأصح واصل السير في سبيله في تعليم الطلاب الجامعيين، وإخوانهم من مدارس الأئمة والخطباء، وأخواتهم من طالبات مدرسة (طوبى).. على طريقته المألوفة من خدمة العلم

لوجه الله ودون أي مقابل مادى..

ولن ننسى ونحن نتحدث عن دراسة الشيخ وأعماله أن نشير إلى مميزاته اللغوية، فهو يحسن من الألسنة الألبانية لغة قومه، ثم اليوغسلافية والتركية القديمة والحديثة، والعربية والفارسية والفرنسية، وله بعض الإلمام بالانجليزية. ومن الطبيعي أن يكون لذلك أثره العميق في تكوينه الثقافي، الذي جعل منه محدثا رصينا ومفكرا بعيد الرؤية وبخاصة في أحوال المسلمين..

ويصل بنا الحديث إلى أهم الأحداث التي قدر له أن يعاصرها في ماضي سنيه وحاضرها.

وطبيعي أن يكون في رأس هذه الأحداث ذلك الانقلاب الشيوعي الذي أطاح بالملكية في يوغوسلافيه. لقد كانت الحرب العالمية الثانية صدمة أصابت العالم كله بارتجاج دونه الزلازل.. وقد خيل لكثير من الشعوب المضطهدة أنها فرصة سانحة للخلاص من ظالميها، وبخاصة بعد أن جاءتها الوعود المغرية من هذا الجانب أو ذاك.. وكان الزحف الألماني قد بلغ أشده، وأوهم طيرانه المتفوق أنه على أبواب الانتصار الحاسم على كل أعدائه في أوروبة وشرقها.

في هذا الجو المضيع للوعي استُجِرَّ مسلمو يوغوسلافية للانحياز إلى جانب المحور، أملا في استرداد حقوقهم السليبة بعد حرب البلقان، الذي كانوا يعانون منه الأمرين تحت سلطان الملكية المشحونة بالحقد على الإسلام وسيق الراغبون والرافضون إلى المشاركة في تلك المحرقة، التي شاء الله أن تنتهي بهزيمة ألمانية وإيطالية والضالعين معهما جميعا..

وجاء دور الانتقام الصليبي عقيب ذلك، إذ تفرغت قوى المقاومة اليوغوسلافية للقضاء على العنصر الإسلامي، الذي بات مكشوفا مجردا من القوة، وبتوجيه من الملك بطرس الثاني اللاجىء إلى مصر، وبأمر من نائبه ميخائيلوفتش، انطلقت جوائح الموت، تَصبُّ جحيمها على المسلمين فتتساقط ضحاياهم لتغطي مناطقهم وكان حصاد المذبحة فوق مئتي ألف، ولما تفوقت الشيوعية بقيادة تيتو على أنصار الملكية بقيادة ميخائيلوفتش، استكملت الكارثة حجمها فلم تقلَّ ضحاياها الأخرى عن مثل ذلك العدد.

ومعلوم مما تقدم أن مترجمنا لم يكن أثناء المجزرة في بلده فلم يشاهد وقائعها، ولكنه شارك ضحاياها بما حمله في صدره من همومهم وآلامهم...

ويتوقف فضيلته هنا قليلا ثم يستأنف الحديث الدامي قائلا بأن عهد تيتو على قسوته الشيوعية، التي لاتتغذى إلا بالدم، كان أهون بلاء من العهد الصليبي الذي مثله جنود خصمه ميخائيلوفتش.. فإن تيتو لم يكد يفرغ من مشكلات الحرب، حتى أقبل على معالجة الأوضاع العامة بما كفل لها نوعاً من الاستقرار الذي كان من آثاره إزالة الفروق بين طوائف البلاد، وبذلك أتيح للمسلمين أن ينالوا حظهم من التعليم على اختلاف مراحله حتى يمكن القول بأن خريجي الجامعات من المسلمين أصبحوا ينتشرون في كل بقعة من قراهم ومدنهم، بعد أن كانوا في العهود الماضية لايتجاوزون عدد أصابع اليدين...

ويستدرك فضيلته قائلا: ومن البديهات التي لاينبغي أن تغيب عن الذاكرة أن ذلك تعليم لاعلم، إذ هو لايتجاوز حدود الإتقان لأنواع من الاختصاصات المادية، أما العلم الحق الذي من شأنه تنوير القلوب والعقول، ونشر الطمأنينة والأمن في النفوس، فشيء لايتوافر في كنف المناهج الإلحادية، القائمة أساسا على تعميق الشقاء الإنساني على امتداد الشرق والغرب جميعا...

ولا ينسى فضيلته أن يسجل لعهد تيتو إبقاءه على بعض معاهد العلم الإسلامي، وإتاحة الفرصة لاحداث بعضها، ويسمي من تلك المعاهد كلية أصول الدين والمدرسة الثانوية في البوسنه والهرسك، ومدرسةالأئمة والخطباء في قوصوه. ويقول: لولا هذه المؤسسات القليلة لضاق الأمر بالمسلمين، ولأوشكوا أن يفقدوا الأمل في تثبيت المعاني الإسلامية في صدور أبنائهم والله المسئول أن يرسخ وجودها ويحفظها من انحراف الحكام الذين لايعلمون شيئا عن حقائق الإسلام..

ويضيف الشيخ إلى ماعاصره من الأحداث ذلك الانقلاب الذي انتهى بزوال الملكية في مصر وجاء بالجمهوريتين اللتين أعقبتاه ...

ويفهم من أفكاره أنه كثير التشاؤم من الانقلابات العسكرية التي أثبتت الوقائع أنها قلما تأتي بخير. وكثيرا ماتجلب معها الانهيارات الاجتماعية

والاقتصادية والأخلاقية، ويمكن ملاحظة ذلك بقليل من المقارنة بين عهدي الملكية والناصرية. ولعل أبرز الفروق بينهما ماامتاز به العهد السابق من توافر مظاهر التقدم في مختلف المجالات، ففي السياسة برز كثيرون من الأقطاب الذين يُذكرون مع أساطين الرجال العالميين، كزغلول والنقراشي والنحاس ومكرم عبيد، وفي العلوم والآداب كمنصور فهمي ومحمد فريد وجدي وطه حسين ــ على الرغم من شواذه الكثيرة ــ وفي الصحافة كالرسالة والثقافة والرواية وما إليها.. وفي الاقتصاد كطلعت حرب وعبود باشا وغيرهما.. وليس في العهد التالي أي شخصية توازي واحدا من أولئك، وليس في صحافته مايرقى إلى مستوى أي من الصحف والمجلات العملاقة التي عرفها القراء في العهد الماضي..

وإنها لملاحظة بالغة الروعة يمكن أن نلمسها في حصائد كل الانقلابات التي واجهتها الأقطار الإسلامية، على الرغم من الدعايات المدوية التي تسخر لها كل وسائل الاعلام، لتجعل من كل هزيمة نصرا، ومن كل تخلف تقدما، ومن كل هبوط رقيا لايضاهى!!

وفي جوابه حول التطورات التي يتمحض بها العالم الإسلامي، وبخاصة في اتجاهه نحو العودة إلى الحياة الإسلامية، يقول الشيخ: إن التطورات كلها تؤكد أنها في خدمة الإسلام، على الرغم من كل النكسات التي تعتريها بين الحين والحين، ويمثل لذلك بأمور منها انتشار التعليم الإسلامي في الربوع التركية، وقد بلغ عدد الدور المتخصصة لتحفيظ القرآن الكريم ألفاوثلاثمئة، تنتشر على امتداد البلاد، ولا يدخل في هذا العدد الدور الأخرى غير الرسمية وغير المحدودة التي تعمل في خدمة القرآن.. يضاف إلى ذلك ثلاثمئة وخمس وسبعون مدرسة لتخريج الأئمة والخطباء على المستوى الثانوي، وثمان من كليات أصول الدين.. وقد بدأت هذه الحركة منذ أيام الشهيد عدنان مندريس وهي مستمرة حتى اليوم، وستظل في نماء إن شاء الله.. ومع أن النظام العلماني هو أساس الحكم في تركية فهو لايعارضها بشيء، ومرد ذلك إلى أن هذه المؤسسات الإسلامية تصور إرادة الشعب التركي، الذي هو من أعمق الشعوب الإسلامية تدينا، فلا مطمع لقوة بقسره على غير طبيعته.

ويحسن الشيخ ظنه بالانقلاب العسكري الأخير في تركية، إذ يعتبره عملية انقاذ أدركت البلاد وهي على شفا حرب أهلية، فدفعت عنها أشد الأخطار، فهي لذلك جديرة بالتقدير والثناء ...

هذا في تركية وأما في ديار العرب فليست حركة الوعي الإسلامي بأقل شأنا، ولعل أكثر مايتمثل هذا الوعي في تغلبه على الدعايات الهدامة التي تولى كبرها أعداء الإسلام وأشياعهم من السياسيين، الذين استطاعوا لفترة طويلة إيهام العرب بسوء نوايا الأتراك نحوهم، وأنهم لم يكونوا أكثر من مستعمرين في بلادهم، وكذلك فعلوا بالنسبة إلى الشعب التركي، إذ نشروا سحب الكراهية للعرب في أوساطهم حتى أوشكوا في مرحلة ما أن يجعلوا كلا من الفريقين الشقيقين عدوا للآخر.. بيد أن هذه السموم مالبثت أن أخذت في التبدد أمام زحف الحقيقة التي استيقظت في ضمائرهما، فإذا هما اليوم في الطريق الصحيح إلى الوحدة الإسلامية، التي جعلها الله من العناصر الأساسية في حياة المسلمين.. وها هي ذي الأقلام العربية المؤمنة تتولى هذه الأيام كشف المؤامرات الكثيفة، التي أرادت بها الماسونية والصليبية تشويه التاريخ العثماني بتصويره حقبة من الوباء نزل بالجنس العربي فسلبه الأمن والاستقرار، وشحن بلاده بأنواع البلاء.. على حين لم يكن العثمانيون في الحقيقة سوى حماة للإسلام في كل مكان امتد إليه سلطانهم، ولم يكن العرب في ظلهم سوى اخوة متعاونين على صد الغارات التى تستهدف تدمير الإسلام والمسلمين.. وقد تقاسموا أعباء الجهاد للحفاظ على الكيان الإسلامى على مدى القرون الستة، حتى إذا وقع المحذور بتفوق العدو تقاسم الفريقان أيضاً حظهما من الآلام والأرزاء سواء بسواء ...

وعلى هذا النحو من الوعي السليم نهض الجيل التركي الحديث بواجبه في كفاح تلك السموم الشيطانية فهو يعتبر قضية العرب قضيته، لايدّخر وسعا في نصرتها، وقد اتى هذا الوعي ثماره على مستوى الدولة، التي أصبحت تشارك في كل المؤتمرات الإسلامية، وتتعاون مع البلاد العربية في كل مايؤمن المصلحة

للجميع.. وهي طليعة مباركة يؤمل أن تستمر في التنامي أبدا لخير الإسلام والعرب جميعا بمشيئة الله وتوفيقه ..

وحول السؤال الأخير المتعلق بالشباب الإسلامي في مختلف الأرجاء من عالم الإسلام، يعرب فضيلته عن تفاؤله الكبير، إذ يرى أن هذا الجيل الجديد من الشباب هو المرتكز الأهم في مسيرة الأمة نحو المستقبل المنشود.. ولذلك يرى أن على هذا الجيل أعباء من الواجبات الثقيلة التي لابد من أدائها على الوجه الأكمل، وفي مقدمتها بنظره التعمق في فنون الثقافة العالمية بعامة والإسلامية بخاصة، لكي يستطيعوا الوقوف بوجه التيارات الهدامة الوافدة على دنياهم من مختلف أنحاء العالم ...

ومن ثم يؤكد فضيلته على ضرورة الحفاظ على تراث الإسلام دينا وخلقا وتاريخا وثقافة، ليجعلوا منه قائدهم إلى استرداد مكانتهم في مسيرة التاريخ الحديث، فالاستنارة بماضي السلف الصالح والالتزام بقيم الإسلام هما السبيل الأمثل لحماية وجودهم من الذوبان الذي يدبر لهم..

وفى الختام لاينسى أن يحذرهم من الانخداع بذوي الشهرة ممن لاعلاقة لهم ولا اهتمام بحقائق الإسلام ...

* * *

الأستاذ علي نار

اللقاء الأول

لم يكن لي به معرفة سابقة، وأول ماطرق سمعي اسمه من الأخ الدكتور عبد الباسط بدر الذي حملني إليه بعض الكتب ومقداراً من الشاي الذي لايبلغ مستواه الشاي التركي، وبمجرد استقرارنا في الشقة المستأجرة في حي أقيول من حاضرة الخلافة أدرت قرص الهاتف على رقمه الذي أخذته من الدكتور، وكان من حسن الحظ أن يكون هو الذى رد علي، بيد أنه لم يستطع مواصلة الحديث بالعربية فقال لي: هذا أبو حمزه بجانبي وهو الذي تسألني عنه. ولم ألبث أن سمعت أبا حمزه يكلمني بعربيته الأصيلة، فاستوضحني عن الحي والمنزل فعينتهما له، فآذنني بأنهما في الطريق إلينا دون تأخير.

وصدق الوعد ولكن الانتظار طال حتى انتهيا إلينا، وقد اعتذرا عن ذلك التأخير بجهلهما الموقع الذي لم يخلصا منه إلا بعدما يقارب الساعتين من الطواف.. ولم يكن ذلك علينا بالأمر اليسير، فالإرهاق آخذ بخناقنا، والنوم هو الوسيلة الوحيدة التي تخفف من وطأته، ومع ذلك فقد رضينا مكرهين بالأمر الواقع، ولبثنا نتحدث في مختلف الشئون قرابة الساعة، ثم كلفت الأخوين بأن يحملا استطلاعي إلى فضيلة الشيخ علي يعقوب، الذي علمتُ من أخباره ماحداني إلى ترجمته في الكتاب الثالث من (علماء ومفكرون عرفتهم).

وعلى الرغم من تعثر الأستاذ علي نار في التعبير عن ذات نفسه بالعربية، التي درس منها أثناء طلبه العلم في معاهد الدراسات الإسلامية مايكفي للحوار، فقد لاحظت أن فهمه لها أكبر من قدرته على استعمالها، وهو في ذلك لايختلف عن غيره من الشباب التركي المتخرج من مدارس الأئمة والخطباء، والمتخرجين في قسم الدراسات الإسلامية العليا أيضا، ففي مكنتهم استيعاب

الكثير من الكلام العربي، مع عجزهم عن الاعراب به عما يريدون، ومرد ذلك أنهم كالكثيرين من الاخوة الذين لقيناهم خارج البلاد العربية، ممن حضروا دروس العربية، قد حذقوا قواعدها ومخارج حروفها، ولكن لم تتح لهم الظروف الكافية للتدريب على إعمالها، وهي ظاهرة تجاوزتها معاهد الدراسة الإسلامية في الهند، وفي باكستان والفليبين وأندونيسية.. ولعل إخواننا في تركية مقبلون على مثل ذلك خلال وقت غير بعيد إن شاء الله.

ولقد سرني مالمسته في حديث الأستاذ علي من ثقافة أدبية وإسلامية فقررت أن يكون أحد الذين سأعني بتعريفهم إلى قراء العربية

وقد أكد هذه النية إثر ذلك تعدد اللقاءات معه سواء في إسلاميول أو في مصيفنا الهادىء (أو يزبينار) الذي زارنا فيه مع بعض أهل العلم أكثر من مرة.

ورأيت أن أدع له فسحة من الوقت يسجل بها أجوبته بالتركية على استطلاع خاص ثم يتعاون مع أبي حمزة على ترجمته إلى لغة الضاد، ولم أستعجله في ذلك تقديرا لوضعه الصحي الذي لاتكاد تفارقه أزمات الربو، شفاه الله وعافاه..

وكنت على وشك العودة إلى المدينة الحبيبة عندما تسلمت رده، وقد كتب بعضه بإنشائه وبخط يده، وأتم سائره الصديق العربي أبو حمزه.

نشأة إسلامية

لقد ولد الأستاذ علي نار ــ والنار هو الرمان بالتركية والفارسية ــ عام ١٩٣٨م في قرية (أصيصو) من محافظة فارس شرق أناطولي، وتشتهر أسرته باسم (منلاكيل) والمنلا عندهم هو الشيخ وطالب العلم. فمعنى ذلك أنهم من آل طلبة العلم كما يقول.

لقد بدأ دراسته في مدارس الأئمة والخطباء، التي أنشأها الشهيد عدنان مندريس، ومنها انتقل إلى (المعهد الإسلامي العالي) في اسلامبول، الذي تخرج فيه عام ١٩٦٤، ومن ثم رحل إلى بغداد للاستزادة من العلوم الإسلامية والعربية، حيث قضي عاما دراسياً كاملاً، ثم عاد إلى اسلامبول ليعمل في خدمة

الدين والعربية .

وعلى السؤال الخاص بالشخصيات التي تركت أثارها في نفسه وفكره، بدأ الجواب بالحديث عن والده (شهري) الذي عني بتربيته على الأصول الإسلامية، وتولى تعليمه القرآن الكريم، ولم ينس أثر والدته (كولي) التي كانت تحوطه برعايتها وتزوده دائما بدعواتها الصالحة، ويقول الأستاذ علي أنه في ظل هذين الأبوين التقيين تشرب روح الإسلام فامتزج حبه بلحمه ودمه .

وكان طبيعياً لفتى نشأ وترعرع في مثل هذا الجو العابق بشذي الإيمان أن يتخذ سبيله قُدُما في الاتجاه نحو الرجال الألصق بهذا الجو.. وهكذا أقبل على نفحات الشاعر الإسلامي المعاصر نجيب فاضل، الذي كان لقصائده الإسلامية صداها العميق في صدور الناس، ثم يليه الشاعر الآخر ذو النزعة العثمانية محمد عاكف، وقد أقبل على أثار هذين الشاعرين قارئا ومتفاعلا، بحيث أثار في مشاعره حب الأدب والنزوع إلى الشعر الذي لاينفك يطالعه ويعالجه ..

وفي الطريق نفسه يلتقي مع آثار آخر شيخ للإسلام في كنف الخلافة العثمانية العلامة المجاهد مصطفى صبري، فتعمق من تطلعاته الإسلامية وتفاعلاته مع اليقظة الحديثة التي أعقبت عهد الشهيد عدنان مندريس..

ثم يعدد من ذوي التأثير في توجهه الفكري أحمد داوود أوغلو الذي تتلمذ عليه في الفقه واللغه. وهو من خريجي الأزهر ومن تلاميذ شيخ الإسلام مصطفى صبري.. ويختم هؤلاء الرجال بالسيد نجم الدين أربكان، نائب رئيس الوزراء الأسبق، الذي إليه يرجع الفضل في إنقاذ القلة الإسلامية في قبرص من عملية الإبادة المدبرة من قبل الطائفة اليونانية، ولمساعيه الحثيثة تدين النهضة الصناعية الحديثة في تركية الحاضرة..

لماذا .. الكلام والأدب؟..

ونسأل الأستاذ عن أحب العلوم إليه فيركز رغبته على علم الكلام والأدب ..

ويعلن عجزه عن التعليل بقوله مأأرى ذلك سوى غريزة فطرية رافقتني منذ أيام الدراسة، إذ استقر في خَلدي أن سبيلي الطبيعي هو الجهاد عن طريق

التحرير الفكري والأدبي ..

والذي نراه أن لذلك الاتجاه علاقة حميمة بالأوضاع التي فجرها التغيير الطارىء على الكيان الإسلامي، وما لابسه من زلازل اجتماعية وفكرية استهدفت صميم المقومات الأصيلة التي حاصرتها الأحداث فلم تدع لها مجالا للدفاع عن نفسها حتى استوفت الوقائع مدتها، وبدأ الوعي يعاود الجياري، ثم يطل الانفراج من خلال انتصار حزب الشهيد مندريس في ميدان الانتخابات، وبذلك أتيح للفكر الإسلامي أن يتحرك لمواجهة التيارات الدخيلة ولو في نطاق محدود.. وهكذا سرت روح اليقظة وانطلقت المبشرات تهيب بالمواهب الواعدة أن تأخذ أهبتها للمشاركة في الذوذ عن دين الله على صفحات الصحف وفي المطبوعات المختلفة..

وطبيعي أن يكون للشباب الناشىء في الجو الجديد تفاعلاته مع دواعي هذه اليقظة، فيتطلع لأداء دوره في توسيع رقعة التصحيح الإسلامي.

وإد كانت المعركة ولاتزال معركة فكر يواجه فكرا، فلا مندوحة لهذا الشباب من التسلح بالمنطق القادر على المواجهة.. وفي علم الكلام الإسلامي مايساعد على الصمود والانتصار..

ومن هنا كان تطلع صاحبنا، بل تطلعات جيله إلى الاهتمام بهذا المنهاج العقلي، الذي سبق أن ثبت نجاحه في مواجهة الغزو الفكري خلال المراحل السالفة من تاريخ الإسلام، ونحن لانستبعد أن يكون لرسائل الإمام النورسي، التي لبثت مرجعا للثقافة الإسلامية طوال سني المحنة أثرها في هذا الاتجاه بما تحمله من قوة الحجاج في الدفاع عن حقائق الإسلام.

وأما ميله الأدبي فمن المنطلق نفسه، إذ كان قد أخذ بجمال البيان منذ حداثته، فأدرك أنه أنجع الوسائل في تحريك المشاعر، وإيصال الفكر الصحيح إلى مستقره في القلوب.

في الطريق إلى الإنتاج

ويقول الصديق الأديب لقد بدأت علاقتي بالأدب منذ المرحلة الثانوية،

وبدأ تفاعلي به عن طريق دروس التعبير الذي وجدت فيه المجال المشجع، ثم تلا ذلك مرحلة الشعر إذ بدأت فيه بعض المحاولات، وكان أولها عام ١٩٦١ عندما كنت منتظما في الدراسة العليا من الجامعة، فكانت القصيدة الأولى بعنوان (المساء) وهي عن الماء وأثره في وجود الإنسان، ومن ثم جعلت ثقتي تتنامى بنفسي، وبهذا الدافع شاركت في مسابقة لأحسن موضوع فكري. ولاينسى هنا أن يسجل انفعاله العميق بأفكار الشاعر الآخر سزاني قره قوج الذي كان له كبير الأثر في اتجاهه الأدبي والفكري، بعد نجيب فاضل..

وللأستاذ كذلك محاولات مسرحية يقول إنها بدأت في العام ١٩٦٧، وقد بلغ انتاجه منها أربعا طبعت في العام ١٩٧٥.. وقلما يتعامل الأديب مع المسرحية إلا بعد محاولات لامندوحة عنها في ميدان القصة والرواية وكذلك فعل، فقد أعطى هذا الجانب الكثير من عنايته فكتب بعض القصص القصيرة ونجح في تأليف بعض الروايات، ويقول ان أولى رواياته كانت باسم (مملكة النحل) التي نشرت عام ١٩٧٨ وبذلك تهيأ لانشاء المسرحيات التي أسلفنا الإشارة إليها، ويخص بالذكر منها (عقلية مختار) التي أحرزت الدرجة الأولى في إحدى المسابقات الأدبية.. وهو يعزو هوايته القصصية إلى تأثره المبكر بكل من الكاتبين القصصيين رفيق خالد، وراسم أوزدان، أما كتاباته المسرحية فيردها إلى تكوينه الذاتي، ويذكر من مؤلفاته في هذه الفترة كتاب (مشاهداتي السياحية) وفيها يصور انطباعاته عن جولة قام بها في بعض الأقطار العربية، وشملت العراق وسورية ولبنان والأردن والسعودية.

الصحوة تعم

ومن الظواهر البارزة في حياة المسلمين، على تباعد ديارهم وتعدد ألسنتهم، تلك الموجة العريضة العميقة من الوعي الإسلامي، الذي انطلقت شرارته الأولى منذ كارثة الأندلس، التي قضت على الوجود الإسلامي في القارة الأوربية، ومازامنها من الزحف الصليبي على مناطق الإسلام الرئيسة في أدنى الأرض حول المتوسط، ثم في أعماق القارة الأفريقية، ثم في أقاصي جنوب شرق آسية.. فقد أيقظت هذه الصدمات الرهيبة ذلك العملاق الذي غلبه النوم والخلاف الذاتي عن رسالته الإنسانية، فأدرك هول الخطر الذي يهدد

وجوده، فجعل يتململ، ثم يبذل محاولاته للدفاع عن نفسه وقيمه، حتى انتهى إلى الواقع الراهن، الذي نشاهده هذه الأيام على امتداد العالم الإسلامي في ما يسمونه بالصحوة الجديدة ..

والسائح في العالم الإسلامي، إذا كان من ذوي البصائر، لايفوته أن يلمس تلك الوحدة العجيبة تطبع رؤية الطبقة المثقفة من قادة الجيل الإسلامي .. وهو عندما يتعمق البحث عن مصادر هذه الوحدة الفكرية لايعجزه أن يردها إلى تلك المطبوعات التي كتبها أساطين الدعوة الإسلامية في مختلف الأنحاء، ثم يَسرَّ الله ترجمتها إلى لغات العالم الإسلامي من أقصى اليابان إلى أقصى سيبرية، مقتحمة أسوار الحواجز المصطنعة على قسوتها وتكاثرها ..

لقد انتشرت أفكار هذه الصفوة انتشار النور في أسداف الظلمات فأنى اتجهت من هذا العالم تجدها معروفة للأعين، أو متداولة على الألسن، أو مهموسة في الصدور .. وإذا كان الفضل في إبداعها للمصنفين، فإن الفضل في نشرها للمترجمين، وهكذا ترى تراجم هذه المؤلفات حيث مضيت من شوارع المدن الرئيسية في تركية اليوم، إلى جانب كتب التراث الإسلامي الضخمة، وقد أعيدت طباعتها وملأت واجهات المعارض التي لاتفتأ تشحنها إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي ..

إسهاماته في الترجمة

ونقف الآن قليلا مع مترجمنا لنرى أثره في إشاعة هذه الصحوة :

يقول الصديق الأديب: مع إطلالة العام ١٩٨٠ اتجهت إلى العمل في نطاق الترجمة، وكان إقبالي على ترجمة بعض المؤلفات الإسلامية نوعا من التنفيس الروحي عن ضغوط المعاناة التي نعيشها في ظل واقع لايقيم وزنا لحقوق الإنسان. ومما تيسر لى ترجمته من العربية كتاب (إذا هبت ريح الإيمان) من مؤلفات الداعية الإسلامي أبي الحسن الندوي، ثم كتب الدكتور نجيب الكيلاني (عذراء جاكرتا) و(نور الله) ومن مؤلفات الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي كتاب (اللامنهجية ..) و(فقة السيرة) وكتاب (الاجتهاد والمجتهدون) للشيخ أحمد عز الدين البيانوني، وكتاب (اللامذهبيون

ومقلدوهم) للدكتور حسيب السامرائي، وترجمت كتيب (خطوات في الهجرة) للدكتور عماد الدين خليل، ورسالة الشيخ على الطنطاوي التي عنوانها (يابنتي) وترجمت من كتب توفيق الحكيم (أرني الله) و(أنا الموت) ثم ديوان وليد الأعظمي (ذكر ونسيان) وفي مشروعاتي الأتية إن شاء الله ترجمة (وإسلاماه) لعلي أحمد باكثير و(مشكلات الجيل في ضوء الإسلام) لمحمد المجذوب.

ولا تنس أن لصديقنا الآديب غير هذه التراجم والمؤلفات نشاطا مستمرا في خدمة الكلمة الطيبة، بما ينشره من مقالات في بعض المجلات والصحف الإسلامية، وذلك على الرغم من العوائق الصحية التي بعضها الربو شفاه الله.

روايته المفضلة

وكان لابد من تعرف نظره إلى أحب كتبه إليه وتعليله فكان الجواب أنه يعتبر روايته (مملكة النحل) ألصقها بنفسه، ومرد ذلك إلى مضمونها الرمزي الذى يصور واقع الاحتلال والاستغلال والافساد التى تتعرض لها أوطان المسلمين، من قبل الأعداء الخارجيين والأذيال الداخليين، وما يرافق ذلك مس ألوان الظلم والمحن، التي تضطر القوة العاملة كما تضطر صفوة المثقفين إلى الهجرة، إلى حيث يتاح لهم التفرغ لرسم الخطوط التي تساعدهم على العودة من جديد، مزودين بالطاقات التي تمكنهم من تغيير الواقع الأليم.

قلت: ولاجرم أن لهذا الاختيار صلته الوثيقة بواقع الهجرة التي يضطر إليها الأعداد الهائلة من الشباب التركي طلبا للرزق والحرية في ألمانية الغربية ومختلف الأقطار الأوربية.. وهي الظاهرة التي أصبحت عامة في مختلف ديار الإسلام، حيث لايجد الجماهير، وبخاصة الطبقة المثقفة سبيلا للخلاص من الأوضاع الشاذة في بلادهم سوى الهجرة..

ولكن صاحبنا يتصور للهجرة هدفا غائيا من شأنه أن يكون ــ في النهايات القصوى ــ سببا للكثير من الاصلاح، وهو هدف قلما يخطر في بال السواد الأعظم من أولئك النازحين، وكأنه توجيه لهم، أو لأولي الوعي منهم

خاصة، إلى وجوب التفكير في أبعاد المصير..

الأدب الإسلامي ينطلق

وكانت خاتمة الاستطلاع حول موضوع الأدب الإسلامي، الذي يتحرك هذه الأيام بخطوات غير بطيئة في الصحف التركية التي تحمل الطابع الإسلامي، والمؤلفات التي تعالج أهم قضايا المسلمين، ليس في تركية وحسب بل في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، ومثل علي نار وإخوانه من جيل اليقظة أكثر الكتاب تمثيلا لهذا اللون من الأدب، لأن معظم نتاجهم الفكري والأدبي، إن لم نقل كله، يتدفق في هذا الاتجاه، الذي يصور اهتماماتهم وهمومهم اليومية.

يقول الصديق الأديب: إن في تركية اليوم نهضة جادة في الفكر والأدب تواكب الصحوة العامة التي يعيشها مفكرو المسلمين في كل مكان، وتصور تطلعاتهم اللهفي إلى حياة إسلامية تعيد للإنسان المسلم منزلته الريادية في المجتمعات الإنسانية.

ويدلل على مدى هذه النهضة وأصالتها بانتشار الترجمات الدائبة للكتب الإسلامية، المؤلفة أصلا بالعربية والفارسية والأوردية والانجليزية، وفي رأيه أن حركة الترجمة هذه تسهم إلى حد كبير في عملية التلاحم بين أجزاء الأمة الإسلامية. وتؤكد وحدتها التي أثبتت أنها أكبر من أكبر الأحداث والنوازل..

ويعد من ممثلي الأدب الإسلامي في تركية الحديثة طائفة من رجال القلم الذين كان لهم الأثر البعيد في ترسيخ هذا الاتجاه وفي مقدمتهم (نجيب فاضل) ثم (سزاي قره قوج) و(راسم أوزدان أوران) و(مصطفى قوتلو) و(مصطفى مياس أوغلو) و(دورالي يلماز) و(أوردوم بيازيد).

هذه التوصيات فمتى التنفيذ؟

ويقول كاتب هذه الترجمة أخيراً.. لعل الكثيرين من قراء هذا الكتاب لم يسمعوا قط بهذه الأسماء من قبل، لأنهم لم يطلعوا على شيء من آثارهم منقولة إلى العربية، وهكذا القول في الكثير من أدباء العالم الإسلامي، لانكاد نعلم

عنهم شيئا لولا مايسر الله من ترجمة لبعض آثارهم. وقد آن لهذا التقاطع أن ينتهي ليتم تعارف المسلمين فيما بينهم، ولكن.. من الذي سيتولى رتق هذا الفتق.. وكيف.. ومتى؟!

لقد كان في توصيات الندوات الثلاث التي عقدت في لكناؤ ــ بالهند ــ وفي الجامعة الإسلامية بالمدينة ــ وأخيراً في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ــ دعوة لترجمة الأعمال الإسلامية الهامة إلى المشهور من ألسنة المسلمين.

وهي توصية مشكورة مبرورة، غير أنها لاتزال تنتظر التنفيذ.. وحبذا لو يبدأ هذا التنفيذ من المؤسسات نفسها التي تبنت هذه التوصيات..

* * *

الشيخ عمر محمد فلاته

من إفريقيا إلى دار الهجرة

هو الأخ المحبب إلى قلوب عارفيه فضيلة الشيخ عمر محمد فلاته ــ أو الفلاني نسبة إلى قبيلة الفلانة المعروفة والمنتشرة في معظم أفريقية الغربية، وينتهي نسبها على رأى بعض المؤرخين إلى عقبة بن نافع، أو ابن عامر أو ياسر، ولعله عقبة آخر غير الصحابي الجلّيل فاتح إفريقية.

ويقول فضيلة الشيخ إن أحد أجداده من هذه القبيلة قد هاجر إلى نيجيرية في جماعة من قومه فأقاموا في موضع على نهر النيجر يسمى بلسانهم (نافدا) وأدى ذلك إلى خلاف بين سكان تلك المنطقة بشأن إقامتهم، ثم لم يمض كبير وقت حتى تمكنوا من الاستقرار هناك وصار إليهم الأمر في أحوالها، فقال بعض كبار السكان السابقين (نافدامُكو) أى لقد أخبرناكم أنهم سيحتلون القرية ومن هنا جاء اسم تلك المحلة، ونافطا ــ أو نافدا ــ هذه معروفة بأنها من مواطن العلم في تلك الانحاء، حتى أن من لم تتح له الدراسة فيها لايعتبر طالب علم..

أما كيفية وصول أسرته إلى المدينة المنورة.. فيقول مامؤداه: أن أول مهاجريها إلى الديار المقدسة هى جدته لأبيه واسمها عائشة، خرجت مع زوجها إبان الحكم العثماني واستقرت بالمدينة وقد بقى والده ــ ابنها ــ لدى أبيه وأهله الذين تولوا رعايته في غياب أمه، وظلت صلته بها عن طريق الحجاج الذين يحملون إليها أخباره ويرجعون إليه بأخبارها.. ولكن هذا الوالد سرعان مافوجىء بوفاة أبيه، الذي خلف لابنه ــ والد الشيخ ــ عبئاً ثقيلا اضطره إلى خوض معركة العمل مبكرا، فلم تتح له فرصة الاقبال على العلم، إذ انقطع للتجارة التى عادت عليه بخير كثير من توفيق الله، فانتظم أمره وأكمل الله له شطر دينه بالزواج.

ثم يسر الله لجده والد الأم أداء فريضة الحج وكان ذلك أيام الحكم الهاشمي، ولم يعد إلى الوطن إلا بعد أن قضى سنتين في ظل الحرمين، بيد أنه عاد وفي قلبه شوق للهجرة إليهما وجعل يثير رغبة ابنته وزوجها في الهجرة أيضا، فاستجابا له، وما لبثا أن أخذا سبيلهما مع إحدى قوافل الحجيج باتجاه مكة المكرمة.. على الرغم من كل الشائعات التي بدأت تنتشر عقيب استيلاء الملك عبد العزيز رحمه الله على الحجاز، وفيها مايسر ويخيف في آن واحد، ومن تلك الشائعات قول المرجفين والجاهلين بأن قوما من العرب غزوا مكة والمدينة وهم يحملون أفكارا غريبة، إذ يتلفظون بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ولا يشهدون بأن محمدا رسول الله، بل ينكلون بكل من جهر بها وربما قتلوه، ومع ذلك فهم يأمرون بإقامة الصلوات مع الجماعات، ولا يفرقون بين الأمير والمأمور والصغير والكبير، وإذا ماانتظموا في الصلاة فكأنما على رؤوسهم الطير.. إلى آخر ماهناك من الأنباء المتضاربة..

ويقول الشيخ: لقد قضت حكمة الله أن يبدأ أبواه مسيرة الهجرة وهما اثنان، وينتهيا إلى البلد الحرام ثلاثة أفراد، إذ حملت به أمه أثناء الرحلة التى استغرقت قرابة العام ووضعته قبيل الوصول إلى مكة المكرمة ببضع مراحل.. وهو يعتبر ذلك طليعة البركات بالنسبة إليه، إذ كانت سماء هذه الديار أول ماكتحل به بصره من مشاهد الدنيا، وكان أول تراب مس جلده من أرضها، ويقول إن من أحب أمانيه أن يحقق له الله مثل مصير الفاروق رضي الله عنه شهادة في سبيل الله، وميتة في بلد رسوله، صلوات الله وسلامه عليه وآله...

ومما يثلج صدر الشيخ فيما يقول أنه منذ وافى طيبة الطيبة مع والديه في الرابع والعشرين من عام ستة وأربعين وثلاثمائة وألف وحتى اليوم، لم يغادرها إلا حاجاً أو معتمراً، ثم لم يفارق أرض الحرمين إلى خارج البلاد العربية إلا عام ١٣٨٤ هـ، إذ خرج للدعوة إلى الله في بعض الربوع الإفريقية، ثم في بعض المناسبات التى ابتعث فيها للدعوة في بعض الأرجاء الأخرى من مواطن المسلمين.. وهو في ارتباطه الصميم بهذه المدينة المباركة لايختلف عن أي محب لها من المسلمين الذين يتلهفون إلى زيارة مسجدها والارتواء من معالمها، التي تذكرهم بأيام الرعيل الأول من صفوة خلق الله، وهم يرتضعون أفاويق الوحي

من أنفاس رسول الله ﷺ وآله وصحبه، يضاف إلى ذلك ماورثه من روحانية أبويه، اللذين كان كثيرا مايستمع إليهما يترنمان بهذين البيتين اللذين لايدري شيئا عن ناظ هما:

آلهي نجني من كل ضيق لحب المصطفى مولى الجميع
وهب لي في مدينته قرارا ورزقا ثم مثوى في البقيع

دراساته وإجازاته

وعن دراسته يحدث فضيلته بأنه تلقى مبادىء القراءة والكتابة والأجزاء الأولى من القرآن الكريم في مكتب العريف محمد بن سالم رحمه الله، وهو معلم مشهور لاتكاد ترى طفلا من أبناء المدينة أيامئذ إلا وهو من تلاميذ كُتابه الذي كان على مقربة من المدخل الشمالي للمسجد النبوي حيث باب السلطان عبد المجيد: وفي العام ١٣٦١ هـ تم انتقاله إلى مدرسة العلوم الشرعية وراح يتدرج في مراحلها الثلاث: التأسيسية والتحضيرية والابتدائية، وفي التحضيرية أكمل حفظ القرآن الكريم ونال شهادته في العام ١٣٥٩ هـ وبعد أربع سنين أحرز شهادة الدار الابتدائية، وفي العام نفسه شارك في الاختبار الذي تعقده مديرية المعارف العامة للشهادة الابتدائية الرسمية، وهي أعلى مراحلها آنذاك، وبعد نجاحه في ذلك الاختبار التحق بشعبة العلوم العالية في دار العلوم الشرعية حتى أنهى مقررات السنة الثانية منها، ويذكر من شيوخه في هذه المرحلة العالية كلا من الشيخ محمد إبراهيم الختني، والشيخ عمار الجزائري والشيخ يوسف سليمان الفلسطيني، ويخص بالذكر العلامة صالح الزغيبي الذي قضى في خدمة المسجد النبوي إماما وخطيبا طوال ربع قرن لم يُعرف أنه تخلف خلالها عن صلاة الجماعة إلا لضرورة نادرة، ومن ثم انتقل إلى دار الحديث عام ١٣٦٤ حيث أتم فيها الدراسة العالية ..

وهنا يتوقف قليلا ليذكر مديرها الجليل الشيخ عبد الرحمن بن يوسف الإفريقي الذي قرأ عليه بلوغ المرام وشرحه سُبُل السلام، وبعض الأمهات من الكتب الستة، وموطأ الإمام مالك وختمه عليه مرتين، ثم نيل المرام، ونيل الأوطار للشوكاني، ثم التفسير والمصطلح، ويقول إنه استفاد من فتاواه

وإجاباته عن أسئلة السائلين، وقد أعانه على تمثلها توليه نسخها له..

ويواصل الشيخ حديثه عن أساتيذة فيذكر منهم كذلك الشيخ محمد على الحركان ـــ أمين عام رابطة العالم الإسلامي السابق رحمه الله ـــ الذي قرأ عليه جزءاً كبيراً من صحيح البخاري مع شرحه الفتح وذلك أثناء دروسه في المسجد النبوي.

ومن حيث الاجازات العلمية يقول إنه حصل على إجازة شفهية من شيخه الأفريقي، ومن الشيخ محمد بن إبراهيم الخُتني، أحرز إجازة علمية مطلقة في كل ماصحت روايته وفق شروط المحدثين، وهي إجازة ترجع قيمتها إلى كون مانحها من تلاميذ المحدث المشهور الشيخ محمد عبد الباقي الأيوبي المدني، كما أجازه كل من المحدث العلامة أبي محمد عبد الحق الهاشمي المكي، والعلامة الشيخ سالم بن أحمد باجندان الحضرمي، المحدث الشهير في إندونيسية عند حضوره للحج وزيارته المسجد النبوي، وفي عام ١٣٧٠ هـ حصل على إجازة التدريس في المسجد النبوي من قبل رئاسة القضاء بالمملكة العربية السعودية، وبخصوص هذه الاجازة يشهد الله على أنه لم يطلبها، ولكنه دعى إلى المحكمة الشرعية بالمدينة لتسلمها والتوقيع على سجلاتها.

وبالنسبة إلى القرآن العظيم فهو لم يكتف بحفظه وبالشهادة التي حصلها بشأن هذا الحفظ أثناء دراسته في القسم التحضيري، بل أقبل على جملة من علماء القرآن الذين أدركهم في المدينة المنورة يقرؤه عليهم زيادة في التمكن، ويخص بالذكر من هؤلاء السيد أسعد محي الدين الحسيني.

ويستمر في سرد البقية من الأساتيذ الذين انتفع بعلمهم في طيبة المباركة، فيذكر الشيخ المعلم محمد جاتو الفلاتي، الذي قرأ عليه أكثر متون المذهب المالكي، وبعض شروحها، ثم العلامة اللغوي المحدث محمد بن أحمد تكينة السوداني المدني، الذي قرأ عليه بعض كتب البلاغة والنحو وأطرافا من أصول الفقه.

أستاذه الإفريقي

وعلى السؤال الخاص بأكثر الرجال تأثيرا في حياته وتفكيره، يعود فضيلته

إلى ذكرى الرجل الذي يقول إنه تجاوز في كيانه الروحي نطاق التعليم إلى حدود الأبوةَ، فعلى الرغم من تقديره الصميم لكل من أسهم في تثقيفه وتوجيهه من أولئك الأساتذة، يظل الشيخ عبد الرحمن الإفريقي أعمقهم أثرا في تكوينه الفكري والنفسي، ولا غرابة في ذلك، فقد قدر له أن يقضي في ملازمته ومخالطته والانفعال به أكبر زمن قضاه مع مربٍ، إذ كان له كظله لايكاد يفارقه في حله ولا ترحاله، حتى ليحسبه من لم يعلم حالهما أنه كبير أبنائه.

وما أصدق قول الشيخ في أستاذه المفضل: «ولولا خشيتي الغلو لسودت الصفحات الكثيرة في بيان فضائله ومحاسن أخلاقه، لتتعلم الأجيال الحاضرة والقادمة كيف كانت العلاقة بين الطلاب والشيوخ، وأن للأبوة الروحية من الوشائج مالا تطغى عليه تقلبات الأيام، بل من شأنها أن تزداد عمقا ومتانة بمرور الزمن، فكلما خطرت في البال ثارت كوامن النفس شوقا إلى الماضي».

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى تلك المحاضرة التى ألقاها الشيخ ذات مساء عن أستاذه هذا في قاعةالجامعة الإسلامية، فأبرز العميق من خلال ذلك العالم الفاضل، الذي كان بحق واحدا من بقايا السلف في عمله وفضله وجهاده الدائب لنشر المعرفةالمصفّاة ابتغاء مرضاة الله، ولقد وفقنا الله لعرض سيرة ذلك الرجل الصالح ــ إن شاء الله ــ وظروف هجرته من إحدى المستعمرات الفرنسية بإفريقية إلى هذه الديار المقدسة في كتابنا الأول من حلقات (علماء ومفكرون عرفتهم..).

ويحسن بنا أن نتذكر، ونحن نطالع أسماء هؤلاء الأعلام، أنهم من بقايا الصفوة المؤتمنة على تراث مهبط الوحي الذي منه انطلقت أشعة الهدى تبدد ظلمات الأرض، وتحت راياته زحفت كتائب الفتح تبشر بالدين الحق الذي به ختم الله رسالاته إلى الدنيا.. فللاتصال بهؤلاء الفضلاء وللاستماع إليهم والأخذ عنهم معنى نفتقر إلى بعضه هذه الأيام في سائر معاهد العلم على امتداد العالم الإسلامي.. إذ لم يكونوا فقط معلمين، بل كانوا إلى ذلك محل القدوة الصالحة في تمثيلهم المنظور لفضائل الإسلام.. نسأل الله أن يغفر لسابقيهم ويبارك في حياة تابعيهم من الحاملين أمانتهم، والوارثين علومهم ومآثرهم..

والتمسنا من فضيلة الشيخ أن يتحفنا بنبذة موجزة وافية عن أثر المسجد النبوي في تكوينه العلمي والفكري، وكأننا بذلك قد لمسنا مستودع الذكريات العزيزة في قلبه، فإذا هو يتدفق بهذه الصور التي أكرمنا الله بإدراك طائفة منها خلال إقامتنا في طيبة الحبيبة على مدى مايقارب ربع القرن..

يقول أجزل الله مثوبته: إن لموقع المسجد النبوي في قلب المدينة المنورة حكمة بالغة هي بنفسها آية من آيات الله.. ففي هذا المسجد المبارك بدأنا تعلم القراءة، وتدربنا على صلوات الجماعة، وحوله كنا ننطلق للعب أيام الطفولة، وفي رحابه كانت إجتماعاتنا لمناسبات الحفلات والأعياد، ومن افتقد صديقا له التمسه فيه، ومن كان ذا حاجة إلى إنسان وجده هناك، ومن التمس علما أو أراد تعليما فهو مكانه الطبيعي وكل صلح أو عقد ففيه يكتب، ومن أصابه كرب هرع إليه، وإذن فكيف يكون أثر هذا المسجد الكريم المنير في تكويني العلمي والفكرى والنفسي، وأنا المرتبط به في أهم شئون حياتي ليلا ونهارا وقد أسلفت الكلام فيما تقدم عن بعض شيوخه وفضلهم علي، أولئك الذين جثوت أمامهم أتلقى ماتيسر من علوم السنة والفقه، وفنون الأحاديث والأخبار والآثار، وطالما تنقلت بين أساطينه، وعند كل اسطوانة محدث أو فقيه أو لغوي أو أديب، وفي كل ناحية منه ناسك وراكع وساجد، ومن جاور الصالحين لابد أن يلتقط من فتات موائدهم مايساعده على إصلاح نفسه، أضف إلى ذلك سلامة تلك الأيام من المفسدات، إذ ليس ثمة مغريات ولا رائحات وغاديات، ولا منكر تشهده في الغدوات والروحات..

وطاب للشيخ أن يسترسل في سرد قائمة أخرى من أسماء أولئك الفضلاء الذين لم يأت على ذكرهم من قبل فتشعر أنه يستعرض ذكريات أحب الناس إليه.. ولولا خشية الاطالة في غير طائل لأثبتنا هذه الأسماء كلها.. ولكن مثل أولئك الرجال لايفي بحقهم مجرد ذكرهم بل يستحقون من حملة الأقلام التفرغ لكتابة سيرهم إسهاما فى الخير، وحفاظا على مآثرهم من الضياع..

والشيخ إذ يورد هذه القائمة من الأسماء لاينسى أن يعرب عن تقديره للذين تصدوا للكتابة عن بعض أصحابها، فيذكر من هؤلاء المرحوم محمد

دفتردار الذي ترجم لعدد من أعيان المدينة وعلمائها، وينفضل بالثناء على ماقدمناه من جهد محدود في هذا المضمار، ويذكر من الذين أسهموا في هذا الواجب الأستاذ/ عمر عبد الجبار بما كتبه من التراجم لبعض أعيان مكة المكرمة.. ولكنه يتمنى مع ذلك لو عُنِيت مجالس البحث العلمي في جامعات المملكة بتوجيه طلبتها في قسم الدراسات العليا لتخصيص بعض رسائل الماجستير أو الدكتوراه لهذه القضية، مواصلة لمسيرة السابقين من الذين أرخوا للحركة العلمية في الحرمين المباركين وتركوا لنا صورا حية لعلمائهما وأعيانهما خلال القرون..

نماذج وطرائف

وكان من تمام هذا العرض الشيق أن يتفضل الشيخ فيقدم لقراء هذا الكتاب نماذج ثلاثة تمثل نوعية هؤلاء الأجلة الذين توارثوا أمانة الخدمة لأول مسجد أسس على التقوى في طيبة الطيبة..

ويبدأ بأقدمهم وهو الشيخ محمد الطيب الأنصاري الذي يروي مايقوله فيه الثقاة من عارفيه بأنه كان من أكثر مشايخ المسجد النبوي دروسا وأوفرهم مرتبا، وأجهلهم في الوقت نفسه بأنواع النقود فما يفرق بين الريال والقرش، ولا الدينار والدرهم، فهو يضع مايقبضه في الكيس، فإذا أراد شيئا منه مديده إليه فاستخرج ماتيسر دون أن يعرف ماصرف وكيف صرف وماذا بقي وكم أنفق، وإنما يعرف ذلك الطالب الذي تطوع للقيام بحاجات شيخه..

وطبيعي أن واقع الشيخ هذا إنما يصور نفسية العالم المسلم الذي وهب وجوده لله، فليس للدنيا أي سلطان عليه.. ويُثَني بالشيخ صالح الزغيبي الذي لايختلف كثيرا عن الأول وهو الذي أسلف ذكره قبل قليل، فيضيف إلى أخباره هنا قصة طريفة خلاصتها أنه قد خرج ذات يوم لصلاة الصبح، وقد تجلبب بردائه، وقدر الله أن تندس عقرب خبيثة خلاله دون أن يشعر، فما إن شرع في تكبيرة الاحرام حتى جعلت تُعمل حُمتَها في جسده، ولكنه لبث متماسكا واستمر في صلاته كدأبه بمنتهى الخشوع، إلى أن فرغ من الصلاة، وعلى غير عادته أسرع بمغادرة المسجد إلى البيت وهناك ألقى بالعقرب فقضى

عليها، بعد أن استنفدت ذخيرتها من السم في جسد الشيخ الصالح!.

وما أروع الصبر حين يستعلي على الألم في قلوب المؤمنين!..

ومن ثم يعود إلى أنموذجه الثالث الذى سبق أن أشهدنا صوراً من حياته، ليقف على جانب اخر لايحسن أن يفوته ذكره.. إنه ـــ بتعبيره ـــ الحكيم (الذي استطاع أن يجعل من السوقة طلابا للعلم، بسهولة أسلوبه، وقوة حجته، وحضور بديهته، ورحابة صدره، ولين جانبه، وحرصه على نشر العلم..

أما خلقه الكريم فحسبك منه، هذه الصورة الطريفة يعرضها الشيخ لأستاذه الأفريقي عفوية دون تنميق فيقول: كان إذا ماعاد إلى منزله ليلا أو نهارا يمر على بعض صغار الباعة فيشتري منهم السلع الكاسدة بأضعاف ماتستحق، فإذا مانبهناه إلى ذلك ابتغاء تحذيره من الاستغفال أجاب: لست بالخِب ولا المخدوع، وإنما أريد أن يعودوا إلى أهلهم مسرورين، ويتشجعوا على مواصلة العمل، فلا يَدَعوه إلى التواكل الذي قد يجرهم إلى الفساد.

ثم يختم حديثه عن صاحبه بهذه الطرفة الأخرى:

يقول الشيخ: «عندما رزقت بأول ذكر تركت له أن يسميه، فقال: هو محمد» ثم دفع إليَّ بمئتي ريال ثمن كبشين للعقيقة، فتوقفت معتذرا.. وفي هذه الأثناء مر بنا أحد الاخوة فقال له: تعال فانظر إلى هذا الرجل، أريد أن أعق عن حفيدي فيأبى عليّ.. فما كان من هذا إلا أن فصل الخلاف بيننا بقوله: إن على الأب ثمن كبش، وعلى الجد مثله، وبهذا قُضِيَ الأمر..

ويالها وشيجة رحم تربط بين الأستاذ وتلميذه!..

وياللخسارة حين نفتقد اليوم هذه الصلة الروحية فلا نجدها إلا من خلال الذكريات!..

وما أحسن مايصنع فضيلة الشيخ عندما ينجز وعده بتسجيل هذه الصور السعيدة في كتاب يقول إنه يعمل في إنشائه بعنوان (ذكرياتي عن المسجد النبوي)!..

وعن الأعمال التي تولاها فضيلة الشيخ عمر يقول: إن أولها كان تعيينه مدرسا في دار الحديث القريبة من المسجد النبوي عام ١٣٦٧ هـ ثم مديرا لها، وفي العام ١٣٧٣ هـ أضيف إليه العمل في الدار السعودية مدرسا ومساعدا لمديرها، ومن هناك نقل إلى المعهد العلمي السعودي بالمدينة لتدريس مادتي الحديث وأصوله عام ١٣٧٥ هـ حيث بقي إلى العام ١٣٧٨ هـ ويومئذ خُيّر بين العمل في الوزارة أو الانقطاع لدار الحديث التابعة لإشراف سماحة مفتي المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم حسب النظام الجديد الذي يحصر العمل في إحدى الجهتين فآثر الثانية وبعد تحول الإشراف إلى رياسة الجامعة الإسلامية عام ١٣٨٥ هـ عين مساعدا لأمينها العام ثم أمينا عاما على درجة أستاذ مساعد، وقد استمر في عمله هذا حتى العام ١٤٠٤ هـ حيث شعر بالحاجة إلى اعتزاله فاستجابت الجامعة لاستقالته، وأسندت إليه رئاسة المجلس الخاص بشئون الدعوة مع تكليفه عددا من المحاضرات..

ولن يغيب عن الأذهان ماسبقت الإشارة إليه من حيث تعيينه بين مدرسي المسجد النبوي منذ العام ١٣٧٠ هـ وهو الواجب الذي لم ينقطع عن أدائه قط على الرغم من تكاثف أعبائه، ثم كان آخر ماأسند إليه من الأعمال عضويته في مجلس الإشراف الديني بذلك المسجد المبارك.

وقد شاء الله أن أعرف المترجم منذ قدومي المدينة المنورة للتدريس في الجامعة الإسلامية عام ١٣٨٣ هـ، ومنذ تولّي هو عمله في الجامعة حتى انتهاء عملي فيها عام ١٤٠٣ هـ لم تنقطع صلتي به، وبخاصة أثناء قيامي بالإشراف الاجتماعي على شئون الطلاب، إلى جانب عملي في التدريس، إذ كان هو الجهة التي لامندوحة عن التعاون معها لتنظيم عملية الإشراف، ثم أثناء مشاركتي في مجلس إدارة الجامعة حتى انتقال سماحة الرئيس الشيخ عبد العزيز بن باز إلى منصبه الجديد في الرياض عام، وطبيعي أن صحبة كهذه تتيح لي أن أعرف من مميزات هذا الإنسان مايمنحني الحق بتقديمه إلى قراء هذا الكتاب

إن أول مايواجهك من خصائص هذا الفاضل هو الأدب الجم الذي يشعرك كأنك تلقاء أخ تعرفه من قديم، وتعرف من شمائله مايجعله موضع

احترامك وثقتك، فتفضي إليه بمكنونات قلبك دون تحفظ وتتقبل رده أيا كان رده بمنتهى الرضي، ليقينك بأنه صادر عن قلب مفعم بالإخلاص والرغبة في الخير..

وأشهد بأني لم ألقه قط إلا وعلى وجهه تلك الابتسامة التي تشيع في روح مراجعه وزائره الأنس، الذي من شأنه أن يزيل حواجز الكلفة بينهما وبينه، ورب مراجع لايجد عنده حلا لمشكلته، ولكنه مع ذلك لايفارقه إلا وهو راض شاكر، وليس من النادر أن يأتيه ذو الحاجة من الطلاب أو المستشفعين فلا يملك له نفعا، ولكنه لايدعه حتى يسر إلى يده بما يخفف من حاجته ولو إلى حين..

وبوسعي أن أقول جازما بأنه من القلة النادرة التي أطبق علي حبها وتقديرها كل من عرفه عن كثب في الجامعة الإسلامية، حتى ذلك الموظف الكبير الذي قل أن يود أحداً من زملائه أو يوده منهم أحد، قد طالما ذكره بخير وخصه بالصادق من الثناء على مشهد مني وغيبة منه.

الشيخ الأديب

ومن يعرف فضيلته معرفتي به لايسمح لنفسه بإغفال نزعته الأدبية التى يحسها من خلال أى حوار يجريه معه، لذلك رأيت أن أستوضحه عن الظروف التى ساعدت على تكوين هذه النزعة في نفسه، فكان من تعقيبه على ذلك هذه الخلاصة اللطيفة التي ماكان ليفضي بها إلا بعد كثير من التردد.

يقول الشيخ: «أعترف بأن هذه الهواية قد تفتحت في كياني منذ نعومة أظفاري، أيام دراستي لمادة التعبير في مدرسة العلوم الشرعية، وقد غذاها ذلك النادي الذي كانت تعقده المدرسة كل أسبوع، فيحضره الطلاب والأساتذه ويتبارى فيه الوعاظ والخطباء، أمثال الأساتذة عبد القدوس الأنصاري وأحمد حوحو وعبد الحميد عنبر، ومحمد الحافظ موسى، وعبد الرحمن السوداني وغيرهم، من المعروفين بموهبة البيان في المدينة المنورة أيامئذ، فكان لذلك أثره العميق في نفسي، مضافا إلى تلك النصوص المختارة من الشعر والنثر التي كنا ندرسها بشغف، ومن حسن الحظ أن نعيش ذلك الجو في ظل الحركة الأدبية

التي بلغت عنفوانها في تلك الأيام، إذ بدأ أدباء الحجاز في إمداد الأندية الأدبية بنتاجهم، وجعلوا يشاركون في نهضة الأدب على مستوى العالم العربي، فكانت الصحف تطلع علينا بجداول رقراقة من الشعر والنثر والنقد فيتهافت عليها القراء الناشئون.. هذا إلى جانب الفيض الغزير من الصحف والمجلات والمؤلفات التي يمطرنا بها القطر المصرى، ومنها (الهلال) و(اقرأ) و(كتب للجميع) و(الرسالة) و(الرواية) و(الاصلاح) و(الأزهر) و(المصري) و(الأخبار) وما إليهن من روافد الأدب الرفيع..

ومما عمق من آثار هذا النتاج فى نفوس الناشئة تشجيع المدرسين طلابهم على القراءة والمناقشة والتنافس، وحثهم إياهم على الاتصال ببعض كتب التراث مثل كتاب (كليلة ودمنة) و(نهاية الأرب) و(العقد الفريد) و(أدب الكاتب) و(البيان والتبيين) و(الحيوان) وأشباه هذه الأصول من الكتب التى سرعان ماتترك مردودها فعالا فى أذواقنا وأقلامنا..

ويقول الشيخ: «وإني لأعرف طالبا ــ ولعله هو ــ قرأ العبرات والنظرات للمنفلوطى عشرين مرة، ولخص كتاب المازنى (صندوق الدنيا)..».

ويقول مؤلف هذا الكتاب: «إن جوا كهذا بلغ من الخصب الفكري. والإقبال على المطالعة الحية هذا المستوى لايُستغرب أن يلد أدباء وشعراء: كعبد القدوس الأنصاري وضياء الدين رجب، ومحمد عمر توفيق، والأخوين عبيد وأمين مدني، والأستاذين الأخوين علي وعثمان حافظ.. رحم الله السابقين منهم وبارك فى حياة الباقين».

إنجازاته الكتابية

وننتهى مع فضيلة الشيخ إلى السؤال الأخير عن آثاره المطبوعة والمخطوطة فيقول: «إن أعباءه الكثيرة لم تدع له مجالا للاقبال على التأليف، ولذلك لايجد مايذكره سوى بعض الكتيبات التى لم تزل تتطلع إلى الطبع، ومنها بحث فى الحديث المدمج، وثان عن الاجازة، وثالث عن تمور المدينة، ورابع بعنوان

«لمحات عن المسجد النبوي الشريف».. وأخيراً محاضرته التى أسلفنا ذكرها عن أستاذه الراحل الشيخ عبد الرحمن الأفريقي.

ولعل من جميل الاتفاق أن أعثر بين محفوظاتي من الأوراق على رسالة بخط يده كتبها إليّ من دمشق في ١٠/٨/١٣٩٧هـ أثناء وجوده على رأس لجنة موفدة من الجامعة الإسلامية للتعاقد، وكنت في زيارة لآلي باللاذقية، وقد رأيت أن أجعلها خاتمة هذه الجولة السعيدة مع فضيلته..

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

فقد تسلمت رسالتكم الثانية، قبل الأولى بواسطة السيد عادل عساف، وكان قد كلمنى صبح يوم السبت ٧/٨/١٣٩٧هـ وأنا متأهب للسفر إلى حلب، ثم في ظهر يوم الثلاثاء ١٠/٨/١٣٩٧هـ كما اني علمت أن فضيلة الشيخ محمود مهدي الاستامبولي قد اتصل بي شخصيا وبالهاتف فلم يجدني، ولعل ذلك كان لشأن الرسالة الأولى التي معه.. وعهدي به الحرص واليقظة والأخذ بالحزم إلا فى مواضع التؤدة، وقد علمت دعوتكم لي إلى اللاذقية ولو لأيام قليلة، فندبت نحسى وسوء حظي، فقد قضيت أيامي بين فنادق دمشق وأسواقها، وسكك حلب الشهباء ومتاحفها وقلاعها، والسؤال عن العلماء والأطباء والطهاة وبعض الموظفين، ولم أشهد ميناء ولا مرفأ ولا أدباء ولا مجذوبين، فلله أبو السروجي وحارث وهمام، وصاحب المقامات الزمخشري وصنوه الهمدان ...

فقد أفرد كل منهم مقامة أسماها اللاذقية، ولكن لجهلي، وبعدي عن منازل الشرفاء وشهودي ديار النبلاء والكرماء، تعس حظي، وخسرت صفقتي، فلا من الحكمة ارتويت ولا من أطعمة اللاذقية بطني ملأت، ولا من عبير نسيمها نشقت، ولا من جودة هوائها ومائها كرعت، فهل لأبي غسان بقصيدة من بنات فكره وبلاغته المشهود بها، أو من قريضه ونثره— فإن لم يكن ذلك في القطر السوري، فإن البيت من القصيدة في المدينة يكون بعشرة.. لأن الحسنات هنالك تضاعف في بعض الأحوال— ولا أعتبر هذا ربا لأنه من حسن القضاء لا من الربا في الاقتصاد.

هذا ولما كان الحال ماوصفت، والواقع ماذكرت، وأني عازم السفر إلى أودية عمان وجبالها بعد يومين، وأنتم تعلمون أنها أقرب إلى مدينة الرسول.. ولا حرج على أن صعدت بعض مرتفعاتها، ورميت ببصري إلى تلك الديار الفيحاء عَلّي أشاهد ماتتوق إليه الأرواح، وتعمل إليها المطي، وتسكب عندها العبرات، فإن ذلك ممكن ويسير إذإن للأرواح سموا وتحليقا، تبلغ به أعلى الآفاق ..

ويالحسرتي وندامتي وأسفي على قومي وبني ملتي.. فلقد أجلتهم يهود عن المسجد الثالث القريب، ومنعتهم من تمريغ جباههم لله في منازل الخليل ومسجد إيلياء والجليل.. وما ذاك إلا أنهم غيروا وبدلوا، وشابهوا أحفاد القردة والخنازير، وولوا واستكبروا— وقد تركهم آخر النبيين وخاتم المرسلين على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك، ولا أرى مانعاً من أن أقحم جملة معترضة— فليتك علمت شعوري الفياض وسموي إلى أفكار نقلتني إلى أيام أبي عبيدة وخالد سيف الله— وذلك عندما أتيت من حلب وأنا في حافلة— الباص— وكنت أقول: أين عاشوا وكيف عاشوا وماذا بنوا وشادوا، وأي تمثال أو نافورة أقاموا أو حديقة حازوا، وبماذا استولوا على قلعة حلب وسمعان، وكيف أشاعوا الإسلام في الأديرة هذه التي رأيت— قلت في نفسي: نعم أقاموا صروحا لاتندك، وبنوا جبالا شامخة لاتحيد، وهي قواعد الإيمان، وبيوت الإسلام والإحسان ..

ورحم الله عمر الفاروق الذي أجلى يهود من جزيرة العرب، وطردهم إلى فدك وأذرعات عندما سمع حديث عبد الرحمن بن عوف «لايجتمع دينان في جزيرة العرب» وياليتها تسعد بلفتة من لفتات عمر، وتحظى بوثبة من وثبات صلاح الدين وابنه يوسف ونور الدين ..

أبا غسان وحسان .. لقد قرأت رسالتك الأولى قبل الغداء فصرفتنى عن نوم الظهيرة لاشتغالى بتنميق هذه الرقيمة، وأستميحك فى فرض هذه العقوبة، وأعلم أنك مشغول بتصحيح كتبك، فخذها رسالة عمرية دمشقية سنجقدارية، حررت على عجل وكأن الشيطان يستحثنى على كتابتها، وقاتل الله شيطان القلم، فإن له أحوالاً ينشط فى وقت الملل، ويمل فى وقت الراحة

وفرص العمل ـــ وهل أنا بوضعى الحالى فى حاجة إلى كتابة مثل هذه الترهات ، وأنا أجمع أمري وأسجل الأشياء التى يتطلبها سفرى !..

هذا وقد سمحت لكم أن تضحك علي قليلا ، وتهزأ مني كثيرا أن حاولت تحرير مقامة لاذقية ليست في العبر ولا في النفير موجهه إلى قرم جليل، وعالم تحرير ..

* * *

الدكتور محمد أديب الصالح

لاأذكر بالضبط متى بدأت معرفتي به، ولكن الذي لايبلغه النسيان من ذاكرتي هو تلاقينا الكثير في كنف الدعوة، أيام كان للدعوة الإسلامية نشاطها الواسع على امتداد الربوع السورية..

ولقد كنا على تواصل سعيد في خدمتها، تجمعنا أخوة في الله لاانفصام لها، وكان الجو السياسي على شيء غير قليل من الطلاقة، بحيث يتسع لمختلف الأفكار والتيارات، كل يعرض مالديه من تصورات قابلة للمناقشة بمنتهى الحرية، ولجماهير الشعب أن تسمع وتقرأ فتفرق بين الحق والباطل. وكانت الثقة تملأ صدورنا بأن السواد الأعظم من هؤلاء مع أفكارنا، لأنها عميقة الجذور بفطرته وتراثه الروحي والاجتماعي..

وكان معظم تلاقينا لدراسة مسيرة الدعوة على ضوء الأوضاع العامة، فنتداول الأمور وفق أمزجتنا الشخصية، من الحار الذى يأخذه الانفعال، والهادىء الذى يضبط التوازن..

ولعلي لاأعدو الواقع إذا اعتبرت فضيلة المترجم أحد الذين يمثلون جانب الهدوء والأناة في تلك الاجتماعات..

وهاهي ذى السنون تكر، والأحداث (تمر) فلا تزيده إلا رسوخاً في ذلك المزاج الرصين، لايكاد يفارقه خطيباً أو محدثاً أو مناقشاً، حتى إنك لتحتاج أثناء محادثته إلى الانتباه الدقيق لئلا يفوتك بعض كلامه، الذى يذكرك بالصورة التى أوصى بها لقمان ولده، وهو يحضه على الغض من صوته في مخاطبة الآخرين.. بل إن في مشيته صورة أخرى للشكل الذى رسمه ذلك الحكيم لابنه بتلك العبارة التي خلدها الله في كتابه الكريم ﴿**واقصِدْ في مشيك**﴾. وما أدري أهي طبيعة فطر عليها، أم أدب أُخِذ به منذ الطفولة، أم تطبيق مقصود للتوجيهات السامية التي رضيها الله لعباده المؤمنين!..

ولا ريب أن لهذا المزاج أثره البعيد في تفكير المترجم، وطريقة تناوله للموضوعات التي يعالجها، وبالنظرة العميقة التي يستكشف بها الجديد البعيد من المعاني المضيئة في كل مايكتب ويؤلف ويذيع.. وهي خاصة يستطيع القارىء أن يتبيّنها في كل نتاجه، وأقربها إليه برنامجه الذى يعتبر نسيج وحده في موضوع (التنمية..) الذى يبثه من إذاعات المملكة..

ولد الدكتور محمد أديب الصالح في مدينة قطنا ــ جنوب دمشق ــ في العام ١٩٢٦م وقد شاء الله أن يتذوق مرارة اليتم بوفاة والده وهو فى الشهر السادس من عمره، ولكن والدته الصالحة قد عوضته عن عناية الوالد بانقطاعها لرعايته، والاهتمام بشأنه، حتى توفاها الله في الرياض أول يوم من عيد الأضحى المبارك من العام ١٩٨٣م ــ ١٤٠٣ هـ. وكان من بره بها أن نفذ وصيتها بدفنها في بقيع المدينة بجوار صحابة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه واله وصحبه.

وقد بدأ تعليمه في إحدى مدارس قطنا الإبتدائية، ومنها انتقل إلى دمشق حيث أحرز شهادة الكفاءة العامة ثم شهادة الكلية الشرعية، التى كانت بمثابة معهد علمي رفيع المستوى، ثم حصل على الثانوية الشرعية مع الثانوية العامة عام ١٩٤٦م، وبذلك تهيأ للدراسة الجامعية، وسُجِّلِ في كلية الحقوق بجامعة دمشق، ولكنه لم ينقطع إليها، إذ أُوفد إلى الأزهر عام ١٩٤٧م فالتحق بكلية أصول الدين، فكان يقدم امتحانها في الدور الأول، ويقدم امتحان الحقوق بدمشق في الدور الثاني..

ويحسن بنا أن نتساءل عن السبب الذى حداه للاتجاه نحو الدراسة الشرعية بعد حصوله على الثانوية العامة، التى تمكنه من الدراسة في أي من الكليات الأخرى بجامعة دمشق.. وهي أقصر الطرق إلى العمل المنتج، الذى يجتذب معظم الطلاب، وبخاصة في غمرة التطور المادي الذي صارت إليه البلاد في ظل الانتداب الفرنسي وما بعده.. ولابد أن يكون لذلك علاقة وثيقة بإيحاءات البيئة التي نشأ في ظلالها، ذلك أن قطنا لاتزال محتفظة بالكثير من مواريث الحياة الإسلامية، كالمألوف في الأوساط البعيدة عن مهب التغيرات السريعة التى تتعرض لها الحواضر الكبرى.. ونستدل على هذا من اتصاله الوثيق

بشيخ قطنا ومفتيها وعلامتها الشيخ إبراهيم الغلاييني رحمه الله، الذي كان المترجم أحد الطلاب المواظبين على حلقته الخاصة في العلوم الشرعية، ثم توثقت الصلة بينهما عن طريق المصاهرة، إذ زوجه الشيخ إحدى بناته، التي أنجبت له ثلاثة من الأبناء وأربعاً من البنات، ومن هنا نكتشف إحدى أهم الخلفيات التي حببت إليه العلم الشرعي، وزودته بالكثير من روافد الثقافة الإسلامية، التي أصبحت المدرسة الحديثة عاجزة عن توفيرها للمسلم.

والذى يعرف المرحوم الشيخ إبراهيم الغلايينى لابد أن يتصور أثره العميق في نفوس طلابه، فهو عالم متفتح الذهن والقلب، رحب الصدر للمناقشة والمراجعة، إلى كونه قوي الشخصية عميق التأثير في قلوب المتصلين به.

وأذكر هنا قصة طريفة مكّنت لي من التعرف على بعض خصائص هذا الشيخ فقد قدم اللاذقية ذات يوم بدعوة من بعض مريديه، وفي جلسة مكتظة بهؤلاء في منزل آل الأزهري، اجتمعت به واستمعت إلى حديثه وشاهدت تعلق الأتباع به وتسابقهم إلى التبرك بسؤره.. ثم صحبته في بعض رحلاته القريبة، فسرني منه فهمه السليم لأبعاد بعض الأحاديث النبوية، وذات مساء ودعت الشيخ فأرسل ورائي من يخبرني بأنه ينتظر زيارتي في صباح اليوم التالي. ولم يفتني ماوراء هذه الدعوة، فقد كان أكثر الحضور إهتماماً بالشيخ يومئذ ذلك الفتى الذى لايستهويه شيء مثل الوشاية واثارة عوامل الفتنة، فتوقعت ماكان وما سيكون.. وفي الموعد المضروب، وكانت الحجرة مكتظة بالزائرين، طرح الشيخ الموضوع دون مقدمات، فإذا هي كما قدرت دسيسة جاهل لايفرق بين الحق والباطل، وأجبت بالتفصيل مع ذكر الدليل من كتاب الله وسنة رسوله فإذا هو يصرح بموافقته وهو يقول: أنت على حق..— وبهت الذى كذب—..

ومن هذه الطرفة يدرك القارىء أن المرحوم مفتى قطنا لم يكن من الشيوخ المغلقين، كذلك المفتي السوري الأخر، الذى أغلق على نفسه منافذ العلم الحق حين سمعناه يعلن أن الأولين لم يتركوا للآخرين قولاً، فلا غرو أن يكون لهذا الشيخ أثره في توجه مترجمنا إلى المسلك الذى أخذ به نفسه، فكان توفيقاً من الله إلى التي هي خير وأبقى..

وهكذا جمع فضيلة المترجَم في دراسته الجامعية بين الشريعة والحقوق، فأحرز شهادتيهما، ومنذئذ بدأ تفرغه للتدريس، فعمل في ثانويات حلب ودمشق ودور المعلمين مابين العامين ١٩٤٩ـــ ١٩٥٦.

وفي ذلك العام أسندت إليه مهمة معيدٍ في كلية الشريعة بجامعة دمشق بعد اجتيازه مسابقة خاصة ذات وجهين، خطي بالإجابة عن أسئلة معينة، وعملي بالقاء محاضرة نموذجية على الطلاب بمشهد من لجنة الاختيار.

ومن هناك تم ايفاده إلى جامعة القاهرة لتحضير الاجازة العلياـــ الدكتوراهـــ في كلية الحقوق، وكان موضوع أطروحته (تفسير النصوص في الفقة الإسلاميـــ دارسة مقارنة) التي أحرز بها مرتبة الشرف الأولى مع التبادل بين الجامعات..

ويحدثنا فضيلته عن بعض شيوخه في تلك الفترة، فيذكر منهم العلامة الإمام محمد أبو زهرة، والشيخ علي الخفيف، والشيخ فرج السنهورى .. الذين يقول إنهم من الرعيل الأول الذي لايكاد يُعَوَّض.

في التدريس الجامعي:

ويعود فضيلته إلى دمشق ليستأنف عمله في جامعتها، ومازال يرتقي في سلمها حتى أصبح أستاذاً ذا كرسي منذ العام ١٩٧٤مـــ وقد اسندت إليه رئاسة القسم الخاص بعلوم القرآن والسنة بكلية الشريعة. وفي هذه الكلية تولى تدريس نظام الإسلام مع التفسير والحديث، وأصول الفقه في بعض الأحيان..

وفي كلية الحقوق بدمشق قام بتدريس مادة أصول الفقه هذه لطلاب السنة الرابعة لعدة سنوات.

وكذلك فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب دَرَّس مادة القرآن والحديث سنوات عدة مع التركيز على النواحي الأدبية في هذه المادة..

وشاء الله أن يمتد نشاطه إلى أبعد من الحدود السورية فأُعير إلى الجامعة الأردنية لتدريس التفسير والحديث والثقافة الإسلامية على مدى سنتين كانتا حافلتين بالنشاط العلمي والإسلامي، الذى عرف به داخل الجامعة وخارجها،

ثم تلا ذلك تجواله التدريسي في مناطق أخرى من وطن العروبة والإسلام، فاستُقدم أستاذاً زائراً إلى جامعة الرياض ـ الملك سعود ـ حيث أمضى شهراً ونصفا في قسم الثقافة من كلية التربية، وكذلك دعي زائراً إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وإلى كلية التربية للمعلمين والمعلمات في قطر، حتى استقرا أخيراً في أسرة التدريس من جامعة الإمام.

فمنذ سنوات ست يتولى رئاسة قسم السنة وعلومها في هذه الجامعة، إلى جانب مشاركاته المستمرة في مناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه فيها وفي كل من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وجامعة أم القرى بمكة المكرمة، إلى ماهناك من دراسات علمية وما يستتبعها من تقارير يكلف بها من قبل هذه الجامعات وجامعة الإمارات.. ولعل مما يدخل في ذلك عضويته في المجلس العلمي بجامعة الإمام، وعضويته الأخرى في المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية.

ولا جرم أن في هذه الممارسات المتعددة الجوانب لمتسعا لكثير من الإمكانات الفكرية والعلمية، من شأنها ألا تقف بمعطياته عند حد معين، بل تمده بمنطلقات رحبة تصور سعة الأفق الذى منه يستمد وبه يتأثر.

وما دمنا في صدد الحديث عن مجالات نشاطه العلمي والعملي فلابد من الاشارة إلى جوانبها الأخرى، خارج نطاق المدرسة والجامعة، فهناك الخطابة المسجدية التي مارسها سنوات كثيرة في مسجد الجامعة ـ بدمشق ـ ثم في مساجد قطنا إلى جانب حلقات التدريس في تلك المساجد، ثم الندوات الثقافية التي لم تكد تنقطع بينه وبين الطلاب. وإلى جانب هذا وذاك من ألوان النشاط العلمي والدعوي لاننسى عمله في مجلة (حضارة الإسلام) التي هي واحدة من حسنات المرحوم الدكتور مصطفى السباعي، فقد تولى رئاسة تحريرها منذ العام ١٩٦٥م وحتى الآن لايزال يكتب افتتاحياتها، ويمدها بالبحوث والمقالات يبعث بها إلى المجلة من مقر عمله في الرياض.

ولا مندوحة لمثله من أن يشارك في بعض المؤتمرات، وقد أتيح لي أن أحضر مؤتمر السنة والسيرة النبوية في دوحة قطر عام ١٤٠٠هـ. وقدمت خلاصة بحثي في موضوع (الرسالة الإسلامية في مواجهة الفساد العالمي) إلى اللجنة التي أسهم في رئاستها. وأشهد لقد كان موضع التقدير لبراعته في إدارة

الجلسات ولا فكاره العميقة التى كان يركز عليها في مناقشة البحوث.

مذاعات إسلامية:

ولأحاديثه الموقوفة والمستمرة عن طريق إذاعات المملكة صورة أخرى من نشاطه الفكري لايحسن بمترجم له إغفالها.. وأول مايتبادر للذهن منها برنامجه المعروف باسم (معالم قرآنية في البناء والتنمية). وقد قارب ماسجل منه الألف من الحلقات اليومية على مدى أربع سنوات، ثم اضطر إلى وقفه تحت ضغط المشاغل الجامعية، ولاتزال الإذاعة تعيد بعض حلقاته بين الحين والآخر، وقد أخبره مدير إذاعة القرآن الكريم أنهم قد أهدوا منها الكثير إلى العديد من الإذاعات العربية والإسلامية.

ومجرد اختياره لهذا العنوان يصور نزوعه الفكري إلى استكشاف الدقائق القرآنية في تربية الإنسان على النحو المتميز الذى يشمل كل خصائصه الذاتية، ليجعل منه الأنموذج الرباني الذي لا يطغى فيه جانب على آخر..

ولنستمع إليه يحدد هدفه من هذا العنوان بأنه يقدم (المبحث القرآني عن طريق حركات مركزة ومحددة في موضوع محدد يتعلق بالبناء عموماً، وبناء الإنسان بخاصة، إذ إن التنمية بكل فروعها وميادينها رهن بناء الإنسان على المثال المتكامل الذي أراده الإسلام، وعلى هذا النهج تعرض بعض الحلقات نماذج من أصول التنمية، كما أوردها القرآن، والتي عمادها التكامل الذي ينأى بالتنمية عن العثرات التي تتخبط فيها الحضارة الحديثة، فمع التنمية لقدرات الإنسان وملكاته ــ بعد العقيدة ــ تنمية الجوانب الحياتية جميعاً، من منطلقات سليمة تنتهي إلى غايات سليمة وبوسائل نظيفة متناسقة..).

وهناك حديثان آخران على ترتيب أسبوعي يبثان عن طريق إذاعة القرآن الكريم.. أولهما: السنة: علومها ومنزلتها من القرآن الكريم. وقد سجل منها حتى كتابة هذه السطور حوالي التسعين من الحلقات.. أما الثاني فعن (اليهود في القرآن والسنة) وبلغت مسجلاته السبعين.. ويقول: إن البرنامجين مستمران في الدورة الإذاعية خلال شهر رمضان المبارك ــ الذى نعيش في ظلاله هذه الأيام.

ومرة أخرى نعيد التأمل في موضوعات هذه المذاعات فنزداد علماً بتلك المواهب التي تحفزه لاختيار الأكثر أهمية من الأحاديث، على أساس من الحاجة الماسة إلى الجديد الطريف الذى يعالج واقع الحياة الإسلامية، بعيداً عن التكرار الذي يستهوي الكثير من أهل العلم في هذه الأيام، سواء عن طريق الإذاعة أو البحوث التي قتلها مفكرو الإسلام كشفاً وتدقيقاً في القديم والحديث.

رأيه في صحوة الجيل:

وكانت فرصة صالحة لاستطلاع رأي فضيلته في بعض أحوال المسلمين:

هذه الصحوة التي كُتب عنها الكثير، ونلمسها في أوساط الشباب المسلم على امتداد العالم الإسلامي، وحيثما وجد هذا الشباب، لابد أن يكون لها صورة مافي رؤيتكم الإسلامية:

يقول فضيلته في الجواب:

لابد لهذه الصحوة من أمور من أهمها:

أ ـ ربط الشباب بالأصول في فهم كتاب الله، والوثوق بالحديث النبوى وفهمه، وما يؤصل ثقتهم بمواجهة نصوصهما ومناهج العلماء في فهمها، مما يجعلهم على بينة، وينأى بهم عن الأفراط والتفريط.

ب ـ العمل على ترسيخ صلتهم بنماذج من أعلام هذه الأمة عبر التاريخ، لكيلا ينساقوا مع تفسيرات مادية لتاريخنا، أو إغراق في نظرات تجعل من التاريخ متعبة للشباب.

ودراسة نماذج مضيئة من الإعلام تُختار من الميادين كلها تنأى بالشباب عن العاطفة الجامحة، وتشغله بالتأسي الجاد الذى لابد له من المعرفة والصدق والعزيمة. وتفسير التاريخ من وجهة نظر إسلامية صحيحة في ضوء العقيدة وما هو حقها، يضع الأمور في نصابها عند الشباب.

جـ ـ محاولة اشتمال الصحوة ضمن التيارات التي منها مايدفع إلى ردة الفعل بسبب ظلم الطغاة وجور أولي التنفيذ، أو انحراف بعض من يتصدرون منابر العلم والتوجيه. ومنها ماوقع في حمأة الانشغال بالجزئيات عن الكليات، ويجعل الشاب يقدم مايراه مهما وهو غير ذلك على الأهم،

الذى هو جمع القلوب على كلمة التوحيد ومقتضياتها، ومواجهة التحديات بوعي وبصيرة، وقدرة على فهم طبيعة الأرض التي يتحركون عليها، والعدو الذى يواجهونه. وما الذى يريده الإسلام في مثل هذه المواقف.

د ــ وإذا سُلِكت هذه السبيل ممن أقامهم الله على هذا الثغر كان في مقدورنا توظيف الصحوة في المكان المناسب. والتوسط في مواجهة القضايا وحل المشكلات وفق المنهج الإسلامى جيد وطيب. فلا ملامة على من لا يوافقنا فى الرأى، ولا مهاترة يذهب معها الحق وتضيع الفرصة.

آثاره المطبوعة:

ولعل مؤلفاته مطبوعة أو في طريقها إلى المطبعة أقل عدداً مما يتوقع من مفكر على المستوى الذى عرفناه، بيد أن أعباء العمل التي تحاصره أبداً لها حكمها في تحديد نتاجه، كشأنها في الكثير من أهل العلم الذين حبسهم الجهاد باللسان عن التدوين في الأوراق، هذا إلى أن قوة المضمون في هذا القليل ترجح الكثير مما يعرض المصنّفات فى الأسواق .. ولعله حين يصير ــ مثلي ــ إلى التفرغ للتأليف يمنحنا المزيد من الخير الذى ينطوى عليه إن شاء الله ..

١ ــ (تخريج الفروع على الأصول) للعلامة الزنجاني حققه لأول مرة ونشرته جامعة دمشق عام ١٩٦٣م وقد تقرر تدريسه في الدراسات العليا بالعديد من الجامعات، وفي مقدمتها جامعة الأزهر، وهذا مادعاه إلى مضاعفة الجهد في خدمة الكتاب، فزاد من تحقيقه، وعني بتوثيق كل واحدة من مسائله من مصادرها الأصلية، وبذلك تتابعت طبعاته حتى بلغت الرابعة.

٢ ــ (تفسير النصوص في الفقة الإسلامي) وقد طبع ثانية في مجلدين وهو على وشك الصدور في الطبعة الثالثة.

٣ ــ (على الطريق) وهو مجموعة بحوث ومقالات.

٤ ــ (لمحات في أصول الحديث والبلاغة النبوية) وطبع للمرة الثالثة وهو في الطريق إلى الرابعة.

٥ ــ (مصادر التشريع ومناهج الاستنباط) أُلف لكلية الحقوق بجامعة دمشق.

٦ ــ (من الجامع لأحكام القرآن) تفسير نصوص من تفسير القرطبي، مع ترجمة للمؤلف ودراسة لمنهجه في التفسير.

٧ ــ (مذكرات في التفسير) لطلاب كلية الشريعة، ويقول إن هذه المذكرات في طريقها لتكون عدة كتب، بعد أن تولاها بالمراجعة والتنقيح والتعديل في ضوء التدريس والمعاناة..

والتي قيد الإعداد للطبع:

١ ــ (معالم قرآنية في البناء والتنمية).

٢ ــ (على الطريق) جزءًا ثانياً.

٣ ــ (هكذا يعلم الربانيون) وهو مجموع كلمات نشرت في (حضارة الإسلام).

٤ ــ (من هدي النبوة) مجموعة أحاديث مختارة دُرّسِت وشرحت بتحليل في المعهد العالي للدعوة الإسلامية.

٥ ــ (البلاغة النبوية). مجموع محاضرات ألقيت على طلبة قسم اللغة العربية بكلية الآداب فى جامعة دمشق.

٦ ــ (أصول الفقه).

٧ ــ (من أحكام القرآن) وهو آيات الأحكام التى درَّسها فى جامعة دمشق.

٨ ــ (تخريج أحاديث البزروى) للقاسم بن قطلوبغا بتحقيق المترجم.

أنموذج من أحاديثه المذاعة
ــ مع اليهود ــ

اليهود هم اليهود.. وقصتنا التي طال أمدها مع الذين غضب الله عليهم ماتزال على مايبدو بعيدة النهاية حتى تعود أمتنا سيرتها الأولى. وفي القرآن ضياء

على دروب هذه الرحلة ﴿ومَن أصدق من اللهِ حديثا!﴾ فالمسلم يردد قوله تعالى: ﴿غير المغضوبِ عليهم ولا الضالين﴾ مراتٍ ومراتٍ في الصلاة وخارج الصلاة.

والذي رأيناه من مكرهم وغدرهم، ونراه اليوم من صلفهم وتجاوزهم كل الحدود، كما يمثل في وجهه الأول حقيقة ماهم عليه، يمثل في وجهه الآخر، انعكاس مانحن عليه في أنفسهم. فهم ينطلقون من حقيقة ماهم عليه أولاً، ومن اقتناعهم بما نحن عليه ثانياً.

وكل هذا ينبغي أن يزيد الأمة حرصاً على وضوح الرؤية بشأن هؤلاء اليهود، والنظر إلى أمرهم نظرة جادة، لاتدع الاعتبار بالماضي، كما لاتُغفل أثر الحاضر في المستقبل. فالخطر الداهم ممن حل عليهم غضب الله ولعناته، لايقتصر على ميدان دون ميدان، ولكن يتعدى السلم والحرب إلى الميادين كلها، والأمة التي تقف على أبواب يقظة جديدة، يجب أن تكون أمورها الثقافية ــ بمدلولها الواسع ــ والسياسة، والاقتصادية، والاجتماعية، في حسابها عندما تحارب أو تسالم، عندما تهادن أو تخاصم.

من أجل ذلك علينا أن نحسن بناء الفرد على العقيدة وحب الجهاد، ونحول دون زعزعة كيان الجماعة، ونوظف العلم في الإفادة من ثروتنا، وتنمية طاقاتنا المعنوية والمادية، كي نستطيع مواجهة المراحل المقبلة، وما تلده الليالي من وقائع وأحداث..ويوم لانضع في حسابنا ماعليه عدونا من خلائق جاء على ذكرها القرآن الكريم والسنة المطهرة وأكدتْها الوقائع، ونهمل طبيعة العلاقة بيننا وبينهم على مدى التاريخ، وخصوصاً ماكان من عدائهم للرسالة والرسول، وما تبع ذلك من شرور مزقت فيما مزقت تلك الراية التي كان يجتمع حولها المسلمون.. يوم نفعل ذلك على طريق حسم مابيننا وبينهم، نكون غافلين عن الحقيقة متخلين عن واحد من أمضى الأسلحة في ميدان الصراع، وهل أدل على ذلك من واقع صنيعهم اليوم، ودسّ أنوفهم في كل ميدان، محاولة منهم للتأثير في حياتنا تحت شتى العناوين، والإفادة من تخلخل الصف وانحسار الإسلام عن حياة المسلمين في كثير من البقاع!..

إن بابا عريضا للعزة والنصر سوف يكون ملكا لهذه الأمة، إذا هي

اعتبرت بالماضي، ولم تغفل طبيعة الصراع في الحاضر، وكانت على ذكر من أنه لأيحسنُ الظنَّ بهؤلاء الأعداء ومن هم على شاكلتهم. إلا زائغ عن طريق الحق أو غافل، ففي ظلال الإخراج المسرحي لصلح منفرد نرى من بعض تصريحات رئيس وزرائهم قوله: (لن نتخلي بأي حال من الأحوال عن مدينة القدس عاصمة إسرائيل التي توحدت إلى الأبد) وهو يعتبر ــ كما نعلم ــ الضفة الغربية التي أسماها (يهود السامرة) جزءاً لاينفصم من أرض إسرائيل الكبرى.

وللتاريخ كلمة هو قائلها فى من يتبرع، أو يساوم على قضية الأمة بكاملها، لأنها في دم كل مسلم وروحه وقلبه، وليست ملك إنسان سوف تبدي الأيام أنه لايملك مايساوم عليه، وحسبنا في هذه الدقائق الخمس أن نذكر قول الله تعالى بعد أن عرض للكثير من ضلالهم، والخطاب للمؤمنين: **﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يُحرْفِونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربِكم أفلا تعقلون!.. أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون!﴾**.

يخاطب الله المسلمين خطاباً يحملهم على اليأس من خيرهم.. كيف.. وهؤلاء اليهود يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ويبدلونه، وكأنهم يحسبون الله غافلاً عما يعملون.. فإذا كان هذا موقفهم من رب العالمين وكلماته فكيف يبقى للطمأنينة إليهم مكان؟!..

إنه الدرس الذى لايصح لغافل أن ينساه، والمَعْلَمُ القرآني الذي يجب على الأمة أن تسير في علاقتها باليهود على هداه..

* * *

الدكتور محمد جميل غازى

كان لقاؤنا لأول مرة في دار الحديث بالمدينة المنورة قبل أكثر من سبع سنوات، وفي بهو المحاضرات حيث احتشد جمهور الطلبة وأساتذة الجامعة الإسلامية يستمعون إلى المحاضرة الأسبوعية يلقيها أحدهم، وفي نهايتها أعلن مُعَرّف الحفل أن بيننا زائراً هو الدكتور جميل غازى ويسرنا بهذه المناسبة أن نستمع إلى إحدى كلماته الطيبة..

وتقدم إلى المنصة رجل ربعة متين الخَلق تبدو عليه ملامح الرياضيين، وتنطق من خلال وجهه ذي اللحية القصيرة الجميلة سيما الأدب والعلم.. وتكلم فأحسن وتناول بكلمته مسئولية المسلم نحو دينه أيا كان مركزه وعمله، وخص بالذكر حملة الأقلام والعاملين في حقول الأدب، لأن خدمة الإسلام تتطلب من أهلها إحسان العمل في كل مجال، وضَرَبَ لعملِ الأديب المسلم مثلاً من كُتَّاب القصة الإسلامية وبينهم واحد من مدرسي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة هو الأستاذ محمد المجذوب..

وكانت مفاجأة لطيفة إذ لم يكن بيني وبينه سابق معرفة، وأرجح أنه لم يرني كما أني لم أره من قبل.. حتى إذا فرغ من كلمته فانفض الجمع تقدمت للسلام عليه وسألته: هذا المجذوب الذي أشرت إليه هل تعرفه؟.. فأجاب: أعرفه من آثاره فأنا مكلف بموجب عملي في قسم التراث أن اتتبع نتاج الأدباء العرب وأحفظ نماذجه..) فابتسمت وقلت للدكتور: يسرني أن أكون هو المجذوب الذى ذكرته ..

وافترقنا ثم لم نلتق بعد ذلك طَوالَ هذه السنين، حتى شاء الله أن أُصلِّي أول جمعة شهدتها في القاهرة ــ أثناء زيارتي الأخيرة لها يوم السابع من المحرم عام ١٤٠٤ ــ بمسجد العزيز بالله مع الأخ الأستاذ حسن عاشور صاحب الاعتصام، وكان ذلك بتقدير من الله الذى ساقني إلى هذا المسجد لأستمع إلى

خطبة الجمعة مِن في الدكتور الذي قد طال فراقي له فكانت هي الباعث لكتابة هذه الترجمة له.

لقد شعرت وأنا اتتبع كلمات الخطيب أني تلقاء ضرب من النماذج التي أحبها في أحاديث الجمعة، إذ لم يكن فيها أثر من تلك المُنَوّمات التي ألفناها في الكثير من خطب الجُمَع، حيث يردد الخطيب نصوصه المعدة والمحفوظة لكل أسبوع من كل شهر، دون أن يعي تغير الحياة والعقول وتطور الأحداث من حوله، فيصرخ والناس نائمون، أو يصبّ عليهم قوارعه وهم لها جاهلون وعن أسبابها غافلون.

كانت الخطبة حلقة في سلسلة الدروس القرآنية، عرض فيها الدكتور محمد جميل غازى آيات من أواخر سورة النور، تلاها أولاً في أناة وتفصيل مؤثر ثم جعل يكشف معانيها الأخاذة في بيان يجتذب الأسماع والمشاعر، فإذا هي جزء من منهج يشعر كل من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، بأنه الدواء الشافي لعلله اليومية، حتى إذا ماانتهت الخطبتان أعلن للمصلين على عادته أن الدرس متصل بعد الصلاة لمن شاء.. وهكذا تأخذ صلاة الجمعة محلها الصحيح من حيث كونها تذكيراً وعلاجاً وربطاً للنفوس بمنابع الوحي الذى لاصلاح للبشرية بغيره.

وهنا انبثقت في ذهني فكرة الكتابة عن هذا الإنسان الذي عرف الطريق الصحيح إلى العمل الصحيح..

وبعد لأي عرفنا السبيل إلى لقائه، وكان لقاء أخويا أتاح لنا المزيد من المعرفة التي لابد منها لتصوير الواقع الذى نريد.

وألقينا إلى الدكتور الفاضل بالأسئلة التي رتبناها عقيب تلك الصلاة فجاءت أجوبته المتاحة تحمل آثار الجو القلق، الذى يعيشه هذه الأيام، والذى نسأل الله أن يشمله بلطفه فيعينه على تجاوزه، حتى يتمكن من استئناف جهوده في خدمة الدعوة التي وقف نفسه عليها..

يقول الأخ الفاضل إن اسمه الكامل هو محمد جميل أحمد غازى ولد في كفر الجرايدة من أعمال محافظة كفر الشيخ في القطر المصرى عام ١٩٣٦م

وقد حفظ القرآن الكريم وهو فى الحادية عشرة من عمره ، فأتاح له ذلك سبيل الالتحاق بالأزهر حيث حصل على الشهادتين الابتدائية والثانوية من معهد طنطا الدينى ، وفى العام ١٩٦٠ أتم دراسته العالية فى كلية اللغة العربية الأزهرية ونال إجازتها ، ثم حصل بعد عام على شهادة التخصص فى التربية وعلم النفس ، وفى العام ١٩٧٠ أحرز درجة الماجستير فى الأدب العربى ، ثم أتبعها بشهادة الدكتوراه فى النقد الأدبى مع الامتياز ومرتبة الشرف الأولى سنة ١٩٧٣ . .

أما أسرته فيغلب عليها الطابع العلمي ، فالوالد والجد وأبو الجد وأخو الجد كلهم من علماء الأزهر الشريف . .

يقول الدكتور عن والده : إنه كان من المميَّزين بالأدب والشعر ، وكان على صداقة وثيقة مع كبار الأدباء أمثال طه حسين وأحمد الزين وعبد الرحمن قراعة ومحمد شاكر وأحمد حسن الزيات ، الذي تربطه بابيه قرابة قريبة ، وقد ظلا يعيشان معا في منزل واحد طوال ثمانية عشر عاماً .. ويصف مكتبة والده بأنها كبيرة وقد أسهم في تكوينها والده وعلماء أسرته ..

وأول مايتوقع المتأمل من أثر هذا البيت في تكوين هذا الفتى الناشىء في ظله أن ينطبع بروحه ، فلا يرى للحياة معنى إلا من خلال الكتاب والأحاديث المتصلة به ، وهذا ماحدث له فهو يقول : إنه أفاد كثيراً من مكتبة والده وعلى منهجها أسس هو مكتبته فيما بعد ، ولقد زرنا هذه المكتبة التي يشير إليها في منزله فإذا هي تملأ قاعة المكتب الخاص به ، ولعل هناك توابع لها في مكان آخر لم يتح لنا أن نراه ، ولعل إقباله على إستظهار كتاب الله مبكراً كان إيحاء من هذا الجو العلمي ، بل لقد صار به هذا الإيحاء إلى أن يُخرِجَ ولما يتجاوز السادسة عشرة أول مؤلف له بعنوان (من أحاديث الوجدان) وهو عنوان غريب بالنسبة إلى فتى في مثل سنه لايتوقع أن يكون لديه من الخبرة والانطباعات النفسية مايستحق أن يعرضه على الناس ، ولكن أثر تلك النشأة في نفسه كان قميناً بأن يوقظ مواهبه ويدفعه إلى الثقة بها إلى هذا الحد .. وبخاصة إذا أضفنا إلى ذلك مايحدثنا به عن أثر والده في توجيهه ، إذ كان من الآباء الذين يحسنون العناية بأولادهم ، فلا يبرحون آخذين بأيديهم في الطريق الأقوم حتى

يضعوهم حيث يحبون أن يكونوا، وإلى هذا يشير بقوله لنا: إنه انتفع كثيراً بنصائح والده ووصاياه ولا سيما في مايتصل بالدراسات الأدبية والدينية..

وكان لهذا الوالد ندوة فكرية يحضرها ــ على قول الدكتور ــ كثير من العلماء والأدباء (وفيها يقرأون مارق وراق وعذب وحلا من الأدب والشعر) وكان من أثرها في نفسه أن نظم فيما بعد على غرارها ندوة للناشئين من أدباء الشباب.

ومن هذا المنطلق تتابع نشاط صديقنا في حقل الفكر والأدب فكان له مشاركات فى كثير من الفنون مطلعَ شبابه، وبخاصة فى ميدان الشعر والقصة، وقد سمى لنا عدداً من كتبه التي أخرجها اثناءئذ فكان منها (آلة من ذهب) و(لن يصلبوا التاريخ) و(ثم أذن الفجر) و(ثائر من بلدنا) ومع أنه لم يوضح نوع هذه الكتب فإن عنواناتها ألصق ماتكون بفن القصة، لما يغشاها من الغموض، الباعث على مطالعتها لاكتشاف المضمون ولكن لا ندرى أهى مجموعات من القصص القصيرة أم مفردات من نوع الرواية الطويلة.. وذَكَر مع هذه الكتب واحداً باسم (جولات مع المفكرين) وطبيعى أنه طراز آخر لا علاقة له بالقصة، بل هو أقرب إلى أن يكون لكتاب فى موضوعات الفكر والتاريخ والاجتماع.

ولا ننس أن هذه كلها من بواكير عمله في ميدان التأليف، ولكنها مع ذلك تنم عن استعداد لعمل أكبر منها وأوسع مدى وأبعد تأثيراً.

ومعلوم أن الموهبة مهما يبلغ حجمها فهي كبذرة النبات النادر لاسبيل لها إلى التكامل والانتاج إلا أن تتوافر لها شروطهما، وقد يسَّرَ الله للفتى ــ بعد استكمال دراسته ــ أن يشغل عدداً من الأعمال الثقافية كان لكل منها أثره الفعال في تثبيت خطاه على الطريق الصاعد، فكان رئيساً لقسم الثقافة والإعلام بمحافظة الدقهلية، ثم رئيساً للمكتب الثقافي الدائم فمديراً للعلاقات العامة في هذه المحافظة أيضاً.. ومن ثم انتقل إلى القاهرة ليكون مديراً للعلاقات العامة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ثم رئيساً لقسم التحرير في هذا المجلس، ثم أميناً للجنة التراث فأميناً للجنة أولويات التراث، وأخيراً عُهِدَ إليه بمهمة كبير الباحثين في المجلس الأعلى للثقافة..

وبقليل من التأمل في نوعية هذه الأعمال ندرك أهمية المجال الذى تفتحه لصاحبها من حيث الاطلاع والإحاطة وطابع الموسوعية. ومن شأن ذلك أن

يهب لمثل الدكتور بُعداً جديداً في نظرته إلى الحياة يمده بالجديد من النشاط الانتاجي..

ولعل في مقدمة ذلك النشاط الفذّ عمله في التأليف والتحقيق المتمثل في هذا الجدول الطويل من أسماء الكتب المحققة والمؤلفة..

أما كتب التراث فقد حقق منها غير كتاب (الأوائل لابي هلال العسكرى) الذى نال به درجة الامتياز في الدكتوراه (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) ثم (الداء والدواء) و(حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) و(زاد المهاجر إلى ربه) وهذه الأربعة من تواليف الإمام بن قيم الجوزية، ثم تأتي الخمسة الآتية من روائع استاذه شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، وهي (الصوفية والفقراء) و(العبودية) و(رأس الحسين رضى الله عنه) و(الحسنة والسيئة) ثم (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) واخيرا (استشهاد الحسين) من عمل تلميذه ابن كثير.. ويظهر أن ثمة محقَّقات أخرى أشار إليها بكلمة (وغيرها).

أما مؤلفاته الخاصة فذكر لنا منها: (مفردات القرآن) في ثلاثة أجزاء ثم (المنافقون كما يصورهم القرآن الكريم) و(تفسير سورة إبراهيم) و(الصوفية — الوجه الآخر) و(الطلاق شريعة محكمة لأهواء متحكمة) و(عقبات على طريق المسيرة الإسلامية) ودموع قديمة و (أسماء القرآن فى القرآن) وأخيراً (مجدد القرن الثانى عشر: محمد بن عبد الوهاب).

وهناك عدد من الكتب يقول إنها تحت الطبع.

وبالنسبة إلى تحقيقاته التي أسلفنا ذكرها يلاحظ ذلك الاتجاه الذى أخذ به نفسه من صميم المدرسة الإصلاحية التيمية، فكلها دائر بين شيخ الإسلام وتلميذيه.. ولاشك أن لذلك دلالته العميقة على المسلك الذي اختاره لعمله الفكرى، ولا عجب فلهذه المدرسة جوانبها الروحية التي لايستطيع ذو لب الإنفكاك من آثارها بمجرد الإتصال بها، وقد قرأنا ورأينا العديد من الرجال الذين انطووا على أشد الكراهية لاساطين هذه المدرسة منذ ابن تيمية إلى محمد بن عبد الوهاب، فما إن اطلعوا على بعض آثارها حتى استبدلوا بالكراهية حباً لها، وبالنفرة منها إقبالاً عليها ونصرة..

وأما مؤلفات الدكتور فليست ببعيدة عن ذلك الجو التيمي، فمعظم

عنواناتها أشارات إلى نزعة للإصلاح لاتجدريا لِظمئها إلا باعادة الشاردين إلى الجادة التي هي السبيل الوحيدة إلى سعادة الدارين.

وسألنا الصديق الفاضل عن مبدأ نشاطه في حقل الدعوة وعن مسيرته في ظلها حتى الآن فأجاب: إن عملي في هذه السبيل مختلف الصور فأنا أشارك في الكثير من الجمعيات الإسلامية العاملة في هذا الميدان، وقد وقع إختيار الإخوة عليَّ نائباً للرئيس العام في جمعية أنصار السنة المحمدية، ثم وليت الرئاسة العامة للمركز الإسلامي العام لدعاة التوحيد والسنة بالقاهرة، وأنا الآن عضو مشارك في هيئة التوعية الإسلامية بالحج في مكة المكرمة، كما أني عضو مراقب في منظمة الدعوة الإسلامية بالسودان، وعضو مؤسس لجمعية رعاية حديثي العهد بالإسلام في السودان أيضاً، وقد شاركت في العديد من المؤتمرات وطوَّفت في الكثير من بلدان العالم الشرقي والغربي محاضراً ومحدثاً وداعياً إلى الله بفضله ومنه.

ويقول فضيلته: لقد بدأت هذا الخط في باكورة شبابي وربما سبق سنَّ التكليف. غير أن باعثي يومئذ لم يكن ليعدو حدود الرغبة في الظهور وتغذية الموهبة، ولكن شاء الله جلَّت حكمته أن تتحول الرغبة إلى ابتغاء مرضاته، حتى تصبح الدعوة إليه هي الهدف والأمل والحياة.

وسرعان ماردتني كلمته هذه إلى قول ذلك التابعي الجليل: لقد طلبنا العلم للدنيا فأبى الله سبحانه إلا أن يكون له خالصاً...

ويحدثنا فضيلته عن أشهر مشاركاته في نطاق العمل الإسلامي، وهي التي ذاع خبرها عن ذلك اللقاء المبارك الذى عقد في السودان لمحاورة القسيسين الثلاثة عشر، وكان محصوله إعلان هؤلاء قناعتهم بحقائق الإسلام ودخولهم في دين الله دفعة واحدة.

ويقول الدكتور: لقد كان لإسلام هؤلاء الإخوة أثر كبير وواسع في تلك الأوساط، إذ اقتدى بهم الألوف من أبناء جلدتهم فأعلنوا انضواءهم إلى دين الفطرة، التي فطر الله الناس عليها، فثبت من ثبت بتوفيق منه سبحانه، وزاغ عنها من عطلوا مواهبهم واتبعوا كل ناعق فضلوا وأضلوا وضلوا عن سواء

السبيل.. ويذكر كذلك من فضل الله عليه حواراً آخر جرى في أمريكة بينه وبين ثلاثة من القسس واستمر أياماً طويلة ثم انتهى بإسلامهم لله رب العالمين.

ولم يكن لنا مندوحة عن محاورته في شأن التصوف الذىَ عرف فضيلته بموقفه العنيف منه ومن أصحابه.. فاكتفى بأن وجَّهنا إلى كتاب (الصوفية ـ الوجه الآخر) الذى اهداه إلينا مع طائفة من كتبه الأخرى..

وها أنا ذا أجيل نظري وفكرى في هذا الكتاب فأجدني أمام أتون يتأجج نارا على الصوفية والتصوف، ويريد أن يأتي عليها جملة واحدة..

تُوج الكتاب باسم الدكتور محمد جميل غازى على اعتبار أنه صاحب أفكاره، وألحق به اسم الأستاذ عبد المنعم الجداوي بوصفه الكاتب الذى تولى إعداده.. ثم تختم صفحاته المئة والثلاث والعشرون بأسماء ثلاثة آخرين، اثنان منهم ـ حسب تعبير الكتاب ـ (هما اللذان قاما بتفجير هذا الحوار الفكرى الهادف. قوة وشجاعة وإيمان)[1] وكان لثالثهما فضل الإشراف الفني على إخراجه..

ونظرة إلى شكل الغلاف تنبئك بأن بين دفتيه هجمة مخططة لنسف وتدمير حجج المنافحين عن التصوف قديماً وحديثاً.. وفي غموض الشكل وتغييبه معظمَ حروف الأسمين الأولين مايؤلف سحابة الدخان التي يراد بها أن تحجب وقائع الزحف...

إن ثمة حواراً يجريه الكُتَّاب الثلاثة حول الصوفية وأهلها، فهم يسألون والدكتور يجيب.. وخلاصة الحوار تتركز في قول فضيلته (إن الصوفية لم يكتفوا بالخروج على سنة رسول الله صلوات الله عليه بل إن عقائدهم تتصادم أساساً مع جوهر الإسلام.. ص١٧) ثم يأتي الحوار بكل صفحات الكتاب توكيداً لهذا الحكم، وتدليلاً على صحته بشواهد من كلام متفلسفيهم ودعاتهم، مع اتهامهم الصريح بابتزاز الاتباع واستغلال جهالاتهم وحسن ظنهم بشيوخهم.. ثم يختم الحوار المركز بتلك القصة الماتعة التي نشرتها مجلة التوعية الإسلامية وأعادت نشرها في عام تال بعنوان (كنت قبوريا) بقلم

---

(١) الصفحة الأخيرة من الكتاب.

الأستاذ الجداوى، الذى يعلن فضل الدكتور عليه بانتشاله من ظلمات الخرافات التي كان يعيشها إلى أنوار التوحيد.

ومما يسترعي انتباه المفكر في ذلك الحوار طابع العنف الذى يغلف إجابات الصديق المترجم، فهي معركة وهي طلقات كما يصفها الأستاد الجداوى ـــ ١١٣ ـــ ومما ضاعف شدة هذه القذائف تلك النظرة المفردة التي ألقاها الدكتور على التصوف فلم تكد تتجاوز القول بوحدة الوجود والاتحاد والحلول، وهي القواعد التي انتهي إليها بعض متفلسفتهم من أمثال ابن عربي والجيلي وأذيالهما من دعاة الضلال.. وليس كل المتصوفة من أتباع هؤلاء فكثير من السالكين مدارج التصوف لايرون فيه سوى وسيلة لتزكية النفس وإصلاح القلوب على طريق الإمام بن القيم، دون ارتباط بأي من تلك المذاهب الهدامة. وفي ظني لو أن الأخوة أصحاب الحوار سلكوا إلى غرضهم سبيل الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن لكان مردودهم من التوفيق أكبر بعون الله.. ولكن عذرهم في هذا العنف ماثل في الغلو الذى يواجهونه لدى سَدَنة الخرافات التي غرستها النحلة العبيدية في مصر، فلم تزل آخذة في النمو والتوالد دون قيد ولا شرط، ولعل أغرب مايتصل بهذه العبيدية الإسماعيلية أن يطلق اسم أحد أساطينها (العزيز بالله) على المسجد الذي شاء الله أن يحتل منبره خصمها اللدود، بل خصم الخرافة على اختلاف أشكالها ومصادرها، الدكتور محمد جميل غازى الذي لاتأخذه في مقارعتها وكشف سوآتها على ذلك المنبر لومة لائم..

وسألنا الدكتور أخيرًا عن رأية في هذا الصراع الذي تشهده البلاد الإسلامية بين جبهتي الإصلاح والانحراف، والمصير الذي يتوقع أن ينتهي إليه، فأحالنا كذلك إلى بعض مؤلفاته التي عالج بها هذا الجانب من حياة المسلمين وبخاصة في الريف المصري، وركز نظرنا منها على كتيِّبِهِ الذى اسماه (عقبات على طريق المسيرة الإسلامية).

والحق أن في صفحات هذا الكتيِّبِ الخمسين عصارة تجارب من شأنها أن تساعد كل ذى صلة بالدعوة على معرفة الواقع الذى يواجهه..

بُنِيَ هذا الكتيب على طريقة الحوار المكثف أيضاً وقام باجرائه وإعداده

الأستاذ كمال مرغلي أحد الثلاثة المنظمين لحوار الكتاب السابق (الصوفية — الوجه الآخر) وقد جاءت أسئلة شاملة مختلف جوانب الحياة وركز الكثير منها على المسجد وأثره في نطاق الجماعة وواقعه، والوضع الذى يجب أن يصير إليه، كي يؤدي مهمته كاملة في حياة المسلمين.. ووقف غير قليل على حاجة المسلمين إلى عودة الحكم الإسلامي لانقاذهم من الضياع، الذى ساقتهم إليه أيدى الاستعمار وعملائه من عبيد الأنظمة الوضعية، ولم ينس جانب التعليم وحاجته إلى المناهج الصالحة لصناعة الأجيال الصاعدة.. وأعطى وسائل الإعلام ماتستحقه من العناية فكشف عوارها، ودعا إلى إصلاحها، هذا إلى العديد من الموضوعات الحية الهامة.

وها نحن أولاء نقتطف بعض هذه الأفكار ذات العلاقة الوثيقة بما نريد استطلاعه.

يقول الدكتور تحت عنوان (الغزو الفكرى والعزل الفكرى)— ص ٢١ —: (إن الفصل بين التعليم الديني والمدني كان وما يزال غرضاً إستعمارياً يستهدف عزل المسلمين عن دينهم.. فلقد أدرك المستعمرون أن قوة المسلمين إنما تقوم على تمسكهم بمبادىء الإسلام وعقائده وأن لاسبيل إلى إضعافهم إلا بتجريدهم من دينهم، لذلك كان حرصهم شديداً على تأكيد الفصل بين التعليمين، وما إن تحقق لهم ذلك حتى بادروا إلى ضرب المنطقة الإسلامية باخطر أسلحتهم، وهو الغزو الفكري والعزل الفكري معا. وكان سبيلهم إلى ذلك نشر المدنية الزائفة وتشجيع التدين الأعمى والنحل الفاسدة، مع إبعاد المسلمين في الوقت نفسه عن التقدم العلمي الذى أحرزه الغرب، وكانت النتيجة أننا عُزلنا عن الدين والدنيا، فلا الدين تفهمناه ولا التقدم العلمي أخذنا بأسبابه — ٢٣ —) وهكذا لعب الاستعمار دوراً شريراً لوقف المد الإسلامي، مستعيناً ببعض حكام المسلمين الذين يرون في الإسلام الصحيح خطراً على مناصبهم.. ونجح بالفعل في إسقاط الخلافة على يد عميله أتاتورك، وفي تقسيم دولة الخلافة إلى دويلات هزيلة أغرقها طوفان من الثقافات والأفكار المعادية للإسلام، ثم تصاعدت المؤامرات التي دفعت بهذه الدويلات إلى التنافس على التحلل من ماضيها وتراثها، والإندفاع في انبهار شديد وراء

التقاليع الغربية الزائفة دون أن تدري أنها أوقعت نفسها في شرك يستهدف تجريد العالم الإسلامي من حريته وعزله عن مصادر قوته ــ ص ٣٢ ــ

وعن موضوع الإعلام يقول الصديق

إن أجهزة الإذاعة والتلفاز في معظم العالم العربي تمثل أخطر أسلحة العصر ضد قيم الإسلام وأخلاقياته، فلا أكاد أتصور إمكان نجاح لمسار الدعوة الإسلامية مع وجود هذه البرامج، التي تم التخطيط لها من وجهة نظر معادية للإسلام، أو جاهلة به على أحسن الفروض.

إن بعض هذه الأجهزة متهمة بالعمالة للقوى المناوئة للإسلام، فضلاً عن أن بعضها يعد مسئولاً مباشرة عن التزايد المستمر في مظاهر الانحلال والفساد، بما يقدمه للشباب من مواد إباحية وأفكار مستوردة، تحت اسم التقدم والتحرر ــ ٤١ و ٤٢) وهذا الذى يقوله الدكتور حفظه الله، في بعض قضايا الساعة من حياة العالم الإسلامي، ليس مقصوراً على مصر وحدها بل شامل لمعظم الديار الإسلامية، وأقول أنا تعقيباً عليه: لقد لاحظت أثناء زيارتي الأخيرة للقاهرة ان هذا الداعية الموفق يعاني من ضغوط ومضايقات تشغل الكثير من وقته وطمأنينته، ولا سبب لها إلا هذا الضرب من الأفكار الحرة الجريئة..

ولقد غادرت القاهرة وفي نفسي الخوف عليه من أن يحال بينه وبين ذلك المنبر، الذى استقطب الآلاف من الوافدين لاستماع حديثه، حتى لتضطر إدارة المسجد إلى إغلاق قسم كبير من الشارع لاستيعاب الناس الذين يقضي الكثير منهم وقته واقفاً إلي أن تقام الصلاة بسبب ضيق المكان. هذا فضلاً عن مئات المؤمنات اللواتي يتقاطرن زرافات ووحدانا إلى القسم المخصص لهن من البناء الكبير.. ولا سيما بعد أن أصبحت الكلمة المؤمنة أشد خطراً من المتفجرات بتقدير (حماة الأمن الذين مازالوا بفرسان المنابر كالشيخ كشك والمحلاوى والبدري وإخوانهم، حتى أكرهوهم على التعهد بألا يحركوا شفةً في نطاق الدعوة إلى الله!..)

ولكن.. ومهما يقدر الله من شيء فالدعوة في مصر حية قائمة في القلوب

بحماية الله، لاطاقة لقوة بشرية بإضعافها، فكيف بسحقها، ولن يُوَلِّدِ الضغط المنصبُّ على أهلها إلا مزيداً من الثقة بها في صدور الذين آمنوا، وهاهي ذي ملامح الصحوة الإسلامية تتلألأ في وجوه المؤمنين والمؤمنات، وفي أزيائهن الملائكية في كل مكان من مصر الغالية، مؤكدة هذه الحقيقة التي هي أكبر من كل بلاءٍ وكل إرهاب ..

والله غالب على أمره

* * *

الشيخ محمد علي الطنطاوي

لأدرى كيف أبدأ الحديث عنه، فهل أنا بحاجة إلى تعريفه للقارىء، وهو الذى قد أصبح بالنسبة إلى قراء العربية وهواة إعلامها بمثابة الذهب في عالم المعادن لايكاد يجهله أحد.. ومع ذلك فلابد من تقديمه إلى قراء هذا الكتاب، وبينهم من هو أوسع معرفة به مني، جريا مع الطريقة التقليدية التي لامندوحة عنها في كتابة التراجم.

لقد اشتهر باسم علي الطنطاوى، وهو فى السجلات الرسمية محمد علي بن مصطفي الطنطاوى، نسبة إلى طنطا التي منها وفد جده لأبيه وعمُه، وقد عُرفا بأنهما من كبار علماء الشام، وقد ترجم لوالده صاحب كتاب (الحدائق الوردية) وعرّف به الشيخان بهجة البيطار وجميل الشطي في كتابين لهما عن أعلام القرن الثالث عشر.

وكان جده لأبيه امام طابور بالعسكر، أما والده فقد تولى أمانة الفتوى بالشام كما تولى في بعض الفترات إدارة إحدى الثانويات الأهلية بدمشق، إلى جانب اهتمامه بعلوم الفلك والرياضيات.

وكان مولد الأستاذ في العام سبعة وعشرين وثلاثمئه وألف للهجرة في بيت أبرزُ معالمه العنايةُ بالعلم وتوافدُ طلبته عليه من كبار مشيخة دمشق.. وهو يحدث عن تلك البيئة فيقول: منذ وعيت على الدنيا وجدتني على صلة بالعلماء، وكان من عادة والدى أن يكلفني مناولته الكتاب الذى يحتاج إليه وأراه يلقي دروسه على هؤلاء المشائخ، فأحضرها معهم سواء في البيت أو في جامع التوبة المجاور مع مواظبتي على دروس المدرسة..

وقد تلقى تعليمه النظامي في العديد من المدارس، خلال فترات من ثلاثة العهود: العثماني، ثم الشريفي، ثم الفرنسي، حتى استقر أخيراً في مكتب عنبر الذى كان هو الثانوية الوحيدة بدمشق.. ولكن هذا الاستقرار لم يتوافر له إلا

بعد كثير من المتاعب، اضطر معها إلى ترك الدراسة أكثر من مرة، حيث جرب حظه في التجارة وعمل في بعض المحال كاتباً أو محاسباً فأخطأه التوفيق، فأعيد إلى طريق الدراسة حتى حصل على الثانوية.. ومن هناك اتجه إلى مصر ليلتحق بدار العلوم، وفيها تعرف الأديبَ الإسلامي الكبير سيد قطب رحمه الله، وتوثقت صلته بالرسالة التي أسهم في تغذيتها بالعديد من بواكير كتاباته..

على أن الشوق إلى مراتع صباه سرعان ماغلبه فعاد إلى دمشق قبل أن يتم عامه في دار العلوم، وعلى الرغم من سبق قبوله في كلية الحقوق لم يكتب له دخولها لفوات الوقت، فكان عليه أن يبحث عن عمل يشغل به فراغه بقية العام، فلم يلبث أن وجده في الصحافة، وبدأ ذلك في جريدة (فتى العرب) التي كان يصدرها الأديب المعروف الأستاذ معروف الأرناؤط، وهي صحيفة يومية معنية بالأدب إلى جانب اهتمامها بالسياسة وكذلك وجد عملاً صحفياً آخر في تحرير (ألف باء) مع صاحبها الكاتب الفلسطيني الأستاذ يوسف العيسى، وقد هيأه ذلك للإنضمام فيما بعد إلى أسرة التحرير في كبرى الجرائد الوطنية، التي أصدرتها الكتلة الوطنية بأسم (الأيام) ومع ذلك لم يهمل رغبته في دراسة الحقوق، فما إن حان موعد القبول للعام التالي حتي التحق بها، وطبيعي ألا تصرفه دراسة الحقوق عن أي شغل آخر، فجمع بين الدراسة والعمل..

وللاستاذ في جريدة (الأيام) تجربة غنية، إذ جمعته بخليط من المحررين يمثلون مختلف الإتجاهات الفكرية والتيارات المذهبية، من الشيوعي إلى القومي إلى الإلحادي إلى الإسلامي ــ ممثلاً في شخصية الأستاذ ــ وكلهم مبعوثون لخدمة القضية في ظل الكتلة الوطنية!. مما يعطي القارىء صورة عميقة الدلالة لنوعية المبادىء التي كانت تمثلها تلك الكتلة، فلا يستغرب أن ينتهي عهد حكمها أخيراً إلى كل الزلازل، التي أسلمت زمام البلاد إلى أعاصير الانقلابات..

وكان طبيعياً أن يضيق المستعمر بحرية الكلمة التي تمثلها تلك الجريدة فتعطل عملها. ويعتقل رئيس تحريرها، الأستاذ عارف النكدي صاحب المميزات الرجولية العالية..

وهنا يقص فضيلته علينا حديث الأزمة التي واجهها بسبب هذه الهجمة الاستعمارية الشرسة، إذ أُغلقت بوجهه كوة الراتب الذى كان يتقاضاه من الجريدة، فانقطع بذلك مورد أسرة ليس فيها كاسب سواه، إذ كان اخوته كلهم صغاراً في مرحلة الدراسة.. ولكن رحمة الله مالبثت أن أدركته من حيث لايحتسب، وكان ذلك على يد رجلٍ لم يعرفه من قبل، ومع ذلك فقد كان السبب المباشر في حصوله على وظيفة معلم في السلمية.

تلك هي إطلالة سريعة على مطالع حياة الشيخ، ولكن رجلاً من طراز الطنطاوي لايغني في تعريفه أن تقف معه عند الدراسة النظامية، التى لاتعدو كونها مجموعة من الدورات التدريبية، تتلقى خلالها التوجيهات التي تمكنك من معرفة الطريق إلى آفاق المعرفة، فإما أن تواصل المسيرة بنفسك فتراجع وتنقب، وتتعلم من تجاربك اليومية كيف تستنبط الأحكام وكيف تحل المشكلات.. وإما أن تجمد بك الخطى عند حدود العمل الذى يوصلك إليه المؤهل الدراسي، فتنسى كل ماتعلمت، وتتحول إلى لولب في جهاز، أو رقم في جدول، ومن هنا كان على الشيخ أن يتم مابدأ من عرض لمصادر ثقافته، التي جعلت منه في النهاية ذلك المحدث الموسوعي الذى ترهف إليه الأسماع، وتترقب أحاديثه الآلاف بل الملايين، وتتداول إجاباته الألسن في مختلف الأوساط الاجتماعية والثقافية.

والحق أن في ماأسلفه الشيخ عن نشأته في ذلك البيت، المتواضع في بنائه، الشامخ جداً في موحياته لدليلاً على ماوراءه من تلك الروافد، التي توافرت للعديد من ذلك الجيل، سواء في دمشق أو القاهرة، أو بغداد أو الحرمين أو إسلانبول، أو دهلي، أو تونس والرباط، وما إليهن من معاقل التراث الإسلامي، فأخرجت للناس عمالقة في الفقه والأدب واللغة، استطاعوا أن يحفظوا على شعوبهم المغزوَّةِ طابعها العريق بما أتاحوا لها من عناصر الاعتزاز بمشخصاتها الذاتية، حتى أوشكت بقايا ذلك الجيل أن تتوارى عن مسرح الحياة، ليحل محلها جيل آخر اختلط فيه الدخيل بالأصيل، وكثر فيه المتنكرون لأقداس ذلك التراث..

ويقول الشيخ: لقد اتصلت بكثير من العلماء ولا زمت الكثير منهم عملاً

بأمر والدي، ومن هؤلاء الشيخ صالح التونسي، والد الأستاذ عبد الرحمن مدير مدارس الثغر في جدة، ولكنه لم يلبث أن هاجر من دمشق إلى المدينة، فلزمت الشيخ أبا الخير الميداني، الذي قرأت عليه من كتب النحو الشيخ خالداً والأزهرية والقطر والشذور.. إلى جانب الدروس العامة التي كنت أواظب على حضورها فى الجامع الأموي، ويذكر من هؤلاء المؤثرين في ذهنيته الشيخ عبد الرحمن سلام البيروتي، فيقول: إنه أطلق من عرفت لسانا، خطيب متدفق، صاحب بيان، يرتجل الشعر، يسأل التلميذ عن اسمه فيسلكه في منظومة ليست كقصائد المتنبي أو شعر محمد المجذوب، غير أنه كلام مقبول من شأنه أن يطبع أثره في نفسي. وثاني هؤلاء المرحوم الشيخ عبد القادر المبارك، الذى درَّسنا.. وكان درسه أكثر ماعرفت حيوية في حياتي. ثم سليم الجندي، والشيخ الداوودي، وكان رجلاً مسناً يأتي المدرسة ــ مكتب عنبر ــ على حماره كشأن العلماء الأولين.. ثم يقف ليحدثنا في إسهاب عن أحد هؤلاء الذين تركوا بصماتهم عميقة في فكره وفي تاريخ حياته..

يقول فضيلته: إنه نشأ أول أمره في وسط صوفي، إذ كان والده نقشبنديا مثل أكثر المشايخ، فتعلم منه كره ابن تيمية والوهابية، حتى إذا شخص إلى مصر، وصحب خاله المرحوم الأستاذ محب الدين الخطيب، بدأ ينظر إلى ذلك الموضوع بروح جديدة دفعته إلى إعادة النظر فى أمر القوم.. بيد أنه لم ينته إلى الاستقرار إلا بعد اتصاله بالشيخ بهجة البيطار، فمن هناك بدأت استقامتُه على الطريقة والتزام الجادة، وكان من أثر ذلك كتاباه اللذان أخرجهما عن حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.. إلا أن هذا الاستقرار لم يأت بالمجان بل كلفه وأخاه عبد الغني ــ كما يقول ــ طويلا من النقاش مع الشيخ بهجة، غفر الله لنا وله، فقد دخلا معه في معركة جدال حادة، بلغت بهما حدَّ إغضابه، وهو المعروف بوقار العلم وسعة الصدر، والبعد عن التعصب، حتى لم يعد لهما حجة يصح الاعتداد بها بعد أن اتضحت معالم الحق في أجلى بيان..

وللأحداث شخصيتها وفاعليتها في النفوس وبخاصة النفوس المميزة برهافة الحس وبعد الموهبة، ولم تكن هذه الأحداث قليلة العدد والأثر في ذات الشيخ علي، وإن تفاوتت في حجمها ومدى عمقها.. فهناك مشاهد الحرب العالمية

الأولى من حيث انعكاساتها على محيطه، وأثرها في تفكيره، وهو يحدثنا عن بعض هذه المشاهد فيقول: إنه كان في السادسة من سنيه عندما أطبقت تلك الفاجعة على الناس، وقد رأى من مظاهرها مالا يستطاع نسيانه، لقد كان الباعة يتنافسون في عرض الخبز مثلاً، فما إن انطلق نذير الحرب حتي غاب منظر الخبز عن الأعين، إلا من خلال طاقة صغيرة من كل فرن، وقد ازدحم عليها الناس بانتظار نوبتهم. ويقول: رأيت الناس ينبشون المزابل ليستخرجوا من ركامها مايضعونه في أفواههم، ورأيت الرعب يملأ القلوب من اسم جمال باشا..

وسرعان ماأيقظت هذه الصورة أشباها لها كانت نائمة في ذاكرتي فإذا أنا أشهد من وراء السنين أناسا يتسابقون للحصول عل مايستطيعون من جيفة حمار، وأسمع من صديق لي خبر ذلك القروي الذي رآه بعينه يتهش يد أمه القروية وهي آخر مابقي له منها.

ويتابع الأستاذ: لقد استمرت هذه المحن حتى إذا دخل الشريف فيصل بن الحسين دمشق تبدلت الحال، وقضينا سنتين كأنهما أعياد وأعراس، وكانت الأحياء تعبر عن فرحتها الغامرة بالتظاهرات الشعبية التى تتصاعد فيها الأهازيج، وتُردّد خلالها أنشودة تلك الأيام:

أيها المولي العظيمْ　　　فخرَ كل العربِ

فتتجاوب بها الجموع من الجانبين.. ولكن شاء الله ألا تستمر هذه الفرحة طويلاً، فإذا الجيوش الفرنسية تقتحم دمشق بعد معركة ميسلون غير المتكافئة، وبذلك انتهي عهد الأهازيج والأفراح، ليبدأ عهد العسف الاستعماري الذي قوبل بالثورات والتظاهرات في كل مكان.

ويحدثنا عن بعض هذه التظاهرات التي تسربت إلى المدارس قائلاً: لقد أراد الطلاب في مدرستنا أن يحتفلوا بمناسبة ليلة النصف من شعبان، فمنعهم المسئولون وطردوا بعض الزملاء من المحضِّرين للحفل، وكان ذلك منطلق الشرارة التي ألهبت حماسة التلاميذ، فما إن قرع جرس الدخول حتي علوتُ أحدَ المقاعد وبدأ فمي بالكلام على غير عادتي المعهودة، إذ كنت معروفاً بالعزلة حتى لاأكاد أكلم أحداً، فما هو إلا أن سمع الطلاب دعوتي للإضراب

والاحتجاج حتى سرت الحمية في أعصابهم.. وقد ساعد على ذلك جو البلد المشحون بالتوتر، فالطلاب ينتظرون أى سبب للإضراب.. وتعذر على إدارة المدرسة أن تجد من يستجيب لها بالدخول إلي الفصول، فاتصلت بالشرطة.. ولما صار هؤلاء داخل الفناء وجهت إليهم الكلام قائلاً: أنتم أبناء هذا الوطن وجنوده، فيجب أن تقاتلوا أعداء البلاد لاأبناءكم وإخوانكم.. فما لبثوا أن انسحبوا مستحيين..

وتدفق الطلبة ورائي إلى الخارج، فما بلغنا شارع مدحت باشا حتى أسرع إلى الإغلاق، وكذلك حدث في سوق الحميدية، حتى انتهينا إلى ساحة المرجة، وقد قارب الجمهور ربع سكان دمشق.

وأطل علينا رئيس الوزارء من أعلى شرفة السراي، واستمع إلى خطبنا المطالبة برد الزملاء المطرودين، فأجاب عليها بالوعود المعسولة.. ومن ثم تفرقت الجموع، ولكن لم نكد نبتعد قليلاً حتى ألقي القبض عليّ، وقُذِف بي في حجرة مظلمة لاتتجاوز سعتها المتر المربع..

يقول الشيخ: وهنا أطرقت أفكر: فى الصباح كنت نكرة مايعرفني في البلد أحد، والآن صرت ملء الأبصار والأسماع والجموع كلها ورائي، ثم هاأنذا أُنبذ وحيداً في هذا الجحر!. إذن والله إن طريق السياسة لشائك.. وعليّ ألا أقحم نفسي فى غمارها أبدا..

على أن هذه التجربة لم تستطع فصل الأستاذ عن أحداث بلده، بل دفعته طائعاً أو مختاراً إلى الايغال في النشاط الوطني في أوساط الطلاب.

يقول فضيلته: لقد كنا — طلبة عنبر — قبل تظاهرة شعبان في موقف المشاهد لحركة الأحداث، ثم تحولت المشاهدة إلى عمل، فتألفت لجنة عليا لطلاب سورية.. وكانت سرية لايعرف من أعضائها في الظاهر إلا الطنطاوى، لأني أنا الذى أعلو المنبر وأخاطب الناس. والحقيقة أن الذي كان يرسم الخطط ويحدد طرق العمل هو صبرى القباني، بمساعدة مدحة البيطار، فهما المخططان وأنا المنفذ. وكان عليّ بوصفي رئيساً للجنة الطلاب أن أشارك في كل تحرك وطني، وكان منطلق العمل بل شرارته الأولى أن نخاطب الناس عقيب الصلاة من على سدّة الجامع الأموي، ولم يكن ثمة مكبرات، فكنت أنادي الناس ذات

اليمين وذات الشمال: إليّ إليّ عبادَ الله، فأُسْمِع المسجد كله.. ثم تكون التظاهرات والإضرابات.. وقد كان لنشاط الطلاب هذا أثره الفعال حتى لقد استطاعوا تعطيل الانتخابات المزورة أيام صبحي بركات سنة إحدى وثلاثين، وذلك بالتعاون مع الكتلة الوطنية.. وكنت أنا الفاصل بين رجال الكتلة وحركة الطلاب فلا أدعهم يتصلون بهم أبدا، على الرغم من محاولاتهم الدائبة، وبذلك ضبطنا مسيرة الطلاب وحفظناها من المؤثرات الخارجية..

رحلته في التعليم:

والعلم هو الركيزة الأساسية في آل الطنطاوي دون استثناء، وإذن لامندوحة من محاورة الشيخ فى جانبي حياته العلمية، ولقد حدثنا عن دراسته ومصادرها النظامية والمنزلية متعلماً، فليحدثنا الآن عن رحلته خلالها معلّماً..

والظاهر من حديثه المسجل أنه بدأ عمله في نطاق التعليم قبل استكمال دراسته، وكان الباعث على ذلك الوضع المادي الذى واجهته الأسرة عقيب وفاة والده، فقد فَقَدَ ذلك الوالد ولما يتجاوز الصف الثامن، وفجأة وجدوا أنفسهم تلقاء أثقال من الديون اضطرتهم إلى بيع الكثير من تركته، ثم أكرهتهم على مغادرة ذلك البيت المتواضع إلى آخر صغير بائس.. ويفهم من بعض عباراته أنه بدأ عمله في التعليم الحكومي، ثم انتقل منه إلى المدرسة التجارية مشاركة في مجهود جماعة النهضة (لمقاومة الاتجاه المحدث في التعليم النظامي) إلا أنه لم يلبث أن اختلف مع إدارة المدرسة عندما أرادوه على ترك جدوله في الصف الرابع ليتحول إلى الصف الثالث، فما كان منه إلا أن ترك التعليم غضبان ليعمل محاسباً في أحد المحال التجارية، ثم رأى أن يعمل في التجارة مع أحد رفاقه غير أنهما سرعان ماانتهيا إلى الإفلاس..

وعلى طريقة الشيخ أسمح لنفسي بالاستطراد إلى تعقيب صغير لعله يساعد على توضيح بعض الجوانب من شخصيته: ذلك أن لجوءه إلى التجارة لم يكن في تصوري إلا انسياقاً مع الاتجاه العام، الذى يحبب إلى الدمشقيين تلك المهنة منذ الصغر، فالتلميذ منهم لايكاد يغادر المدرسة لإجازة الصيف حتى يجدّ في

البحث عن عمل له في آحد المتاجر، أو يستلف بعض منوّعات السلع اللازمة للسواح، فيحملها على صفيحة من الخشب يعلقها على رقبته ويعرضها بين يديه ،فيمر بها على المقاهي وفى الشوارع، فلا ينقضي الصيف حتى يكون قد حصل على رأس مال صغير يحفزه إلى عمل أكبر.. وأعرف بعض إخواني الدمشقيين لايشغلهم عملهم في التدريس عن تعاطي التجارة طوال العام، فيوظفون مامعهم في شراء مقادير من الزيت أو السمن ونحوهما.. وهكذا تمور دمشق بالحركة والنشاط وكثيراً مايؤدى ذلك إلى تأليف شركات صغيرة، لاتلبث أن تأخذ سبيلها إلى النمو حتي تصير إلى أعلى المستويات.. ولكن لكل قاعدة شواذ، ومن شواذّها إخفاق الفتى الطنطاوي في تجارته، وإنما أُتي الفتى من تدبير القدر الذى يريده لغير هذه المسالك. ونحن لانستطيع أن نتصور مدى خسارة الفكر والفقه والأدب الإسلامي لو وَجَد فتانا بدل الخسارة ربحاً جذبه إلى التمادى في تجميع المال!. وحسبنا من ذلك تخيُّل الشيخ الطنطاوي، وقد أصبح من أصحاب الملايين، وانتقل من ذلك المنزل المتواضع الضائع بين البيت والإسطبل كما يصفه إلى بيئة القصور، التي لايرضيه منها يومئذ أن يكون في دمشق قصر يضاهي دارته.. وما إن يخلد إلى أحلامه في ذلك النعيم حتى تأتيه جائحة الاشتراكية، لتجرده من ملايينه التي ستزعم أنه انتهبها من عرق الكادحين، وإذا هو يحاول العودة إلى ذلك المنزل (الضائع) فلا يجد سبيلاً إليه، وقد أفقده عارض الثروة ومرائر ضياعها كلَّ صلة بالأدب والفكر والفقه.. فراح يضرب في المتاهات التي لانستطيع تصورها!..

ويالها يومئذ خسارةً للأدب والفقة والفكر.. لانعرف أحداً في دنيا العرب مستعداً لتعويضها.. فالحمد لله ثم الحمد لله على ذلك الإفلاس الذى أنقذ أخانا من ذلك الباس، وحفظه متعة وموسوعة وثروة لاتنضب للناس..

ويتابع فضيلته: وكادت السنة الدراسية تضيع عليّ لولا أن جاء عمي الشيخ عبد القادر الفلكي، واستعان بمحمد علي بك الجزائري فأعادوني إلى التجهيز ــ الثانوية ــ لأستدرك مافاتني. وبعد ذلك استمر عملي فى التعليم بالمدارس الأهلية مع المواظبة على الدراسة. ومن المدارس التي عملت بها (الأمينية) وكان مديرها ابن خالتى الشيخ شريف الخطيب، ثم عملت مع الشيخ

عيد السفر جلاني لمدة سنتين أيام حكم الشريف فيصل، وكذلك عملت في المدرسة الكاملية للشيخ كامل القصاب، ومع أن اشتغالي بالتعليم كان باعثه طلب الرزق، فقد ظل مردودي منه قليلاً محدوداً.

وحتى الآن كاد يقتصر عمله التعليمي علي هذه المدارس الأهلية حتى قيض الله فيما بعد أن يحصل على وظيفة معلم في مدارس الحكومة، وقد بدأ تعيينه في سلمية ـــ من ضواحي حماه، عام ١٩٣١ ثم وافه الحظ بالنقل إلى دمشق.

ويقول الشيخ: لقد كنا ثلة من الأصدقاء، منهم جميل سلطان وأنور العطار وسعيد الأفغاني وحلمى اللحام، وهم الذين عُرفوا بين كبار أدباء الشام، وقد احتواهم جميعاً التعليم الإبتدائي بدمشق، وذلك غاية مايتمناه كل منهم.. بيد أن وجود الأستاذ في ذلك السلك كان ـــ على حد تعبيره ـــ مزعجة للمدارس التي عمل فيها، إذ كان كثير المعارضة إلى درجة قضت بنقله ثمان عشرة مرة خلال فترة قصيرة، هي سجل خدماته، حتى لم يعد هناك مدير ابتدائية يقبل أن يعمل عنده!.

ثم جاءت فترة اتصل بعدها بالكلية العلمية، وهي مدرسة أهلية، فعمل فيها مدرساً للأدب العربى في صف الشهادة الثانوية، وأثنائذٍ ألف كتابه عن بشار بن برد وطُبع باسمه وبلقب (مدرس الأدب العربي في الكلية الوطنية) ويصف الشيخ اليوم ذلك الكتاب بأنه سخيف لايرضى عنه.

إلى العراق:

والآن نبدأ مع فضيلته شوطاً جديداً في حلبة التعليم، وقد حدث هذا عام ١٩٣٦ يوم جاءه الشيخ بهجة الأثرى يحسن له العمل في العراق، وتم الاتفاق بينهما للتدريس فى الثانوية المركزية فى بغداد .. بيد أن لم يلبث أن اصطدم مع أحد المفتشين المصريين هناك فكان ذلك سبباً فى نقله إلى البصرة ثم حدث خلاف جديد أدّى به إلى الانسحاب من العراق، واتخذ سبيله إلى بيروت حيث عمل مدرّساً للأدب العربى في الكلية الشرعية التي صار اسمها (أزهر بيروت) ولكنه لم يستمر هناك غير سنة واحدة ١٩٣٧..

وبعد هذه السنة اليتيمة استدعاه الأستاذ الأثري إلى بغداد كرة ثانية، فما لبث أن عاد ليستأنف دروسه في الثانوية المركزية، ويضيف إليها دروساً أخرى في معهد العلوم الشرعية الذى يسمى (مدرسة الإمام الأعظم) وفى هذا المعهد وجد الكثير من الأنس بفضلاء الأساتذة، الذين كان منهم العلامة المعروف الشيخ أمجد الزهاوى، ويعترف لهم بالكثير من الخير الذي أفاده منهم طوال العام.. غير أن الوضع العام سرعان ماتبدل إذ عصفت الفتنة القومية بالعراق أيام سامي شوكة، الذى عرف بنزعته المناوئة للفكرة الإسلامية وكانت فتنة ــ يقول الشيخ ــ إنه لم يثبت أمامها من الوسط التعليمى ــ ولعله يريد وسط المتعاقدين ــ سوى ثلاثة: أحمد مظهر العظمة رحمه الله، والأستاذ عبد المنعم خلاف، وعلي الطنطاوى.. فكان من نتيجة هذا الثبات أن تقرر نقلهم إلى مناطق الأكراد الشمالية..

وهنا قصة جديدة يطرفنا بها الأستاذ فيقول:

طلبت من مدير المدرسة التي أُحلت إليها في كركوك الإطلاع على جدول العمل ومواقيت الدروس، فكان يؤخر الإجابة يوماً بعد يوم، ولما طال المطال قلت له: إذا لم تريدوا درسي فأخبرني أرجع أو أستقل، فقال: والله أريدك ولكني أخاف عليك!. وسألته ممَّ تخاف علي؟.. أجاب: هؤلاء الطلاب أكراد ومتعصبون، وهم متمردون ينزعون في الليل لباس الفتوة، ويرتدون ألبستهم القومية، الشال العريض وفيه الخنجر، وهم كما ترى ذوو أجسام وقامات، كلما جاءهم مدرس للعربية استقبلوه بالضرب حتى يخرج محطماً..

وهنا أدرك الشيخ سر التردد في موقف المدير.. فلم يرد عليه بشيء، ولكنه انتهز غفلة منه ليدخل الفصل على الطلاب، فإذا هم على ماوصف من التحفز والاستعداد للشر..

وبلهجة ملؤها الصدق والحنان أخذ يخاطبهم بقوله: ياأولادى.. العرب كانوا من أضل الأمم فهداهم الله بالإسلام.. وأنا جئت لأعلمكم العربية لامن أجل أهل بغداد ولا من أجل العرب، بل من أجل القرآن العربي الذى تقرؤونه ومحمد العربي الذى تحبونه وتتبعونه، وامتثالاً لأمر الله الذى جعل تعلم العربية من الدين..

فقولوا لي ياأبنائي: أتحبون أن تتعلموا العربية أم لا؟..

يقول الشيخ: ووالله إني لعاجز عن تصوير الموقف.. لقد تغلبوا عليَّ وحملوني برغمي على الأعناق..

وكان المدير قد استدعى الشرطة تحسبا للخطر، ولم يطمئن قلبه حتى رآني على هذه الحال، ومنذ ذلك اليوم بات درس العربية أحب الدروس لهؤلاء الأكراد..

قلت: ذلك لأن الشيخ دخل على قلوبهم من نافذة الدين.. على حين كان مدرسو العربية قبله يواجهونهم باسم العنصرية، التى تقسم البشر زمرا دموية، فكان المحصول تنفيرهم من العربية وكل ماله صلة بالعرب، حتى ينتهي الأمر بهم إلى الضرب والتحطيم، بدلاً من التقدير والتكريم.. وقديما قال حكيم عربي:

لايبلغ الأعداءُ من جاهل ... مايبلغ الجاهلُ من نفسهِ

وينهي فضيلته هذه الفقرة باعلامنا أنه عاد إلى دمشق بعد ذلك، ليعيَّنَ أستاذاً معاوناً في التجهيز الجديدة، فحل بذلك محل استاذه الشيخ عبد القادر المبارك، ولكن حادثاً طارئاً تعرض له فأدى إلى نقله لدير الزور..

وكان عمله فى مدينة الدير عقيب سقوط باريس تحت كابوس الألمان، حيث كان الفرح يملأ صدور (المسلمين) وبدؤا يتجرؤون على الفرنسيين في مختلف المناسبات، واتفق أن كان الشيخ على أهبة العودة إلي دمشق لقضاء أيام الأجازة النصفية، ولكن شاء الله أن يؤخر سفره لحضور صلاة الجمعة، وهناك ألح عليه بعض أعيان الدير وعلمائها أن يلقي خطبتها.

يقول الشيخ: وصعدت المنبر وأنا مثل القنبلة المسدودة بقشة، وانطلقت بها خطبةً فظيعة، وكان مما قلته للناس يومئذ: لاتخافوا الفرنسيين فإن نارهم لاتحرق ورصاصهم لايدفع، ولو كان فيهم بقية من الخير لما وطئتهم نعال الألمان..

ولم يحتج المصلون لأكثر من هذه الإثارة فإذا هم يتدفقون ــ عقب

الصلاة ــ في تظاهرة هائلة هاجموا خلالها دار الحكومة، وحطموا كل ماأصابوا..

وطبيعي ألا تمر هذه الحادثة دُون مردود، فقد سبقته أخبار الخطبة والتظاهرة إلى دمشق، وكانت النتيجة أن حيل بينه وبين العودة إلى الدير، وأعطيَ أجازة مرضية.. تركته فى فراغ ثقيل لم يعتد مثله من قبل.. ولا ندرى كم استغرق من الزمن، ولكنا نعلم من حديث الشريط أنه لم ينقطع عن التعليم إلا فترات محدودة، تولي بعدها تعليم البنات في ثانوية ابن خلدون لمدة سنتين، تركها بعدهما، ثم عاد إلى تعليم البنات كرة ثانية، ثم عمل في المعهد العربي الخاص الذي أنشأته الجماعة الإسلامية عقيب الاستقلال، ولما أقيمت كلية الشريعة في جامعة دمشق تولى فيها تدريس فقه السيرة، ولم يتركها إلا بعد أن فتحت أبوابها لقبول الطالبات..

فى كلية الشـريعة :

وهنا أيضاً طرفة لايحسن أن نغفلها، لما لها من علاقة وثيقة بطبيعة المترجم: يقول حفظه الله: لقد اجتمع مجلس الكلية لمناقشة موقفي من قبول الطالبات، وكان مؤلفاً من الدكتور مصطفى السباعي والشيخ مصطفى الزرقاء، والشيخ بهجة البيطار، والأستاذ محمد المبارك والدكتور معروف الدواليبي.. وقد وقفوا جميعاً في الطرف المضاد لرأيي، فقلت للدكتور معروف: فى الحديث الشريف أنه يأتي زمان على الناس يصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، فها نحن أولاء نواجه ذلك الزمن.. وقلت للأساتذة أنا مستعد أن أعيد الدرس مجاناً للبنات وحدهن، فقال الدكتور السباعى وإذا أتينك محجبات؟.. فقلت له: أنت تقول هذا؟!. وقد رأيت كيف تطور الأمر بالبنات حتى خرجن من الحجاب إلى التكشف!. وبعد يومين دخلت الصف فتاةٌ حلبية محجبة فأمرتها بالخروج فلم تفعل. وأطرقت برأسها إلى الأرض. فقلت لها لو كان مكانك شاب لأمسكته وألقيته في الخارج، أما أنت فلا أملك معك -يلة سوى أن أخرج أنا، وخرجت ثم لم أعد..

والآن ليسمح لي فضيلة الشيخ أن أعلن له انحيازي إلى الصف المضاد لموقفه ذاك.. فأنا مثله حريص على الحجاب، وقد درست طويلاً في صفوف الإناث، وقد أقنعتهن وفيهن غير المسلمات أن يغطين رؤوسهن أثناء درسي..

ومضى الأمر على ذلك، وانتهى إلى كثير من الخير، إذ أتيح لهن أن يسمعن كلمة الإسلام، فتركت في قلوب الكثيرات منهن آثاراً لاتمحى بفضل الله.

ثم هل نسي الشيخ حفظه الله أن كلية الشريعة كانت أيامئذ كالمسجد والطالب فيها كالمعتكف، ولم يكن ثمة من متنفَّس جامعي للإسلام سواها، وقد ضمت بين مدرسيها صفوة من رجال الدعوة والفكر الإسلامي في سورية، فهي بهم مركز إشعاع ينتظر أن يكون له مردوده الكبير، فحرمان بنات المسلمين من خير هذه الكلية نفي لهن من دائرة النور.. وكما يحظر علينا منع الإناث من بيوت الله هكذا يحظر علينا منعهن من هذه الكلية.. وإنما علينا فقط أن نحصن الكلية بالأدب الإسلامي، فلا نمكّن للشيطان أن يستل منها واحداً أو واحدة..

وهو على كل حال رأي أعقب به على ذلك الموقف الذى حدثنا به الأستاذ حفظه الله.. أرجو أن يتلطف بالرد عليه إذا شاء الرد، ويجنبه الحماسة التي يتعذر عليه التخلص من آثارها حتى الآن، على الرغم من مقاربته الثمانين.

إلى القضاء:

وهنا نواجه فجوة جديدة في الرحلة التعليمية من حياة الشيخ، إذ شغل معظمها بأعمال القضاء الذي ساقه الله إليه على غير توقع منه ولا تطلع إليه، وقد استمر في ذلك السلك مابين العامين ٩٤١ و٩٦٣ .

ولنستمع الآن إلى قصة هذه الرحلة:

يقول الشيخ: ذات يوم وأنا في غمرة الحيرة، انتظر موعد الحافلة أمام القصر العدلي بدمشق، وقع بصري على عمود يحمل ملصقا قديماً من الإعلانات، فدنوت أتلهى بقراءته فإذا هو إيذان بحاجة العدلية إلى قضاة شرعيين.. وللحال ألغيت فكرة الركوب ومضيت لتوى إلى رفيق المدرسة الأستاذ محمد الجيرودي وقلت له: أي محمد.. هناك مسابقة لاختيار قضاة لم يبق دون موعدها سوى يومين فقط، فأعطنى الكتب المساعدة..

لقد كان تخرجي في الحقوق عام ١٩٣٢ وامضيت فترة السنوات التسع

بعد التخرج بعيدا عن جو القضاء والحقوق تماماً، ولذلك عمدت إلى حبس نفسي على المراجعة في البيت لأستعيد مالابد منه، ووفق الله فانتظمت في سلك القضاء، ثم جاء التوفيق الآخر بالمداومة في المحكمة الشرعية عند الشيخ أنيس الملوحي الذي لقيت لديه كل عون، فقد أخذ بيدى وزودني بما نفعني في عهدى الجديد، من معاملة حصر الارث إلى الوصية إلى الزواج، إلى الدعاوى الكبيرة.. ولولا هذا التوجيه الكريم لَعَرّضت نفسي إلى ضحك الناس. ومن ثم عُيِّنْتُ في النبك.

ودعوني أعرض لكم بعض الحوادث التي واجهتها هناك. لقد وجدت نفسي من أول يوم أمام إضبارة لايقل حجمها عن جزأين من القاموس المحيط، ويشارك في المرافعة بها كبار محامي الشام: فؤاد القضماني، وسعيد محاسن، وآخرون من أساطين المحاماة.

لقد اعتراني الوهم.. وجعلت أفكر كيف أتصرف بهذه الدعوى.. ثم قررت أن أقرأها أولاً، فتبين لي أنها دعوى إرث، وبعد التدقيق وجدت فيها عجباً، فالمدعي كأنه يقول: إنهم أعطوني عشرة ولا أستحق إلا تسعة فأطلب تعديل الأمر.. وفي موعد المحاكمة حضر المحامون، وأمليت على المساعد: سئل الطرفان عن كلامهما الأخير.. فجاءت الاعتراضات تترى على هذه الظاهرة، وطلب المحامون الامهال، فأعلنت ختام المحاكمة.. وصاحوا: كيف تعلن ختام المحاكمة؟؟.. فقلت لهم: لما كانت الدعوى هي طلب حق لواحد من آخر عن طريق القاضي، وكان هذا المدعي لايطلب حقاً ولا يطلب شيئاً فقد قررت ردها لأنها غير صحيحة..

ووالله لكأنهم كانوا في حلم وصحوا منه..

وهكذا قدر الله أن تكون البداية موفقة ولله الحمد..

يقول المؤلف: وهنا تذكرت مأثرة ثورية للأستاذ لا يحسن إغفالها فى هذه المناسبة، كنت قيدتها فى مفكرتى من حديث أذاعه فى التاسع من جمادى الأول ١٤٠٣ وفيه يعرض لتلك الفترة من وجوده فى النبك، وكأنه أحس إهمال الميسورين لفقراء بلدهم، فأوعز إليهم أن يقاضوهم إليه.. ولأول مرة فى تاريخ الإسلام بعد زمن الراشدين يصدر قاض حكماً بإلزام الأغنياء مساعدة المحرومين وهو حكم

لا يعدله إلا قرار بعض المحاكم المصرية أخيراً بإسقاط الربا عن الديون عملاً بأمر الله الذى حرمه من فوق سبع سموات.

ويتابع الشيخ: ثم نقلت من النبك إلى دومة، ثمّ انتدبت إلى القاهرة مع الأستاذ نهاد القاسم، ودوامنا هناك سنة بوزارة العدل في مهمة لوضع قانون الأحوال الشخصية.. وحين عدت من تلك الرحلة انتُدبت لمحكمة دمشق مدة ثلاثة أيام لم يكن لي خلالها عمل، سوى أن أجلس بجانب عزيز أفندى الخاني.

وعزيز أفندى هذا ذو هيئة ومهابة واستقامة ونزاهة رحمه الله، ولكنه ليس بقاض، ومعلوماته كذلك.. والرجل الذى يسيّر المحكمة هو رئيس كتابها وكانت هذه المحكمة على غاية من السوء لايستثنى من سيئاتها سوى قاضيين نزيهين والله هما الشيخ عادل علوانى والشيخ صبحى الصباغ.. وكنت أرى بعيني الرشوات وأنواع الفساد.. ولما سافر ــ الأستاذ الصباغ ــ إلى الحج قسموا الأعمال فيما بينهم، وجعلوا لي الأعمال الإدارية، وعقيب وفاة عزيز أفندى الخاني تسلّم الشيخ عادل مكانه.. غير أنه لم يلبث أن لقى مصرعه، ومع أنى لم أكن قد بلغت مرتبة القاضي الممتاز فقد اسندوا إليَّ عمله، إذ لم يكن هناك سواي..

وكانت فرصة لاجراء مأأراه مناسباً لتصحيح الأوضاع.. وأول شيء قمت به أن أتيت محاسب العدلية.. وهو رجل مسن وقلت له: عندكم في وزارة العدل مناضد خشبية أرجو تسليمي إياها مع نجار سأدفع أجره.

وبعد لأيٍ سلمني ماطلبت، وذهبت بهذه المناضد إلى القاعة الكبيرة.. وكان أمامنا ثلاثة أيام تعطيل، وهي كافية لإنفاذ ماصممت عليه. وبدأنا العمل فرفعنا الأرائك من القاعة ونصبنا مكانها تلك المناضد ليجلس الموظفون وراءها، وأغلقت غرفهم الأولى بعد تفريغها من المكاتب.

لقد أحدثت فى تلك الدائرة تنظيمات جديدة، لم أُسبق إلى مثلها، إذ حددت لكل موظف عمله، وعينت لكل معاملة وقتها.. ومثلاً على ذلك معاملة الزواج ينبغي أن تسلم صورها مصدقة لأصحاب العلاقة بعد ثمان وأربعين ساعة، وحصر الإرث بعد أربع وعشرين ساعة.. فلا تطويل ولا

تأجيل. ثم نظمت أمور المراجعات على طريقة المعاملات المصرفية، وخصصت لها أرقاماً مزدوجة يحمل صاحب العلاقة أحدها، ويربط الرقم الثاني بالمعاملة، وقيدت ذلك بالدَّور، فلا يتقدم أمير على كناس. وكذلك فعلت بمأذوني العقود، الذين يجرونها في المنازل فينالون من الرسوم مايزيد عن الحد المقرر، وكنت أبعث من قبلى من يراقبهم، وبذلك ضبطنا العمل في المحكمة ضبطاً عجيباً.

أمصادفات أم...

هذه المصادفات العجيبة التي واجهتها في حياتي لم تنته بعد.. ومنها الحادثة التالية.لما انتقلنا إلى القصر العدلي كنا أول محكمة دَخَلَته، واحتلت منه الجانب القبلي كله تحت مكاتب الوزارة.

وذات يوم، وكان عندي مجلس عائلي ينظر في قضية تفريق، والحكمان فيها الشيخان ياسين عرفة وكامل العقاد، إذا بآذن الوزارة يلقي بأوراق من الأعلى، ففتحت الباب وصحت أوبخه: مالك تلقي الأوراق هكذا؟.. وحانت مني التفاتة إلى احدى هذه الورقات فإذا عليها اسمي فتركت المجلس ورحت أجمعها ثم رتبتها على صفحة مصمغة حتى انتظمتْ، وإذا هي قرار بنقلي مستشاراً لمحكمة النقض، فكانت مفاجأة كأخواتها من المفاجآت السابقة.. فقلت للشيخين: لقد انتهى عملي هنا..

وقد سبق للأستاذ وجيه الاسطواني أن مهد لهذا الأمر إذ قال لي: لقد جاء دورك. أفتحب أن تبقى قاضياً ممتازاً أم تحب أن تنتقل إلى محكمة النقض؟.. وهكذا تم نقلي إلى التمييز سنة ١٩٥٣ وبقيت فيها عشر سنين جئت بعدها إلى المملكة في تشرين ١٩٦٣.

قلت: اذن كان قدومنا كلينا في العام نفسه، إذ بدأ عملي في الجامعة الإسلامية العام ١٣٨٣ هـ.

إلى المملكة:

وتابع الشيخ: ولقد بدأت عملي بالرياض مدرساً في الكليات والمعاهد

التي صارت إلى جامعة الإمام محمد بن سعود، وقد قضيت هناك السنة الأولى: وأصبت بالآم اقتضتني إجراء جراحة في دمشق، وشعرت بضيق نفسي يحول بيني وبين متابعة العمل في الرياض.. فلمّا دعاني المرحوم الشيخ عبد اللطيف ومفتي المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم، رحمهما الله، إلى تجديد العقد أبديت اعتذاري وقلت لهما: والله ماأشكو شيئاً سوى أني قد ضاق صدرى وأشعر أني أكاد أختنق في الرياض. وهكذا أنهيت العقد. وأثناء الإجازة الصيفية اتصل بي الشيخ بهجة البيطار من سفارة المملكة بدمشق، وأخبرنى أنه ينتظرني عند السفير الشيخ عبد العزيز بن زيد، فأدركت أنه سيكلمني بشأن العودة إلى المملكة. وفى باب السفارة دعوت الله بدعاء الاستخارة، وقلت: يارب قد تركت الأمر إليك .

وهناك جعل الشيخ بهجة يحاورني محاولا إقناعى باسم المفتى، فقلت: والله ماتركتهم عن قلى، ولا أنا عاتب ولا غاضب، لكن ضاق صدرى في الرياض، فتناول السفير الكلام وقال: هل تذهب إلى مكة؟. فأجبت دون تردد: نعم. ولم ألبث أن حضرت إلى هنا، ولم أزل في هذه الشقة نفسها ـــ فى أجياد ـــ حتى الآن.

وهنا نتحول إلى حوار مباشر مع الأستاذ:

م ـــ هذه السلسلة الطويلة من المنعطفات في حياتكم، والتي سميتموها مصادفات، ألم تكن ذات أثر في تكوينكم الفكري والعلمي؟..

ط ـــ مامن شك في ذلك.. وبخاصة ذلك التحول الكبير الذى نقلني من التعليم إلى القضاء، فالمعلم يتكلم أكثر وقته على حين أن القاضي يكون مستمعاً معظم الوقت.. ومن هنا كان تأثير هذه النقلة كبيراً فى حياتي. هذا مع العلم بأني لم انقطع قط عن التعليم، وذلك أن راتبى في القضاء لم يكن يمنحني الكفاية اللازمة، فكنت مضطراً لدعمه بمعونات عن طريق التعليم.

قلت: وفي القضاء مؤثرات أخرى لاتتوافر في التعليم، لقد كانت سنواتك في القضاء فرصة رائعة للإطلاع على مشكلات المجتمع، بما فيها من حق

وباطل، وسذاجة واحتيال.. وما لايحصى من العبر المفيدة لاديب ومفكر كالطنطاوي.. وفي التدريس وجدتم منافذ كثيرة تساعدكم على تعمق النفوس، وصنع الاتجاهات الفكرية في الطلاب.. وهكذا يتعاون القضاء مع التعليم، مع سابقتكم في الصحافة الأدبية والسياسية على تكوين المستوى الذي تحتلونه اليوم في نطاق الفكر الإسلامي والتأثير الجماهيرى.. ومن هنا يتضح للمفكر أن من الخطأ تسمية هذه التحولات غير المتوقعة بالمصادفات التي لاتدبير وراءها ولا حكمة معها، وليست في الواقع سوى ظواهرلعمل الحكمة العليا التي تحرك الأحداث لتحقيق ماتقرره الإرادة الآلهية.. وإنما نطلق عليها اسم الصدفة أو المصادفة لعجزنا عن تعليلها..

بين الصوفية والسلفية:

م ــ يافضيلة الشيخ اسمحوا لي أن أقول لكم إنني والقراء الذين سيطلعون على ماسأكتبه عنكم نريد أن نعرف موقفكم النهائي من الدعوة السلفية والمسالك الصوفية.

ط ــ لقد أسلفت الكلام عن موقفي من السلفية عند حديثي عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وترون ذلك واضحاً في ماكتبته عنه في مدخل الجزء الأول من الكتابين.. حيث بينت أني انتقلت إلى أقصى الطرفين.

م ــ وقد حدثتنا عن ترددك بينهما..

ط ــ أجل.. لقد ترددت ثم استقررت على مذهب السلف. ولكن هناك مشكلة واحدة.. أحب أن أقف عليها قليلاً..شيخ الإسلام ابن تيمية من أعاظم مفكري الإسلام، وكذلك ابن حزم إمام عظيم، ولكل منهما رأى عليه بعض الاعتراض.

فابن تيمية ينكر التأويل اطلاقاً، وابن حزم ينكر القياس.. وقد عالجت هذه الناحية في كتابى (تعريف عام بدين الإسلام) من ذلك مثلاً استواء الرحمن سبحانه وتعالى على العرش.. فمن أنكر الإستواء كفر دون شك، ومن فسر الإستواء بمثل قعود الناس فقد كفر أيضاً.. ولابد أن

يكون الحق بين هذين الجانبين.. فأنا شهد الله سلفي العقيدة لكن هناك أمور من آيات الصفات لا أراها تفهم إلا مؤولة

فربنا الذى يخبر بأنه استوى على العرش، يقول في آية آخرى من كتابه الحكيم: ﴿**وهو معكم أينما كنتم**..﴾ فلابد من تأويل هذه المَعيَّة بأنها معية علم وسمع وبصر، وهو النحو الذى جرى عليه ابن تيمية في تأويلها..

كنت أستمع إلى أحد القراء فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿**سنفرغ لكم أيها الثقلان**﴾ تساءلت: هل يمكن فهم هذه الآية إلا مؤولة!.. وكذلك الأمر في قوله تعالى: ﴿**نسوا الله فنسيهم**﴾ أجل والله إني لسلفي العقيدة، وأسأله تعالى أن ألقاه ثابتاً عليها..

م ـ فيما يتعلق بموضوع الصفات.. أترون إطلاق التأويل على سائر الصفات أم على بعضها مما لايمكن فهمه إلا مؤولاً كشأن المعية والنسيان؟..

ط ـ أنا أقول: إن القرآن أنزل بلسان عربي مبين، فما لايفهمه العربي الفصيح لأول مرة إلا مؤولا فنحن نؤوله..

م ـ لكن من أساليب العرب استعمالهم الكناية فى التعبير عن مرادهم.. فقوله تعالى: ﴿ **سنفرغ لكم أيها الثقلان** ﴾ لا يفهمه العربى الفصيح إلا من خلال الكناية التى تعنى سيأتى دورهم.

ط ـ هذا تأويل..

م ـ بل هو الكناية التي تعدل عن التصريح إلى التصوير، فتؤدى من البلاغ مالا يؤديه الكلام المباشر.

ط ـ وما الفرق بين التفسير والتأويل.. التفسير من فسر، ومنه السفور، أى الوضوح. والتأويل من قولهم: آل إلى كذا أى صار إليه، ونقلوه إلى التعدية بالتشديد فأوَّله إليه: يعنى صيره إلى المعنى الأول. وما دام هذا التأويل لايخالف كلام الله ولا ينافي الوحدانية أولاً، ويوافق مايفهمه العربى السليم الطبع السليقى الفصيح ثانياً، فهو صحيح ولابد منه في مثل الأمور التى ذكرتها مما لايفهم إلا بالتأويل.

م ــ طيب عندما أسمع ربي يذكر لنفسه عينا ويدا، ويذكر له رسوله قدماً.. فلماذا أتعب نفسى وأُدخلها في متاهات التأويل، ولا أكتفي بتصديق ماأخبر به دون تأويل ولا تعطيل؟.. أليس هذا هو الأفضل والأسلم!..

أو ليس هذا هو الفهم السليم لقوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ فهو ذو سمع وذو بصر ولكن لايمكن تشخيصهما، إذ ليس كمثله شيء فصار من الخطأ بل الخطر أن يحاول متعسف إجراء التأويل على هذه الصفات، إن من المستحيل في عالم الحسّ أن تعرف سمعاً أو بصراً أو قدماً عن غير طريق الجوارح التي ألفناها، فلا يبقى أمام العقلاء سوى التسليم بوجودها كالتسليم بوجوده تبارك اسمه، دون تفسير ولا تأويل ولا تعطيل.

ط ــ ياسيدى لقد أجبت على ماسألتموني، ولم أقل إلا الحق الذى أدين به الله وأرجو أن ألقاه عليه. لكن الإشكال من أين جاء؟.. هذه الكلمات وضعت في اللسان العربي قبل نزول القرآن. وقد وضعت لمعان بشرية أرضية مادية، فهذه المعاني لاتراد قطعاً..

م ــ ألفت نظركم إلى نقطة أنتم أدرى بها، تلك هي أن اللغة تبدأ في التعبير عن الأشياء المادية، فكلما ترقى الإنسان في مجال التطور إرتقى تعبيره إلى الأشياء المجردة البعيدة.. فإذا بهذه الألفاظ التي كان يستعملها العربي للأشياء المادية هي نفسها تتجه نحو الأشياء الأخرى.. ولكن يظل هناك ارتباط بين المعنى الجديد والمدلول القديم.. ولا حاجة إلى ضرب الأمثال والآن نرجو أن تزيدونا إيضاحاً لموقفكم من الصوفية..

ط ــ الصوفية.. كذلك مررت بها في مراحل.. قبل أيام كنت أقول لاحد إخواني والله إن الصوفية هي الباب الكبير الذى تدفق منه علينا الفساد، والباب الآخر هو التشيع والشيوعية وكلها من أصل واحد.
في مقدمة كتابي الأول عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب تحدثت عن الوهابية وكيف نشأنا على كراهتها، ثمّ أردت أن امتحن نفسي فتساءلت: هل أنا وهابي؟!. لما أخرجت كتابي هذا بالشام رد عليّ الشيخ الجويجاتى وغيره بكتاب أكبر، لأني بنظرهم أصبحت وهابياً،

وفي الرياض ردواً عليّ كذلك بأني كنت في كتابي على مذهب الشاميين!..

قلت في تلك المقدمة: إذا كانت الصوفية هي إصلاح الباطن ومداواة أمراض القلب، ودفع الرياء، والإخلاص، إلى آخر ماذكر في الرسالة القشيرية فهذا هو لب الإسلام، الذى إذا خلت منه العبادة صارت مجرد حركات لامردود لها في علاج النفوس.

أما التصوف الذى فيه وحدة الوجود، وفيه الادّعاء بأن للقرآن ظاهرا هو غير الباطن، وفيه مايدعونه بالحقيقة المحمدية، وما إلى ذلك من المفسدات فهو مرفوض تماماً.. وقد سبق أن كتبت في مجلة الرسالة قبل أربعين سنة أن كفر أبي جهل وأبي لهب إذا قيس بكفر محيي الدين بن عربي لكان في مستوى الإيمان.. ومن يومها شرع عمّي الشيخ عبد القادر وحسني بك العظمة ومجموعة من المشايخ يناقشونني ويشددون عليّ النكير..

م ــ نحن على علم بهذا كله، ولكن الذى نسجله الآن سيقرؤه كثيرون فمن الضروري أن يطلعوا من خلاله على الحقيقة بشيء من التفصيل..

ط ــ ان التصوّف الذى يتحدث عنه ابن القيّم في (مدارج السالكين) وفي (اصطلاح الصوفية) والذى كتب عنه آخرون من أصحاب العقيدة الصحيحة لااعتراض عليه..

م ــ نحن متفقون على أن كل سلوك يؤدى إلى تزكية النفس وما يستتبعها من التوهج الروحي مادام منسجما مع خط الكتاب والسنة فهو مقبول ومنشود، أما أن يتحول هذا كله تخرصات هندية ويونانية تنتهي إلى القول بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود فذلك هو الضلال البعيد.

من الأوقاف إلى البهائية:

م ــ لقد آن أن نستمع شيئاً عن نشاطكم في نطاق التأليف والنشر.. وأحبّ مؤلفاتكم إليكم..

ط ــ أول شيء صدر لي هو رسائل (في سبيل الإصلاح) وتبدأ قصة هذه الرسائل بعد قيام (مكتبة القدسي والبدير) بالشام وكان مستشارها

الشيخ زاهد الكوثرى، وهو استاذ حنفي شديد التعصب، وذو إطلاع مدهش، وقد أنكرت عليه أخيراً أشياء من هذا التعصب.

كنا ذات يوم في جلسة عادية بخان الجمرك، وأثناء هذا الحديث تطرقت إلى أوضاع الأوقاف والمشايخ والعقلية التي صاروا إليها، والفروق بين الكتب المتأخرة متونها وشروحها وحواشيها وأسلوبها الأعجمي، وبين الكتب الأولى.. فقال الشيخ زاهد: ياأخى اكتب لنا هذا ونحن نقوم بنشره.. ووافق ذلك ماأريد، فلم أتردد وقمت لفوري، ولم أغب أكثر من ساعة حتى كنت قد أنجزت كتابة الرسالة الأولى (فى سبيل الإصلاح). ومما قلت فيها عن الأوقاف أنها تضيع (أموال المسلمين) بدليل أن لي أمامة في أحد المساجد، وقراءة في مسجد آخر لم أحضرهما في عمرى، ومع ذلك تدفع لي الأوقاف راتبهما.. ولكنهم ماإن اطلعوا على هذا الذى كتبته حتى قطعوا ذلك الراتب..

وبلغت الرسائل أربعا، وأحدثت ضجة كبيرة في أوساط المشايخ، وردّ الشيخ الصابوني عليها بكتاب، وتناولها بعضهم في خطبه.. ثمّ أتبعناها بسلسلة أخرى كان لها قصة أخرى طريفة.. ذلك أني كنت ذات يوم واقفاً عند الشيخ ياسين عرفة في المسكية، فجاءنا رجل قالوا إن اسمه محمد سعيد العامري وأنه من النحلة البهائية، وجعلوا يناقشونه ويمازحونه في نحلته. فقلت له: اسمع.. أنت تقوم بالدعاية للبهائية وأنا مستعد للإنضمام إليك بشرط أن تدفع.. قال هاك دينارين ذهبيين، فأخذتهما منه قائلاً: اعتبرني منذ اليوم عندك. ومضيت لتوّى وعملت الرسالة الأولى، وجعلت عنوانها (سيف الإسلام في أعناق أعدائه) وكتبت على غلافها: (طبعت بنفقه محمد سعيد العامري) وقد ملأتها بالهجوم على الملحدين والبهائيين، وسرعان ماآتت ثمرتها، فى أوساط بهائيى دمشق، فإذا هم يطردونه من بينهم، وصار كلما لمحني في الطريق أتجنب لقاءه. واستمرت هذه السلسلة حتى استكملت الأربع عشرة، وقد تولت جمعية الهداية والشيخ عبد القادر العاني رحمه الله توزيعها بالمجان..

بين التأليف والإذاعة:

يواصل الشيخ كلامه عن تواليفه، فيذكر المقالات التي كان ينشرها في

جريدتي (فتى العرب) و (ألف باء) ثم يقول: إن له مقالات كثيرة في مجلة خاله الشيخ محب الدين الخطيب (الزهراء) وخص بالذكر عددها الأخير الصادر عام ١٩٤٨ يقول إن له فيه مايقارب نصفه، بعضها باسم محمد علي الطنطاوي وبعضها بالحرفين الأول والثاني من اسمه ع ط وقسم مذيل باسم علي فقط، وآخر باسم أبي الهيثم، وقد جمع هذا كله ــ أو بعضه ــ في كتاب باسم (الهيثميات) يقول إنه أول ماصدر له، وقد سبق أن أخبرنا أن رسائل الإصلاح هي بواكير كتبه..

م ــ وكتاباك عن الصديق وعمر رضي الله عنهما؟..

ط ــ ذات يوم قال لي السيد أحمد عبيد ــ الكتبي الشهير بدمشق ـ نريد كتبا عن سيَر الصحابة، وعليك أن تبدأها بواحد عن الصديق، واستحسنت الفكرة، ونشطت للعمل بها، وكان للسيد عبيد مشاركة طيبة في ذلك، إذ دلني على المصادر وأمدني بالكثير منها. ولكنه ألزمني إيرادها دون مناقشة، ولم تنفع مراجعتي أمام إصراره.. وهكذا اضطررت إلى قبول طريقته، واكتفيت ببعض التعليقات في الهوامش، فخرج الكتاب عبارة عن مجموعة من الأخبار غير المحققة، ولما نشره قيَّدَ حقوق طبعه باسمه، فخرجت من المشروع بثلاثين ليرة سورية فقط مقابل أتعابى وقد أعاد طبعه فى مصر وربما في غيرها أيضاً، دون أن يكون لي فيه أي منفعة.. ولقد مرّ على الأولى خمسون سنة، وكذلك الأمر في كتاب عمر بن الخطاب الذي جمع من سبعين مصدراً، وطُبع على الطريقة نفسها..

م ــ وماذا تمّ في كتاب (أخبار عمر) هذا؟..

ط ــ هذا الكتاب اسمه (عمر بن الخطاب) أما أخبار عمر فكتاب ثان، المهم أن السيد عبيد أراد أن يتعاقد على طبعه دون أن يسألني أو يحاورني فيه، فقلت له: لقد مضى على طبعه الأول ثلاثون سنة، وقد تغير رأيي في بعض تعليقاته، وأرى الآن مالم أكن أراه من قبل.. ولكنه استمر على موقفه ولم يدع لي مجالاً لأى مراجعة.. فإنطلقت إلى عدنان سالم صاحب دار الفكر أقول له: إن الأستاذ أحمد عبيد يريد إعادة طبع الكتاب، وأنا أريد أن أعيد تأليفه بطريقتي الخاصة، ليكون طبعه من قبلي، فوافق..

وبدأت العمل في الكتاب فكنت أكتب الملزمة في الليل لتدفع في اليوم التالي إلى المطبعة، وهكذا بدلت الكتاب من أساسه، وقد طرحت من أخبار عمر كل موضوع ومكذوب، فجاء الكتاب أشبه بالبحث ولا أزعم أنه بحث كامل.. وهو نفسه الموجود في السوق باسم (أخبار عمر).

م ــ أي كتبك أحب إليك؟..

ط ــ إذا عرضت عليك السؤال نفسه أى كتبك أحبّ إليك؟.. فبماذا تجيب؟.. هذا السؤال أشبه بقولك أى أولادك أحب إليك؟.. أما بالنسبة إليّ فهناك ظاهرة غريبة. لقد كنت أدفع المقالة إلى الرسالة، فإذا نشرت قرأتها مرة مرة ومرة ثم لاأستطيع العودة إليها أبداً. كذلك الكتب التي يعاد طبعها الآن فأنا لاأستطيع أن أرجع إلى شيء كتبته من قديم أنظر فيه أبدا، وإن نظرت فلن أرضى عنه..

م ــ أنتم الآن تكادون تنقطعون عن التأليف إلى مذاعات الإعلام.. فما رأيكم في هذا.. أربح أم خسارة؟!..

ط ــ خسارة.. ربح مؤقت وخسارة على المدى البعيد، مثل حريقة قش وحريقة الفحم الحجرى.. لو أني طبعت هذه الأحاديث في كتب.. فكيف يتلقاها الناس؟.. لاشك بأقل من اهتمامهم بهاأثناء إذ اعتها.. دعنا نمشي معا إلى الحرم ــ المكي ــ القريب، فسترى أن كل كبير وصغير يقول هذا فلان. ومعنى هذا أني وجدت فيهم آذانا تصغي إليّ وتعنى بما أقول.. فهذه محاسن يقابلها مساوىء، ومن مساوئها أن الغلطة التي يزل بها لساني لاأجد سبيلا إلى تصحيحها أو استردادها لذلك أنا خائف لأن كذبة المنبر ــ كما قيل في المثل ــ بلقاء.

إذاً فهذه نفعها مؤقت أما التأليف فنفعه دائم.

م ــ هل نفهم من ذلك أنكم تشعرون بشيء من الندم بسبب هذا التحول؟!..

ط ــ نعم. نعم. أشعر. أشعر.

نحو السطحية:

وفي إجابة الأستاذ هذه تنبيه عميق من حقه أن يردنا نحن أهل القلم إلى تفكير طويل وحساب دقيق.. فالحديث المرتجل أيا كان العقل الذي وراءه لايعدو السطحية إلا قليلا، على حين أن المفكر حين يخلو لكتابة موضوع أو كتاب لايكتفي بالنظرة العابرة ولا تغره العبارة المتألقة، فهو لاينفك يعيد النظر في مايعمل حتى يرضاه عقله وقلبه جميعا.. وهذا ماأراد التمثيل له بالفرق بين حريق القش وحريق الفحم الحجرى، لأن للأول هبّة يعقبها الخمود الذى يذهب بكل أثره، على حين نجد الثاني طويل العمر، عميق الفاعلية، لايزول حتى يترك أثراً عميقاً في ماحوله..

ومن حق هذا أن يذكرنا كذلك بقضية تعيشها أجيالنا دون أن نفكر بعواقبها.. تلك هي قضية الإعلام المسموع والمنظور إجمالاً، فهو بتهاويله الجذابة، وزخارفه الباهرة يجتذب صغارنا وكبارنا فنألفه حتى لانكاد نطيق مفارقته، ونهتم بمواعيده أكثر من إهتمامنا بمواعيد الواجبات الأخرى.. بل إننا لنطوي الكشح عن أهمّ الواجبات من أجل شهود مسلسلاته التي تصرفنا عن النوم، فتصرفنا عن مواقيت العبادة، ثم لانلبث أن نفقد الإهتمام بها، في حين يزداد التصاقنا بهذه المعروضات والمسموعات حتى نصبح منها كالمدمن على الخمر أو التدخين لايستطيع عنه انفكاكا..

ولعمر الحق إن أول ما يفقده مدمنو هذا النوع من الإعلام هو قابلية التفكير الجادّ الذى يتطلب المصابرة على البحث والتنقيب والاستنباط، وتلك الطاقات التي تثيرها القراءة الجادَّة في أعماقنا فتخلق فينا ملكات الإبداع..

أجل والله إن ملازمة المعروضات الإعلامية تشكل واحداً من أهم الأخطار التي تهدد مواهب الجيل بما تنشئه من إيثار السطحية والتهرب من العزائم..

وطبيعي أننا لانريد بذلك الدعوة لمقاطعة هذه المحدثات فهي من الطاقات التي يجب الإفادة منها في التربية والتعليم واستثارة المواهب، ولكنها لن تكون كذلك حتى نضبط آثارها، كما نضبط آثار الذرة المتفجرة في حدود الإصلاح

والتعمير.. وإن لم نوفق إلى ذلك فالويل لصغارنا وكبارنا من أخطارها المدمرة!..

جيل جديد:

م ــ العمل الإسلامي يقف هذه الأيام أمام تحديات لاحصر لها.. فمن أين ينبغي أن نبدأ، وكيف نواجه هذه التيارات المختلفة نوعاً ومصدراً؟..

ط ــ قبل سنتين دعوت وألححت بالدعوة إلى أمرين أولهما مخطط يتفق عليه الدعاة، والثاني عدم الاختلاف على الجزيئات ...

جاءني بعض الأصدقاء يقولون نريد أن تضع لنا مخططا للدعوة يتفق عليه المسلمون. فقلت لهم: هذا أمر لايصلح له مثلي، ولو وصفت لكم ماتريدون لما وجب عليكم اتباعي، ولكن هناك رجلا وضع مخططا للدعوة وأوجب الله على كل مسلم اتباعه.

لقد بعثَ الرسول ﷺ معاذاً إلى اليمن وأوصاه أن يدعو الناس إلى الشهادتين أولاً، درس واحد لايتعدد، فإذا قالوها صادقين أتبعتها بالصلاة، ثمّ بالزكاة.. ونحن اليوم مع حاجتنا الماسة إلى هذه الخطة النبوية، نرى اختلاف الناس حولها، فهذا صوفي يدعو إلى طريقته، وذاك يقول لابدّ أولا من البدء باللحية.. وهكذا ترى كل داع يبدأ بواحد من الفروع، ويشتغل بهذه الفروع عن الأصول.. وما أحكم كلمة قالها الشيخ حسن البنا رحمة الله عليه: نتعاون على ما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا في مااختلفنا فيه!..

إن دعاة الإسلام لا يزالون أقوياء ولا تزال لهم كلمتهم المسموعة فى أوساط المسلمين .. لكن مشكلتنا الأولى هى فى الدعاة أنفسهم، فما لم تتوحد سبيلهم فسنظل نراوح حيث نحن ..

إنهم على ماترى متفرقون، كل يريد أن يخوض المعركة منفردا، شأنهم في ذلك شأن ساسة العرب، كلهم يدعو إلى وحدة العرب، وكلهم يرفعها شعارا، فإذا نادى منادى التضحية إذا هم ينكصون..

م ــ لقد أجبتم على الشقّ الأول من السؤال: من أين يجب أن نبدأ. بقي أن

نسمع رأيكم في شأن هذه التيارات التي تواجه العمل الإسلامي..

ط ــ عندما ينتشر أحد الاوبئة فهناك طريقان لمكافحته: الأول ــ العاجل ــ هو التحصن باللقاح والأدوية، أما الثاني ــ وهو البطيء الجذري ــ فهو تربية الأولاد تربية تحصن أجسامهم ونفوسهم.. إن الخمس السنوات الأولى من حياة الطفل هي الحقل الذى تودع فيه بذور المستقبل من العقيدة الصحيحة أو الفاسدة والإيمان والكفر، والأخلاق الحسنة والسيئة. وقد أغفلنا هذا الجانب فنحن بسبب ذلك نخوض معارك على غير استعداد فنخسرها، وكل معركة نخسرها تردنا إلى الوراء، فالطريق القويم إذن هو إعداد الجنود للمعركة البعيدة بتربية النشء الجديد..

م ــ ولكن.. ألا ترون أن الحجر الذى تضعه أنت في البناء لايلبث أن يهدمه الظالمون ويهدمون ماوراءه وما فوقه!!..

ط ــ والله ياسيدى لقد شاهدنا من عجائب التربية مالايكاد يصدق.. لقد حدثني قادم من.. أن بعض هؤلاء الظالمين جاءوا بأحد المشايخ المعروفين، وبعد عذاب رهيب جعلوا يحاورونه:

ــ أنت تؤمن بكل مافي القرآن؟..

ــ دون شك ...

ــ أنت تعرف قصة إبراهيم لما جاءوا به ليحرقوه.. فماذا حدث له؟!

ــ جعل الله النار برداً وسلاماً على إبراهيم ..

ــ فعليك إذن أن تدعو ربك لإنقاذك من نارنا..

وصبوا البنزين على لحيته وثيابه وأشعلوه.. وهو صابر محتسب.. وفي مصر لقي شباب الدعوة أفانين العذاب والتمثيل والقتل فقابلوا ذلك كله بصبر عجيب حفظت وصفه الكتب.. وذلك لأن الإيمان قد غرس في نفوسهم من الصغر فكان أكبر من التعذيب وأعظم من الموت..

م ــ لكن.. أين أُربّي هذا النشء ياأخي؟.. لنفرض أني أبدأ بأولادى فأولادى ليسوا في يدى، المدرسة تنتزعهم مني في السنوات الأولى، ثمّ يأتى التلفاز والإذاعة والصحف لتدمر مابقي في أخلاقهم من حصانة، ومن ثمّ يأتي دور السلطة التي انتزعت من البيت كل تأثير على الطالب..

أجل.. كل من سألناه يقول ينبغي أن نبدأ بالصغار، لكن الصغار ليسوا في يدنا. الحق أن المشكلة خطيرة جداً ومحيرة.. كما حيرت قبلها المفكرين مشكلةُ الدجاجة والبيضة: أيهما الأصل وبأيهما نبدأ!..

ط ــ اسمح لي أضرب لك بعض الأمثال: كنت ممنوعاً من دخول الشام مدة خمس سنوات، ولما زال الحظر وزرت دمشق وجدت عجبا دعيت إلى سهرة يقرأ فيها تفسير وحديث. وهناك رأيت فتى قيل لي إنه ابن فلان وهو مواظب على حضور هذه الدروس على النقيض من أبيه تماماً..

وفلانة.. التي كانت تلميذتي وكان زوجها تلميذى كذلك، وقد ضرب كلاهما بالإسلام عرض الحائط، إذا بولدهما من أفضل الشباب خلقا وتقى.. فمن هذه الخرائب المملوءة بمغريات الفساد يطلع اليوم جيل معمور القلوب بحب الله ورسوله وكتابه.

ولقد رأيت في العام الماضي مشهداً لا أنساه، إذ دعاني صديق لزيارة أحد المساجد الجديدة بدمشق، فرأيت أحداثاً وشباباً كثيرين ومع كل واحد كتاب ديني وهو مكبّ عليه، وليس الوقت وقت صلاة ولا امتحان.. ولكنه الروح الديني الذي لايرتبط بزمان ولا مكان.. ولكنها العودة إلى الله..

التنظيمات الإسلامية:

ط ــ وتتداعى الصور في ذاكرة الشيخ، وما أسرع وما أكثر ماتتداعى، فإذا هناك وقائع ومشاهد تفوت العد، وتعيي المتابع. ويمسك بخيط إحداها ليحدثنا عن بداية الأساليب التنظيمية للدعوة في العالم الإسلامي.
يقول الأستاذ: لقد تفتحت بواكيرها الأولى على يدي محب الدين الخطيب وأحمد تيمور باشا، والسيد الخضر الحسين، وكان معهم من الشباب عبد السلام هارون وعبد المنعم خلاف ومحمود شاكر، وقد توفاهم الله إلا الإثنين الأخيرين. على يد هؤلاء نشأت جمعية الشبان المسلمين، وبعدها أنشأ السيد الخضر الحسين ــ وقد صار فيما بعد شيخا للأزهر ــ جمعية الهداية الإسلامية.. ولما رجعت إلى الشام وجدت

مجموعة من التجار يعملون مايسمى بالدور وهو أن يجعلوا سهرتهم كل ليلة في بيت أحدهم، ويختموا هذه السهرات آخر كل أسبوع بمادبة مشتركة.. فقلت: بدلاً من هذا أنشئوا جمعية، وليكن إسمها جمعية الهداية الإسلامية على غرار تلك التي أنشئت في مصر.. ولم يترددوا في الموافقة وبعد قليل وضع النظام اللازم وأنشئت الجمعية برئاسة الشيخ أبى الخير الميداني ونيابة السيد سعيد حمزة، ثمّ أقيمت حفلة للتعريف بها في المجمع العلمي، وألقيتُ فيها كلمة الافتتاح، وقد نشرت في جريدة القبس، وكان ذلك بداية تأليف الجمعيات الإسلامية في سورية منذ العام ١٣٥٠. ثمّ تتابعت الجمعيات فكانت جمعية (التمدن الإسلامي) أنشاها أخونا المرحوم ـــ أحمد مظهر العظمة ـــ ومحمد كال الخطيب، وأصدرت مجلة باسمها لاتزال حتى اليوم، ثم جاءت (جمعية الشبان المسلمين) برئاسة زكي بك الخطيب، ثم جاءت (شباب محمد) التى صارت إلى (الإخوان المسلمين) وأنا لاأذكر ذلك لاسجل فضلاً لي بل لاصور واقعاً لايحسن نسيانه..

م ـــ وإنه لواقع جدير بالذكر. لأنه يرصد واحدة من مراحل العمل الإسلامي في مابعد الخلافة، وفي أعقاب الاحتلال الفرنسي لسورية، وصلة هذه المرحلة بالتحرك الإسلامي في مصر.. ثم في أنحاء العالم الإسلامي.. وبخاصة عندما نتصور علاقة هذا التطور بما سبقه من آثار الفكر الغربي الذى شرع يهاجم الحياة الإسلامية في عقر دارها.. فكان ردّ فعل لابد منه للدفاع عن الذات.

ويستأنف الشيخ: لما ذهبت إلى العراق فى العام ٣٦ كما أسلفت وجدت تدهوراً خطيراً فى الأحوال الدينية، وكان ذلك قبل تأسيس «الإخوان المسلمين» من قبل أخينا الأستاذ محمد محمود الصواف، وهاكم مثلاً على ذلك:

في أحد أيام رمضان شاهدت بواب المدرسة يتناول الطعام على مرأى من الجميع.. فقلت له: كيف تفعل هذا علناً ودون تحفظ؟.. فأجاب: شونو أغاتي!.. وأخذ يسوّغ عمله بأن دور الإسلام قد انتهى لأنه إنما

جاء لقوم من البدو، وقد تغير كل شيء فلماذا لايتغير الإسلام!!..

هذا المشهد وأمثاله أثار في نفسي الخوف على مستقبل الحياة الإسلامية في أوساط الجماهير المسلمة ـــ التي هي على تعبير الفاروق مادة الإسلام ـــ فلما عدت إلى الشام ورأيت تعدد الدعوات بين المشايخ وتفاوتها من أقصى الطرقية إلى أقصى السلفية.. شعرت بالحاجة إلى التقريب بين هؤلاء المشايخ، ووجدتني أحق الجميع بهذا المسعى، لأن صلتي بجميعهم قائمة على المودة والصدق، فلا أحابي أحدا على أحد ولا أبدى لهم مالا أعتقده. ثمّ إنهم يعلمون أني لاأنازع أحدا على مكانه، ولو جاءوا بأجمعهم يبايعونني على مشيخة المشايخ لم يجدوا مني أى ميل لقبولها.. ولذلك فهم يأمنون جانبي ويصغون إليّ.. وبهذا الباعث دعوت إلى بيتي في الخضيرية كبار المشايخ وغيرهم من العاملين في تلك الجماعات.. وهناك أوضحت لهم مابنفسي، وقلت أنا أخشى أن يقع بنا ماوقع على بغداد، والعاقل من اعتبر بغيره وأنا ماأريد من أى منكم أن يدع مشربه. وإنما المطلوب فقط هو أن توطنوا العزم على حماية الدين والانتصار له إذا مارأيتم أي عدوان عليه.. فإذا اقتنعتم بهذا فعليكم أن تنتخبوا اثنين يبلغان كل الجماعات به، فمن رضي عمل معكم، ومن أبى فعليه وزره.. وعلى الموافقين أن يقوم كل فى نطاق عمله بتوعية المسلمين، الخطيب في خُطَبِهِ، والمدرس في دروسه، وأهل المجالس في اجتماعاتهم.. وعلى هذا الأساس انتخبوا ثلاثة: الشيخ ياسين عرفة ومحمد كمال الخطيب وأنا.. ولكن المؤسف أن الفكرة ماتت في يومها..

وبدخول العام ٣٦، وقد تمّ الاتفاق على الاستقلال بين الكتلة الوطنية ودولة الاحتلال شرع المنفيون يعودون، وكان بينهم الشيخ كامل القصاب.. هذا العنصر ذو الفعالية الكبيرة في الميدان الوطني والميدان الديني والميدان التعليمي على السواء.. وكان من عمل هذا الرجل أن دعا العلماء إلى اجتماع كبير أسفر عن تأليف جمعية العلماء، ولكن سرعان مادب الخلاف بينه وبين الجمعية الغراء.. ثمّ حدث التجمع الثاني لرابطة العلماء في بيتنا وتمّ بفضل الله التقارب اللازم بينهم..ـــ إلى حينـــ!

ثم تأتي المحاولة الثالثة على يد الشيخ أمجد الزهاوى.. هذا الشيخ كان على تقدمه في السن يتفجر بالشباب والحماسة، وكان معه الشيخ الصواف عندما جئت أسلم عليه في الفندق، فقال «مالكم قاعدين، ماتجمعون العلماء!.. قلت لافائدة من تجميعهم.. ولكنه أصر. ولم يمض ذلك اليوم حتى اجتمعوا بعد المغرب فى دار الحديث، وبينهم الشيخ الهاشمي الصوفى، والشيخ بهجة السلفى، والشيخ ناصر، وبقية الجماعة، وكتبنا ميثاقاً إسلامياً.. ومع ذلك كانت هي الجلسة الأولى والأخيرة ذلك لأن اختلاف النية هو الذي يؤدى إلى اختلاف الكلمة..

ويحدثنا الشيخ وفقه الله عن محاولة أخرى له ليست بعيدة عن محاولاته الاصلاحية تلك.. وكان ذلك يوم ترشيح نفسه في أول انتخابات نيابية بعد الاستقلال.. فهو يقول إنه كان مبتعثاً إلى مصر لدراسة القوانين بوزارة العدل، فأبرق من هناك بترشيحه، ثم عاد ليتابع موضوعه، فإذا هو يجد أولى الناس بتأييده متفقين على محاربته، حتى ليضطر إلى تذكيرهم بما أسلفه من جهد لتجميعهم والتأليف بينهم.. ثم كان هذا الموقف هو الأول والأخير في هذا الميدان، إذا اعتبر إقدامه عليه غلطة لاينبغي أن تتكرر..

وطبيعي أن الشيخ لم يُقدم على ذلك الترشيح إلا رغبة في مواصلة سبيله الاصلاحية عن طريق العمل السياسي.. ولاريب عندي كذلك في أن الذين عارضوا ترشيحه يومئذ لم يفعلوا ذلك إنكاراً لفضله ولجهوده المشكورة، ولكن دفعهم إلى ذلك الموقف تصورهم أن طبيعة الشيخ الشديدة الحساسية لاتنسجم مع العمل السياسي، الذى أول مايتطلب الأناة وطول النفس، وإذن فلن يستطيع الانسجام مع الصف الذى سيجمع مرشحيهم في المجلس النيابي، وقد رأينا موقفه من قضية الطالبات في كلية الشريعة، حيث خالف إجماع زملائه وأصر على رفضهن، مع أنه كان بوسعه أن يقنعهم بإحداث مدخل خاص لكل من الجنسيْن يفصل كلا منهما على حدة ولا يبقى أى مجال لأى اختلاط كما هو الشأن فى المسجد النبوى مثلاً.

وإذن فقد صدق الشيخ عندما عدَّ ترشيحه ذاك غلطة، لأن من كان في مثل طبعه الحار، فأنفع للمسلمين أن يظل بين المحدثين والمعلمين والموجهين.

وصدق رسول الله القائل: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

الخلاف حتى بين الداعيات:

م ــ كنا وقفنا عند سؤال عن مستقبل الدعوة في أوساط الشباب المسلم، فما رأيكم فيه، وكيف تقومونه، وكيف ينبغي أن يكون العمل؟..

ط ــ إن مانشاهده الآن في أوساط الشباب المسلم قد فاق ماتخيلناه.لقد عدت إلى الشام بعد انقطاعي عنها خمس سنوات، فرأيت أبناء الذين هم أركان الحركات المحاربة للإسلام في مقدمة شباب الإسلام.. ومثل ذلك في الأردن، وأضخم منه بكثير في مصر، وفي تونس والعراق، وفي كل بلد تحس طلائع الرجعة القوية إلى الإسلام.

على أن المؤسف آن هذه النهضة يعتريها مثل الذى لاحظناه من الانقسام في أوساط المشايخ، فبدلا من أن يجتمع الشباب على التعاون المنشود نرى كل جماعة منهم تعادى الأخرى وتحاربها في مسائل فرعية جداً، وهي ظاهرة حتى في أوساط النساء.

فى الشام قال لي بعض الفضلاء:إنهم جمعوا الي نحو ثمانين من المدرسات العاملات في نطاق الدعوة، فجئت ذلك الجمع وفيهن ثلاث من بناتي، وكلهنّ محجبات، وقد تكلمت فيهنّ قرابة الساعتين حتى جف ريقي. وكان مما قلته لهنّ: والله إني لاخجل من الله أن أعظ مثلكنّ، فأنتن أفضل مني شابات ناشئات في طاعة الله على الرغم من فساد الزمان، لكن كل مالدي هو أني سلكت طريقاً طويلاً وعدت لأخبركنّ بكل حفرة رأيتها فيه حتى لاتقعن فيها. ووقفت على موضوع الاختلاف مايجوز منه وما لايجوز، فالاختلاف على الطريق والوسيلة لاضرر منه كشأن الحج كلما تعددت طرقه سهل الوصول.. أما اختلاف الغاية بحيث يمضي واحد إلى جدة والثاني إلى عرفات فهذا الاختلاف الضار..

وتركت الجمع لاستريح في حجرة داخلية، وبينا أنا أحسو بعض الشاي إذا بالصياح واللغط والشجار.. ولما سألنا عن السبب علمنا أن جماعة إحدى الداعيات ترى أن يكون جلباب المرأة إلى نصف الساق وتحته

جورب غليظ، على حين ترى داعية غيرها أن يكون الجلباب على الوضع الذي عرف في الصدر الأول..

ثمّ هناك ياأخي ظاهرة أخرى خطيرة جداً، وليس وراءها سوء نية، ولكنه الجهل الذي يورط بعض العاملين والعاملات للدعوة في فتاوى لاتستند إلى دليل، فيحرمون ويحللون دون علمٍ ولا هدى ولا كتاب منير.

خذ مثلاً على ذلك قول بعضهم بتحريم ظهور المرأة أمام النساء مكشوفة الرأس.. بدليل خروج جبريل من بيت رسول الله عندما كشفت خديجة رأسها..

ومع ذلك فأنا أقول بأنّ المستقبل للإسلام قطعا. لكن هذه الخلافات ثغرات ينفذ منها أعداء الإسلام فيؤخرون مسيرة الركب، ويخلقون لنا كل يوم عقبات جديدة.. لقد حدث أيام فتنة خلق القرآن في العصر العباسي أن قال المعتصم لدعاتها: دعوا الكبار وعليكم بأولاد الكتاتيب الذين لاتزال قلوبهم كالصحف البيضاء تكتبون عليها ماشئتم. وها نحن أولاء نرى أسلوب المعتصم مطبقاً على قدم وساق في تلك التنظيمات، التى تستهدف سلخ صغار المسلمين من دينهم قبل أن يعرفوا عنه أي شيء.. نعم.. إن العودة إلى الإسلام من شباب المسلمين كبيرة جداً ولله الحمد، ولكن يقابلها كذلك محاولات مدمرة، إن لم تستدرك فستكون النهاية خطيرة جداً.

مع الحضارة الغربية:

م ـــ الحضارة الغربية غزت الوجود الإسلامي كله شئنا أم أبينا، فما الموقف الذي يجب أن نتخذه منها؟..

ط ـــ ألخص لكم جوابي بكلمة يسيرة: لقد كنت منذ عشر سنين مكلفا بالطواف على المدارس في المملكة، وفي كل مدرسة كنت أتلقى الأسئلة المختلفة وأجيب عليها حسب الإمكان.

هذه الأسئلة التي تلقيتها، ولا أزال أتلقاها في مختلف الأنحاء وجدتها

تلتقي كلها على نقطة واحدة هي تحديد موقفنا من الحضارة الغربية، فإذا وُفقنا إلى إيضاح هذه النقطة وصلنا إلى الحل الحاسم للمشكلة.

لقد كان جوابي للجميع واحداً يمكن تلخيصه في المثل التالي: إذا وجد أحدنا حجراً غير واضح النوع فيمضي به إلى معمل التحليل، وهناك تتضح له مركباته ونِسَبُها، وهكذا يجب أن نعامل هذه الحضارة فنردها إلى عناصرها الأساسية، وسنجد فيها العنصر العقائدى، والعنصر العقلى، والعنصر الاجتماعي وما إليها..

فأما العنصر العقائدي فلا حاجة لنا به سواء كان صريحاً أو مغطى.. فنتركه كله إذ لايمكن أن يجتمع في قلب عقيدتان.. وما يتصل بالعقل والعلم التجريبي فنأخذه كله، بشرط ألا تنسينا الصنعة حكمة الصانع، فنتذكر واضع قوانينها ونذكر به في كل مناسبة، لأن قوانينه هي الأصل الذي منه تستمد سائر القوانين المنسوبة إلى العلماء.. وليست قوانين أرشميدس ولا فوازييه ونيوتن سوى كشف لما أذن الله بكشفه من سُنُنه الكونية، فلم يوجدوا مفقوداً ولكنهم اكتشفوا موجوداً.. ولا ننسى أثناء ذلك جهود علمائنا في التمهيد لهذه الكشوف.. ثمّ يأتي عنصر العادات والاجتماع، فما كان منها متصلا بصدق المعاملة والوفاء بالوعد وتنظيم المدن وما إلى ذلك، أخذنا به لاتقليداً بل عملاً بأوامر ديننا الذي يُلزمنا بكل أسباب الخير.

في آخن ــ بالمانية ــ كنا في نقاش مع اثنين من القسس ذوي الثقافة الواسعة، وحانت صلاة الجمعة، وفي مسجد آخن ألقيت خطبتها، وهناك أعدت الكلام في الموضوع نفسه، وكان مما تطرقت إليه في هذه الخطبة، وما يجب علينا رفضه من حضارتهم، نظرتهم إلى المرأة والميول الجنسية، لأن القوم هناك هبطوا في هذا الجانب إلى أدنى من رتبة البهائم، وضربت مثلاً بالجمل والناقة، فقلت: لم يرهما أحد قط في شهر العسل، على حين يشاهدون الوضع مقلوباً في ظل هذه الحضارة، حتى إن انجلترة وألمانية أصدرتا القوانين في إباحة اللواط واعتباره أمراً عادياً..

قلت: ولو تأخر موعد هذا الاستطلاع إلى اليوم لأضاف الشيخ إليه

إطلاق ألمانية الحرية بتبادل الزوجات، وإصدار البرلمان الأسوجي ــ هذه الأيام ــ قانوناً بالغاء القيود على الزواج بالمحارم.. ذلك القانون الذى استقبلته النسوة من أعضائه بالتصفيق والهتاف، لأنه بنظرهنّ يسجل انتصاراً لحرية المرأة في أن تخادن وتضاجع أخاها أو أباها أو ولدها، وقد سبقها إلى مثل ذلك برلمان الدانمارك الذي أباح إجراء عقد الزواج بين الأخوين والعياذ بالله !..

م ــ هنالك جانب لابد من تمحيصه في هذه القضية: أعنى الأشياء التي تخرج عن حدود اختيارنا فأبناؤنا لابد من إرسالهم إلى المدارس حيث تطبق عليهم مفهومات الحضارة الغربية دون تمييز، فإذا غادروا المدرسة أخذت أبصارهم مشاهد منافية لما تعلموه من الإسلام.. واجتذبت مشاعرهم المغريات المثيرة للغرائز الجنسية على الطبيعة وفوق أغلفة الصحف، حتى إذا احتواهم البيت واجههم التلفاز بهيله وهيلمانه.. وهذا كله بعض جوانب الفساد في الحضارة الغربية، فمن أين لهذا النشء المسكين أن يحسن التخيُّر فيتخلص من آثار هذه المغريات المدمرات؟!!.

ط ــ إذا انتشر الوباء في بلد فللخلاص منه طريقان: إما أن تحبس نفسك في مكان نقي الهواء محصن من الجراثيم، أو تحافظ على صحتك باللقاح الواقي وتخالط الناس.. نحن هنا في مكة المكرمة نعاني الشديد من الحر، فهل نستطيع إقامة مكيف عام على قمة جبل أبي قبيس يبرد الجو كله!.. وإذا كان هذا غير ممكن فعلي أن أعمد إلى تكييف منزلي بما يدفع عنه لذعة الحر. وكذلك الأمر في الشتاء حين يستحرُّ البرد فأنا لاأستطيع حماية البلد كله من لسعه، ولكن أستطيع أن أدفىء غرفتي بجهاز خاص..

أجل ان هذه التيارات التي تشير إليها لايمكن دفعها عن المجتمع، فإذا منعنا الجرائد والكتب لم نستطع منع أمواج الإذاعة من اختراق الجدران إلى داخل بيوتنا. فلم يبق إلا أن نسكب في نفوس أبنائنا أسباب المناعة منذ الصغر.

لقد كنت مع قضاة التميز من أوائل المقتنين للتلفاز. وقد قلت لبناتي الخمس: قبل أن تُدرن مفتاح هذا الجهاز عليكنَّ أن تقرأن برامجه اليومية

وتعرضنها عليَّ، فكنت أضع الإشارة على كل مادة بنعم أو لا .. بعد أن أقنعتهن وأمهنّ بأنّ في هذا الصندوق العجيب منافع وأخطارا، فإذا فَتَحْتُنَّ جميع نوافذه تسللت إليكن أنواع المهلكات، فلابد أذن من الانتقاء.. ولقد انقضت على ذلك اليوم عشرات السنين ومايزال هذا دأب أهلي جميعاً مع هذا الجهاز الهدام البناء..

هذا كل مانستطيع عمله.. أما منع هذه الأشياء كليا فليس من شأننا، فالمدارس ليست بأيدينا، والأسواق خارجة عن سلطاننا، وهكذا سائر المرافق، فلم يبق لنا إلا أن نحصّن أبناءنا باللقاح الواقي وفق طاقتنا..

في ظلال الأدب:

بعد هذه الرحلة الطويلة في رحاب التاريخ والأفكار والأحداث يحسن بنا أن نستنشق نسيم الأدب. والسؤال الآن هو:

م ــ اللون الإسلامي مع سلامة العربية، وقد طبعا أدبكم من عشرات السنين.. كيف تيسر لكم؟. أعن طريق احتكاكم بالإسلاميين الذين تلقيتم عنهم الدراسة، أم منهم ومن كتب كبار العلماء، أم من هذه الكتب وحدها؟!!

ط ــ لاأملك الجواب الحاسم على هذا السؤال.. فلا والدي ولا المشايخ الذين قرأنا عليهم حتى الأستاذ الجندي، الذى ماأعرف تحت الفلك أعلم منه بالعربية.. كان لهم أي نشاط في الكتابة، فهم أصحاب علم وليسوا أصحاب أقلام.. وأتساءل: كيف سلكنا نحن هذا الطريق؟ لاأدرى.. لعلي تأثرت بخالي محب الدين.. ولا أدرى كيف بدأت خطواتي في هذا الاتجاه.. كانت كل مطالعاتي صغيراً في الكتب القديمة وكتب الأدب القديم.. وكيف كنت أطالع؟.. على عادتنا في الأسرة، لانعرف لعب الشارع، ولا نصاحب أحداً من أهله، أكثر وقتنا في البيت، وكنت أسحب من المكتبة أي كتاب تقع عليه يدي فأقرأ فيه دون مرشد، فإذا فهمته واستطبته مضيت فيه وإلا تركته.

وهكذا كانت قراءاتنا في الكتب القديمة، فلم أكن أعرف فى الأدب

العصرى لِلانظرات المنفلوطي، التي تركت أثرها عميقاً في نفسى، كفعلها في معظم شباب ذلك الجيل كما تعلمون.. ثمّ تلك المجموعة التي كانت تؤلف مايسمى بالرابطة الأدبية..

م ــ لعلها مجموعة المهجريين في أمريكا الشمالية؟..

ط ــ لا.. بل هي مجموعة تألفت من أدباء شاميين عام عشرين وتسعمئة وألف، وكان يرأسها خليل مردم بك.. ومن أعضائها..

وعلى طريقته المألوفة في أحاديثه الإذاعية، ترك كلمة (الأعضاء) يتيمة لا هوية لها، كما يفعل حين يعالج سؤالاً ورده من أحاديث مستمعيه، فيمدّ خيوط الكلام من هنا وهناك، وكثيراً مايرسل اللفظة دون إتمام، لينتقل إلى غيرها.. وليته عرفنا بعض أولئك الأعضاء لأن في تعريفهم تاريخاً لحركة الأدب في البلد الذى ضرب بسهم وافر في خدمة العربية..

ويواصل حديثه: ذلك هو الأدب الجديد الذى بدأت الاتصال به.. لكن كيف ومتى بدأت الكتابة.. فوالله ماأدري.. إلا أن أول شيء كتبته كان في رثاء الشيخ الداوودي، فقد ألقى أنور العطار قصيدة، وأنا كتبت مقالة..

م ــ هناك سؤال يراود الكثيرين بشأن الأستاذ وهو: فى أى الصنفين تضع نفسك.. الأدب أم الفقه؟

ط ــ في حياتي صفحتان مختلفتان، فأول الأمر كان اشتغالي كله في الأدب، ومنذ دخلت القضاء اضطررت إلى التحوّل نحو الفقه، أُراجع كتبه ومصادره وموسوعاته بكل ماوسعني.. ومن هنا كان انشغالي عن الأدب الصرف طوال عشر سنوات، مع طول تطلعي إليه كما يقول ابن أبي ربيعة.

وذو الشوق القديم، وإن تسلّى ... مشوق حين يلقى العاشقينا

ومن أسباب بعدي عن الأدب كوني لم أعد أرى ذلك النوع الذى يجتذبني.. وأصدقك القول أنه لما أهدى إليّ الأستاذ عبد العزيز الربيع ــ رحمه الله ــ ديوان الأستاذ المجذوب أثناء زيارتي للمدينة المنورة، قضيت

والله ليلة كاملة في قراءته، يجذبني إليه ماأحسّه من الأدب الخالص المطبوع، وقد ظلّ ارتباطى به وثيقاً، وحنيني إليه كثيراً..

نعم.. لقد ابتعدت عن الأدب لندرة الأصيل في ماتنشره المجلات التي يتوقع منها العناية بالأدب الأصيل..

م ــ بغضّ النظر عن التغييرات التي طرأت على الصحافة الأدبية فنزلت بها من القمة إلى الحضيض، لانزال ننتظر رأيك في ذاتك: أأديب أنت أم فقيه؟..

ط ــ لما أنشئوا بالشام مجلس الآداب والفنون أيام الوحدة اختاروا له جماعة ماكتبوا عُشُرَ ماكتبت، وحين وصل الكلام إليّ، وجرى بشأني بعض النقاش قالوا: هذا شيخ وفقيه وقاض ماله علاقة بالأدب.

ولما ناقشت أخانا الدكتور مصطفى السباعي رحمة الله عليه ونقدت كتابه (إشتراكية الإسلام) نقداً رقيقاً ثارت حميته وكتب يقول: أنت رجل أديب، فلا علاقة لك بالفقة ولا اختصاص.

وهكذا انتهى الأمر بي، فأهل الفقه لايعترفون بي، ويقولون إني رجل أديب، وأهل الأدب أنكروني وتبرءوا مني، فقالوا هذا شيخ فقيه. وما أسفت علي شيء من هؤلاء وأولئك..

م ــ مارأيك بنفسك ؟!.

ط ــ رأيي.. والله لاأقول عن نفسي إني أديب على الرغم من كتاباتي الكثيرة في الأدب، وأما بالفقه فأنا أمام نفسي وامام الله لست سوى طالب علم صغير..

م ــ على كل يبقى لنا رأينا فيك بعد ذلك.. ونعود للكلام عن الأدب العربي المعاصر فلو تكرمت ببعض التفصيل لما أجملت بشأنه.

ط ــ سؤالكَ أعمّ من أن أستطيع الإجابة عليه.. فلو أن أحداً حلق بالطائرة عالياً فوق مكة المكرمة لرآها عبارة عن رقعة من الأرض تزدحم فيها البيوت.. فإذا شئتم جوابا واضحاً فلتتنزلوا قليلا ولتضيقوا دائرة السؤال.

م ــ الملاحظ أن واقع الفكر والأدب يختلف اليوم كثيراً عن واقعه قبل أربعين

سنة، فعلى الرغم من حركة الإحياء التي يراد بها استعادة ماضي الأدب العربي من الناحية البلاغية والبيانية، لايزال البون شاسعا بين ماكان عليه عمل الأدباء أمس وما انتهى إليه اليوم من ناحية العمق والسطحية على الأقل.

ط ـ والله لقد كدت أقول هذا. إن الأسلوب البياني ضعيف جداً، لكن الصورة والفكرة الآن أقوى ولقد جاءني قبل مدة سؤال يريد المقارنة بين ماأنتجه أساتذة كلية الشريعة من مؤلفات وبحوث مثلاً، وماتركه علماء القرن الماضي من آثار. فقلت: أولئك كانوا أكثر اطلاعاً على ماتضمنته كتب الماضين، وأصحّ رواية لما فيها.. وكان أمامي في الحرم ـ المكي ـ الشيخ حسن حبنّكه الشامي ـ رحمه الله ـ فقلت له: أنت ووالدك كلاكما من رجال العلم، ولكن أباك أعلم منك، إذا سئل عن مسألة أحال إلى مصدرها من الكتب التى قرأها مرات وأقْرَأها مرات، بَيْدَ أنك ألفت من الكتب مالم يستطع أبوك أن يؤلف عشره. ونحن اليوم نقرأ في تراجم علمائنا السابقين أن فلانا قرأ كتاب كذا وكتاب كذا.. فالقضية بالنسبة إليهم لم تكن قضية علم فقط بل قضية كتب تقرأ وتفهم..

أول ماطبع كتاب (الموافقات) للشاطبي استشكلت بعض عباراته، فرحت إلى جماعة من مشايخنا يُقرئون (جمع الجوامع) الذي هو أكثر تعقيداً من كتاب الشاطبي، فلم يفهموا هذه العبارات، فقلت في نفسي: وكيف اذن يفهمون جمع الجوامع؟!..

وعندنا اليوم بين أحياء العلماء بالشام نموذج كامل يمثل علماء القرن الماضي، هو الشيخ أبو اليسر عابدين، فهو مضرب المثل في سعة العلم وكثرة القراءة، ولكنه في الوقت نفسه عاجز عن البحث الجديد..

أعرف في الشام أربعة مفتين أدركتهم: الشيخ أبو الخير عابدين ثم الشيخ عطا الكسم فمحمد أفندى الأسطواني، وكل من هذين فقيه رواية لافقيه دراية، ثم الشيخ أبو اليسر، وربما كان هذا أعلم الأربعة.. وإنما أحكم عليهم بما لمسته أثناء وجودي في محكمة التمييز. تعرض لنا المسألة في الجمعية العمومية فاتصل به هاتفيا فيأتينا الجواب لفوره أو بعد نصف

فقط، يقول لنا هذه مذكورة في الحاشية أو الفتاوى الهندية أو في كتاب كذا..

فالفرق بين علماء القرن الماضي وعلماء هذا القرن كالفرق بين أدباء الأمس وأدباء اليوم، فأولئك أصح أسلوباً وأجلى بيانا، وبين هؤلاء من هو أعمق فكراً بلا شك وأكثر إحاطة.

م ــ إذن فأنت ترى أن الأدب الحاضر إذا أمكن تصحيح أسلوبه وترقية ذوقه البياني فسيستكمل أسباب القوة والقبول..

ط ــ حقاً.. ثم هناك قضية مايسمونه بالشعر الجديد وقد كان الشعر يقوم على قدمين فكسروا أقواهما وهى الموسيقى والشعر العربى لاانفكاك له عن الموسيقى أبداً.

م ــ اسمح لى أن ألفت نظرك إلى أن بين أصحاب هذا الشعر الحديث من يلتزم الموسيقى ويحافظ عليها بشكل رفيع جداً ويلحظ من خلال تعابيره أن ثمة صورا شعرية تبلغ حد الروعة..

ط ــ هذه حقيقة ففي بعض هذا الحديث صور بيانية كما فى الشعرالعامي أو النبطي.. وفي أغاني الأخوين رحباني صور غاية في الروعة، وكثير منها موزون في ذاته، لكن المشكلة.. تصور أنك تسمع إلى مغن مجيد على نغم البيات، فإذا هو فجأة ينتقل للسيكاه. ان هذا نشاز يصدم الأذن بما لم تألفه من الإيقاع..

م ــ بعض هذا الشعر لايفارق الوزن. ولايصدمك بانتقال إلى غير المألوف، بل إنه يحافظ علي التفعيلة ولكنه لايلتزم بحور الخليل والأخفش.

ط ــ أستاذ.. وأي تفعيلة هذه؟..

م ــ التفعيلة التي أعني هي إحدى وحدات الأوزان الموروثة مثل: مستفعلٍ مكررة، أو فاعلاتٍ مكررة، أو مفاعيلٍ مكررة.. فهؤلاء يلتزمون الوحدة فيأتي نظمهم موزونا بالتفعيلة المفردة، لابمجموعة التفاعيل التي تشكل البحور..

ط ــ دعني أعود إلى مثالي بشيء من التوضيح، الأنغام الموسيقية السبعة

الأصيلة وما يتفرع عنها هي تفعيلات موزعة على وجه مخصوص، بيْدَ أن ائتلاف بعضها مع بعض هو الذي يشكل الإيقاع المنشود.. سبحان الله.

م ـــ لكن هذا التوزيع المنوّع بين التفعيلات المختلفة، كالذي نراه في الخفيف والطويل والبسيط مثلاً، ليس هو الوحيد في البحور المأثورة فهناك من البحور مايقوم على تكرار التفعيلة المفردة كالمحدث والمتقارب والرمل.. وهذا الشعر الحديث نوع منه، إلا أنه لايتقيد بعدد الوحدات المألوف في أوزان الخليل..

ط ـــ استاذى.. هذه التفعيلة الواحدة مثل أي جزء من الطعام، فالملح يصلح في مكانه ولو مزجته بالشاي أو الشراب لافسدتهما..

م ـــ نحن مختلفون في هذا الموضوع، فأنت ترى كل لون من الصياغة الأدبية لايلتزم طريق القدامى لايمكن قبوله في دائرة الشعر، أما أنا فأرى ذلك حَجْراً على المواهب، ولا أشك في أن القدامى لم يفرضوا على الأجيال التزام طرائقهم المحدودة.. وكل لون يضيفه أصحاب المواهب إلى أدبنا العربي يعتبر ربحاً وإثراءً بشرط أن يلتزموا أساليب البيان الأصيل.. وليست محاولاتهم في هذه المحدثات الجديدة إلا كابتداع الكاتب والشاعر لانواع من الكنايات والمجازات لم يعرفها السابقون.. وكفعل الأندلسيين في اختراع الموشحات وما إليها..

ط ـــ لاحاجة لمزيد من الإطالة في هذا الشأن، فأنا أقسم الكلام إلى شعر ونثر وإلى منظوم ومنثور، ثم نجد تقسيماً آخر فيه النظم المنثور، والنثر المنظوم.. وهذا الذي ننكره ولا نستسيغه.. لأن النثر ولو حاولت نظمه لايخرج عن كونه نثراً، وكذلك الشعر يظل محتفظاً بخصائصه مهما اختلفت ظواهره.. فيقول ابن مالك في القواعد:

ولا يصح الابتدا بالنكره ... مالم تفد (كعند زيد نمِره)

لايخرج عن طبيعة النثر وإن صبّ في بحر الرجز، وفي المقابل نجد ترجمة الأستاذ الزيّات لكتاب رفاييل (آلام فِرتر) محتفظه برونق الشعر وإن فقدت الوزن والقافية..

بين التقليد والاجتهاد :

م ـــ وهذا الذى أريده .. وما دمنا نتكلم في الأدب والفقه فلنلتفت إلى الشطر الثاني من الموضوع .. يلاحظ الذين يستمعون إليك ، سواء عن طريق التلفاز أو الإذاعة ، أنكم إذا وجّه إليكم سؤال ينتظر الفتوى تلتزمون المذهب في جميع الأحوال ، وقلمّا تقيدون الإجابة بالنص من الكتاب والسنة .

ط ـــ نصف هذا أعترف به من حيث اني لاأرجع إلى النصوص ، أما موضوع المذهب فأنا كما سبق القول نشأت حنفياً شديد التعصب للمذهب الحنفي ، ثم تحررت من ذلك التعصب فأنا اليوم لاألتزم المذهبية . لكن ضيق الوقت يضطرني في كثير من الأحيان إلى الإجابة بالقليل الذى أعرفه من المذهب الحنفي ولا أعرف غيره ، فإذا اتيح لي متسع من الوقت راجعت الكتب الأخرى ، وإذا وجدت لابن تيمية بحثا في المسألة أو للشيخ الموفق صاحب المغني أفدت منه ، لأن هذين العالمين يستوفيان الأدلة في كل موضوع طرقاه ويعنيان بالموازنة بينها .

م ـــ فمنهجك اذن ـــ وهو الملاحظ ـــ هو الوقوف بالمسألة في نطاق المذاهب الأربعة ، مع ترجيح المذهب الحنفي غالباً .. ولا غبار على ذلك ، ولكن المهم أن ندعم الإجابة بالدليل من الوحْيَيْن أو أحدهما ، لما في ذلك من ربط للاسماع والقلوب بمصادرهما المُحْيِية .

ط ـــ هذا حق .. ولكن الذى يحول دون ذلك هو ضعف الذاكرة ، حتى أنني لأبدأ أحياناً بالآية فتضطرب عليّ ، ومع ذلك فأنا لاأوافق رأى القائلين بإطلاق الاجتهاد لكل أحد إعتماداً على أدلة الأصلين ، لأن ذلك يفتح باباً خطيراً من العسير سدّه ، وهذا أمر ملموس الآن في أوساط بعض الشباب ، الذين يريدون أن يرفضوا فقه الأئمة بالإعتماد على اجتهادهم الخاص ، وربما عجز أحدهم عن تحرير عبارة في الآية أو الحديث ..

م ـــ نحن على وفاق في هذا ، فلا نرضى أن يتصدر للاجتهاد من ليس له بأهل ، ولكن الحكم يختلف عندما يجلس أحدنا للفتوى ، فلا مندوحة في هذه

الحال عن الاستمداد من الدليل ، لكى يعلم الناس أن الدين « **قال الله قال** رسوله .. » وليس اجتهاد الناس سوى محاولة لإصابة مراد الشارع **فى كل** أمر ..

والله الموفق والمستعان .

* * *

خاتمة :

ذلك هو العرض الذى شَغَلَ الأستاذ الطنطاوى أعمدةً من « الشرق الأوسط » بطلب إلغائه ووأده ، خشية أن يحيف على رواج مذكراته حين يجمعها فىمجلدات كما فعل . وقد أرجأنا نشره إلى هذا الجزء الثالث من التراجم رعاية لهذا الغرض .. وها نحن أولاء نعرض الموضوع اليوم على القراء ليحكموا بنفسهم فى حقيقة الخلاف بيننا وبينه ، وليستيقنوا أننا لم نورد فيه كلمة من شأنها أن تسخطه إن لم تستوجب رضاه وثناءه .

ومع ذلك فللأستاذ نقول أخيراً مع الشاعر المظلوم :

أطلومٌ .. إن مصابَكم رجلاً ألقى السلامَ تحيةً ظلمُ

* * *

الشيخ محمد الحامد

١٣٢٨ ــ ١٣٨٩هـ

لاأدري متى عرفته لأول مرة، ولعل ذلك كان يوم سمعته يخطب الجمعة على منبر مسجد السلطان فى حماة، فيستقطب الأسماع والأعين وأحسب الموضوع الذى تحدث فيه يومئذ هو مضمون بعض الآى من سورة النمل وذلك من قوله تعالى: ﴿**قُلِ الحمدُ للهِ وسلامٌ على عبادِهِ الذين اصطفى..**﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿**بل ادَّارك علمُهم في الآخرة..**﴾.

وتدفقت المعاني على لسانه كالدر انقطع سلكه فهو يتتابع متألقاً أخاذاً يكاد بريقه يخطف الأبصار.. وأعانه على بلورة المعاني الإلّهية ذلك الصوت الذى يحرك القلوب بعباراته البارعه، ونبراته الرائعة: فى نظامٍ من البلاغة ماشكٍّ.. امرؤ أنه نظامُ فريدِ.

وكان يرسل فقراته الأنيقة في انسجام عجيب وتناسق محكم حتى كأنه يقرأ في كتاب..

وكان لنا عقيب ذلك لقاء فى حفل قران حضره الجم من صفوة أهل العلم والأدب، والشيخ فى صدرهم، وجاء آنذاك من يدعونى للكلام فجاولت الاعتذار ولكنه أصرَّ فاضطررت للإجابة، وبدأتُ كلمتي عن أثر خطبته الذي لايزال ماثلا في مشاعري، ومشاعر المئين من المصلين، وقلت: من حق هذا الأثرأن يجمد الكلم على اللسان حتى يستعصي عليه القول، تهيباً لهذا الشيخ الذي استولى على أزمة البيان..

ومنذ ذلك اليوم توثقت عرى الصداقة بينى وبين فضيلته، تغمده الله برحمته، فأشعر أن لى بحماة صلة روحية تشدني إلى زيارته بين الحين والحين، إلى جانب رابطة الصهر الذى جعل فى حماة فريقاً من ذريتى يتألف حتى اليوم

من اثنتي عشرة نفسا، وقد يتكاثر مع الزمن حتى يكون منه المئون والألوف إذا باركه الله ورعاه..

وما أدري كذلك أين قرأ الشيخ قصيدتي (اللهيب المطهر) فى شأن القرآن العظيم وموحياته إلى قلبي وعقلي.. فلما تفضل بزيارتي فى منزل الأستاذ محمد نعسان عروانى — قرين ابنتي — طلب إليّ أن أسمعه إياها، ففعلت امتثالاً لطلبه، وإذا عيناه تغرورقان بالدمع، وإذا هو غارق فى جوها الروحي، الذى أملاها علي يوم كتبتها وعيناى مغرورقتان بمثل هذا الدمع..

وقد عودنى — غفر الله له ولي — أن يكرمنى بزيارته فى اللاذقية مرة فى العام على الأقل، ومعه على عادته المألوفه بعض الفضلاء من كبار تلاميذه.. فتكون فرصاً ماتعة نستمتع فيها بعلمه وظرفه.. وللشعر فى مجالس الشيخ نصيب وافر، لايقل عن نصيب الفقه الذى اشتهر به، وكثيراً ماأسمعني من نظيمه المعجب المطرب، وبخاصة من رفائقة الروحية، ثم من دعاباته اللطيفة، التى راسل بها بعض أحبابه من شيوخه وطلابه.. وهو فى كلا الفنين ذو طبيعةٍ شاعرية، تُحس وأنت تتلمسها من خلال نفحاته أنها كانت جديره بأن تجعل منه واحداً من كبار شعراء الشام، لاينزل عن مرتبة أخيه الأستاذ بدر الدين الحامد، الذي عرف بلقب شاعر العاصي، لو أطلق لها مجال القول، ولولا أنه آثر أن يحبسها وراء دراساته الفقهية، التى غلبت عليه فجعلته واحداً من كبار علماء الحنفية، لافى الشام بل فى العالم العربى والإسلامي بأجمعه..

وشاء الله أن يُسعدنى بالهجرة إلى مدينة حبيبه صلوات الله وسلامه عليه وآله، فلم يقطع البعد صِلاتنا، بل استمر تلاقينا عن طريق المراسلات، وأكثر ماكانت عن طريق الشعر، فأنا أبعث إليه بالمقطوعة فيعقبها بمثلها، وشد ماآسفنى أن يضيع معظم هذه المَصوغات وبخاصة ماقَدُم منها مع شديد حرصي على الاحتفاظ بآثار الأصدقاء، إذ إن الذين احتلوا منزلى — من أهلي — لم يكونوا من العلم والشعر فى قُلٍ ولا جُلٍّ، فتركوا لصغارهم أن يعبثوا بمكتبى ومكتبتى، فلا يحتفظوا من كتبى إلا بما ذُهّبِ جلده فصلح للزينة، أما المغلفات فقد قذفوا بها إلى سطح البناء، يأكلها الحر والمطر، وينتهبها اللصوص، ويقدمها

الصغار إلى البقالين المجاورين يلفون بأوراقها ماشاؤا من الجبن والزيتون وما إليهما !.

وقلما وصلتني رسالة من الشيخ ليس فيها الدعابات الظريفة إلى جانب أبياته اللطيفة، وما أرق قوله لي في إحدى هذه الرسائل: (وإني لاتصورك في خيالي وقد تُوِّج رأسك بمثل عمامة جدك القديم الشيخ مصطفى المجذوب الذى لقيه ابن بطوطة في مصر ووصف عمامته بأنه رآها تسد المحراب..) .

تلك لمحات عجلى عن صلتي بذلك الأخ الحبيب الذى شاء الله أن يسبقنى إلى لقائه.. وأنتقل الآن لاستكمال الصورة التي تساعد القارىء على المزيد من معرفة هذه الشخصية الكريمة.

نشأة قاسية:

ولد مترجمنا الفاضل رحمه الله في العام ١٣٢٨ هـ بمدينة حماة، حماها الله، وسطا بين أخوين شقيقين أكبرهما الشاعر المعروف الأستاذ بدر الدين، وأصغرهما الأستاذ عبد الغني، وكلاهما قضى السنين الطويلة من عمره في تدريس العربية.. وكان والدهم الشيخ محمود الحامد شيخ الطريقة النقشبندية في بلده موضع التقدير والتوقير من أهل حماة، قليل ذات اليد يعيش مع أسرته على مورده الضئيل من الكُتَّاب، الذي كان يعلّم فيه الأطفال، وقد شاء الله أن يدركه الأجل ولما يتجاوز المترجَم السادسة من سنيه، وفي السنة التالية تبعته الوالدة، فكان على هؤلاء الثلاثة أن يذوقوا مرارة اليتم من الأبوين، والحرمان من أهم الضروريات التى يحتاج إليها أمثالهم، وبخاصة في ذلك العهد الذي بلغت فيه الحرب العالمية الأولى ذروتها، ولم يكن بينهم من يصلح للتكسب إذ كان أكبرهم في الخامسة عشرة، وكلهم في نطاق الدراسة، ومن هنا رأى بعض أقربائهم أن يتدبروا أمرهم بما هو خير لهم، فباعوا أثاث المنزل، ثم أجَّروه لمدة طويلة، وأودعوا ذلك أمانة عند بعض الثقاة لينفق عليهم منها، بعد أن سلموا كبيرهم حصته ليستعين بها في دراسته ومعيشته، وضُمَّ اليتيمان الآخران إلى بعض الأسر الفقيرة يعيشان معها في بيوتها الطينيه، ومع أولادها الغارقين في الجهل والإهمال، مقابل أجور محدودة تدفع إليها من مداخراتهم القليلة.

ويصف المترجَم رحمه الله أوضاعهما تلك بقوله: (كنا كثيراً مانبقى فى المدرسة أثناء فرصة الغداء دون طعام، حتى إن أخى كان يبكى أحياناً من شدة الجوع، على حين أشغل نفسي باللعب عن آلام الحرمان)[1].

وبازاء هذا البؤس اضطر أخوهم بدر الدين إلى قطع دراسته ليسعى فى طلب الرزق لمساعدتهما وتعليمهما، ولاسيما بعد أن أوشك مالهما على النفاد فكان لهما بمثابة الأم والأب[2].

على أن هذا المأزق الصعب لم يقطع اليتيمين عن الدراسة، فقد حزم بدر الدين عزمه على تعليمهما مهما لقي فى ذلك من العنت، وقد ركز اهتمامه بوجه خاص على محمد، لما كان يبدو عليه من ملامح الذكاء والاجتهاد، وبخاصة بعد أن رأى تفوقه على سائر رفاقه، وهكذا أتيح له أن ينتقل من صف إلى آخر من المدرسة الإبتدائية، حتى فرَّج الله كربة الحرب، وعُيِّن بدر الدين معلماً فى العام ١٩٢٠، فكان في راتبه متسع لِتوفير حياة أيسر لهم جميعاً.. وكان المأمول أن يتابع محمد دراسته بعد انهائه المرحلة الإبتدائية فى القسم الإعدادي، بيد أنه لم ينسجم مع ذلك الجو الجديد، وظل متطلعاً إلى ايثار التعليم الشرعى فى حلقات الشيوخ، فاستجاب له أخوه، وألحقه بدكان خياطة فكان يعمل فيها نهاره، فإذا جاء المساء قصَد إلى دروس العلماء فى المساجد، واستمر على ذلك حتى افتتحت مدرسة (دار العلوم الشرعية) فمالبث أن هجر الخياطة إليها، مع استمراره على حضور تلك الحلقات..

وكان رحمه الله يعتبر مرحلته فى (دار العلوم الشرعية) أسعد أيام حياته، إذ وجد فيها وفى دروس المساجد ري ظمئه إلى العلم. ويحدث رحمه الله عن شيوخه فى هذه المرحلة فيذكر منهم خاله العلامة السلفي الشيخ سعيد الجابى، الذى بتوجيهه أخذ طريقه إلى العلم الدينى، وإلى حفظ كتاب الله، ثم شيخ الشافعية بحماة محمد توفيق الصباغ، وكان مدير الدار، ويصفه بالحنو على طلابه والاهتمام الكبير فى تعليمهم، ثم العلامة مفتى حماة الشيخ محمد سعيد النعسانى، الذي يقول عنه إنه ذو الباع الطويل فى العلوم والمعارف، والحرص الشديد على السمو بهمة طلابه إلى معالى الأمور، ويخص بالذكر والدزوجه

---

(١) ، (٢) الشيخ محمد الحامد ١٤ — ١٧

العالم الورع الزاهد الشيخ أحمد المراد، الذى أحسن تربيته، وتعليمه وزوَّجه ابنته قبل أن يكون له أي مورد رسمي.

وفى العام ١٣٤٧ هـ أنهى دراسته فى دار العلوم الشرعية بحماة، وكان عليه أن يرحل لاشباع رغبته العلمية، فقصد إلى حلب حيث التحق بمدرسة خسرو الشرعية، وكانت حتى ذلك العهد ــ كما يقول ــ أرقى المدارس الشرعية فى بلاد الشام، إذ كان مدرسوها من قمم العلم فى الشهباء، وكانت مناهجها على غاية من القوة والسعة، وتعتبر هذه المرحلة أهم مامر به من المراحل الدراسية حتى اليوم، وفيها بدأ نبوغه حتى ليصفه أحد شيوخه بأنه (بحر علم لاتنزحه الدلاء)[1].

وعلى دأبه فى الطلب لم يقصر دراسته على الخسروية وحدها، بل أخذ نفسه بملازمة حلقات العلماء وبخاصة عالم الشهباء الشيخ نجيب السراج، وضاعف ذلك إقباله على المطالعة الحرة لإرواء عطشه الدائم إلى مناهل العلم.

ومن هنا جاء قوله رحمه الله: (إن المناهج الرسمية تعنى بتكوين الشخصية العلمية أما التضلع من العلم فطريقه لمطالعة الواسعة)[2].

ويتحدث عن شيوخه فى هذه المرحلة فيذكر منهم الشيخ أحمد الزرقاء الذي ــ يقول ــ إنه لم يجلس إلى أفقه منه حتى فى مصر، وقد بلغ من اجتهاده أنه كان يرجع إلى الكتب التى نقل عنها ابن عابدين حاشيته الشهيرة ــ رد المحتار ــ فيجده واهما فى بعض النقول[3].

ويعدد من هؤلاء الأساتذة: الشيخ أحمد الكردي ــ مفتى الحنفية بحلب ــ والشيخ عيسى البيانوني نزيل البقيع ــ والشيخ إبراهيم السلقينى، والشيخ محمد الناشد، والشيخ راغب الطباخ مؤلف (أعلام النبلاء فى تاريخ حلب الشهباء) وكثيراً غيرهم من فضلاء العلماء، الذين تركوا أثرهم عميقاً فى تكوينه العلمى.

---

(١) الشيخ محمد الحامد ١٤ ــ ١٧.

(٢ و ٣) المرجع السابق ص ٢١ و ٢٢.

بين حماة والقاهرة :

وفى الأثر (منهومان لايشبعان طالب علم وطالب دنيا) ولقد بلغ النهم إلى العلم بفقيدنا العزيز أقصى حدوده، فلا يرويه درس ولا كتاب، وبالأمس أتم دراسته فى حماة، فانطلق يطلبها فى حلب وإذا استكمل اليوم مناهجه فى خسروية الشهباء فهل يقف مكتوف اليدين يقنع نفسه بأن الشوط قد انتهى، فحق له أن يستريح بعده!! كلا.. فليس هذا من طبع مثله، ولابد له من أن يوجه خطاه فى طريق آخر جديد وهو معروف مألوف، إنه طريق الأزهر، الذى استولى بسلطانه الروحى على العالم الإسلامى كله حتى ذلك العهد، فلا توقف لطالب علم دون بلوغه، ولن يستكمل قيمته العالِمية حتى يكون من مجاوريه، ويتخرج على أساطينه.. فإلى الأزهر إذن.

ولكن الأزهر فى قلب القاهرة.. وقد بدأت القاهرة — كغيرها من الحواضر الإسلامية — التى غزتها المدنية الغربية — تتجرد من طابعها الإسلامي في مختلف الجوانب والمظاهر، لابل سبقت القاهرة سائر البلاد العربية فى الأخذ بالألوان الدخيلة المخالفة لكل ماألفه فى حواضر الشام.. وحسبه منفراً من القاهرة ذلك السفور الذى بدأ يقتحم على المسلمة خدرها، والاختلاط الذي تفاقم حتى لايخلو منه طريق، فأنّى لمثل هذا الفتى الذي لايكاد يعرف من الدنيا سوى المسجد والمدرسة والبيت.. أنى له أن يحتمل رؤية تلك المنكرات التى لايملك صبراً على مشاهدتها!.. وما أفصح تعبيره عن ألمه وهو يكتب إلى بعض شيوخه فى الشام قائلاً: (ماذا يأمل طالب العلم الحقيقي فى مصر وهو يرى المحرمات من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله!..) وحتى الأزهر لم يسترح قلبه إليه وهو يرى إلى شيوخ فيه (غير عاملين بالسنة، وليس عندهم شيء من الروحانية، وطلبة يحلقون لحاهم وشواربهم وكثير منهم لايصلون)[1].

وهذا ماأكرهه على العودة إلى حماة، ولكنه ماإن حل بين قومه حتى أحس بتغير الحياة كلها من حوله حتى أقرب الناس إليه قد جعلوا يقرعونه على تفويت تلك الفرصة التى لاتتاح إلا للمحظوظين.. مما اضطره للعودة فى ليلة لم يودع فيها أحدا.. وكانت عودة موفقة لأن الشيخ صمم على قبول الأمر الواقع، فلم

١ — المرجع السابق ص ٢١، ٢٢.

يلبث أن وجد أهلا بأهل وشيوخا بشيوخ، وجد فيهم الأنس الروحي، ووجدوا فيه الأخ الوفي.. وكان بين هؤلاء الإمام الشهيد حسن البنا الذي يقول عنه (إن المسلمين لم يروا مثل حسن البنا منذ مئات السنين.. كان لله بكليته بروحه وجسده، بقلبه وقالبه، بتصرفاته وتقلبه، وكان الله له واجتباه وجعله من سادات الشهداء الأبرار[1].

وفى الأزهر حصل على شهادة (العالمية) وأتبعها بتخصص القضاء، وعلى الرغم من توافر الفرص أمامه للالتحاق بالدراسات العليا مع رفيقه وزميل دراسته الشيخ مصطفى السباعى، أبى إلا اللحاق بمسقط رأسه لقناعته أنْ ليس وراء حاضره سوى الشهادات، وهو مستغن عنها بمالديه من العلم، وبمئات المصنفات التى يتلهف لمطالعتها..

والحق.. لقد أثبت الشيخ تفوقه على الجم الغفير من حملة الشهادات العليا، وبخاصة فى الفقة الحنفي الذى أعطاه كل طاقاته، حتى بات فيه المرجع المجمع عليه بين علماء الشام دون منازع..

جهــاد لا يفتــر

وبعودة الشيخ إلى حماة استأنف نشاطه فى الخطابة المسجدية، وفى الدروس العامة، التي كان قد بدأها من قبل، وأقبل عليه طلبة العلم الشرعي يتلقفون معلوماته، ويقتبسون عنه مبادىء السلوك والأخلاق.. ومالبث إلا قليلا حتى أحرز مودة الجميع وتقدير الكافة سواء فى ذلك علماؤهم وشبابهم ونساؤهم وعامتهم.

وقد ضاعف من أثره ومن تقدير الكافة له ذلك الدأب الذى تميز به فى خدمة العلم، فدروسه لم تنقطع قط سواء فى المدرسة أو المسجد أو البيت، لايكاد يفرغ من جانب حتى ينتقل إلى الآخر ولا يشغله عن ذلك شاغل إلا الأحوال الملزمة كالنوم والطعام والمرض، فإذا ماوجد فسحة بين هذه الأعمال لجأ إلى القلم ينشىء ردًّا، أو يجيب على استفتاء، أو يدبج رسالة، أو يراجع كتابا.. هذا إلى امتيازه على الكثيرين من المشايخ والعاملين فى خدمة الدعوة بأنه لم يقصر عطاءه على الناس ويهمل آله، بل جمع بين الحسنيين فكان له من

---

(١) ٢٩ ــ ٣٤.

تلاميذه الكثر أحسن الغراس التى شرعت تؤتى أكلها تحت عينيه ، وكان له من أبنائه السبعة خير وارث لعلمه واجتهاده وفضائله ، حتى امرأته لم يدخر وسعاً فى تزويدها بكل ما ينفع النسوة المؤمنات من العلم النافع ، فمجلسها حتى اليوم لا يخلو من توجيه إلى خير وإجابة على سؤال ، بارك الله فى حياتها ونفع بها وبهم .

وقد زاد مكانه رسوخاً فى قلوب الحمويين مايعرفونه من زهده، وإخلاصه، وصدق لهجته، وصلابته فى كل مايعتقد أنه الحق.. ثم مشاركته إياهم فى مكافحة الاستعمار، وإلهابه المشاعر بحب الجهاد، لتطهير البلاد من أرجاسه، وإيثار الشهادة مع العزة على الحياة الخانعة الذليلة.. ولما نفذت الصليبية الجديدة مؤامرتها بتقسيم فلسطين.. كان فى مقدمة العلماء والزعماء المثيرين للهمم، الشاحذين للعزائم.. وقد وطن نفسه على مرافقة أخيه الدكتور مصطفى السباعى لخوض غمرات الجهاد، لولا تشدد إخوانه فى منعه من مغادرة حماة ، يقيناً منهم أن بقاءه فى قلب الجمهور أنفع للقضية من مشاركته فى القتال .

ولقد وقف الشيخ نفسه وجهوده على توعيه المسلمين بحقائق دينهم، ليل نهار، خطيباً ومدرساً ومناقشاً ومؤلفاً، لايهادن أحداً في حق الإسلام، ولو كان أقرب الناس إليه واعزهم عليه.. ولهذا كثرت ردوده حتى على أحبابه، وفى كتابه الضخم (ردود على أباطيل) سجل ناطق بهذه الحقيقة التي يستوى فى معرفتها عنه القريب والبعيد. ولقد ظل زمنا — فيما أعلم — على خلاف مع أخيه الأستاذ عبد الغني لرأي شذبه عن المألوف فى فهم العلماء لآية من كتاب الله، فأعرض عنه ولم يشفع به ماعرفه فى هذاالأخ من أدب عال وأخلاق سامية ومن كرائم الحسنات اللاتى يُذهبن السيئات.

وأذكر أننا كنا ذات ليلة فى ضيافة أحد أصدقاء الشيخ. ومعنا الشاعر الحموي الدكتور وجيه البارودي، وعلى دأب الدكتور فى إرسال النكات أطلق بعضها مما لم يرق للشيخ، فظهر الانكار فى وجهه، ثم انسحب من المجلس، مضحياً بكل مايحدق به من روائع الأزاهير، ونفحات العبير.. وهي من أحب الأشياء إليه.. وما أشبه هذا الموقف بآخر قرأت خبره فى ترجمة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، إذ كان منتظراً فى ديوان الخلافة ذات يوم، وتحت ضغط

العمل تنفس رئيس الديوان بكلمة هازلة فإذا هو يسمع احتجاج الإمام دون كلام، إذ اكتفى بسعلةٍ مصطنعةٍ ردته إلى وعيه، فالتفت الرجل إلى من حوله يقول ألا تخبرونني بوجود الشيخ!!

وكذلك كان كل من ابن حنبل وابن الحامد، تغمدهما الله بواسع رحمته، شديد الحرص على كرامة العلم، فلا يتساهل بحقه حتى فى مثل هذه المواقف، وقد سبقت الإشارة إلى ظرف الشيخ وميله إلى الدعابة، ولكن ضمن حدود الأصول التى لاتجرح الوقار.

الشيخ والتصوف:

بقى أن نحدث القارىء عن جانب آخر من حياة الصديق الفقيد، لاسبيل إلى إغفاله لأنه جزء لايتجزأ من كيانه الأصيل. ذلك هو مسلكه الصوفي الذى جَرّ عليه الكثير من العناء، وكلفه فى مطلع شبابه ألوان العداء، من الأقرباء والأصدقاء.

لقد تلقى بوادر الصوفية الأولى منذ نشأته فى ذلك البيت الذى كان الزهد والقناعة وسيلته إلى مجابهة الضنك الذى ينيخ عليه بكلاكله، وطبيعي أن التصوف القائم على الرضى بالمقسوم، ومعالجة الحرمان بالأذكار الواصلة بين الليل والنهار، أنجع الأسباب فى التخفيف من أعباء الواقع، فكيف إذا كان رب هذا البيت من شيوخ الصوفية الذين يتأسى بهم السالكون!..

فالصوفية الذاكرة الزاهدة الصابرة إذن هى أولى المؤثرات التى واجهها أهل ذلك البيت، فلاغرابة أن تطبع نفس هذا الفتى، الملتهب المشاعر والفائض الذكاء، بصبغتها العميقة، فلا تكاد تزايله يوماً كاملاً من حياته.

وهنا نتذكر شيئاً آخر يتصل بهذا الجانب من حياة الناس فى حماة، ولابد أن نتساءل عن أثره فى نفس ذلك الفتى أيضاً.. أعني تلك الدعوة السلفية التى بدأت تتحرك لمواجهة الصوفية، التى كادت تحتوى مجموع العامة لافى ذلك البلد وحده، بل فى البلاد المجاورة أيضاً ولاسيما حمص، التي هي مقر المرشد الأكبر للصوفية النقشبندية أثناءئذ، الشيخ أبي النصر خلف الجندى.

كان الطابع الغالب على مستوى العالم الإسلامى هو التصوف، وقد وجد كل الرعاية فى عاصمة الخلافة التي فتحت لأهله أبواب الحياة ينطلقون بدعوتهم فى كل مكان من بلاد المسلمين، وغمرتهم بكل الأسباب التى تمكنهم من التفرغ لهذه الدعوة.. ولعل تكاثر المحن التى بدأت تنصبّ على أرض الإسلام من كل صوب قد مهد لهذا الاتجاه، بعد أن دبَّ الوهن إلى طاقات المسلمين، وبدأت الجوائح تقتحم أبوابهم بأحدث الأسلحة على أيدي أشرس الأعداء، فلم يبق أمامهم سوى اللجوء إلى حلقات الذكر، التى تُغيبهم عن الواقع وتهوم بهم فى عوالم الأرواح والأحلام.

وفى هذا الجو تفتحت الأبواب على مداها أمام قادة القوم، فإذا هم موزعون إلى فرق وطوائف، ولكل وجهة هو مولّيها، ومخطّطُ مسيرتها على النحو الذى يراه أقرب الطرق للوصول.

وهكذا تباينت مذاهب القوم، فكان منهم المعتصم بخط الشريعة المطهرة، لايقبل عليها مزيدا، ولا انحرافاً، وإنما هي أذكار مأثورة يعالج بها نزواته الترابيةَ حتى يسهل عليها الارتقاء والاستعلاء.

وكان منهم (الملتزم) توجيهات الشيخ بعد أن منحه ثقته الكاملة، وبايعه على الطاعة العمياء دون أن يسأله. لماذا؟.. وإلى أين؟.

ومن هنا كان رد الفعل شديداً بوجه الصوفية كلها دون تمييز بين أصيلها والدخيل.. ولاتزال هذه هى المشكلة الكبرى المؤرثة للصراع بين الطرقية، والسلفية فى كل مكان من وطن الإسلام.

ولحماة ــ بين المدن الشامية ــ مميزاتها الخاصة، ففيها الشهامة التى تبلغ حد الغلّو في المحافظة على التقاليد الموروثة.. وفيها التطور الذى يفرز ألوان المذاهب السياسية، من قومية عربية إلى شيوعية ماركسية، إلى عصبية أنطونية، إلى اشتراكية ثورية، إلى تربية إخوانية، إلى انتفاضة مروانية[1] وإذن فلا مندوحة لحماة من وجود بارز للصوفية والسلفية أيضاً.

---

(١) نسبة إلى المرحوم الشيخ مروان حديد الذي إلى تنظيمه الثوري تعود حركة المقاومة التي انتهت بمأساة حماة وسقوط الألوف من الضحايا والفواجع على امتداد البلاد السورية

وكما تأثرت نشأة الفقيد الأولى بالنزعة الصوفية، حدث أن تأثر بنقيضتها السلفية التى كان داعيتها خاله العلامة الصالح الشيخ سعيد الجابى رحمه الله، ونحن لاندري مدى ذلك التأثر بتوجيهات خاله من حيث العمق والقناعة والالتزام، ولكننا نلمحه من خلال بعض كتاباته التي أشار بها إلى موقفه من كلتا الدعوتين، فنعلم أن تحوله إلى الصوفية كان أثناء دراسته فى حلب، والظاهر أنه كان تحولا عميقاً لم يلبث أن قطعه عن رفاقه السلفيين، الذين آلمتهم عودته إلى الصوفية، فراحوا يشنون عليه مضايقات لم يستطع تحملها، ولم يتسنَّ له التخلص منها إلا بالهجرة إلى مصر. وقد شدد من التزامه طريق الصّوفية اتصاله بشيخ النقشبندية الحمصي الشيخ أبى النصر، الذى استهواه بشخصيته القوية، فقطع العزم على اتخاذه مرشداً يستمد رأيه فى كل مشكلة تواجهه، فلا ينفك عن الكتابة إليه فى كل مناسبة، ولايبخل عليه الشيخ بالرد ينصحه ويوجهه ويرشده إلىماينبغي عمله، وبخاصة بالنسبة إلى معارضيه من السلفيين، الذين ينصحه بمقاطعتهم، فيرد غليه مريده بقوله (كنتم أرسلتم إلى كتابا تأمرونني فيه بالابتعاد عن المنكرين.. وقد وفقنى الله لامتثال أمركم حسب الطاقة غير أنى لابد لي من الخلطة ببعضهم.. ويتعبنى ذلك.. وأحس بظلمة أرواحهم تسري إلى قلبى[1].

ولعله يريد بظلمة الأرواح مايجده فى بعض السلفيين من ولع بالجدل دون اهتمام بالجانب الروحي، وهو أمر ملموس فى هذا البعض وياللأسف، إذ يجدون لذة فى القال والقيل دون أن يبذلوا أي مجهود فى إصلاح قلوبهم، فهم يسمعون القرآن ويقرأون الحديث الشريف، ولكن لايتجاوز ذلك ألسنتهم، على حين تجد بعض أولئك المتصوفة المعالجين لقلوبهم بالأذكار المأثورة، لايتمالكون أنفسهم من الرعشة وأعينهم من الدمع، إذا سمعوا الآية من كتاب الله، أو الفقرة من بيان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

فمتى نعود ــ نحن السلفين ــ إلى نفوسنا فنتذكر أن طريق السلف الذين ننتسب إليهم لم يقم قط على هذا الضرب من الجدل الجاف، بل قام على الأسوة الحسنة وتوثيق الصلة بحبل الله ورسوله، حتى ليكون الواحد منهم قرآنا يمشي،

---

١ ــ ٢٦

ودعوة تهزم الدعوات، لابمحض الكلمات، بل بما تحمله من رقيق النفحات وعميق الدلالات.

صراع ...

على أن الصديق الفقيد مع تغلغله فى صميم الصوفية لم يفارق قط منهج العلم وموحيات الكتاب والسنة عند النظر فى شواذّ القوم.

لقد لمسنا متاعب الفقيد من الصراع الذي واجهه فى حماة بين الصوفية والسلفية، فلما استقر بمصر وجد المعركة متصلة هناك بين الفريقين، ولكل منهما مجاله الكتابي فى الصحف والمؤلفات.. وقرأ فقيدنا بعض حجج السلفيين على خصومهم وتهمهم الموجهة إليهم، فلم يتمالك أن كتب إلى شيخه أبي النصر يقول:

(.. كنت سائراً فى كنف حسن الظن بالقوم.. مبتعداً عما يحدث لى سوء ظن أو يخدش حسنَ اعتقادى بهم، لاسيما وقد ضربتم لى بحالكم مثلاً أعلى وسيرة صالحة لاولئك الذين تتعطر بذكرهم المجالس.. كنت حريصاً على طيب قلبى نحو تلك الشخصيات، منصرفاً عن مطالعة كتبهم لما شاع فى الأوساط العلمية أن فيها مايصطدم والشريعة المطهرة.. قائلاً: إن الخلاف لفظى، وانهم متلاقون فى نقطة واحدة هى البراءة مما توهمه العبارات ولا يفهمه إلا أهل الإشارات.. إلى أن صرت إلى حال لاينفعنى فيه التصامم ولا التغافل، إذ وقفت فى مفترق طريقين.. الحق والباطل..).

ثم مضى الشيخ فى عرض تلك المآخذ الخطيرة فى كلام الجيلى بكتابه (الإنسان الكامل) الذى يقول بنجاة إبليس، وبالمساواة بين العاصي والمطيع أمام الله، وبتلذذ أهل النار كما يتلذذ أهل الجنة بجنتهم..[1]

ومن ذلك قول محيي الدين عربى بنجاة فرعون.. وقوله مع الجيلى بوحدة الوجود.

---

١ ــ ١٥٨ فما بعدها.

أجل.. إن فى هذه المناقشة الصريحة لدليلاً جازماً على تغلقه بالكتاب والسنة ولو اقتضاه ذلك إلى قطع كل صلة له بأي جهة يلمح فيها الشبهة فضلاً عن الضلالة البينة.

إلا أن ثقة الصديق الفقيد المطلقة بشيخه وبالشيوخ الآخرين، الذين يحسن الظن بعقيدتهم الإسلامية السليمة، وقفت به وسط الطريق فى بعض المواقف.. فهو يختم رسالته الآنفة إلى الشيخ أبى النصر بأنه كاد أن يقطع رابطته بالصوفية كلها لولا أمران، أحدهما كلام كبار أئمتهم كالغزالى والقشيرى والكيلانى والرفاعى والشعراني.. فى توكيدهم على نقاء التصوف من كل مأخذ شرعي. والثانى هو ثقته بالشيخ أبي النصر الذي لايفضل عليه أحدا بعد رسول الله وصحابته الميامين[1] ويحضرني هنا موقف للفقيد يتعلق بالشيخ الشعراني..

في إحدى زياراته إياى باللاذقية، وبعد غداء تناولناه مع بعض تلاميذه الحمويين من أساتذة وأطباء فاتحنى الشيخ بما فى نفسه قائلاً: (ماهذا الذي بينك وبين الشيخ عبد الوهاب الشعراني في هذه الأيام؟..).

وأدركت للتوأن ثمة وشاية دسها عليَّ هذا الفتى الذي يرافقه إلى منزلي من أهل اللاذقية.. فأجبت. لابد من عرض أقوال الشعراني أولاً لمواجهتها بحقائق الإسلام، فهل نحضر كتابه الشهير بالطبقات الكبرى، أو أكتفى بعرض الأمثلة المحفوظة منه؟.

قال الشيخ: لاحاجة للكتاب فأنت ثقة.

وهنا أخذت أسرد للحضور تراجم بعض أولياء الشعراني واحدا بعد الآخر.

فهذا ــ الذى قدس الله سره ــ قد خطب فيهم عارياً على منبر أحد المساجد.. وذلك القديس الآخر يطلب من راكب أتانٍ أن يمسك له رأسها ليفعل بها.. وذلك المبارك يطلب من مضيفه أن يأمر جاريته بأن تمكنه من نفسها، وهذا وهذاك وذياك.. حتي أشار بالتوقف عن السرد.

وكنت أسأل الشيخ بنهاية كل قصة عن رأيه فيها وفى بطلها وفى كاتبها.. فلا يحير جوابا..

---

١ ــ ١٦٩ و١٧٠.

وقلت للشيخ : وإن مصيبتنا بهؤلاء المقدسين لمّا تنتهِ بعد ، فورد الرابطة .. وما أدراك ماورد الرابطة ؟!..

قال الشيخ : وماذا فيه ؟..

قلت : أليس فيه أن المريد إذا دخل الصلاة وجب عليه أن يستحضر شخص الشيخ ؟..

وأجاب : بلى .. ولكن ليسلمه إلى الله !..

وما أدري والله كيف أفسر سكوته وجوابه .. إلا بأنه صورة من الصراع الذى لاينفك يعاوده بين عقله المؤمن وصوفيته المسيطرة !

ومفارقـات :

ومن هذه المفارقات التي لاأجد لها تفسيراً مقنعاً ماسمعته منه ذات مساء في درس له بمسجد المسعود في حماة ، وهو يتحدث إلى طلاب حلقته حول نداء الله جل شأنه لرسوله موسى يوم الطور ، فكان مما قاله ساعتئذ : (لقد خلق الله سبحانه الكلام فى الشجرة .. ومنها سَمِعَ موسى ذلك النداء) مع أن الله جل اسمه يقول بمنتهى القطع : ﴿**وكلم الله موسى تكليما**﴾ ..

وعبارة أخرى من هذه المستغربات قوله غفر الله فى رسالته الموجهة إلى شيخه أبي النصر : (فوجهكم الكريم الذى يميتنى ويحيينى ..[1]) وطبيعى أن فقيدنا رحمه الله لايريد ظاهر اللفظ ، بل يشير به إلى غضب شيخه ورضاه ، وأثر كل منهما فى نفسه حزناً وفرحاً .. وهي فلتة سبقه إليها صاحب (دلائل الخيرات) فى سرده أسماء لرسول الله جعل بينها (الكافي الشافي .. المحيي المميت) ولا شك أن من لزم طاعته صلوات الله عليه وسلامه أغنته عن اتباع كل بشر ، وشفته من كل ضلالة ، وأخرجته من ظلمات الضَّياع التي هى بمثابة الموت ، إلى نور الهداية الذي هو الحياة .. ولكن أحدا من سلف هذه الأمة لم يسمح لنفسه مع ذلك بأن يصفه صلوات الله وسلامه عليه بما هو فى حقيقته من حقوق الله ، تبارك اسمه ..

وأنا شخصياً لا أرى لذلك من تعليل سوى أن هؤلاء المستغرقين فى

---

١ ــ ١٦٩ ، ١٧٠

غمرات المناجاة قد يصل بهم الذهول عن معايير الناس من حولهم إلى حد «الشطح» حتى يتكلموا بما يخرج عن مفهومات الآخرين، وبذلك تأتي العبارة فى منطوقهم على خلاف مألوف الناس.. غير أن من مخاطر هذه الأساليب المضطربة أن تشجع بعض المغامرين على التظاهر بما ليس فيهم، فيطلقوا من التعابير مايشوشون به الأذهان الخالية، ويكون محصول ذلك مانراه ونقرؤه لكبار المشبوهين كابن عربي وابن سبعين وابن الفارض، من الطامات الموبقات.

ومن أجل ذلك كان الوقوف عند حدود المصطلحات الشرعية واللغوية أمرا لابد منه لمن أراد السلامة لنفسه وللآخرين..

الشيخ والمذهبية:

والكلام عن صوفية الشيخ غفر الله له يقود إلى الحديث عن مذهبيته الصارمة، فهو ــ كما أسلفنا ــ من المراجع الحية للمذهب الحنفى، ففيه نشأ وعليه تثقف، ومن منهجه الأصولى استمد، وقد كان بين شيوخه وبخاصة فى حلب من يسامت أساطين السابقين من بُحاث الحنفية.. وعندما نتذكر الخاصية التى يمتاز بها فقهاؤها فى نطاق الجدل والتنظير وافتراض الأحداث، والتوسع في إعمال الرأي، ندرك مدى التفاعل الذي يربط طلاب هذا الفقه الغني بطرائقه وأصوله حتى يتعذر انفكاكهم عن مؤثراته ولا حاجة للتوكيد بأن هذا كله منطبق أتم الانطباق على الصديق الفقيد.. وهو الطابع الذي يغلب على كل أعماله وفتاواه وتواليفه دون استثناء.. أضف إلى ذلك أثر تلك الظاهرة التى بدأت تتسرب إلى أوساط الشباب الذين استهوتهم أساليب دعاة السلفية، من حيث الأخذ المباشر عن منابع الأصول من الكتاب والسنة، والتوقف عن الاستمداد من تراث الفقهاء المذهبيين.. فكان لذلك بالنسبة إلى أمثال مترجمنا من شيوخ الجيل ردوَد أفعال شديدة، مردها إلى خشيتهم استخفاف الشباب بذلك التراث العظيم، دون أن يتوافر لهم العوض الذى يغنيهم عنه من أسباب الاجتهاد الحق.

ولقد بلغت ردود الفعل هذه حداً بعيداً فى تشديد النكير على أصحاب

ذلك الاتجاه، حتى كان بين المؤلفات التى تصدت لهم ذلك الكتاب الذى عنوانه (اللامذهبية فتنة العصر) وحتى كان من مؤلفات الشيخ فى هذا المضمار كتابه الآخر (لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسماً للفوضى الدينيه).. وسرعان ماتجاوبت أقلام الفئة المقابلة بكتب السلفية التى لاتقل عنفاً عن الكتب المذهبية.. ويا ليت هذه الكتب قد وقفت عند حدود المناقشات العلمية، التي من شأنها إثراء الفكر الإسلامي الحديث بالنافع المفيد من البحوث، ولكن المؤسف أن بعضها قد تجاوز ذلك إلى حد التجريح الذي لامسوغ له عند أولي الألباب.. والبعض الآخر قد أمعن فى الشطط عن معالم السنة، إلى الحد الذي ينفر ضعفاء الشباب من كل دعوة إلى الدين، ظنا منهم أن هذا الذى يقرؤنه فى تلك الكتب عن الدين والتصوف والأنسياق الضرير وراء مشايخه، هو الدين كله!..

وبعد فإن الحديث عن الصديق الفقيد حبيب إلى النفس، لأنه حديث عن حبيب نعرف ويعرف الناس له من الأعمال الصالحة فى تثقيف الجيل، وفى نصرة الحق، وفى التجرد لخدمة الدعوة الإسلامية مايستحق من أجله كل تكريم وتقدير ودعاء.. فالله نسأل أن يتغمده بفيض من رحماته، وأن يجمعنا به فى جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

نماذج من أدب الفقيد

١ ــ من شعره فى الحنين إلى حماة:

آهاً على وادي حما ... ة إذا نسيم الصبح هبَّا
آهاً على تلك الربو ... ع وأهلها بعداً وقربا
النهر يخترق الريا ... ض وقد جرى حلوا وعذبا
دولا بُه يبكي ويسـ ... ـقي الدمع فاكهةً وأبَّا
أنى أرى ذاك الحمي؟ ... إني رأيت البعد صعبا
مذغبت عنه بكى الفؤا ... د ومات هذا القلب كربا
يامن بقلبي ودهم ... وبحقهم لم أجن ذنبا
لاتقطعوني أنني ... مازلت والله المحبا[1]

(١) ٢٦٩

٢ ــ من خُطْبَةٍ له فى الدعوة إلى الجهاد :

أيها الإخوان .. إن العالم يرقبكم ، وينظر من قرب ومن بعد إلى هذا الصراع بين الحق والباطل بل إن رسول الله وأصحابه ينتظرون ماأنتم فاعلون بما خلفوا لكم من تراث مجيد ، عجنوه بدمائهم الزكية فهل تختلط دماؤكم بدمائهم فى هذه الأرض أو تضنون بها فلا يكون لكم حظ من هذا السخاء الشريف[١] .

٣ ــ من أحاديثه عن الشباب :

لما وجهت إليّ وزارة المعارف تدريس الديانة والعربية فى تجهيز حماة كنت كثير التشاؤم من حال الطلاب ووضعهم .. ولكن بعد قليل تبدل تشاؤمي تفاؤلاً وانقباضي انبساطاً واستبشاراً .. حثثتهم على الصلاة فصاروا يصلون ، ويحضر بعضهم الدرس العام .. وقذف الله تعالى النور فى قلوبهم ، فشعروا بتفريطهم الماضي ، فطفقوا يسألوننى عن أحكام تتعلق بقضاء الفوائت .. ومن قريب سألني أحدهم عن حكم يتعلق بقيام الليل مبدياً رغبته في قيامه .. أولادكم يامسلمون فيهم استعداد طيب ، فهلا تسعون إلى استثمار هذا الاستعداد ؟ أشفقوا أن تُلقوا أفلاذ أكبادكم فى النار بترك الغوائل تغتالهم ..[٢] .

* * *

---

(١) ٣٨ . (٢) ٤٦ و٤٧

الشيخ محمد المختار الشنقيطي

١٣٣٧ ـــ ١٤٠٥هـ

كان من حق هذه الترجمة أن تحتل مكانها في الكتاب الأول من (علماء ومفكرون عرفتهم) وما أذكر لتأخرها من سبب سوى كثافة أعباء الشيخ رحمه الله في الجامعة الإسلامية والمسجد النبوي الشريف.. ولما قضى الله أجله في العام الفائت لم يبق لها من مكان سوى الكتاب الثالث الذي أصبح على مقربة من النهاية ولعل وراء ذلك التأخير حكمة من الله، إذ كان في امتداد حياته المباركة إلى هذا التاريخ مجال واسع لمزيد من الخير، ولاسيما في ناحية المنجزات الكتابية التي وفقه الله إليها خلال تلك السنين..

لقد أكرمني الله بزمالة هذا العلامة الدءوب قرابة الثمانية عشر من الأعوام، إذ بدأ لقاؤنا على التدريس في كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية ـــ وهي أولى كلياتها ـــ منذ العام ١٣٨٣هـ ولما أنشئت كلية الدعوة وأصول الدين، قصر عمله على الأولى، ووزعت حصصي الدراسية على الكليتين، فكان تلاقينا مستمرا حتى جُمعت دروسي كلها في الكلية الأولى، فقل اجتماعنا في الجامعة، ولكنه لم ينقطع خارجها، إذ قضيت عدداً من السنين في جواره من حي الكوما، وعندما تباعدت منازلنا ظل تواصلنا في ظل المسجد النبوي أو في الطريق إليه ..

وطبيعي أن تعارفا هذا زمانه ومكانه من شأنه أن يمنحني حق الكتابة عن الشيخ، الذي يشاركني في تقديره والأسى على فراقه كل من عرفه عن كثب من أهل العلم وطلبته في طيبة الطيبة المباركة ..

بيد أن صلتي الطويلة بفضيلته تظل في حاجة إلى بعض التفصيلات التي لامندوحة عن استيفائها لمن يريد أن يتصدى لتدوين سيرة الشيخ، وهو مايسره الله لي عن طريق ولده الشيخ محمد، الذي كان له الولد البار والتلميذ النجيب، والمساعد الذي يوشك أن يكون بتوفيق الله صورة أبيه الحية في الفضل والاجتهاد والإقبال على العلم والتعليم.. فمن هذه المعلومات التي أمدني بها عن ذلك الوالد الفاضل أنطلق في ما أريده من تعريف به للقراء الذين لم يقدر لهم لقاؤه، ويسرهم أن يعرفوه كواحد من الذين وقفوا حياتهم على خدمة القرآن والسيرة النبوية والعلوم الإسلامية، وأسهموا في حمل أمانة المسجد النبوي للأجيال على مدى عشرات السنين..

إنه الشيخ محمد المختار بن محمد سيد الأمين الجكني، نسبة إلى قبيلة جاكان، المميزة بالعلم والفضل بين قبائل الغرب الأفريقي، والتي ينتهي نسبها إلى حِمير في الجنوب العربي.

ولد عليه رحمات الله عام ١٣٣٧ هـ في مكان يعرف بالشقيق على مقربة من مدينة الرشيد من بلاد شنقيط التي غلب عليها أسم موريتانية.

وكانت نشأته الأولى في أسرته العريقة من آل مَزْيَد، وهي أسرة مشهورة بكثرة الصالحين وأهل العلم، وقد جمع الله لها بين الدين والدنيا، إذ كان جده المختار عالم زمانه في تلك البلاد، ومن آثاره العلمية ألفية مشهورة بمثابة ألفية ابن مالك عند علمائها، إلى تآليف كثيرة وآثار نافعة كان بها مضرب المثل في اقليم شنقيط. وكان والد الشيخ محمد المختار رأس قبيلته، إليه يرجعون في أمورهم العامة والخاصة.

وبديهي أن يكون لهذا الوسط أثره الفعال في اندفاع الفتى في طريق العلم والدأب في طلبه والاستكثار منه مااستطاع إلى ذلك سبيلا. وقد بدأ نشاطه هذا بالاقبال على حفظ كتاب الله على طريقة أهل بيته، وكانت والدته أول الآخذين بيده في هذه السبيل، فعن طريقها حفظ بعض الأجزاء، ولكن الأجل وافاها قبل إتمام مرحلة الحفظ فواصل جهده على يد والده حتى استوفى أجزاءه الثلاثين بفضل الله وتوفيقه.. وكان عليه أن يتابع منهج قومه فيعقب حفظ

القرآن الكريم بدراسة رسمه وضبطه وما يتصل بفنونه على أيدي ثلة من أجلة علماء القوم، يسمى منهم سيد المختار، والشيخ محمد بن محمود، والشيخ السالم بن عبد الجليل.. وقد ساعده ذلك على أن يحقق مستوى حسنا من الإتقان لهذه العلوم وهو في حدود السابعة عشرة..

المرحلة الأولى في طلب العلم

وهنا بدأت رحلاته لاستكمال ماينقصه من العلم، فدرس النحو والعربية وفقه مالك على شيخه محمد بن عبد الله بن أصحب، والعلامة أحمد بن مود، الذي كان الشيخ كثيراً مايشيد بفضله ويثني على علمه وصلاحه..

وفي نهاية هذه المرحلة عاد إلى أهله، ليصبح مقصد طلبة العلم، يرحلون إليه للافادة من علمه في كل مايتعلق بالقرآن الكريم وفنونه.. إلا أنه لم يستمر على ذلك أكثر من العام إذ هاج شوقه للارتحال إلى الحرمين لينهل من معين أساطينهما في البيت الحرام ومسجد إمام الثقلين صلوات الله وسلامه عليه واله.

لقد بدأ رحلته هذه وهو في التاسعة عشرة، وينقل ولده من حديثه عن هذه الرحلة قوله بأنه قطع أكثر خمسة آلاف كم على قدميه، وقد كان بينها مسافات شاسعة خاصها وحيدا لاأنيس له إلا مايحمله من كتبه وبعض الضروريات التي لاغنى له عنها..

ويالها من رحلة!.. وما أبركه من جهاد يذكرنا بمآثر سلف تحملوا مثل هذه المشاق في طلب الحديث وفي نشدان العلم، فحفظ الله بهم لهذه الأمة دينها وثقافتها وصبغتها التي كانت بها خير أمة أخرجت للناس.

بين جدة والحرمين

كان تراب جدة أول مالامسه من أرض هذه المملكة، وذلك في الأول من ربيع الآخر عام ١٣٥٨هـ، وعز عليه أن يريح جسده هناك وقد بات على مقربة من حدود البيت العتيق، فلم يتمالك أن واصل مسيرته في الطريق إلى مكة المكرمة محرما بالعمرة، وبعد خمسة عشر يوما من إقامته في ظلال الكعبة المشرفة استأنف سيره قاصدا طيبة المباركة...

وفي مدينة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ألقى عصاه، وما هو إلا أن استقر به النوى حتى شرع في التماس بغيته من العلم، فلزم حلقة مواطنه الشنقيطي الشيخ عمر السالك، الذي قرأ عليه التفسير والنحو والتصريف، ثم اتصل بمواطنه الشنقيطي الآخر الشيخ محمد الأمين بن عبدالله الحسن، الذي قرأ عليه الفقه والحديث والسيرة. ولما اقترب موعد الحج عاد إلى مكة المكرمة ماشيا كدأبه طوال رحلته، وما أن قضى حجة الفرض حتى أخذ سبيله إلى المدينة، ليستأنف صلته بشيخيه. واستمر على ذلك بقية العام حتى أهلَّ الموسم التالي، فعاد إلى جوار الكعبة ليغنم حجة ثانية. ولكن جسمه الذي نهكه الترحال دونما راحلة سوى قدميه، قد صار إلى مالابد عنه من ردود الفعل، فانتابته بعض الأمراض التي ألزمته الفراش عدة أشهر، وفيما زايله السقام خرج إلى مكة معتمراً ولكنه لم يعد من رحلته هذه إلى المدينة المنورة إلا بعد أربع سنوات قضاها في ملازمة علماء الحرم المكي.. ويخص بالذكر من هؤلاء الشيخ حسن المشاط الذي سمع منه الصحيحين، والسنن وأجازه فيها.. ثم الشيخ أمين الكتبي الذي سمع منه بعض صحيح مسلم، وكان من شيوخه في هذه الفترة الشيخ محمد العربي القباني، الذي سمع منه موطأ مالك وسنن النسائي، ثم العلامة محمد تكرو الأفريقي الذي انتفع به في مختلف العلوم التي كان من المتبحرين فيها ...

وفي نهاية هذه السنوات ذات المحصول المكثف عاد إلى المدينة المنورة فمكث فيها مدة ثم أخذ سبيله إلى الرياض ليتتلمذ على عَلَمها الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وعا ، قرأ بعض صحيح البخاري، ولبث هناك حتى العام ١٣٦٨، ثم لم يمكث في المدينة إلَّاريثما وصلته دعوة القائمين على مدرسة الفلاح بجدة، فشخص إليها مدرسا. واتخذ لنفسه مجلسا علميا في مسجد عكاشه حيث أقبل إليه الراغبون يستمعون منه إلى تفسير القرآن الكريم، ورياض الصالحين، وبعض الكتب الأخرى في الحديث والفقه والنحو. وبعد ثلاث سنوات من إقامته بجدة رجع أدراجه إلى الرياض، بناء على توجيه من سماحة المرحوم الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ليقوم بالتدريس في المعهد العلمي، ومن ثم استطاع أن يجمع بين المعهد والتدريس العام في المسجد النبوي، بحيث يكون عمله في الرياض لمدة سبعة أشهر من العام وبقيته للمدينة.. ولكن هذا

الترتيب قد أرهقه فاضطر إلى الاستقالة من عمل الرياض ثم انقطع للتدريس في المسجد النبوي بعد ست سنوات متتابعات في خدمة المعهد العلمي بالرياض..

دروسه في المسجد النبوي

كانت مواقيت دروسه في المسجد النبوي هذه المرة مابين الصلوات الخمس من كل يوم، لايعتريها أي تغيير إلا في الأحوال الطارئة من مرض أو سفر.

يبدأ الدرس الأول عقيب صلاة الفجر، فإذا كان الظهر وقضيت الصلاة شرع في الحصة الثانية.. وهكذا فعقيب كل من الصلوات الخمس درس.

وقد شملت هذه الدروس أمهات المراجع، في مقدمتها التفسير ثم الصحيحان والموطأ، وكتب السنن فالسيرة النبوية. ولم تقف عند حدودها فتناولت العديد من الفنون والعلوم مثل الأذكار للنووي، ونيل الأوطار، وسُبُل السلام ..

ومن فن المصطلح البيقونية وتدريب الراوي، ومن الفقه مختصر خليل والمجموع، ومن الأصول (نظم الورقات) لإمام الحرمين، وفي النحو ألفية ابن مالك بشروحها وحواشيها..

وقد جمع إلى دروسه هذه دروسا أخرى في دار الحديث بالمدينة، إذ صدر أمر سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بتعيينه بين مدرسيها.. وفي هذه الاثناء افتتحت الجامعة الإسلامية بالمدينة فكان أحد المكلفين للتدريس فيها، وقد استمر في عمله هذا حتى العام ١٤٠١هـ كما أسلفنا ..

ومن خلال هذا العرض للمواد العلمية التي تولى تدريسها، في حواضر المملكة وغيرها، يتبين القارىء مدى ثقافته الموسوعية، حتى ليخيل إليه وهو يحضر تقريراته في أى منها، إنها تخصصه الذي لايكاد يعدوه.. شأنه في ذلك شأن الأسلاف من كبار العلماء، الذين كانوا يرون في العلوم الإسلامية وحدة عضوية لايغني فيها واحد عن غيره، بل لكل منها مهمته في ذلك الكل المتكامل..

على أن المتتبع لأحاديثه عليه رحمة الله يستطيع التحقق من أن أهم محصوله من هذه العلوم هو التفسير والسنة، ثم الانساب والرجال، ثم التاريخ، وبخاصة تاريخ العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ثم اللغة وعلومها وأدابها. وعلى ذكر الأدب لاأرى مناصا من القول بأنه أحد القلائل الذي كنت أعجب بذخيرتهم من محفوظات الشعر العربي، ولاسيما مايتصل منه بأيام العرب وشواهد اللغة.. ومعلوم أن تلك ميزة تكاد تنحصر هذه الأيام بأهل العلم من آل شنقيط..

أنموذج من أيام الشيخ

وطلبنا من ولده الشيخ محمد أن يعطينا صورة متكاملة لعمل المرحوم والده خلال يوم واحد فقال: كان رحمه الله لايفوته قيام السحر، وقل أن تجده فيه نائما فيصلي ماشاء الله، ثم إذا سمع الأذان الأول ابتدأ قراءته في كتب التفاسير، وكان غالباً مايعتمد كتابي القرطبي.. الجامع لأحكام القرآن.. والطبري.. جامع البيان.. فإذا قرب وقت الأذان الثاني نزل إلى المسجد، وفي هذا الوقت خاصة لايرغب في الحديث مع أحد بل تجده مداوما على الاستغفار حتى يدخل المسجد، فإذا صلى الفجر جلس للدرس حتى تطلع الشمس، وبعد ذلك بيسير يرجع إلى البيت فيتناول كأسا من الحليب لايزيد عليها، ثم يذهب إلى الجامعة ليلقي محاضراته ثم يعود ليتناول طعام الإفطار، ومن ثم يتوجه إلى مزرعته فيتابع أعمالها بعض الوقت ومن هناك يرجع إلى المنزل لينام قليلا، حتى إذا قرب وقت صلاة الظهر نزل إلى المسجد النبوي فصلى الظهر ثم جلس يدرِّس قرابة الساعة، ومن ثم يرجع إلى المنزل فيتناول غداءه ثم ينام إلى ماقبل العصر حيث ينزل إلى المسجد النبوي فيصلي العصر ثم يسرع في درس العصر قرابة نصف الساعة، ومن هناك إلى المزرعة ثانية إلى ماقبل الغروب، فإذا صلى المغرب استفتح درسه إلى ماقبل العشاء بنصف ساعة حيث يأتيه بعض الطلاب المتمكنين في الفقه والعربية، فيقرؤون عليه إلى أذان العشاء فإذا صلى العشاء استفتح درسه إلى قرابة الساعة ثم يمضي إلى منزله فيتناول طعام العشاء الذي لايزيد كذلك على كأس الحليب ثم يفتح كتبا أحدها للمطالعة الخاصة، ولربما استمرت مطالعته إلى قرابة نصف الليل يلجأ بعدها إلى النوم.

وبسبب هذا الانشغال المتواصل كان رحمه الله قل أن يحضر الحفلات أو المناسبات إلا القليل منها، ومن هذا القليل زيارته للشيخ عبد الحميد عباس في مقره بالعباسية ..

وفي آخر حياته أصيب رحمه الله بمرض الحساسية فمنعه الطبيب من مغادرة المكيف نهارا، فلم يكن يتمكن من درس الظهر ولا العصر، ولا الذهاب إلى الصلاة في المسجد النبوي، وكان يأسى لذلك كثيرا، ومع ذلك كان إذا سمع النداء يقول (والله إن قلبي ليتفطر ألما من حرمان الجماعة) فكان يصلي جماعة بأهله، فإذا صلى العصر قصده الطلاب إلى المنزل فيقرؤون عليه إلى ماقبل صلاة المغرب بيسير ثم يذهبون معه إلى المسجد النبوي لصلاة المغرب.

وأما في شهر رمضان فكان يدرس بعد صلاة الصبح ويعود إلى المنزل بعد طلوع الشمس، فإذا قرب وقت صلاة الظهر نزل إلى المسجد على الرغم من نصيحة الأطباء له، فيمكث فيه ويدرس بعد العصر ثلاثة دروس متتابعة ثم يمكث في المسجد إلى الإفطار فإذا افطر رجع إلى منزله فتناول عشاءه ثم مضى إلى صلاة العشاء ثم يعود فينام عقب الصلاة مباشرة إلى نصف الليل، فينهض ويتوضأ ولا يزال يصلي حتى قبيل الإمساك، فيتسحر ثم يتجه إلى المسجد.

ذلك هو منهج السلف

ولعمر الله لقد أدركنا من مشايخنا من كان هذا منهجه اليومي أو قريبا منه، وقد سبق أن عرضنا من سيرة المغفور له مفتي المملكة العربية السعودية، الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ أنموذجا من هذا المسلك الذي توارثه الخلف عن السلف، وليس مثل ذلك بغريب على أمة كان أول ماأنزل الله من دستورها الخالد ﴿**إقرأ بأسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم**﴾ (سورة العلق ١ : ٥) فكانت بهذا قائدة الفكر البشري إلى العلم الحق، وكان طلب العلم على كل قادر من أبنائها نصف الدين الذي لاتصح عبادة إلا على نور منه .. وحتى لتجد من علمائها من يتخفف من طعامه ونومه خشية أن يشغلاه عن واجب المذاكرة والتأليف، وقد يستشعر دبيب الموت في جسمه فلا يمنعه ذلك عن

المشاركة في حل مشكلة أو تقرير مسألة تساعد على إعلاء كلمة الله، وتحقق فائدة هداية لعباد الله.

آثاره العلمية

ومثل هذا الفقيد لايُقَدَّر أثره في خدمة العلم من خلال مؤلفاته أو مطبوعاته، وإن كان ذلك من الخير الذي لامندوحة عن توفيره في المكتبة الإسلامية، وإنما يُقَوَّم عمله عن طريق إسهامه في إشاعة العلم والدأب على نشره في أوساط الكافة من عباد الله، وقد ضرب فقيدنا في هذا الميدان بسهم وافر، يتعذر حتى علي الكمبيوتر تحديد مداه، وأنى لك أن تحيط بآثاره التي نقشها على صفحات العقول والقلوب طوال عشرات السنين، فهي تنطق به على ألسنة الجم الغفير من طلبته المنتشرين في مختلف أصقاع العالم الإسلامي.. ولكل منهم عمله ودأبه في خدمة العلوم التي ثقفها على يده.

أضف إلى ذلك أن للفقيد تصورا خاصاً يشاركه فيه الكثير من ذوي التخصص في العلوم الإسلامية منذ نهاية العصر العباسي حتى اليوم، وهو أن المسلمين أحوج مايكونون إلى تثبيت الأصول الإسلامية، التي استنبطها علماء السلف وبذلوا أعمارهم في تصنيفها، وقد تحملها بعدهم رجال وقفوا جهودهم على شرحها وايضاحها وتعميق مقاصدها في فنون وعلوم ملأت العالم هدى ونورا، فمسئولية الخلف بعدهم هي حراسة هذه الكنوز وإمداد الجماهير الإسلامية بروافدها التي تحفظ عليهم صبغتهم الإسلامية وتحصنهم من غوايات الشياطين وبخاصة في العهد الأخير الذي اختلط فيه الحابل بالنابل، واقتحمت قلاع الإسلام أصناف الغزو والغزاة من كل حدب وصوب..

ومن هناكان موقف الشيخ من التأليف فلم يعره كثيرا من الاهتمام، واكتفى منه برسالة تحت عنوان (الجواب الواضح المبين في حكم التضحية عن الغير من الأحياء والميتين) وقد كتبها جوابا عن استفتاءات وردت إليه بشأن الأضحية عن الموتى.. ويلاحظ من الصيغة التي عنونها بها نزعته رحمه الله إلى المحافظة على طرائق المتأخرين في أساليب التعبير، وهي النزعة التي رافقته في كل تصرفاته دون استثناء...

شرحه لسنن النسائي

أما التأليف الهام فهو شرحه لسنن النسائي، وإنما خصها بهذا الجهد لما رأى من بقائها دون شرح بخلاف سائر كتب السنن، التي توارد عليها الشارحون قديما وحديثا.. وقد بعثه على ذلك إلمامه الواسع بأحاديثها، وتوليه تدريسها عدداً من المرات في رحاب المسجد النبوي المبارك.·. وعلى طريقته الآنف ذكرها في اختيار العنوان توج شرحه للسنن بهذه التسمية (شروق أنوار المنن الآلهية بشرح أسرار السنن الصغرى النسائية) ولكن شاء الله أن توافيه المنية قبل استكمال ذلك الشرح القيم بعد أن قدم للنشر منه أربعة مجلدات.

ولقد سلك في شرحه منهجا مميزاً من شأنه أن يستوفى كل مايتعلق بنصوصه الشريفة. فهو يعرض الحديث ثم يعقبه بالكلام عن رواته من رجال السلف فيحدد رتبته حسب مايترجح له من حالهم، ثم يتحدث عن لغته وإعرابه، ويذكر اختلاف العلماء في التوجيه وفق اختلافهم في الاعراب، ويرجح مايراه الأقوى من تلك الوجوه. ويقف أثناء ذلك على ألفاظه الغريبة ومدلولاتها ويوضح مشكلها، ومن ثم يأخذ في بيان الأحكام والفوائد المستنبطة من الحديث، مع سرد أقوال العلماء واختلافاتهم في مسائله وأدلة كل منهم.. ومن عجيب التوفيقات أن يكون آخر ماانتهى إليه من ذلك الكتاب حديث رابع الراشدين (رض) في موضوع استفتاح الصلاة، كما كان آخر كلامه من الدنيا في موضوع التوبة والاستغفار، رحمه الله وغفر له.

موقفه من الشعر

لقد سلفت الإشارة إلى ذخيرة الفقيد من المحفوظات الشعرية، وهي خاصية مشهورة بين طلبة العلم في شنقيط، أورثت الكثيرين منهم موهبة الصياغة الشعرية، حتى ليكثر بينهم المرتجلون للشعر.. ويصف ولده ولع أبيه بالقريض فيقول إنه كان كثير الترنم به في البيت ماشيا أو جالسا، وأنه دون منه مايقارب عشرة الالآف من أبيات الحكم والأمثال وما يصلح للاستشهاد.

وكان المتوقع من مثله أن يترك لنا ديوانا من منظومه، ولكن الواقع بخلاف ذلك، ولعل لنصيحة والده يداً في ذلك الإعراض أو الإقلال، إذ خاف عليه

الانشغال بالأخيلة عن العلوم الشرعية فرغبه في تركه.. فهو يتذوق الشعر الجيد، وبخاصة إذا كان من الضرب المحافظ، ويكثر من الترنم به والاستشهاد عند الحاجة، بيد أنه لايكاد يحسن ضبط الوزن إذا أراد نفسه على إنتاجه..

وكان بودنا أن نعرض لبعض النماذج من منظومه، ولكن المقطوعات التي تفضل بها ولده من شعر المناسبات العابرة لم نجد فيها مايصلح للعرض فاكتفينا بالاشارة إلى خصائصها.. ولعل الشيخ تغمده الله برحمته لو فرغ نفسه لمعالجة الشعر لكان حريا أن يجوده، وأن يحس صياغته، إلا أن ذلك لابد أن يجور على تخصصاته الأخرى فآثر غيره عليه، جريا على طريقة الإمام الشافعي، الذي أوشك أن يتفوق بمنظومه على كبار الشعراء، ولكنه خاف أن يحيف الشعر على فقهه فكبح جماحه وهو يقول:

ولولا الشعر بالعلماء يُزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

.. وبعد فذلك هو أخونا وفقيدنا الأثير الشيخ محمد المختار الشنقيطي، الذي توفاه الله ليلة الأربعاء التاسعة والعشرين من جمادي الأولى من العام الخامس بعد المئة الرابعة والألف، من هجرة سيد البرية صلوات الله وسلامه عليه وآله، وقد أكرمه الله بالصلاة عليه في المسجد الذي طالما أسهم في نشر أنواره، وكان إن شاء الله من صالحي عُمَّاره، وقد سبقني إلى البقيع الذي يتطلع إلى حلوله المؤمنون من مختلف أنحاء المعمورة، والذي صورت شوقي لحلوله أواسط الستينات بقولي الذي أردده في أواخر السبعينات:

لم يبق في النفس إلا طيف أمنية وودت لو تشترى بالنفس والنشب
مثوى يضم رفاتي في البقيع إذا وافانىَ الأجل المقدور يهتف بي

والله نسأل له المغفرة والمثوبة لقاء عمله في خدمة شريعته، وأن يجمعنا به في ظل رحمته، يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

* * *

المفتي الشيخ محمود بن صدّيق

ماأحسب في العالم الإسلامي، بل في عالم المثقفين المعنيين بالتطورات العالمية، من يجهل اسم (المفتي محمود).. فقد أحرز هذا الأسم مثل الشهرة التي يصورها المتنبي بقوله:

وتركُك في الدنيا دوياً كأنما تداولُ سمعَ المرء أنمله العشرُ

وقد بدأ ذكره يعلوهامع تقدمه إخوانه لقيادة المعارضة الجبارة في وجه بوهوتو عقيب تزوير الانتخابات فلم يُضعف من اقدامها العجيب رصاص، ولم يثنها عن الوصول إلى اسقاط المزور تساقط المزيد من الضحايا بين الجماهير ومن حولهم، حتى أنعم الله عليهم بالنصر، ووقع الباغي في قبضة الجيش الذي طالما سلطه من قبل على المظلومين.

كانت صورته المرسومة في ذهني تشبه إلى حد كبير صور بعض الكبار من شيوخ المسلمين، وقد بلغوا نهاية العمر، ولكنهم أبوا إلا المشاركة في جهاد الطواغيت رجاء أن يختم الله لهم بالشهادة.. غير أن الخبر لم يتفق هذه المرة مع الخُبر، فإذا أنا تلقاء رجل لايزال، وهو في أواسط العقد السابع، كتلة من النشاط الفعال الذي تفتقده في الكثير من الفتيان.

إنه ربعة في الهيكل، مفتول العضلات مشدود الأسر، يوحي إليك منظره بشخصية رياضي قد أخذ نفسه بالتدريب اليومي، فهو يعبر عن ذلك بمشيته وجلسته وحديثه جميعا، فتشعر وأنت تصغي إليه يلقي بكلامه المفصَّل أن وراء لسانه الطلق، وعينيه المَهيبتين، عقلا كثير التجارب بعيد الغور عميق الحكمة.

إنه أحد الرجال الذين أثبتوا للعالم أن في الشعوب الإسلامية طاقات لايستطيع تفجيرها إلا هذا الطراز من القادة، الذي جمعوا بين الإسلام

والإخلاص، وقد باعوا أنفسهم لله، فطوع لهم الجماهير ورزقهم النصر من حيث لم يحتسبوا..

قلت لسماحة الشيخ الذي سبق حبي إياه لقاءه «أود لو تهب لي بعض الوقت فلديَّ عدد من الأسئلة ساكون شاكرا إذا سمعت منك جوابها»..

واستقبل رغبتي بالرضى، ولاسيما بعد اطلاعه على مقالي الذي نشرته (الدعوة) بعنوان (دفاعاً عن الحق لا عن ضياء الحق) ولكن وقته كان مشغولا كله بالزيارات والدعوات طوال إقامته القصيرة في المدينة، فلم نكد نجد خلالها متسعا للحوار المنشود. وأخيراً وفق الله فاقتطعنا من وقته ماملأ وجها من شريط التسجيل.

س ـ لو تكرمتم باسمكم كاملاً، وشيء عن دراستكم، وأعمالكم ذات الأثر الاجتماعي..

ج ـ محمود بن صديْق. ولدت في فانيالا من دار إسماعيل خان منطقة الحدود بين الهند وباكستان. وقد باشرت الدراسة على الوالد ثم على المشايخ، ومن ثم التحقت ببعض مدارس الهند، وبخاصة دار العلوم في ديوبند، واستمررت على ذلك إلى العام ١٣٦٠ للهجرة..

س ـ هل ثمة منصب للإفتاء الرسمي تشغلونه؟..

ج ـ في ملتان أُدير مدرسة اسمها قاسم العلوم، أُدرس فيها مادة الحديث الشريف، وفيها إلى جانب الأقسام الدراسية العربية والإسلامية، قسم للإفتاء، وقد أصدرت من الفتاوى مايقارب العشرين ألفا، كلها مسجلة هناك، ولكني لست مفتيا حكومياً. أما من حيث الأعمال الاجتماعيه فقد وليت عام ١٩٧٢ رئاسة الوزراء في إقليم البنجاب، الذي هو أحد الأقسام الادارية الأربعة في باكستان لكل إقليم برلمانه الخاص ومجلسه الوزاري.

س ـ كانت معارضتكم وإخوانكم لحكم بوهوتو متسمة بالتصميم على احتمال كل الأهوال. وهذا لايكون إلا في حالة اليأس من كل صلاحية في

الرجل.

ج ــ كان بوهوتو في الحقيقة رجلا غاشماً وخائناً، ولا يعتقد بالدين ــ حسب تعبير الشيخ ــ فكان أمره عجبا.. إذ ماكاد يصل إلى الحكم ويتسلم رئاسة الوزراء حتى استكبر وتفرعن.. وقد بلغ قتلاه ألفا وخمسمئة من الرجال، وحجز في السجون أزيد من مئة ألف، وأقدم على أفعال شنيعة مع خصومه السياسيين فلم يقف عند حدود التعذيب والقتل بل..

وتردد الشيخ هنا قليلا كأنه لايريد أن يفضي بما انتهى إليه، ثم تابع في استكراه لقد استعمل صنائعه في ارتكاب الفاحشة مع بعض أولئك الخصوم داخل السجن..

وهنا قفزت إلى ذهني صور هذه المنكرات اقترفها بعض رجال الانقلابات في بعض ديار العرب.. وتذكرت ماأفضى به على مسمع من الأساتذة في كلية الدعوة ذات يوم أحد الزائرين من الإخوة المصريين، إذ أعلن أن جلادي السجن الحربي أيام الطاغية الراحل قد اعتدوا على شرف زوجته أمامه ليكرهوه على التصريح بما يريدون!!.. ولا عجب فملة الكفر واحدة..

س ــ كيف تفسرون إجماع الرؤساء على الاستشفاع فى بوهرتو أثناء المحاكمة وبعد صدور الحكم عليه ؟..

ج ــ لاأستطيع تحديد الدوافع وراء هذا الاستشفاع بمثل هذا الفتاك.. والحق لو أنه أعيد للحياة لاستحق أن يقتل مرة ومرة ومرات بعدد الجرائم التي اقترفها، فكل شفاعة فيه إنما هي استهانة بحقوق العدالة.

وهنا تذكرت كلمة الرائد ــ الجريدة الهندية ــ في تعليلها لاهتمام الرؤساء بأمر بوهوتو أنه دليل ارتباطه بعجلة الغرب، ولا يستبعد أن يكون للماسونية يدها الطائلة في ذلك.

ثم استأنف الشيخ يقول «العجب أن هؤلاء المستشفعين لم يرفعوا صوتا بالاحتجاج على تنكيل صاحبهم بالشعب الباكستاني أيام طغيانه، ولم يهتموا بأمر الذين أعدموا معه بالجريمة نفسها.. وها هم أولاء قادة الثورة الإسلامية في

إيران يحاكمون ويعدمون، ومع ذلك لاتسمع لواحد من أولئك المتباكين على بوهوتو كلمة في الاعتراض عليهم ..

س ـــ تزعم بعض الإذاعات المشبوهة أن انسحابكم وإخوانكم من الوزارة إنما كان تهربا من مسئولية إعدامه .. فما جوابكم على ذلك؟..

ج ـــ هذا زعم لامستند له من الواقع. فنحن لاعلاقة لنا بمحاكمته، ولم نحضرها قط. ومعلوم أننا دخلنا الوزارة عن طريق الانتخاب لمقصدين اثنين: أولهما تنفيذ الحدود الشرعية، وهو أمر لايتوقف على وجود البرلمان، لأن الإسلام دين الأمة، ولا مناص من التحاكم إلى شريعته وهي مستعدة لأخذ هذا الحق من أي يد تمتد به. ومعلوم أن باكستان إنما وجدت باسم الإسلام، ولولا الإسلام لم يكن هناك مسوغ لقيامها، أما المقصد الثاني فهو التوصل إلى تعيين موعد للانتخاب يعيد إلى الشعب حقه في اختيار حكامه. وقد تحقق المقصدان فلم يبق لبقائنا في الوزارة من ضرورة، إذ الضرورة تقدر بقدرها..

س ـــ مارأيكم في مجريات المحاكمة .. وكيف تفسرون تغيب القضاة الثلاثة أولا؟..

لابد من استعراض الظروف قبل الجواب. فلقد جرت المحاكمة حسب أرقى الأصول القضائية .. بل أعطيَ المتهم أكبر مايتصور من الفرص للدفاع عن نفسه. فقد استؤنف الحكم الأول إلى القضاء العالي .. والمألوف أن ينحصر نظر القضاء العالي في الجانب الأصولي لوقائع القضية، فلا يستغرق ذلك إلا أياما، ومع هذا فقد أعطى هذه القضية سبعة أشهر، وسمح بحضور المحكوم عليه لعرض أقصى مالديه من الحجج على خلاف المعهود في القضاء العالي، الذي لايسمح عادة بحضور المحكوم شخصيا. وقد ألقى بوهوتو مرافعته التي استغرقت إحدى عشرة ساعة على مدى أربعة أيام .. وفي النهاية صدقت المحكمة العليا الحكم، إذ لم تجد ثقبا ينفذ منه إلى التغيير أو التعديل، أما تغيب الثلاثة فكان بدافع من الأهواء الحزبية .. لأنهم ضالعون مع بوهوتو، ولما لم يجدوا في مجرى المحاكمة مجالا للاعتراض عمدوا إلى هذا التغيب، إذ لم يستطيعوا الارتفاع إلى مستوى العدالة الخالصة من الأهواء.

س ــ لِم لَم تُحَل القضية إلى القضاء الشرعي أساسا ، بدلا من القضاء المدني؟..

ج ــ لأن عرض القضية سبق تنفيذ الشريعة ، فكان لامندوحة من إحالتها إلى المحاكم المدنية وفق الأصول القائمة يومئذ..

س ــ ماحجم القوة الفعلية لانصار بوهوتو؟.. وهل من شأنها أن تشكل عقبة في طريق المسيرة الجديدة؟

ج ــ لا.. لا.. لأن تجمع هؤلاء كان يستمد قوته من إمكانات رئيسه ، وبزواله انتهت هذه الامكانات..

س ــ هل عزمتم على خوض معركة الانتخابات القادمة؟..

ج ــ وفي تصميم جازم أجاب: نعم .

س ــ وهل سيقوم تحالف جديد بين أحزاب المعارضة لخوض الانتخابات ، أو أن كل جماعة ستدخلها منفردة؟.

ج ــ كان تحالفنا أثناء المعارضة يتألف من تجمع جماعات ، وقد فارق التحالف ثلاث جماعات صغيرة لأسباب شخصية ، وسنعود للاتصال بهم من أجل العودة إلى التعاون ، فإن استجابوا فبها ونعمت وإلا أقدمنا على خوضها بالجماعات الست الباقية من الحلف صفا واحدا إن شاء الله.

س ــ في أعقاب الحرب بين باكستان والهند كتبت بعض الصحف تقول : « إن نتائج هذه الحرب فتحت للأعداء باب التشكيك فى صلاحية الحكم الإسلامى .. واليوم نسمع من يتقول بحصول مثل هذه النكسة فى التجربة الباكستانية الجديدة .. فما رأيكم ؟..

ولقد ألقيت سؤالي هذا على الشيخ وأنا واثق من أن ذلك التشاؤم كان في غير محله ، لأن الإسلام لم يباشر المعركة في قضية فلسطين ، بل استبعد عنها فلم يكد يفسح له مجال الوصول إلى جبهات العمل سوى فترات محدودة ، وهي

التي زلزلت الأرض تحت أقدام اليهود وحلفائهم..

وفي ثقة بارزة أجاب سماحته قائلا: «لا مسوغ لهذه الظنون، فنحن في باكستان على أتم الاستعداد لمواجهة أي عدوان على ترابها وشعبنا، وسنكون بعد تطبيق الشريعة السمحة أشد تماسكا، وأجمع للقوة القاهرة بإذن الله.

س ـــ يرى بعض المفكرين الإسلاميين أن نجاح التجربة الإسلامية في باكستان سيشد بعض دول المسلمين المترددة للسير في طريقها.. فما تقديركم.. وما رؤيتكم لهذا الأمر؟..

ج ـــ هذا صحيح.. والأمل كبير في تحققه بقوة الله.

ثم مضى سماحته يتبسط في الحديث عن التوقعات الطيبة التي يرجى حصولها بعد اليوم، من حيث زيادة التضامن الإسلامي وتشابك المصالح العامة بين البلاد الإسلامية، وتبادل المودة الصادقة بين دولها وشعوبها..

س ـــ أشاعت الإذاعات الأجنبية أكثر من مرة أن في باكستان نوعاً من المعارضة الطائفية تتمثل في موقف الشيعة من بعض التشريعات الإسلامية فما حقيقة ذلك؟. وإذا كان هناك من خلاف فقهي بين السنة والشيعة في بعض الجوانب فما الذي يمنع من اعطاء الشيعة فيها حرية التصرف وفق مذهبهم؟..

ج ـــ إن إخواننا الشيعة في باكستان يؤلفون أقلية لها مذهبها الخاص في بعض الأمور الشرعية، ولا اعتراض لنا على ذلك. ولكن القوانين كما هو معلوم قسمان، أحدهما يتعلق بالأحوال الشخصية من نكاح وطلاق وما إلى ذلك، وسيكون لهم في هذا الجانب أحكامهم النافذة، ثم قسم آخر يتجاوز هذا الجانب إلى الإطار العام، وهذا مالا ينبغي تجزئته، بل يجب تعميمه على جميع المسلمين دون تمييز، ومن أمثلة ذلك رأيهم في الزكاة أنها غير واجبة في أوراق النقد، وأن العُشر ليس بواجب كذلك.. ويذهبون في أمر قطع يد السارق الوارد في القرآن إلى أنه لايعدو الأصابع الأربع فقط، ولا يرون على المال المجموع في البنوك زكاة. فلو أعطيناهم الحق في إجراء هذه الأحكام على الوجه

الذي يذهبون إليه لجاز أن يدعي كل سارق، وكل ذي مال أنه شيعي، لمجرد التهرب من القانون العام، وفي هذا مافيه من المحاذير..

س ــ لاشك أنكم على حق في نظركم هذا.. ولكن. أليس بالإمكان إجراء حوار علمي مع ممثلي هؤلاء الاخوة حول هذه النقاط!!

ج ــ لقد فعلنا .. ولكنهم يأبون التخلي عن موقفهم.

س ــ .. وأخيراً .. هل لسماحتكم من نصيحة توجهونها إلى المسلمين في نهاية هذا اللقاء؟..

أوصيهم بالتزام كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ثم توحيد جهود العرب والمسلمين لمواجهة مشكلاتهم يداً واحدة، وبخاصة من أجل قضية فلسطين التي هي قضية كل مسلم بصورة عامة، وقضية كل عربي بوجه أخص، ولا سبيل إلى استنقاذها إلا بتوحيد الهدف والصف، والذئب إنما يأخذ الشاة القاصية، وعليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة، ولن تجتمع أمة محمد ﷺ على ضلالة.

تلك وصية رسول الله «ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما»..

استدراك: سجل هذا الحوار مع المغفور له ــ إن شاء الله ــ عقيب الانتفاضة الباكستانية التي أطاحت بالطاغوت، ثم شاء الله أن يوافي الأجل الشيخ قبل البدء بتأليف (علماء ومفكرون عرفتهم) لهذا رأينا الحاق الحوار بهذا الجزء من الكتاب بمثابة ترجمة له وإن تكن غير وافية. (م).

* * *

الشيخ معوّض عَوض ابراهيم

١ ـــ ٣ هو الشيخ معوض عوض إبراهيم أبو طارق، ولد في (كفر الترعة الجديد) من قرى الغربية عام ١٩١٢م من أسرة متوسطة تتسم بالطابع الديني حتى كان من أخواته من تحفظ كتاب الله عن ظهر قلب، وقد أعانته على حفظه كذلك، ويعين الشيخ أفراد هذه الأسرة بأنهم أبوان وأخوات، ولم يشر إلى اخوة وبذلك يكون الذكر الوحيد بين الأبناء.. بل إن في اسمه مايدل على أنه سمي به تفاؤلاً بأن يكون تعويضاً عن آخرين افضوا إلى ربهم. ولابد أن يكون لهذا أثر في نشأته. أما بيئته إجمالا فتجمع ـــ يقول ـــ بين التجارة والزراعة في وسط ريفي جميل يمتد شمال وادي النيل حيث المناخ السمح، والنشاط الشامل مختلف مجالات العمل.

يقول المترجم: وعلى الرغم من أن نسبة التعليم كانت متواضعة في مصر كلها، فإن قريته كانت ذات اهتمام بالتعليم وبخاصة منه التعليم الديني.

٤ ـــ في مثل هذه البيئة يكون القرآن هو المنطلق الأول لكل تعليم يوجه إليه الطفل، وهكذا بدأ حياته الدراسية بحفظ الكتاب المجيد في كُتّاب القرية، وفي البيت ويقول الشيخ: «إنه درس المبادىء الأولية قبل أن ينتسب إلى معهد دمياط أحد روافد الأزهر، ومن ثم التحق طالباً بهذا المعهد لقربه من قريته عام ١٩٢٦م، واستمر فيه حتى عام ١٩٣٠م حيث أحرز الشهادة الابتدائية، ثم التحق طالباً بمعهد طنطا الثانوي فحصل منه على شهادة الكفاءة المتوسطة عام ١٩٣٣م، ثم واصل دراسته في ذلك القسم حتى نال الشهادة الثانوية عام ١٩٣٥م، ومن ثم انتظم في كلية أصول الدين في الأزهر حتى عام ١٩٣٩م إذ نجح في إمتحان الشهادة العالية، ولم ينفصل عن الكلية حتى أتم دراسته العليا ونال إجازتها عام ١٩٤١م وبذلك استكمل استعداده العلمي للعمل في حقل الدعوة.

٥ ــ ويسمى فضيلته من الرجال الذين أثروا في توجيهه ــ بعد بيته وإخواته طبعا ــ المشايخ الديناري وإمام حسن ومحمد الأودن ومحمد علي أحمدين، ثم يؤكد على أثر الإمام حسن البنا ودعوة (الإخوان المسلمون) في نفسه وتفكيره، ولكن في إيجاز كنا نود لو جاوزه إلى التبسط قليلا في هذا الجانب.. ولكن الذين يعرفون أخبار الشيخين البنا والأودن رحمهما الله، يدركون نوع الأثر الذي يتوقع أن يطبعاه في نفسه، وبخاصة أن كلا الراجلين كانا على أتم مايكون من التعاون في العمل على إعادة النظام الإسلامي إلى التطبيق في مجالات الحياة جميعا، دون التفريق بين السياسة والتعليم والأخلاق والجهاد، ومن أجل ذلك لقيا أمَرَّ البلاء فسقط الأول شهيداً برصاص فاروق وطغمته الغاشمة، ثم تلقى الثاني ضروب المحن على أيدى الانقلابيين، الذين يئسوا من تجنيده لخدمة أهوائهم، وأصر على مطالبتهم بتنفيذ العهد الذي حددوا به أهداف ثورتهم، فألقوا به في ظلمات السجن الحربي مع الكلاب الضارية .. حتى فرج الله كربته فغادر السجن إلى مكة المكرمة ليواصل سبيله في الدعوة إلى الله، إلى أن استوفى أجله قبل شهرين ونقل جثمانه إلى بقيع المدينة المنورة، ليحتل مشواه الكريم بجوار الصفوة من أصحاب رسول الله ﷺ.

٦ ــ وعن أحب العلوم إليه يقول الشيخ «إنه نزع إلى العلوم الأدبية واللغوية منذ دراسته الأولى لعلوم الدين، وأن التفسير وعلومه أحب شيء إليه، ويخص من كتب التفسير بالذكر تفسيرى القرطبي والمنار»، ويعلل إقباله عليهما بما يحملان من استطراد إلى جملة من العلوم الكونية.

وفي إشارة فضيلته إلى هوايته الأدبية واللغوية منذ العهد الأول لدراسته الدينية تعبير دقيق عن شعوره بالارتباط الوثيق بين هذه الفنون. ولا جرم أن كل تذوق لبلاغة الكلمة وجمال الصياغة وسيلة فعالة لتذوق البيان الإلهي، وتفهم اللطائف المضيئة من خلال النظم القرآني والأساليب النبوية، وإنما يكون حظ العقل من معاني الوحي بقدر حظ القلب من ذلك التذوق الأدبي. وإذا كان ذلك من العناصر الأساسية في ثقافة علماء القرآن، فأحقهم به أولئك الذين يعملون في نطاق الدعوة إلى معين الوحي، وإضاءة العقول والقلوب بأنوار الرسالة المحمدية.

٧ـ ويذكر الشيخ من الأحداث المؤثرة في تكوينه الفكري والروحي تلك المعارك الأدبية بين الأساتذة الرافعي والعقاد وطه حسين وزكي مبارك. ومن حقه اعتبارها كذلك لأنها كانت واحدا من أهم الروافد الفكرية في تلك الحقبة بما حركت المواهب، وشدّت الأذهان إلى عالم اللغة والبيان. ويقول فضيلته إن أوفر ماأصابه من آثار تلك المعركة إنما جاء عن طريق الرافعي والعقاد بوجه خاص. وذلك أمر طبيعي أيضا لأن الصراع بين هذين العملاقين إنما كان صراعا بين مدرستين وطريقتين، إحداهما تمثل صفوة ماوصل إليه الفكر العربي من تمثل لمفهوم البلاغة في ضوء التعبير الإسلامي الأعلى، والأخرى تصور أبرز مايحمله الفكر العربي المتفاعل مع التيارات العالمية.. وهو صراع عاد على قرائهما بكثير من الخير، إذ أتاح لهم الانتفاع بكلتا المدرستين جميعا. بل لقد أفاء على العملاقين نفسهما بالكثير من ذلك الخير، إذ قيض لكل منهما توسيع مدى الرؤية في ماعنده وعند الآخر على السواء، ولعل المرحوم العقاد كان أربح القرنين بما أطل عليه من آفاق أمدته بجديد من التصور الذي ظهر جليا في تآليفه الإسلامية إثر ذلك.

ويضيف الشيخ إلى ماتقدم من الأحداث التي عاصرها معارك فلسطين وحركة شمعون عام ١٩٥٧م التي تفجرت براكينها أثناء وجوده في لبنان، مبعوثا للأزهر، فلم يسلم من شرها، إذ اعتقل لمجرد أنه شيخ معمم، ثم أفرج عنه بعد أن أعلنت الصحافة الإسلامية والحزبية تنديدها بذلك الاعتقال.

٨ـ وعن أهم الأحداث التي عرضت له أثناء عمله يقتصر على بعض الحملات التي واجهها من بعض الملاحدة أو المتعصبة في بعض الصحف اللبنانية، ويخص بالذكر منها مجلة الأحد. ويقول إن الله وفقه لافحامهم عن طريق الحجة والاقناع، بما كتبه في الرد عليهم في صحيفتي (صوت العروبة) و(بيروت المساء) وكذلك يشير في هذا الصدد إلى (محاولاته تصحيح بعض الأفكار في المناطق الإسلامية من لبنان حول عاشورا وبعض البدع) وكان بودنا لوضم إلى هذا ماربما قام به من محاولات تصحيح البدع الضاربة أطنا بها في مصر.. ثم لاندري كيف يعتبر مثل هذه المحاولات من قبيل الأحداث التي عرضت له، إلا إذا كان قد لقي من جرائها بعض العنت مما لم يتعرض لذكره.

ثم إن مجرد تأثره ــ الذي سبق ذكره ــ بالمرحوم الشيخ حسن البنا كفيل بأن يعرضه للمشاركة في المحن التي اعترت أنصار دعوته من قريب أو بعيد .. فهل أصابه بعض رذاذ تلك الفترة الرهيبة .. أو أنه نجا منها بسبب ما !

٩ ــ ويحدثنا فضيلته عن نشاطه في خدمة العلم فإذا هو يمارسه منذ عهد الطلب الأول (إذ كان يحاول التحدث إلى الجماهير في المساجد والمناسبات الاجتماعية الجامعة، فلما تخرج في الأزهر تجاوز نشاطه حدود الرسميات، إذ حرص على أن لاتفوته مناسبة صالحة للدعوة سواء بالقول أو الكتابة في الصحف العامة والمجلات المتخصصة .. وكان لذلك أصداؤه في نفوس طلابه ورواد محاضراته وأحاديثه) .

ولم ينحصر نشاطه هذا في نطاق مصر وحدها بل امتد إلى لبنان والأردن والضفة الغربية ــ قبل الاحتلال ــ فقد انتُدِب من قبل الأزهر للعمل في لبنان، فتولى التدريس بكلية بيروت الشرعية لعدة سنوات، مع نهوضه أثناءها بالكثير من النشاط التوجيهي في مختلف المناطق الإسلامية من لبنان، متعاونا مع الجماعات العاملة للدعوة، ثم تحول إلى الأردن بالمهمة نفسها حيث قام بالتجول بين مدن الضفة الغربية من طولكرم إلى الجليل فجانبيهما، حتى ماقبل عام النكبة، وبذل الكثير من هذا النشاط في أوساط الأردن الذي يقول إنه زاره بلدا بلدا .. هذا إلى جانب عمله التدريسي في ثانوية البنات بالعقبة. ثم عاد إلى مصر ليتولى التدريس في قسم الدراسات العليا بكلية أصول الدين بالأزهر خلال العام ١٩٧٣/٧٢م، ومن هناك انتقل إلى الرياض ليعمل في كلية الشريعة استاذا للتفسير وعلوم القرآن طوال عامين، ومن ثم إلى رئاسة البحوث العلمية والافتاء بالرياض باحثاً علميا. وقد تم تحويله أخيراً إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة مدرسا معنا في كلية الدعوة وأصول الدين .

هذا إلى جوانب أخرى من وجوه النشاط العلمي في حقل الاذاعة، إذ بدأ الإسهام في إذاعة جدة منذ عام ١٩٥٣م قبل مغادرته مصر وما انفك يواصلها بأحاديثه بعد ابتعاثه إلى لبنان .. يضاف إلى ذلك إذاعاته المسجلة لمحطتي صنعاء والبحرين.

ولا جرم أنه نشاط مشكور عاد بالخير على الكثير من المتصلين به .. وقد

كان أول معرفتي بالشيخ حفظه الله عن هذا الطريق إذ سمعت من أحاديثه وطالعت من كتاباته ماشدّني إليه برباط الأخوة في الله .

١٠ ـ وعن الكلام عن التأليف يشير فضيلته إلى الكتب التالية .

١ ـ (الإسلام والأسرة) ويعتبره أحب مؤلفاته إليه لموضوعيته ولأوليته إذ أصدره عام ١٩٦٠م في بيروت ، وقدْ أشار إليه المرحوم الدكتور مصطفى السباعي في كتابه المعروف عن (المرأة بين الفقه والقانون) .

٢ ـ (قبس من الإسلام) وقد نشر في بيروت أيضا عام ١٩٦١م .

٣ ـ (إنسانية العبادات الإسلامية) وقد نشر في القاهرة .

٤ ـ (فلسطين وكيف نستردها) .

٥ ـ (ملامح من هذا الدين) نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة عام ١٩٧٢م .

ولعل مشاغله العلمية لاتصرفه عن مواصلة التأليف ولو في نطاق البحوث التي تتصل بعمله .

١١ ـ ويقول : «إنه أحب الشعر مبكرا فقرأه ، وحاول نظمه منذ الحداثة . ولعل من أوليات قصائده التي رضي عنها تلك التي بعث بها إلى الأستاذ العقاد عام ١٩٣٣م ونشرها في جريدة (الجهاد) ذات الشهرة الواسعة في البلاد العربية أيامئذ ، وينقل إلينا منها الأبيات التالية :

ياما خراً في حباب الهموم .. أي عباب
وضارباً في فيا في الآلام والأوصاب
والسحب تجرى بسحّ من دمعك الوهاب
أقصرعناك فمالاً قيت بعض عذابي

ولعل رضاه عن هذه الأبيات عائد إلى ارتباطها ببعض الذكريات ، أو تعبيرها عن أحوال نفسية رافقت صوغها .. وليس ضروريا أن يحس كل قارىء لها مايحسه هو في حروفها وإشاراتها ، وقد أشكلت علينا قافية البيت الثالث فما

ندرى أهي (وهاب) كما أثبتناها، أم هي (وثاب) ثم يبدو أن العجلة قد حذفت من البيت الرابع كلمة تمم وزنه وربما كان أصل البيت .

أقصر عنـــاك فمـــا إن لاقيـــت بعـــض عذابـــي

وينقل إلينا كذلك المقطوعة التالية من أبيات يقول إنه كتبها على مذكرات في الحديث وعلومه، أعدها لنيل الإجازة العالية من كلية أصول الدين:

فإني أحب المصطفى وحديثه شفاني من أدواء عالمنا الرجس
ولو كنت في أيامه لفديته بنفسي كمن فداه في الأمس بالنفس
إليك رسول الله أسمي تحيةٍ ترددها الدنيا لمنزلك القدسي

ومما كتبه إلى ركن (ياأخي المسلم) في إذاعة الرياض.

وتسألني: ما المجد ...

هو المال؟ لا.. فالمال إن يك زينة وحاجة حيّ، فهو للمرء قتال
هو الأهل؟ لا.. فالأهل إلا أقلهم عبيدُ ذوات يعجبون بما نالوا
هو الصيت؟.. كلا ياأخيَّ فكم أرى من الصيت دعوى لايصدقها الحال

ولا الصوت يعلو في الندىّ وربما علت فأساءت للذي قال أقوال
ألا إنما مجد الفتى رهن دينه وإيمانه بالله دون الذي خالـــوا

وطبيعي أن اختيار الصديق الفاضل لهذه النماذج الوعظية من منظومه إنما يؤكد صورته التي تبيناها حتى الآن، وهي أنه موضوعي الفكر والبيان، غلب عليه ذلك الطابع حتى صرفه عن آفاق العاطفة والخيال اللذين هما روح الشعر ولبابه.

أما رأيه في مستقبل الجيل الإسلامي فينضح بالتفاؤل إذ يقول: «في الجيل الجديد أعداد كبيرة تثير الأمل في مستقبل طيب لهم وللإسلام، ففي بلد كمصر، والصراخ يعلو فيها من تفسخ الشباب وتخنفسه وانحلاله، أعرف قطاعات كبيرة في الجامعات والمعاهد العليا، وفي الوظائف على اختلافها يُعنون بالقرآن حفظا وتلاوة، وبالدراسات الإسلامية، والحرص على تسجيل

محاضرات أمثال الدكتور المهدي بن عبود والدكتور محمد المصري، والمرحوم مالك بن نبي.. وكثيرين من الدعاة في مصر، وإذاعة ذلك في أحيائهم وحفلاتهم الخاصة، وتجمعاتهم التي تتاح حينا بعد حين.

هذا في مصر وأحسب ذلك يمكن أن يلحظ في أكثر من بلد عربي وعربي.. وإن كان نزرا يسيراً لكنه يمكن أن يتضاعف ويكثر بقدر مايحرص الدعاة على أداء واجبهم، وتقديم البديل من الكتب الصالحة والدراسات الهادفة مكان هذا الذي يزحم واجهات المكتبات وأفاريز الطرق من مؤلفات ومجلات يمليها الحقد على الإسلام وتلونها سخائم نفوس كثيرين على الدين العاصم.

١٣ـــ وينتهي فضيلته إلى ختام الاستطلاع ليحدثنا بآرائه عن مهمة علماء الإسلام بإزاء هذا الجيل، وفي حماية الدين الحق من هجمات التيارات الغازية، وما عليهم في نطاق العمل لتحقيق المجتمع الإسلامي المرتقب.

يقول الشيخ: «إن الباطل يقظان متحرك بكل وسائله وأساليبه، وقوى الشر الدافقة لاتقف عند حد، على حين نجد من الدعاة من يضيق صدره بالشباب، ويرميهم دون هوادة بالكفر والانحراف، وما بالسباب تتحقق الآمال في الشباب، ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة، وتقديم البديل الصالح مما يقذفه الأعداء على كل نفس من أنفاسهم. وبالمُثُل الصالحة يرونها عملاً وقولا وجهاداً موصولا في شتى ميادين الجهاد، ولقاء الغزو الفكري بكل مايدحضه ويبطله ويقنع بالحق الذي معنا في هدايات هذا الدين، فمن الدعاة من يفرض بكثير من التجهم والانفعال أفكاراً إسلامية هي في ذاتها صحيحة لكنها لم تُعرض بمثل قول الله لمصطفاه **﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى، أو في ضلال مبين﴾** ولو قال الرسول «إنكم لعلى ضلال مبين» لصدق لكن الله أدب رسوله بما ينبغي أن يكون خلقا لنا ورفقا نلقي به أولئك الشباب، ونحن نريد أن ننهض بهم من السراب إلى جادة الهدى والصواب.

إن ضبط مسيرة الشباب لايصنعه شيء إلا أن يروا من الدعاة الصدق في مايقولون، والانضباط في مايفعلون، حتى لايأخذ الشباب من اختلاف القول والعمل في بعض الدعاة الحجة عليهم من أنفسهم، وأن يكون الدعاة على

المستوى الأمثل للدعوة والمعرفة بالمرحلة التي يحيونها، والقدرة على صوغ الأفكار الصحيحة بما يدنيها من عقول الناشئة العزيزة، ليحلها منهم محل القبول والاقناع..

وهذا الشباب قد بلغت منه ـ في غيبة دعاة الحق ـ أفكار ومذاهب ووساوس ودسائس شنها عليهم، ومكنها منهم غير جهاز من أجهزة الشر، ولهذا لابد لمن يخاطبهم من أن يكون واسع الأفق، غزير العلم جم الفهم، قادراً على الحوار الهادف البناء.. وتاريخ أمتنا فى عهد الرسول ﷺ وعهود الخير، من حياة الرعيل الأول والذين اتبعوهم بإحسان، حافل بذلك الذى يمد الدعاة بما هم فى حاجة إليه من أدلة وبراهين وأمثلة ونماذج.

والله المسئول إن يصدق منا النيات، ويشدد العزمات حتى نكون من جند الدعوة، المشمرين لابلاغ المجتمع الإسلامي كماله الممكن..

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

استدراك لابد منه

كان من حق هذه الترجمة أن تأخذ سبيلها إلى الكتاب الأول من (علماء ومفكرون عرفتهم) غير أن طوارىء عرضت فاخرتها حتى كدت أنساها.. إلى أن شاء الله أن أعود إلى جو الأخوة الذي كنا ننعم به مع فضيلة الأخ المترجم في ظل الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وقد حدث ذلك عندما قرأت في العدد.. من مجلة.. مقاله القيم عن الصحابي الجليل عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فإذا أنا أنشط للبحث عن الترجمة المنسية، وسرعان ماوقعت يدي عليها كأنني معها على موعد، ورحت أعيد النظر فيها من جديد فلا أجد حاجة لاجراء أى تعديل، على الرغم من السنوات الطوال التي غبرت على إنشائها حتى اليوم.. اللهم إلا أن أضيف إليها مالا يحسن اغفاله من الاشارة إلى بعض الأنشطة التي حققها فضيلة المترجم خلال هذا الزمن..

فمنذ العامَ ١٩٨٠ دُعي إلى الكويت ليتولى رئاسة قسم الوعظ الذي أنشأته وزارة الأوقاف لأول مرة، ولم يقتصر عمله على خدمة الدعوة في حدود الكويت وحدها، بل تجاوز ذلك إلى أكثرَ من قطر إسلامي مندوبا من قبل الوزارة..

وربما كان لهذا الجوّ الجديد أثره في الاتجاه نحو التأليف فقد أخرج أثناء هذه المرحلة كلا من الكتب الأتية:

١ ــ مع الإمام البخاري في كتاب العلم من صحيحه
٢ ــ نظرة متأنية في شعر أبي طالب الرسول والرسالة
٣ ــ عنصر الهداية في القرآن الكريم
٤ ــ ركائز المجتمع المسلم في سورة الحجرات
٥ ــ ذلك الدين القيم

وقد قدم إلى الطبع الكتابين التاليين:

١ ــ من القلب ــ وهو ديوان شعر إسلامي ــ
٢ ــ الإسلام يشق طريقه

ويقول فضيلته إن ثمة عدداً آخر من المؤلفات ــ لم يوضح إذا كانت مطبوعة أم معدة للطبع ــ وهي تحمل العنوانات التالية:

١ ــ أمة ومنهج
٢ ــ جوانب من دعوات المرسلين
٣ ــ الخلفاء الأربعة ومعاوية
٤ ــ تحديد النسل داء لا دواء
٥ ــ نظرات في سورة الفرقان
٦ ــ القرآن والسنة
٧ ــ عودوا بالمرأة إلى الأسرة

وكم كنا نود لو اتيح لنا الاطلاع على بعض هذه المؤلفات لنتبين مدى علاقتها بمهمته في نطاق الدعوة والموعظة الحسنة.

والله الموفق والمستعان

* * *

الدكتور المهدي بن عبود

م ــ يافضيلة الأخ.. يسرني أن أحظى بلقائكم بمناسبة انعقاد هذا المؤتمر المبارك مؤتمر السيرة النبوية والسنة فى دوحة قطر، وقد أحببت أن أحصل على آرائكم في بعض القضايا الإسلامية المعاصرة، لأضم ذلك إلى كتابي (دعاة وهداة) باعتبارك من أكابر الدعاة المعروفين في العالم الإسلامي بعامة والعالم العربي بخاصة فتفضل علينا أولاً باسمك وبلدك ومولدك.

مه ــ ولدت منذ ستين سنة في مدينة (سَلا) علي الضفة المواجهة للقسم الذي بنيت عليه مدينة الرباط عاصمة المغرب، وترعرعت في أسرة جاءت من مدينة مكناس، لان ابي ازداد ــ وُلِد ــ في هذه المدينة التي تبعد عن مدينة سلا مائتى كم، وجدي أبوه جاء من جبال الشمال ليستوطن في وسط المغرب بقرب مدينة فاس.

إن أبي رحمه الله طالب قرآن فقط، لكن كان قد انقطع لعبادة الله، وكان يروض نفسه على شظف العيش والتقشف في اللباس، ويقوم بنشر معاني القرآن، ومن أجل ذلك توجه إلي مدينة فاس وهناك جعل يلقي دروساً في القرويين، ثم وقعت مضايقة له فانتقل منها ومن مدينة مكناس إلى مدينة سلا، حيث رحب به الناس وبخاصة علماؤهم ووجهاؤهم، وعزموا عليه أن يستوطن في هذه المدينة لنشر الدين وتربية الناس، ولاسيما الذين لايقرؤون ولا يكتبون منهم، فكان يجول في الأسواق ويلتقي العمال ويطلب منهم بعد إنهاء عملهم، الذي كان يعتبره من العبادة، أن يثوّبوا إلى مسجد بناه وجهاء المدينة خصيصا لهذا الغرض..

كان بيتنا معهد تربية لعامة الناس، وملتقى وجهاء الناس، إلى حد أن أحد المناطقة والفلاسفة وكبار الفقهاء، وكان رئيساً لجامعة القرويين، جاء فتتلمذ على أبي رحمه الله تعالى.. كانت الوفود تأتيه كثيراً من مدينة

فاس ومدن أخرى بين الفينة والفينة. في هذا الجو ترعرع الصبي على سماع الذكر وقراءة القرآن وتفسيره، وعلى الاتصال الدائم بعمل أبيه في تربية عامة الناس على التوجه إلى الله تعالى. ومن ثم تحول هذا المسجد إلى مدرسة ليلية لمكافحة الأمية على يد أخيه رحمه الله. ولما بلغ الصبي الثامنة من عمره توفي الوالد المربي، فكان على الصغير أن ينهض بعمل لاعالة الأسرة الفقيرة، ولأداء الأجر عن الغرفة الصغيرة التي يسكنها مع أمه، فعمل في التجارة والخياطة وصناعة المفارش طوال أربع سنوات قطعته عن الدراسة، حتى يسر الله له أن يستأنفها فينال شهادة الدراسة الابتدائية في مدينة سلا، «حيث كنا ندرس القرآن في الصباح، ثم نتلقى العربية ساعة، ونقضي سائر اليوم في سائر الدروس باللسان الفرنسى».

وكانت فترة مابعد الإبتدائية غاية في الشدة، إذ قلما يجتمع لنا الخبز والادام، فمرة خبز دون زيتون، ومرة زيتون دون خبز.. ولكن من لطف الله بنا أن أختنا الكبيرة وهي ذات زوج بستاني، كانت تتفقدنا من حين لآخر بما يسد رمقنا من الضروريات. ثم حدث أن صديقاً لنا هو أبو بكر القادرى جاء لزيارتنا وقال لي أثناء ذلك إن إقبالك على الدرس يقتضينا أن نبحث لك عن عمل يمكنك من مواصلته، وفي نفس الوقت يؤمن لك دخلا يساعدك على رعاية والدتك. فكان أن عملت مراقبا ليليا في مدرسة إبتدائية بمدينة الرباط، حيث أعطوني غرفة لسكني، وجعلت أتابع دروسي الثانوية نهاراً في مدرسة مزدوجة المناهج، تجمع بين الفرنسية والعربية، وليلاً أراقب الصبيان ليكتبوا دروسهم ويحفظوها، ثم أرعاهم أثناء الليل وأقوم بتأمين مايحتاجونه، وبعد الثانوية ذهب الولد إلى حكام الحماية الفرنسية ليطلب منهم منحة لدراسة الفلسفة، وقد اختار هذا التخصص بتأثير التربية المنزلية، إذ أصبح مقتنعاً بأن الدراسة الدينية لابد لها من دعم بالضروريات الثقافية كي لايكون العلم جامداً. وقد تعلم أثناء دراسته البكالورية الثانية أن الفلسفة تدرب على التفكير دون أن يثق الإنسان بكل ماتقرره. وإلى اليوم أقول لطلابي في الجامعة إننى أحب الفلسفة حباً جما ولا أثق بها.. إنها انحرفت عن معناها الأول إذ كان الفيلسوف يتواضع فيسمي نفسه محبا للحكمة، ولا

يسمي نفسه حكيما.. لكن الفرنسيين رفضوا اعطائي هذه المنحة متذرعين بأن المغربي إذا صار أستاذ فلسفة فسيعلم الناس معنى الحرية ويحرضهم على طلبها، ولذلك قالوا: اطلب أى تخصص غير الفلسفة، فقلت في نفسي بعد التشاور مع أحد الإخوان: إن أقرب شيء إلى الفلسفة هو الطب لأنه ذو علاقة وثيقة بطبائع النفس البشرية، ومن هنا كان اتجاهي إلى هذه المهنة، وذهبت إلى فرنسا بمنحة لم تصلني قط لانها تقررت أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد انقطعت المواصلات نهائياً بعد نزول الأمريكيين أرض المغرب واحتل الألمان فرنسا بأسرها فلم يبق لنا معين سوى الجامعة تحيطنا بالرعاية فتمنحنا بعض القروض على أن تطالب الحكومة الفرنسية بتسديدها عقب انتهاء الحرب..

فى هذا الجو المكهرب عاش ذلك الفتى معرضاً لمخاطر لا نهاية لها، فلا يعلم يومه من غده، لكن إيمانه بالله كان دائماً يذكره بأنه ما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها.

في سنة ١٩٥٠ تخرجت في الطب العام ورجعت إلى مدينة الدار البيضاء، واستقبلتني الوالدة بفرح لايوصف، وقالت لي: هذه المرة سيدخل علي ولد بعد أن رمي الولد الأصغر بالرصاص، وقد صرعه الفرنسيون بسبب ميوله الوطنية وهو في التاسعة عشرة وافتتحت مكتبا للطب ثم انخرطت في مستشفيات الدولة، وبعد أشهر قليلة طلبت منى الحركة الوطنية أن أذهب إلى الولايات المتحدة لافتتاح مكتب للدعاية والإعلام لحركة الإستقلال المغربية. وكان ذلك في أواسط سنة ١٩٥١ فاضطررت لمفارقه الوالدة من جديد، وأوصيتها بالصبر على بعد الولد الذي لم يبق لها سواه، كصبرها على مصرع ولدها الآخر، وبعد انتظار أربعة أشهر حصلت على سمة الدخول إلى الولايات المتحدة من مدينة طنجة، التي كانت منطقة دولية وفي الولايات المتحدة انتهزت الفرصة للتخصص في أمراض الجلد وذلك باللغة الإنجليزية وفي أكبر مستشفى بمدينة نيويورك يسمى (بل فيو) وقد سبق أن سجلت نفسي بقسم الفلسفة في كلية الآداب أثناء دراستي الطبية في فرنسا، ولم يكن دافعي

إلى ذلك طلب الشهادة بل لمتابعة الدروس ولتلقيها من أفواه الأساتذة.

وكنت أشترى الكتب بكل مايتيحه جيب الطالب الفارغ، في شتى المجالات سواء كانت منا صرة أو معادية، وكانت مطالعاتي في علم الطب وعلم الفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة وفي قضايا الأحزاب، وما إلى ذلك وبعد خمس سنوات في الولايات المتحدة رجعت إلى المغرب، واستأنفت العمل في مهنة الطب ابتداء من سنة ١٩٦٢ وقد طلب مني أن انخرط في كلية الآداب بقسم الفلسفة خوفاً من أن يكتسحها مع الحقوق أولئك الذين غرتهم الأيديولوجيات المعاصرة وخصوصاً المتطرفين منهم، فقبلت وعملت لمدة أربع سنوات، وبعد ذلك جاءت المضايقات من أولئك الذين أرادوا السيطرة المطلقة على منافذ التعليم الأدبي والتشريحي، فغادرت التدريس لمدة قصيرة، ثم كلفتني الحكومة من جديد أن أعود إلى الكلية، ولا أزال حتى اليوم في قسم الفلسفة وعلم النفس الملحق بقسم الليسانس

ومن حسن الحظ أن كل علم من العلوم بدون أدني استثناء هو باب ونافذة للدعوة إلى الله وهكذا وجدتني مرة أخرى في مكاني المناسب.

م ــ ذكرت أنك شخصت إلى الولايات المتحدة للدعوة إلى قضية المغرب، ولكنك لم تتحدث بشيء عن هذا الجانب..

مه ــ العمل للقضية بدأ ونحن في المرحلتين الإبتدائية والثانوية، كانت الحركة الوطنية هناك قائمة على الفكر السلفي، وكان الإنسان في المغرب ممتليء الشعور بأنه مسلم وأن المجتمع المغربي كله مسلم، إلا الأقلية اليهودية الضئيلة التي لم نكن نوليها اعتبارا، اللهم إلا إذا شاءوا الاسهام في العمل الوطني فالباب مفتوح للجميع.

م ــ وهل كان لهم إسهام في ذلك؟

مه ــ بعضهم كان يسهم والله أعلم بنواياهم.

م ــ عندما عدتم من الولايات المتحدة ذكرتم أن الحكومة هي التي أشارت عليكم أن تلتحقوا بالكلية، فأي حكومة هذه؟..

مه ــ حكومة الاستقلال..

م ـ معنى ذلك أنكم عدتم إلى الوطن بعد الاستقلال.

مه ـ نعم. وقد كان العمل الوطني ضمن الحركة المطالبة بالحرية، وهي التي كلفتني العمل مع المغاربة المقيمين في فرنسا، لقضية الاستقلال، وبالفعل كانت الحركة نشيطة هناك وكنا نتعاون مع الفرنسيين المنصفين الذين يتعاطفون معنا، ومن ثم شخصت إلى الولايات المتحدة لمتابعة العمل للقضية كما أسلفت وبقيت هناك خمس سنوات، وقد انضم إلى المكتب عدد لابأس به من المغاربة باسم الحركة الاستقلالية المغربية وتحت رعايتها وفي سنة ١٩٥٥ قبل الاستقلال جاءتني رسالة من المغاربة وجيش التحرير المسلح تندبني للالتحاق بجيش التحرير، لأن هذا كان ملحقا بالحركة غير المسلحة، التي هي حركة الأحزاب السياسية.

م ـ كان هناك إذن جناحان سياسي وعسكري!..

مه ـ نعم.. وكان الجناح العسكرى مستقلاً استقلالاً شبه تام، وكلاهما يعمل لمصلحة البلاد.. في حين كان المغرب ولا يزال مجزأ بمثابة بولونية في أفريقية الشمالية.. فهناك المنطقة الدولية وهي طنجة، ثم الشمالية وهي تحت الحماية الإسبانية، ومدينة آفني تابعة للاستعمار الأسباني المطلق.. ثم مايسمى اليوم بالصحراء الغربية التي استرجعت من قريب كانت أيضاً تحت السيطرة الأسبانية، والصحراء الأخرى التي تسمى اليوم موريتانية، وهي جزء من المغرب، قطعت أيضا واستقلت بها فرنسا على حين أن وسط المغرب كان كله تحت السيطرة الفرنسية.

هذا فضلاً عن مدينتي سبته ومليلة. وسبتة هي مدينة القاضي عياض.. وكلتا المدينتين لاتزالان حتى اليوم ترزحان تحت الحكم الأسباني كأنهما جزء من أسبانية.

ودخلت مدينة تطوان أثناء الخصام بين فرنسا وأسبانية، وقد اغتنمت حركة الاستقلال المسلحة هذا الخصام بين الدولتين الاستعماريتين، ولجأ بعضها إلى تطوان وهي تحت السيطرة الأسبانية، ولم ألبث أن التحقت بها عام ١٩٥٥ وانضممت إلى اللجنة التي تدير المقاومة وجيش التحرير هناك، وبقيت معهم حتى تم الاستقلال، وهناك قد رأى محمد الخامس رحمه الله

أن أكون أول سفير للمغرب في الولايات المتحدة، وذلك نظراً للخمس سنوات التي جعلتني على علم ببعض أحوالها ودوائرها الحكومية والبرلمانية.

ثم في سنة ١٩٥٢ وصلتني برقية من العمال المستضعفين في وزارة الخارجية، وقد طالبوا برفع أجورهم بسبب إرتفاع الأسعار، وتقول هذه البرقية: لقد طالبنا حكومتنا برفع أجورنا وقمنا بإضراب فطُردنا عن آخرنا، ونحن الآن مع أسرنا معرضون للفاقة، والمرجو منكم أنتم الموظفين الكبار أن تساعدونا للعودة إلى أعمالنا ولو ببرقية احتجاج .. ولما تسلمت هذه البرقية ذهبت إلى زوجي وقلت إن من العار أن أتجول في شوارع المغرب برتبة سفير ومنصب سفير، أمام هؤلاء المستضعفين الذين يستنجدون بنا ويمنعنا الجبن أن نقدم لهم أي عون.. فسألت: ماذا فعلت؟.. فقلت: لم أفعل شيئاً وغداً سأفعل.. ولا ينبغي أن نتخلى عن هؤلاء المستضعفين الذين ذكر الله أمثالهم في كتابه الحكيم.. فبعثت ببرقية احتجاج دون أن أحرج بقية أعضاء السفارة. وإذا بالتلكس يصل وفحواه كما يلي: (المرجو منكم الالتحاق بالمغرب في أسرع وقت ممكن) وكانت الحقائب مهيأة فعلمت أن معنى ذلك الطرد المطلق، ورجعت إلى مهنة الطب، ولكن الحكومة اقتنعت بعد ذلك ألا طمع لي مطلقا لافي الحكومة ولا في المناصب ولا رغبة لي في زعامة ولا شهرة، وأن كل ماأرجوه هو أن أتوجه إلى المهنة الطبية الحرة، ثم أعمل خارج هذه المهنة لوجه الله، في المحاضرات وفي محاورة الجيل الصاعد الذي كان ينزلق في أحضان الأيديوليجيات المعاصرة.. وها أنا ذا اليوم مقصور النشاط على ميدان التعليم وميدان الطب فقط.

م ــ التعليم في الكليات طبعا..

مه ــ نعم فلي ست محاضرات في الأسبوع.

م ــ عرفنا أثر البيت في نشأتك وأثر الوالدة، وأرجو أن تحدثنا عن الرجال الذين أثروا في توجيهك من خارج الأسرة.. أليس هناك أناس تركوا طابعهم في نفسك؟

مه ــ أظن شخصية الوالد كانت من القوة بحيث أثرت في أكثر من أي شخصية أخرى. أولاً كان رجلاً مسنا لم أعرفه إلا أبيض شعر اللحية والرأس، وكنت ألحظ منه في صغري أمورا لاأحسن لها تفسيراً ولكنها تباغتني فتبعثني على التأمل. من ذلك أن كل من يتصدى لدراسة الفرنسية كان بعرف ذلك الوقت إنما يتعلم لغة الكفر، ومع ذلك يقول لي: لو كنت في مثل سنك لتعلمت اللسان، أى الفرنسية، فليكن من أهدافك المدرسية أن تتعلمه، فكان وهو الشيخ المتقدم في السن، أبعد نظراً من الشيوخ الآخرين الذين يتحرجون من كل جديد يتصل بالكافرين.

م ــ لابد أن يكون لهؤلاء الشيوخ صلة بحركة التصوف التي تكاد تعم شمال أفريقية بل أفريقية بأسرها.. فلو تفضلت بكلمة في هذا الموضوع.

مه ــ نعم.. ذلك هو الواقع، فالطرق الصوفية كثيرة الفروع والعناويين، فمنها التجانيه والكتانية والتقاوية.. وكانت جهود والدي مقصورة على توجيه تلاميذه إلى أخلاق القرآن وآداب السنة، ولا علاقة له بالعلوم العصرية، إذ لم يكن عنده من العلم غير مايتعلق بالقرآن، والقرآن لايتطلب من مثله أكثر من العلم بالعربية، لأنه مفتوح المعاني لقلوب المؤمنين. وقد سألته ذات يوم في حداثتي: ياأبي.. هل أنت تقاوي فأجاب على الفور: أنا مسلم. فهذه الكلمة الثانية التي رسخت في أعماقي إذ أرتني سعة أفق الإسلام دون تقوقع في الطرقيات. الشيء الثالث هو عمق التباحث بينه وبين تلامذته لاستخلاص الجوهر من أعماق القرآن، الرابع هو منظر العبادة بعد صلاة المغرب وتلاوة القرآن الكريم والأذكار، والخشوع أمام الله. الخامس هو أنه كان يرى، وكنت أستخلص رؤيته من سلوكه دون أن أسأله، أن رفع الحجب لايكون إلا بالتواضع بين يدي الله.

وكان من جملة الناس المترددين على مسجده الذي انقطع إليه وزراء وأثرياء من أصحاب الملايين. يأتي الوزير على بغلته ومعه عبده أو مساعده يشد ركابه، فإذا مادخل الوزير يسأله الوالد عن عبده: أين هو السيد؟.. فإذا لمحه والدي ناداه: ياسيدي فَرَجي.. اطلع إلى المنصة

الفوقية. ويسأل الوزير: لماذا لايقعد فرجي معنا على هذه المرتبة؟.. وإنما يريد بذلك أن يعلمهم قهر النفس ومحاربة طغيان الشهوات والمال وكان وكان طبيعياً أن يؤثر هذا فى الولد، فلما توفى الوالد، وجد نفسه مسئولاً عن توفير القوت، فأقدم على العمل دون أسى لأنه تعود ذلك من ملازمته لأبيه، الذى عودهم حياة التقشف، إذ كان رحمه الله يحاول ألا يبقى في يده نقير ولا قطمير، بل يوزع كل مازاد عن قوته على ذوى الحاجة.. وفي هذا الصدد سمعت منه كلمات ذهبية أخرى لاأنساها، فقد سألته ذات يوم: ياأبي.. لقد دفعت كل مافي يدك.. فماذا أبقيت للغد؟.. فأجاب إن للغد ربا يتولاه.. وما أسرع ماتحقق المرجو فجاءه في الصباح من الأموال أضعاف ماكان دفعه من قبل.

هذا كان من أكبر المؤثرات في نفسي، وقد جاءني كله عن طريق والدي ولا أعرف لغيره أثرا يوازيه، لأني لم أسمع ذلك منه كلاما فقط بل شاهدته حقيقة ماثلة في وجوده كله.. وهو لم يكن يسمعنا من الكلام أكثر مما يسمع رواد مسجده لأن الجميع كانوا بمثابة أولاده.

الرجل الثاني الذي أحس أثره في نفسي بعد والدي هو أستاذ العربية. كان من أسرة كريمة واسمه عبد الرحمن الحجي رحمه الله، هو أخو سعيد الحجي الذي أخذ بيدي لأكون مراقباً ليليا في المدرسة، وكان يقول لي: نرى أنك ترغب في طلب العلم وفي متابعة دروسك في المدرسة، فتردد على منزلنا من حين لآخر لنقرأ البخاري، ويريد به كتاب الأغاني لما يمتاز به من أسلوب المحدثين في إيراد الخبر مسنداً. وكان معه أحد كبار العلماء واسمه المختار السوسي، وقد توفي كلاهما.. فكنت أجلس معهما ليلاً وهما يتدارسان الأغاني، وقد كان لهذا أثره علي من حيث التعلق بجمال العربية.

أمّا الرجل الآخر الذي تأثرت به كذلك فهو محمد الغازي الذي كان أول سفير للمغرب في مدينة جدة بعد الاستقلال. وكان بعيد النظر عميق الفكر ومن كبار الزهاد والعباد، وعلى يده تربى حتى علال الفاسي..

م ــ آثارك العلمية.. هل هناك من مؤلفات؟..

مه ــ بل محاضرات، قام بطبع قسم منها بعض شباب المغرب، وهو قليل،

ولكن غير المطبوع كثير.

م ـ ماالذى حال بينك و بين التأليف ! ألا تشعر بالحاجة إليه لصيانة أفكارك من أن تضيع أو يضيع بعضها ؟..

مه ـ أشعر بالحاجة إلى التأليف، وأرجو أن يوفقني الله لتحقيق ماأرجوه بدءاً من هذه السنة.

م ـ ما الإتجاهات التي ستنال خطها من تأليفك.. وفي أي موضوع ؟!.

مه ـ الراجح عندي أن أهم مايعوزنا في هذه الأيام هو العمل على إيقاظ المسلمين من غفوتهم، ذلك هو الموضوع العام الداخل في قوله تعالى: **﴿ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم﴾** (سورة الأنفال ٢٤) ولم يقل (يعيشكم) كما هو تفكير القرن العشرين اليهودي الذي بُنِيَ على السوق فقط، ومن هذا المنطلق سيكون عملي في التأليف إن شاء الله.

م ـ لقد حدثتنا عن بعض الأعمال التي توليتها من المراقبة المدرسية إلى التعليم إلى السفارة إلى الطب.. فهل هناك أعمال أخرى تضيف ذكرها إلى ماتقدم ؟

مه ـ هناك محاضراتي في مختلف الأغراض والأقطار والأمصار، سواء في الشرق الأقصى أو الشرق الإسلامي، أو المغرب وفي أفريقية، وإذ كنت سفيراً كان لي مالايقل عن عشر محاضرات سنوياً في مختلف الأرجاء على طول الولايات المتحدة وعرضها.

م ـ أكل ذلك في الموضوعات الإسلامية ؟

مه ـ في الولايات المتحدة كانت الموضوعات سياسية وإسلامية وباللغة الإنجليزية.

م ـ طبعاً أنت لاتفصل بين السياسة والإسلام، فالمتوقع أن يكون نظرك إلى السياسة من زاوية إسلامية ...

مه ـ قلت إني تركت الأحزاب إطلاقاً والذى أراه أن العمل لوجه الله هو الذي يدفعنا للدخول في السياسة، وليست السياسة هي التي تدفعنا

للدخول في العمل الإسلامي. إن سياسة اليوم شيء فاسد بخلاف ماكانت عليه من قبل، فهي تبعث الفتنة والفساد بين الساسة، ولذلك اسمي هذه السياسة بهوليود، لأنهما سواء في اللعب والتمثيل.. وكل واحد يريد أن يتباهى ويظهر أن وجهه خير من الآخر إلى غير ذلك..

م ـ فأنت إذن لاتعني أنك اعتزلت السياسة بل تعمل لاصلاحها..

مه ـ إن العمل الإسلامي يجمع بين ماتسميه محبة الوطن ومحبة الأمة الإسلامية والخير لوجه الله، فإذا حسنت النوايا مع عامة البشر في مختلف الأصقاع يكون مردودها كمردود الكلمة الطيبة التي تصعد في السماء.

م ـ وحسبها أن يكون مردودها الأمان الذي يفتقده البشر هذه الأيام.

مه ـ حقاً.. حقاً..

م ـ إنك تشهد المعركة قد بلغت أشدها بين الإسلام والجاهلية الحديثة. فكيف تتوقع أن تكون نهاية هذه المعركة؟..

مه ـ معلوم أن سائر الحضارات كانت تؤمن بالمادة وبالروح في آن واحد، إلا هذه الحضارة فإنها مبنية على المادة وحدها، نظراً لطغيان العقلية الصهيونية عليها، وهي عقلية السوق والربح مع مايجر وراءه من حيل وحبال ومصايد ، ومن ذلك مايسمى اليوم بالايحاء في التلفاز ونحوه، إذ يحدث في نفسك من العادات والتصرفات ماأنت في غنى عنه، وكل ذلك لأن الناس أصبحوا يعبدون العجل من دون الله بكيفية لم يسبق لها مثيل في التاريخ، فلما تحجرت الأفكار بطغيان الفكر المادى على العقول انقلبت المُثُل العليا إلى شيء معدوم، وهذا العدم دفع إلى الفراغ، والفراغ دفع إلى مايسميه هيجل بالعقل الشقي (الاكونسيانس مالوروز) وهذا العقل الشقي هو مرض باطني ولهيب باطني، لايجد أصحابه مايطفئه سوى عقل أشقى منه وهو مايسمى بالشهوات، لأن الشهوات يتبعها الملل ولا تغني من الله شيئا، لأنها ستؤدى إلى تحلل الأسر واختلاط الأفكار وتفسخ النفوس، حتى ترى أن كل ماكان محرما أصبح حلالا، وكل ماكان حلالا هو موضع الاستهزاء، والله يستهزىء بهم ويمدهم في

طغيانهم يعمهون. وهذه العبارة (يمدهم) تشير إلى تنقلها من السيء إلى الأسوأ حتى تقع الكارثة الماحقة التي لايعلم غيبها وصورتها إلا الله، أتكون على شكل حرب عالمية ثالثة، وهي التي يتوقعها الخاص والعام، أم ستكون على صورة عقاب سماوي من الله، مثل الذي حدث لعاد وثمود ونمرود وفرعون، الذى لم يؤمن حتى أدركه الغرق!.

م ـــ أو عن طريق هذه الأسلحة التي يتنافسون في ابتداعها، وما هي إلا وسائل ينتحرون بها جميعا، كمثل أولئك الذين يقول ربنا في شأنهم: ﴿**قل هل نُنَبئُكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضلَّ سعيُهم في الحياةِ الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعا**﴾ (الكهف ١٠٣ ـــ ١٠٤). بقي أن نعرف موقف الإسلام من هذه الملحمة بين أطراف الجاهلية الحديثة.. وكيف سيكون مصيره بازائها.. أينال خيرا، أو ينتهي إلى شر مما هو فيه ؟!.

مه ـــ هناك طبعاً فرق بين الإسلام والمسلمين فإذا مااسترسل المسلمون في أخطائهم الحاضرة ولا نقول أكثر من (أخطاء) فالله يعلم حيث يجعل رسالته. وهو لن يجعلها في هذه الأمة التي تستحق بعصيانها ربَّها أن يقطع دابرها ويذهب بنورها، كالذين عصوا من قبل وكانوا يعتدون.. وهاهم أولاء يجنون ثمرات معاصيهم بعدوان النصيرية وانتصار طواغيت الكفر، وتسليط البغاة الذين ماتوا مهزومين على دعاة الهدى الأصفياء المؤمنين.. وهذا الذي اقترفه عبد الناصر مثلاً في بعض ديار الإسلام نراه الآن بكيفية مكبرة على امتداد الرقعة الإسلامية، ولكن الله سبحانه يحب التوابين ويحب المتطهرين، فإذا طهر المسلمون بواطنهم، ثم أنابوا إلى ربهم وأخلصوا لله دينهم، عاد إليهم نصر الله لأنه أخبرنا سبحانه أن الحسنات يذهبن السيئات.

م ـــ كأني بك يافضيلة الدكتور تريد أن تقول ان هؤلاء المسلمين إذا استمروا فى طريق البعد عن الله فقد ينتهى بهم الأمر إلى الانسلاخ من الإسلام نهائياً، وفي هذه الحالة يفقدون امتيازهم الرباني، ويستوون مع غيرهم من أمم الكفر في استحقاق الدمار والزوال ولن ينقذهم من هذا المصير إلا توبة

نصوح يرجعون بها إلى ربهم وإلى رسالتهم.

مه ــ تماماً.. فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ثم إن هناك فرقاً بين الحكام والمحكومين، فإذا كان في أيدى الأولين أسباب القهر لشعوبهم بالحديد والنار، فإن للمحكومين إيمانهم الذي هو أقوى من الخوف والموت، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا إلا أن يتخلوا عن مسؤلية الإيمان بالإستسلام للطغيان، وحينئذ يستوى الفريقان في استحقاق العذاب، كما حدث لفرعون واتباعه الذين يقول فيهم ربنا تبارك اسمه: ﴿**فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾ (الزخرف ٥٤).

م ــ هناك تطور ملحوظ في اتجاهات الشباب المسلم.. فما السبيل إلى ضبطها في طريق الإسلام الصحيح؟..

مه ــ إنما الحيلة في ترك الحيل. الإسلام موجود في القرآن والسنة الصحيحة. وهذا ينبغي أن يدخل في ثلاث مجالات.. البيت لأن الصبي يطبع في بيته إلا إذا قضى الله خلاف ذلك، والأم هي صاحبة الطابع الأول فيه، ولذلك لوحظ أن وقت صعود الأمم تكون من دعائمه النساء كما يكون الرجال. وفي المثل الصحيح (وراء كل عظيم امرأة).. لماذا.. لأن الأب دائماً غائب عن بيته في معترك الحياة، وعلى ذلك تمضي السنة الأولى والثانية، وهما المرحلة التي تتشكل فيها نفسية الطفل، يرى الأم القانتة المؤمنة المُحْصَنة، أو يرى الأمَّ الأخرى الغافلة العاملة كجملة الخدم، ولذلك تكون الدفعة الأولى في الحضارات العليا انطلاقا من نفسية الصبي بعد خروجه من دور الرضاعة، وفي عهود الانحطاط يكون أثر المرأة أقوى منه في وقت الصعود، وذلك بتحلل الأسرة وسقوط الأخلاق. وفي نهاية امبراطورية الرومان واليونان وامبراطورية الإسلام وغيرها كانت الإباحية وخروج المرأة من البيت. لأنها لم تبق لها شخصية تدفع بها صبيها إلى المَثَل الأعلى. وهنا يأتي المجال الثاني أعني المدرسة، وهي اليوم بيد الحكام، وفي الوقت نفسه بيد المؤمنين فهم إما على طريق الحكام الصالحين أو مخالفون للحكام الفاسدين.. ومن هنا تبرز النتائج الخطيرة لقضية التعليم، إذ هو الذي يكون الأم التي ستطبع الصبي في تلك

المرحلة. وبجانب هذا وذاك يأتي المجال الثالث وهو الشارع، وأعني به المظهر الخارجي والأندية وجمعيات الشباب ودور السينما والمسارح، فإذا فسد هؤلاء ارتد فسادها على الولد والمراهق، فيكون في حرب شعواء مع نفسه، يسمع في بيته الصلاح ويشاهد في الخارج الفساد، خصوصاً عندما يسمع الحكام يبتدئون خطبهم بتحميد الله والصلاة والسلام على رسوله، وفي الوقت نفسه يناصرون المحرَّمات من خمور ومسابح تظهر فيها العورات كما لو كنا في أوروبة ــ ديار الكفر ــ أو أشد فسوقاً فالولد الذي يرى كل هذه الحوافز في الشارع لابد أن تدفعه إلى التفسخ والانحطاط والبعد عن الإسلام. ولذلك كانت المجالات الثلاثة هي التي يتقاسم فيها المسئولية كل من الحاكم والمحكوم.

م ــ قلنا إن هناك نهضة إسلامية في أوساط الشباب لاتخص قطرا واحداً بل تعم سائر أقطار المسلمين.. نعم هناك فساد وانحلال وانحطاط ولكن إلى جانب ذلك ردود فعل صالحة فيها ارتفاع وتسام.. وهذا ماأتساءل عنه: أتستمر هذه النهضة في طريقها الصاعد، أم هي معرضة للنكسة!. وما السبيل للحفاظ عليها في الوضع السليم؟..

مه ــ لقد حكم الله على اليأس بأنه من شيم الكافرين والضالين، كما وصف الحكم بغير ما أنزل الله بأنه من خصائص الكافرين والفاسقين والظالمين. ويكاد اليأس أن يكون كفراً وهنا لا بد لنا من التفاؤل الإسلامى القائم على أساس رحمة الله التى ليست بيد أحد من المخلوقات وهذا التفاؤل ليس من قبل عزاء النفس. فالتفاؤل قاعدة علمية ينطلق منها فكر المؤمن وقلبه، لأنه مبنى على أشياء كثيرة منها:

١ ــ إن الإنسان مهما كان غافلا او عاصيا فقد خلق في أحسن تقويم، فإذن لابد من شرارة تظل تناديه، وهو مايعبرون عنه اليوم بالضمير الحي الذي يؤنبه على كل سيئة.

٢ ــ إن هذا الإنسان يسعى جهد الإمكان ليكون حرا لايؤثر فيه زيد ولا عمرو، فإن كان ثاقب الذهن عميق النظرة فإنه يستبصر ويرفض الإمعية، وإذا كان ضعيف الشخصية اتجه نحو التقليد، فيكون شيوعياً أو

قومياً أو وجودياً، وما إلى ذلك من المؤثرات الاجتماعية على قدر ضعفه الشخصي، إذ يرى كل تفوق في غيره مدعاة للسير في ركابه.. وهكذا يتجه هؤلاء إلى محاكاة الغرب، ظناً منهم بأنه مركز القوة في كل شيء، وهم لا يعلمون أن الغرب قد بدأ هبوطه وانهياره بكيفية لم يسبق لسرعتها مثيل أيضاً.

٣ـ عمل الشرارة الإيمانية في قلوب الأصفياء فهي تدفعهم للتوجه إلى الله فإذا خلصت هذه النفوس له سبحانه أمدهم بالعون عن طريق الأحداث الخارجية..

وإليك بعض الأمثلة:
لما انطلق عبد الكريم الخطابي، وهو القاضي الذي تربى في جامعة القرويين، وَصَفَت نفسه من كدورات الدنيا فعلم ماله وما عليه لربه، وأيقن أنه ليس للكافر أن يحكم المؤمن، حمل السلاح متكلاً على الله.. وكلما سئل: من أين نأتي بالسلاح لنحارب فرنسا وأسبانية؟ يكون جوابه دائماً: إن السلاح موجود بوفرة عند العدو نفسه. وهكذا كان يضرب ويهرب وينتزع السلاح من يد العدو، إلى أن قهر جيوش أسبانية على الرغم من كل مالديها من أسباب القوة، ثم قدَّر الله عليه الهزيمة، ولكن جهاده أعطى دروساً لهوشي منه وماوتشي تونغ، فلئن انهزم في رقعة صغيرة من المغرب، لقد سجل انتصاره في العالم بأسره.. ومن هنا انطلقت شرارة الحريق في وسط الأمبراطورية العملاقة الممثلة في بريطانية وفرنسا. وفي الثلاثينات مابين العامين ٣٠ ـ ٣٧ لم يكن يسمح لأحد في المغرب أن ينطق بكلمة استقلال فضلاً عن المطالبة به، وإلا تعرض للنكال وذهب أدراج الرياح، لكن الإيمان الصادق، وهو شرارة خير في القلوب التي التزمت بالسلفية على الأساس الإسلامي المصفَّي، المتمثل في الخضوع المطلق لله ولرسوله، والاقتداء بالسلف الصالح، لم يخذل الله أهله إذ وافاهم النصر من حيث لايحتسبون.

ذلك أن من سنن الله تبارك اسمه أن يمد عباده المؤمنين بخوارق عونه من ناحيتين:
الأولى: تخريب عدوهم من داخله. وتخريب الأقوياء لايكون إلا من داخلهم، والأخرى: إنهاء دور الجبابرة، بوضع حد لطغيانهم، كما فعل في

نمرود وفرعون، في التاريخ القديم وكما صنع في الشاه وأعوانه في أيامنا المشهودة على صورة لم تخطر ببال.

ومن كان يتصور أن حرباً عالمية ستنفجر فتطيح بأعداء المغرب حتى يسترد حريته وعزته بعد أن وصل إلى نقطة الصفر فى الضعف عقيب هزيمة الخطابى ؟.. ولكن ذلك وقع بقوة الله فأتى بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف وتنفس المؤمنون الصعداء وفرحوا بنصر الله . ومن هذا كله نوقن آن اليأس من رحمه الله عديل الكفر، لأنه شك في قدرته ورحمته وهو الذى كتب على نفسه الرحمة، وهو الذي يعلم عباده حتى المسرفين منهم ألا ييأسوا من رحمته ونصرته، ماداموا مستمسكين بحبله مسلمين وجودهم إليه.. وهو سبحانه لايصيبهم بنائبة إلا ليثير في صدورهم لفحة الندم على المعصية والعودة إلى طاعته، فتكون المصائب تطهيراً لهم من عوامل الضعف والانحلال، وليكونوا مؤهلين للمكانة التي رشحهم لها منذ قدر لهم أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، ومن هنا يتضح لنا في منظور الإيمان أن في طوايا كل نقمة نعمة.. وهذا مانحسه في واقعنا الراهن إذ نرى أمرين أحدهما في بلداننا المسلمة، والثاني صدى ذلك في الخارج.. ففي ديار المسلمين نرى الشباب الذين نتهمهم بالفسوق والعصيان هم في جملتهم أبرياء وجدوا الفراغ في المدرسة، وجدوا الفراغ في البيت، والفساد في الشارع، يذهبون إلى المسارح فيفكرون ليل نهار في مايرونه من أجسام النساء، يذهبون إلى السوق فيشاهدون من أنواع الخمور مالم يكن مباحا في أيام الاستعمار.. فلا حرج عليهم ألا يتمالكوا بازاء هذه القوارع حتى يظنوا أنها ضرب من التقدمية العالية. لكن هذا الشباب نفسه عندما يعي نظرة الإسلام الصافية الذهبية لايلبث أن يتكهرب ويرجع إلى الله.

هذا بالنسبة إلى أحوالنا الداخلية، وأما مايتعلق بصدى ذلك التفاعل في الخارج فاستمع إليه على ألسنة الأعداء، الذين يتحرقون ألماً وهم ينظرون إلى الموجة الإسلامية الجديدة تمتد في كل اتجاه، حتى لتقرأ في مجلة (باري سوار) الصادرة في الأسبوع الماضي قولها: «إن الدين الوحيد الذي

يكتسح اليوم رحاب العالم هو الإسلام» ..

م ــ فأنت ترى إذن أن هذا الشباب المتحرر يمكن ضبط مسيرته بمقدار اتصاله بالحقائق الإسلامية .. وهذا يقتضي أمرين أحدهما عناية الله بصورة خاصة ومباشرة، وأن يحاط هذا الشباب بجماعة من الصالحين يعطونه نموذجاً من السلوك الفاضل من أنفسهم، ويذكرونه بين الحين والحين بحقائق هذا الدين.

مه ــ على شرط أن نتبع في التعامل مع هذا الشباب منهاج القرآن والسنة؛ وهذا المنهاج هو الذي يسمى اليوم بالعقل العلمي.

م ــ صدقتم .. والآن بقي السؤال الأخير. المتصدرون للاصلاح من مفكري الإسلام مختلفون في نظرهم إلى واقع المسلمين، فمنهم من يرى البدء بتصحيح العقيدة واستبعاد التأثير الصوفي، وآخرون يرون تجميع القوى لمواجهةالعدو المشترك استعماراً أو أفكاراً دون تعرض للخلافات الداخلية .. فما حكمك على الموضوع، مع العلم بأنك أشرت إلى الكثير من هذا ..

مه ــ يقول الشاعر:

إنما الناس في اختلاف عقولٍ مثلما الناس في اختلاف وجوهِ

فبما أنه تعالى جعل المشارب مختلفة، ووزع سلوكهم على مانرى فهذا نجار وهذا تاجر وهذا استاذ .. إلى مالا نهاية ..

كذلك الأمر بالنسبة إلى تلقي العلوم الدينية اليوم فمعظم الذين يعتنقون الإسلام من مفكري الغرب إنما يعتنقونه عن طريق الغوث الصوفي، فلا ينبغي أن ننازعهم في هذا، بل نرحب بهم مسلمين ولو عن هذا الطريق .. وقد خالطناهم في بيوتهم وصلّينا معهم، ورأينا الوقار الذي يحيط بحياتهم، وقد كانوا نصارى، ولايزالون يحملون بقية أسمائهم مثل جان وميشيل ونحو ذلك.

م ــ لقد اجتمعت مع بعض هؤلاء المهتدين أثناء مؤتمر التعليم العالمي في مكة المكرمة فألفيتهم على خير حال ولله الحمد.

مه ــ فهؤلاء الناس تربوا في وسط أوربى تنتشر فيه الفلسفة، والفلسفة هي التساؤل عن كل ذي شأن، لماذا العلوم الكيماوية على هذا الشكل، ولماذا علوم الفيزياء على الشكل الآخر، وما هو منهاج هذا البحث العلمي.. وهكذا.. وقصارى القول أن الفلسفة هي البحث عن المجهول، فكلمة عرش في قوله تعالى ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾.. وكلمة ﴿**سدرة المنتهى**﴾ لايجدون لها مايُروي ظمأهم إلا التفاسير الصوفية. وطبيعي ألا يدخل أحدهم إلى الصوفية إلا بعد إقراره بشهادة الحق (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فمن قالها فقد أسلم وصار من الناجين إذا ماتشبث بالكتاب والسنة في مايتصل بالعبادات.

ولقد رأينا المهتديات في أوساط هؤلاء الغربيين أحرص على الحجاب من نسائنا، ورأيناهن خائفات قانتات مصليات كأحسن الفضليات من بناتنا وأخواتنا وأمهاتنا. ولا شك أن مدبر الكون الذي وزع المواهب بين خلقه، فجعل منهم النجار والبناء والفيلسوف هو الذي هيأ بحكمته الفائقة لهؤلاء أسباب الهداية والرشد.. ولكل وجهة هو موليها وكل يعمل على شاكلته..

م ــ إذن فمن رأيك أن الصوفية كما كان لها أثر كبير فى نشر الإسلام وتثبيته تعمل اليوم في الغرب نفس عملها الماضي في أفريقية؟..

مه ــ وإفريقية لم تدخل الإسلام إلا بوساطة الطرق.

م ــ ولكن.. ألا ترون أن الصوفية ليست واحدة في كل مكان، فهناك صوفية تدعو لعبادة المشايخ مثل التجانية، وهناك ناس من هؤلاء يبشرون بأن الناظر إلى وجوههم سالم من النار، فهذا فساد وتضليل، وليس من الإسلام في شيء، على حين أن هناك صوفية أخرى تعمل على تزكية النفس، وتروض الإنسان على التسامي فوق الشهوات، وتشده للتفكر في جلال الله سبحانه واستحضار عظمته بالخشوع الواجب.. ومثل هذا السلوك لاأدري من أين جاءت تسميته بالصوفية، وكان أوْلى أن يسمى بالتزكية، التي هي الصيغة القرآنية لهذه الرياضة، وعليها يتوقف فلاح المؤمن، كما نقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿**قد أفلح من**

زكاها ﴾ (الشمس ٩) وهي كذلك من لوازم الإيمان الصحيح في قوله الحق: ﴿**قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتِهم خاشعون**﴾ (المؤمنون ١، ٢) والخشوع ليس مجرد خوف ولكنه خضوع لله ممزوج بالخوف والحب والذل بين يديه، فإذا استكمل العبد هذه الحقيقة سما بها إلى أرفع الدرجات، وبهذا تفترق الطرقية الداعية إلى عبادة المشايخ عن التزكية القرآنية التي يراد بها استكمال صفة العبودية الربانية.

مهـ ولذلك أرى أن نتجنب كلمة الصوفية، ونحصر موضوعنا في اقتفاء آثار رسول الله ﷺ.

م ـ نعود إلى مابدأناه فقد أسلفنا أن ثمة فريقين يعملان للاصلاح، فأحدهما يرفض مطلق التعاون مع الطرقيين إلا بعد تصحيح عقيدتهم أولاً، إذ لايعرفون ماذا يراد منهم، ولا يملكون رؤية واضحة، وإنما هم مقيدو الفكر والنظر بالذين استولوا على أزمتهم، وآخرون يقولون: علينا أن نجمع أصناف المسلمين لنقف أمام العدو المشترك، حتى إذا فرغنا من أمره التفتنا إلى عملية التصحيح.. فما رأيكم ومع أى الرأيين أنتم؟!..

مهـ سمعت بعض الناس يقولون أن عصر الطائفية قد فات، ونحن الآن نواجه نوعاً من الاستعمار أشد خطراً من كل ماعرفناه من قبل. فلابد من اتحاد المسلمين في قلوبهم ومجهوداتهم وحسب المسلم أن يستمسك بالكتاب والسنة واحترام السلف الصالح حتى يرضى عنه الله ويرضى عنه المؤمنون، فيكون ذا نفس مطمئنة راضية مرضية.أجل.. نحن نعيش في جاهلية جديدة هي أسوأ من أى جاهلية أخرى، وفى الحديث الشريف «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام» فشخصية الأمس كانت واحدة لايختلف آخرها عن أولها إلا بالانقياد لأمر الله ورسوله، مع احتفاظ كل منهما بأصالتها من الصدق والصراحة. أما اليوم فنحن نعيش في عصر ينبغي أن يحاط بقول القائل: احترسوا من الناس بسوء الظن، مع العمل بقول الخالق الكريم ﴿**ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم**﴾ (الحجرات ١٢) فالمشعوذون كثيرون وأنا كنت أوليت اهتمامى هؤلاء من الناحية الطبية لأحصل على التفريق العلمي بين المشعوذ والعابد الصالح حتى صاحب الكرامات، وما يتعلق

بتأويل المعجزات ، ولذلك استجمع فكرى اليوم وأجمع من الكتب العربية مايكفي لملاحظة المشعوذين فى المستشفيات .. قديماً راعتنى كلمة أطلقها ابن سبعين وهو الصوفى المدفون فى سبته ، والمشهور برسائله وكتبه ذات المعانى العميقة ، تلك الكلمة التي يقول فيها : « لقد تجاوز ابن آمنة حده عندما قال : لا نبي بعدى » وقلت فى نفسى هذه قولة لاتصدر عن عقل متزن ، ومن ثمَّ مضيت أتقصى مايقع فى يدى حول هذا المتجرىء على مقام النبوة ، وإذا أنا أعثر بكتاب ألفه صاحبه ليكون أطروحة جامعية عن ابن سبعين ، وفيه تاريخ حياته حتى موته منتحراً بفصده عرقاً فى يده .. ومعلوم أن الانتحار من أكبر المعاصى ، ولا يقدم فيه امرؤ إلاأن يكون مجنوناً ، فمثل هذا الأمر يمنح الطبيب فرصة يفرق بها بين الصالح والمشعوذ ، والمضطرب من المتزن .. وعلى الضد من ذلك ، وفى الطرف الآخر نجد الجنيد الصوفى يعلن أن قاعدتنا الكتاب والسنة فمن شذ عنهما فليس منا فنحن بحمد الله فى هذه الرقعة من المغرب الأقصى ملتزمون بهذا النهج . فالدين قال الله ، قال رسول الله ، والمذهب على طريقة مالك ، وتفكيرنا جار على الخط الذى اتبعه حجة الإسلام الغزالى وغيره من الأشعرية فإذا أراد الله لعبد أن يتعبد ويتهجد ويحارب شهواته ويسلك طريقاً مَهْدِيًّاً فعلى طريقة الجنيد ، لأن باب الكشف الربانى هو القرآن والسنة والسيرة النبوية وسبيل الخلفاء الراشدين .. والجنيد مع الفكر الأشعرى الغزالى هو الثقة فى هذا المجال .

وهنا وجدتني تلقاء مشاهد أحدها ذلك الذي يعرض لنا فيه فضيلة الدكتور المهدي بعض تخليطات ابن سبعين ، وكنت قد عرفت الكثير منها في ماكتبه السيد رشيد رضا عنه وعن نظيره ومعاصره ابن عربي ، فلم يزدني به علما ولكن الجديد في حديثه عن هذا الدجال المغرور ذلك المصير الذى انتهى إليه ، بتلك الميتة التي شهد رسول الله ، ﷺ ، على صاحبها بأنه من أهل النار .. فأيقظت في نفسي ذكرى قريبة منها لذلك الأفَّاق الآخر غلام أحمد القادياني ، الذي لما أعيته الحجة أمام مناظره العلامة الصالح الشيخ ثناء الله الأمر تسري ، عمد إلى المخرقة فزعم أنه دعا ربه أن يجعل ميتة الكاذب منهما قبل ميتة الآخر ، واستجاب الله لحكمة يشاؤها ذلك الدعاء فقضى عليه الموت قبل مناظره بزمن ، وأضاف جل

شأنه إلى ميتته فصيحة أخرى لاأدري كيف ينساها أتباعه المضللون، وهي أن وفاته كانت في المرحاض!. وإنها لميتة جديرة بمتنبيء كذاب من فصيلة هذا الدجال.. على أن ثمة مشاركة أخرى بين الدجالين، تلك هي انتماؤهما معا إلى وجودية ابن عربي، فكلاهما من قادة التصوف الباطل، وكلاهما ينكر ختم النبوة بمحمد ﷺ.

ثم هناك حديث الدكتور عن الأشعرية التي لاتزال حجر الأساس في عقيدة معظم المسلمين حتى اليوم، وما أدري إذا كان الدكتور قد اتسع وقته لدراستها على ضوء الكتاب والسنة اللذين يؤكد على التزامهما في كل مايتعلق بالعقيدة والعبادة، ولكن الحكم في هذا الجانب يتوقف على دراسة العلاقة بين الأشعرية والمعتزلة، لأن اتفاق الأشعري، رحمه الله، مع المعتزلة في تأويل بعض الصفات إلى مايخرجها عن مفهوم السلف، يؤكد أنه لم يستطع التخلص من رواسب الاعتزال، التي لزمت مذهبه بعد انفصاله عن أصحابه، حتى أعلن انسلاخه منها نهائياً على مسمع الآلاف من المصلين في المسجد الجامع بالبصرة، ثم تثبيته ذلك الانسلاخ في رسالته التي سماها (الإبانة عن أصول الديانة) والتي سجلت عودته إلى مذهب السلف الذى تقبل كل ماثبت من صفات الله في كتابه وما صح من سنة رسوله، مع التسليم المطلق دون تأويل ولا تعطيل ولا تحريف.. واستأنفنا الحوار مع فضيلة الدكتور:

م ــ ولكننا لانزال في موضوع السؤال الآنف.. وهؤلاء المتصوفة المشعوذون هم الذين يرفض بعض المفكرين الإسلاميين فكرة التعاون معهم، والآخرون يقولون: بل نتعاون معهم ونعمل في الوقت نفسه على تصحيح مفهوماتهم العقدية.. فما الرأي؟..

مه ــ القول بالتعاون وعدمه هو نوع من الاستعلاء، والداعي إلى الحق هو الذي يخوض المجال بأسلوب الحكمة، والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وهناك سيلتقي بأصناف من الناس، فيجد منهم المستجيب والمعرض، وعلى هذا الأساس يتم تصنيف الناس دون إكراه ولا خصومة، إلا أن يحدث من بعضهم تطاول على كتاب الله وسنة رسوله..

م ــ تريد أنَّ على الداعي أن يحسن عرض مالديه بمنتهى اللطف ولين الجانب..

مه ــ هذه عزيمة لابد منها، وقد تجلت في سلوك رسول الله على اختلاف المواقف، وإليها يشير قول الله له ﴿**فبما رحمةٍ من الله لنتَ لهم، ولو كنت فظاً غليظَ القلبِ لانفضوا من حولك**﴾ ومع أنهم هم المخطئون وأنت المصيب ﴿**فاعف عنهم واستغفر لهم**﴾ (آل عمران ١٥٩).

م ــ خلال هذا الحوار عرضتم لذكر الصحراء والآن نجد هذه الصحراء تشكل مأساة كبيرة في تاريخ الإسلام الحديث، وبخاصة عندما نسمع ممثليها يتبجحون بأنهم قتلوا ألفاً من أولئك، والآخرون يدعون أنهم قتلوا من هؤلاء ألفا ومائتين، فكل من الفريقين يفخر بأنه أوقع الموت الذريع في الثاني.. فما رأيك: هذه الصحراء من أحق بها؟..

هذا سؤال أطرحه عليك لاعلى أنك مغربي، بل على أنك عالم منصف مسلم يعمل بقول ربه تبارك اسمه ﴿**ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسطِ شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين**﴾.

مه ــ كنت في الوفد المغربي ممثلا للمغرب في الأمم المتحدة، وكما سلف القول لم أكن فى الحكومة ولا فى الحركة الوطنية كرجل سياسة، ولكن كمسلم يدافع عن حق اغتصب منه، وكان الموضوع حول مايسمَّى اليوم موريتانية، وهو موضوع يعلم الخاص والعام من أهل العلم أن المغرب هو صاحبَ الحق فيه، ولكن السياسة جعلت كل الناس يتألبون على المغرب، لفصل موريتانية عن المغرب من أجل مناجم الحديد ومناجم النحاس هناك، ولقد اشتريت كتابا فرنسيا من سلسلة (كوسيج) وقد نقل إلى العربية بعنوان (ماذا أعرف) حول مناطق الصحراء، فاكتشفت أن هناك رؤوس أموال ضخمة بوسعها أن تقلب الحكومات عند الحاجة، وهي مستثمرة في تلك المناجم وبين مالكيهاروسية، وكي لايكون للمغرب تصرف حر في تلك الثروة خُلِقَتْ دويلة جديدة تسمى موريتانية، ومن الموريتانيين الأحرار، الذين آلمهم مايرون من الظلم لأنفسهم ولوطنهم الكبير المغرب، داود سيدى ولدبابا، الذي كان وزيراً للأوقاف، وهو اليوم رئيس البرلمان المغربي، فقد ضحى بماله وأهله وحرثه وكل مايملكه

هناك ورجع إلى المغرب ، فموقف هذا الرجل هو الموقف الحقيقي . هذا الشيء الأول والثاني حول الصحراء، التي كان الأسبان في صراع دائم من أجلها مع الفرنسيين ، وقرروا أخيراً أن يخلقوا موريتانية أسبانيةً مقابل موريتانية الفرنسية ، فألفوا لها ذلك الجيش المناصر لفكرتهم، وسموه البوليساريو ، وبهؤلاء المرتزقة تحققت خطة الشياطين القائمة على قاعدة (فرق تسد) ومعناها جزىء الناس ليضرب بعضهم بعضا حتى يلجئوا إليك لتحكم بينهم..

م ــ إذن فأنت ترى الصحراء قطعة من المغرب؟..

مه ــ كل العالم ومعه محكمة العدل الدولية والرأى العام والخاص يرى ذلك ، وحتى في موريتانية نفسها يسرون في آذاننا : الحق معكم ولكن لانصوت لكم..

م ــ وهل ترى أن محكمة العدل الدولية تملك القدرة على حل مشكلة الصحراء؟..

مه ــ أبداً لأن مهمتها استشارية لاتنفيذية .. لكنها أعطت رأيها بأن المغرب كان دائما يستقبل الولاء من سكان هذه الصحراء.. ثم ينبغي أن يضاف إلى هذه حقيقة إسلامية أخرى وهي أن وطن المسلم هو القرآن ،فأينما وجد وسمعَ نشيد لا إله إلا الله محمد رسول الله فثم وطنه وقومه، ونحن نريد تأليف المسلمين على هذه الحقيقة في تجمعات حيوية ، كالمغرب العربي الكبير ، والهلال الخصيب ، أو المشرق العربي ، وما إلى ذلك ، وهذا هو مآل المسلمين في المستقبل ولو اعتصم الحكام بحبل الله لما صرفتهم الدسائس الحقيرة والمطامع الصغيرة عن هذا الهدف الكبير إلى ماهم عليه اليوم من الهوان والتخبط..

م ــ وهل تنتظر لهذه المشكلة المؤسفة حلاً قريباً ؟..

مه ــ لابد من وجود هذا الحل.. وما أظن المسألة مسألة حكومة فقط بل هي قضية أمة بأسرها حاكماً ومحكوماً ، ونظرة إلى واقع الرأى العام في المغرب تؤكد أن الجميع دون استثناء جماعة أو حزب ، حتى الشيوعيون ، متفقون على كلمة واحدة هي الاحتفاظ بالصحراء على أنها

جزء لايتجزأ من التراب المغربي.

م ــ في حديثكم عن منشئكم الأول أشرتم إلى الأساس السلفي الذي تربيتم عليه، مع التوكيد على المسحة الصوفية التي كان عليها الوالد، ونفهم من هذا التزاوج بين الفكرين أن تلك الصوفية كانت من النوع الصافي المتحرر من شوائب الطرقيات الأخرى، فهل تعلمون في المغرب مثل حركة الشيخ ابن باديس في الجزائر، تلك التي فصلت بين الدجل الذي كان في رعاية المستعمر، والإسلام المصفى الذي التزمت به جمعية العلماء هناك؟.

مه ــ لا.. لم نعرف في المغرب مثل حركة ابن باديس، وقد وصلتنا أصداؤها واجتذبت انتباهنا ولا نزال نترحَّم على أصحابها..

م ــ وإذن فقد كان أثرها ضئيلاً في حركة المغرب..

مه ــ نعم.. وذلك عائد إلى الحواجز التي أقامها الاستعمار بين المسلمين، فكان تسربها إلينا محدودا ولكنه مجدد للأمل، وما زلنا حتى اليوم نتطلع إلى بقاياها وآثارها بسرور كبير لأن الاختلاف بين سياسة البلدين لايضعف من أخوة الإسلام بين الشعبين لأنها من صنع الله، وما بناه الله لايهدمه أحد»..

وبعد فلهذا الحوار أسباب بعيدة رأيت أن أشرك قارىء هذا الكتاب في ذكرياتها.. وقد بدأ أولها قبل عامين من إجرائه، وكان ذلك في دار الحديث بالمدينة المنورة، وفي موعد المحاضرة التي تقدمها الجامعة الإسلامية مساء الخميس من كل أسبوع.

وفي نهاية المحاضرة تلقى مدير الحفل رقعة يذكر مرسلها أن بين المستمعين المهدي بن عبود فيحسن أن يدعى للكلام.. واستجاب المدير وقدم إلى المستمعين (فضيلة الشيخ المهدى بن..) للكلام وكان هذا اسم أحد مدرسي دار الحديث في أحد الصفوف الأولى من المدعوين، فكانت مفاجأة لم يتهيأ لها.. ولكن قبل أن يتحرك لاستجابة الدعوة ارتفع صوت صاحب الرقعة يقول: المطلوب هو الدكتور المهدي بن عبود. وهو هنا على مقربة منك..

فصُحح العرض وتقدم المدعو الأصلي دون أن يكون على علم سابق بالدعوة.. ومع ذلك لم يظهر عليه أثر المفاجأة، ومشى في وقار أولي الألباب نحو المنصة، فحيا الحضور، وسمى الله وحمده وصلى على نبيه ثم أعرب عن سروره بهذه المناسبة التي جاءته على غير انتظار، ومضى على هيئته يتدفق علما وإيمانا وبلاغة.. حتى تمنى الأكثرون مثلي ألا يسكت أبدا..

يومئذ عرفت وسمعت الدكتور المهدي بن عبود لأول مرة، إلا أني لم ألبث أن أحببته لما وجدت بيني وبينه من تلاق على وحدة الرؤية ووحدة الهدف .. ومع أني لم أقف معه يومئذ إلا بمقدار ما أسمعه التحية وكلمة التقدير فقد وجدتني أتتبع أخباره وأنباء محاضراته وما ينشر من كلمات بين الحين والآخر.. وعزمت على أن يكون أحد العشرين الذين سأترجم لهم في كتابي الأول (علماء ومفكرون عرفتهم) ولكن ندرة اللقاء حالت دون تلك الرغبة، فلما جمعتنا الأقدار في مؤتمر السيرة والسنة الذي عقد عام ١٤٠٠ هـ في دوحة قطر، صممت على ألا أفلت الفرصة من يدي، واستجاب لرغبتي، فاتخذنا زاوية من فندق الخليج بعيدة عن تحرك النزلاء، وهناك جرى الحوار الذي كان ضرباً من الحديث المرتجل، لم يُعْنَ بتنسيقه ولا أعاد فيه نظر، وقد نقلته من شريط التسجيل على علاته بادي الرأي، ثم رجعت إليه ببعض التنقيح والتنظيم دون مساس بأفكاره.

ولا جرم أن القارىء سيقف مليا أمام هذه الشخصية، التي أحيطت من الأحداث والأسباب بما أهَّلها للاتجاه الذي استقرت عليه في خدمة الدعوة، التي تتطلع إليها الدنيا في هذه الأيام.

لقد أطل على الحياة في كنف والد أعدته التربية الروحية المصفَّاة ليتولى بدوره تربية المسلمين على الاعتصام بحبل الله وحده والاستعلاء على مغريات الدنيا، التى أغرق بها الاستعمار الصليبي حياة المغرب كله، فلم يسلم من أوضارها إلا أولئك الناشئون في أربطة هؤلاء المشايخ، الذين وقفوا أنفسهم على إضاءة القلوب بأشعة الوحي، فكانوا أكبر من البلاء الذي صبته عليهم قوى البغي، وكانوا هم الطاقة الإسلامية التي طهرت المغرب الكبير أخيراً من أرجاس ذلك الاستعمار..

وقد رفد تلك النشأة الأولى من الصبر العجيب على شطف العيش والحرمان حتى من الضروريات الأولية ، بعد زوال ذلك الوالد المتوكل ، فلم تحن له تلك المحنُ جبينا ، بل استقبلها بالرضا الذى قبسه من روح ذلك الوالد ، والتسليم المطمئن لقدر الله ، الذى آمن أنه لا يقضى لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ..

وبهذا الروح الوهاج استقبل تطور الأحداث في حياته من جزر يضاعف من حلكة ليله ، إلى مدّ تنبثق من خلاله خيوط الضوء ، وهو راض وشاكر على الحالين ، حتى أتم دراسته ، وأتيح له أن يضع كل إمكاناته في خدمة القضية التي وهب لها المؤمنون أنفسهم ، ثقة منهم بأن انقاذ المغرب المسلم من مخالب الطغيان الصليبي هو ذروة سنام الإسلام في تلك الأيام .. فهو حيناً أحد المناضلين فى لجان التحرير ، وحيناً سفير للمغرب المستقل في الولايات المتحدة ، وآنا مندوبه المدافع عن حقوقه في المؤسسات الدولية ، ومرة في صفوف المستضعفين مين عمال بلاده يطالب لهم بحق العمل وحق الحياة الكريمة ..

وهو في هذه المواقف كلها مثال المؤمن الذي وقف نفسه على خدمة الإسلام ، وقد ملأه اليقين بأنه سفينة النجاة ليس للمسلمين وحدهم بل لسائر الأمم والشعوب .. وساقته هذه الرؤية الإيمانية إلى الاعتقاد بأن الحياة كلها ميدان مفتوح لدعوة الله ، وأن كل مايملكه من لغات ومن ثقافة في الطب والفلسفة والتجارب العميقة ليست سوى أدوات موهوبة لخدمة هذه الدعوة الربانية ، التي هي السبيل الوحيد لانقاذ العالم من أخطار الحضارة العوراء التي أخذت سبيلها إلى الانهيار والانتحار .

إنها الثمرة الناضجة لتلك التربية القرآنية التى احتضنته منذ أيامه الأولى .. فحددت مسيرته فى خط النور الذي جعل منه واحداً من كبار الدعاة على بصيرة إلى الله .

تأملات لا بد منها :

بيد أن من حق هذا العرض التحليلي أن يسوقنا إلى تخصيص بعض الحديث عن الصوفية وآثارها ونظر الإسلام إليها .. وبخاصة عندما نتذكر عملها في أفريقية والهند وتسربها الراهن إلى أوساط المهتدين من أهل الغرب ..

أهي شر كلها ، أم هي خير محض ؟.. أم هى خير وشر ؟!.

لقد اختلفت الآراء بشأن هذه الظاهرة التي رافقت حياة المسلمين منذ القرن الثاني الهجري، واستمر هذا الخلاف بشأنها حتى الساعة.. إنها الكفر عينه في نظر بعض الباحثين، وهي لب الإيمان في نظر الفريق المضاد.

والغريب أن كلا من الفريقين المتضادين مصيب من الزاوية التي ينظر إليها، فالمكفرون إنما يحكمون عليها من خلال مايقرأونه وما يسمعونه عن بعض المضللين من المنتسبين إلى الصوفية، سواء كانوا من الحلوليين أو الاتحاديين أو الوجوديين.. ولا عذر للمتردد في تسفيه هؤلاء، الذين خرجوا بأضاليلهم على كل حقائق الإسلام والعياذ بالله..

وكذلك شأن الفريق المضاد، فهو ينظر إلى الصوفية من خلال آثارها في تربية النفوس على روح التقوى، التى تستجمع سائر الفضائل من الأركان إلى أبسط الآداب، فلا تغفل من إصلاحها حتى خلجات القلوب والخواطر..

وهؤلاء عندما يشهدون لهذه الصوفية بالخير إنما يعنون هذه الآثار الكريمة، دون أي شيء آخر من أعمال وأقوال أولئك المتفلسفين المخربين.. وحسب هذه الصوفية البريئة تقديراً شهادة شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي لايضن على شيوخها إذا ذكرهم بقوله: (قدس الله أرواحهم) وكذلك تلميذه العظيم ابن قيم الجوزية، الذي كان لكتاباته في هذا الشأن فضل مشكور فرق به بين الحق والباطل والزيغ والاستقامة على الطريق القويم..

وعندما يذكر أثر الصوفية في انتشار الإسلام بأفريقية لايخطر في البال إلا هذا النوع الرفيع الذي اتسم به الدعاة الأوائل من آل فودى أجداد الشهيد أحمدو بللو، إلى الأميرين عبد القادر الجزائري وعبد الكريم الخطابي المغربي، والسنوسين التونسيين، وأشياعهم من حماة الإسلام، والمجاهدين لأعدائه على امتداد القارة الأفريقية.. أما أولئك الدجالون من تجار الدين الذين أعقبوا تلك الأجيال النقية، وفارقوا هدى الإسلام إلى سفاهات ابن سبعين وضلالات ابن عربي، فهم الهدامون الذين أفرزتهم عهود الانحطاط التي أعقبت أيام الخير.. فليس لاحد أن يلحقهم بالصوفيين الأحرار الذين أعز الله بهم دينه وأعلى رايته، ورد أعداءه على أعقابهم خائبين، على الرغم من عددهم وعُددهم وحِيَلهم.. وما كان أروعها سِمةً لو سلمت هذه السلوكية النقية من لقب الصوفية المتسلل

إليها من مصطلحات الإغريق وقدعنوا بها (الحكمة) كما أرادوا بكلمة (فيلسوف) (محب الحكمة).. فهي أحق بأن تحمل اسمها الإسلامي القرآني (التزكية) فيكون لها علما يسمو بها عن ترهات المشعوذين والدجالين، ولا يبقى لاحد حجة تسوغ الهجوم عليها من قِبَل أولئك الإخوة، الذين اكتفوا من كنوز الإسلام بالجدل الجاف الذي أحال بساطة العقيدة البيضاء رموزاً رياضية ترددها الألسن دون أن تحرك شوقاً أو توقظ قلباً، وهى التى تتفجر على لهوات أولئك الربانيين أشعة تضيء وتحرك وتبعث الوهج البعيد في أعماق الأعماق.

وأخيراً...

إن الخصائص التي طبعت نفس المهدي بن عبود على إيثار الدعوة الإسلامية بكل امكاناته ومواهبه هي التي دفعتني لتقديمه إلى القراء في هذه الصفحات على الصورة التي عرفتها فيه من خلال أحاديثه المؤثرة بل الساحرة..

وهي هي نفسها التي دفعتني في بعض ماكتبته إلى ترشيحه مع محمد الغزالي ومحمد قطب ومحمد ناصر ومحمد الرشيدي للانقطاع إلى إدارة الدعوة وتنظيم مسيرتها، ليس في بلاد المسلمين فحسب بل في مختلف أنحاء العالم.

وها أنذا أعيد هذا الاقتراح من جديد عسى أن يجد من القادرين على تحقيقه أذنا صاغية وهمة مستجيبة.

والله الموفق والمستعان.

* * *

الشيخ نعمة الله خليل

كانت مفاجأة لطيفة عندما جاءت أم غسان تخبرني بأن ثمة شيخا وقوراً قدم لزيارتي وهو بانتظاري في حديقة المنزل، وكنت متهيئا للوضوء فأرخيت كمّي وخرجت إلى الشرفة أتبين الزائر، فإذا هناك ثلاثة أحدهم إمام مسجد بلال راشد، وقروى عجوز عليه سيما الخير، ثم الشيخ الوقور ذو اللحية الكبيرة الجميلة الذي لم أتذكر أني رأيته قط، ولكنه ماإن وقع بصره علي حتى أقبل يعانقني وهو يقول بعربية مشوبة باللهجة التركية: كم أنا بشوق إليك يافلان.. وما أراك إلا نسيتني لطول العهد!..

وجعلت أحدق في وجهه رجاء العثور على صورة له في طوايا الذاكرة، فأحسست أن غشاء قد بدأ يتسحب شيئا فشيئا، فتتضح الرؤية حتى لم يعد ينقصها سوى الأسم..

ويقول الزائر القريب جداً من القلب: نعمة الله.. ألا تذكر نعمة الله، ولكن.. متى.. وأين؟.. قال: في المدينة المنورة..

وبعد لأي استطعت أن أستعيد صورة فقدتها منذ ست سنوات أو أكثر.. فإذا أنا أشهد صاحبها متربعا على إحدى أرائك الوعظ في القسم الذي يكثر فيه الأتراك من الحجاج والمجاورين في المسجد النبوي، وهو يلقي عليهم أحاديثه في نغمة تحمل حرارة قلبه، فتصغي إليها القلوب قبل الأسماع.. وسرعان ماتتوثق بيني وبينه الصلة، فألقاه في المسجد الحبيب، ويزورني في منزلي.. ثم تضرب الأيام فيغيب عن نظري، ثم تتوارى صورته من مخيلتي حتى انتهت إلى مايشبه النسيان..

وسألته: أين اختفيت كل هذه السنين؟.. وبتلك النغمة الآسرة، مع تلك

الابتسامة التي لاتكاد تفارق وجهه الحنطي المتساوق القسمات، جعل يحدثني برحلاته التي تستهوي السامع إذا كان ممن تستهويه أخبار المسلمين ونشاط الدعاة المصممين..

وكان الرجل على موعد لابد من الاستجابة له في إحدى الدساكر المجاورة لمصيفنا فاتفقت معه على أن يعود إلي في تمام الحادية عشرة من ظهر اليوم .

وها أنذا أستقبله في الموعد المقرر، وأطرح عليه أسئلة الاستطلاع الذي أعددته له . لأتلقي أجوبتها في خطوط تساعدني على تقديمه لقرائي، وأنا على ثقة بأنني أقدم إليهم صوراً تستحق التأمل والاعتبار إن شاء الله.

إنه (نعمة الله يورت) بن خليل إبراهيم، وهو عند معارفه الكثيرين (نعمة الله خُجا..) ولد عام ١٩٣١م. في قرية (تاش أوه) من ضواحي (أماسية) الواقعة على مبعدة مئة كيلو من البحر الأسود.

وكان أبوه خليل من العاملين في الزراعة ويمتاز بالطيبة ومحبة العلماء والصالحين، فيكثر من صحبتهم والاستماع إليهم، ويصطحب ولده هذا إلى مجالسهم التي يجتمعون فيها على ذكر الله، وانشاد المنظومات الدينية التى تنحو هذا النحو..

وكان من حسن حظ هذه القرية أن وفد إليها أحد الفضلاء من أهل العلم الذين عرفوا بالاستقامة والوقوف عند حدود الكتاب والسنة، فكان من أثره في أؤلئك القوم أن ضبط مسيرتهم فى ذلك النطاق، وأخلى اجتماعاتهم من كل أثر للانحراف الذي كثيرا مايستحوذ على مجالس الذاكرين..

ولقد أحب الوالد الشيخ محمد علي أفندي هذا، الذي تولى أخيراً مهمة الفتوى في تلك الضاحية، وجعل هذا يتردد على منزلهم فيتلقونه بالاكرام الذي يمتاز به أهل الزراعة في تلك الأنحاء..

وكان طبيعياً أن يلتقي الشيخ بنعمة الله، الذي بلغ السادسة عشرة دون أن يتعلم شيئا سوى عمل أبيه، والأخذ بمسلكه في الأخلاق والعبادة وحب العلماء والصالحين.. ولعل من العوامل التي ساعدت على اعتزاله التعليم المدرسي تلك الظروف التي فرضها الحكم الكمالي على الشعب التركي، فحظر

عليه استعمال الحروف العربية، واعتبر الإقبال على الدراسات القرآنية من الجرائم التي لاتتسع للعفو.. مما أوقع في خلد المجتمع المحافظ أن الانضواء للمدارس الرسمية التابعة لتلك الأنظمة الرهيبة، إنما هو انسياق في المنحدر الذي يراد به اقتلاع المسلمين من دينهم الذي به دخلوا التاريخ.. فاكتفى هؤلاء من العلم بما تيسر لهم لدى بقية العلماء الذين رضوا بالمغامرة في تدريس العربية والقرآن والمبادىء التي تمسك على الناس دينهم، في جو من السرية بعيد عن أعين المراقبين الذين كثيرا ماساقوا أولئك المغامرين إلى أقبية السجون والعذاب..

ولاحظ الشيخ محمد علي أفندي ظواهر النباهة في الفتى فقرر أن يشمله برعايته.. وشاء الله أن تحدث ظروف جديدة كشفت ظلمة القهر المضروبة على مسلمي تركية بانتصار الحزب الذي يقوده عدنان مندريس، فإذا هو يفسح السبيل للافراج عن الضمائر فيستأنف الأذان مسيرته العربية، وتنشأ المئات من معاهد التعليم الإسلامي بلغة القرآن.. فلم يبق من حاجة للتخفي بتعليمها، وهكذا بدأ نعمة الله تلقي مبادىء العربية على هذا الشيخ الفاضل ثم ضم إليها أصول التجويد والقواعد وما يعوز المسلم من أوليات الفقه.. ولما بلغ العشرين كان عليه أن يلتحق بالجيش لأداء الخدمة الإلزامية وقد أفرز إلى اسلامبول، فكانت فرصة صالحة أتاحت له الاتصال بكثير من علمائها والإفادة من صحبتهم، وبخاصة في التفسير والحديث والفقه الحنفي.

ويعدد من شيوخه في هذه الفترة الشيخ صفة أفندي، ومفتي اسلامبول الشيخ عبد الرحمن شرف كوريل يازجي، وأخاه الإمام المسجدي الشيخ عبدالله، وأخرين غيرهم.

وإلى هذه البيئة الروحية يرد أهم المؤثرات التي عملت على توجيهه في طريق الدعوة، إذ أنشأت في نفسه الحب العميق لأهل العلم، والاستماع إلى محاضراتهم وأحاديثهم، حتى ليبلغ به هذا الحب أن يمشي الساعات الطوال لحضورها.. وهنا يركز بوجه خاص على ميله للأذان إذ بدأ ممارسته في قريته طوال المدة التي قضاها في صحبة أستاذه الشيخ محمد على أفندي، ثم بعد قضائه فترة الخدمة العسكرية تقدم لامتحان المؤذنين وعين مؤذنا لمسجد

السلطان أحمد أفخم وأكبر مساجد اسلامبول، فكانت فرصة جديدة وثقت صلته بمشايخه، الذين كان بينهم سيد شفيق أفندي، الذي يعتبر أحد المراجع للمستفتين في فقه المذاهب الأربعة. ومن الأذان تحول إلى الإمامة في مسجد محمد باشا خجاغيات الدين، بعد نجاحه في الامتحان الخاص بها، وفي الأذان أولى الصور العملية للدعوة إلى الله، وفي الامامة الحقة أفضل المناسبات لتحقيقها في أوساط المصلين، وهكذا كان صاحبنا يستمع إلى قول العلماء فيتبع أحسنه فينقله بدوره إلى هؤلاء المتعطشين إلى الموعظة الصادقة والتذكير النافع..

ومما يحسن علمه أن مهمة الإمام الحق أبعد مدى من قيادة المسلمين في الصلوات الخمس، حتى إذا فرغ من ركعاته انصرف إلى منافعه العابرة، فلا يكاد يكلم منهم أحدا حتى يحين موعد الأخرى، وهكذا دواليك.. وإنما الإمامة صلة اجتماعية يتيحها المسجد لتلاقي الإمام برواد مسجده، فيتفقد أمورهم ويسأل عن غائبهم، ويعود مريضهم، ويحاورهم بما يوثق من الروابط بينه وبينهم، على أساس من الحكمة والموعظة الحسنة..

وطبيعي أنها مهمة على غاية من الأهمية، لايطيقها ولا يحسن أداءها على الوجه المنشود إلا من أوتي بسطة في العلم، ورحابة في الصدر،وبشاشة لاتنضب في الوجه.. وذخرا لاينفد من الصبر.. وملاك ذلك كله حب الإمام لمهمته لاكموظف (يعدد أياما ليقبض راتبا) بل كأخ شفيق يحب لأخيه مايحب لنفسه وكطبيب حاذق رفيق يقابل زائره بالرعاية التي تشده إليه بالثقة والطمأنينة..

والحق أن مثل هذه (المواصفات) قل أن تتوافر في إمام كما تتوافر في هذا الأخ، الذي وهب نفسه للدعوة إلى الله، وفتح صدره لكل من يلقاه ولو لأول وهلة، حتى يتوهم المواجه له أنه صديق قديم أفلت اسمه من ذاكرته!..

وبهذه الروح سلك الشيخ نعمة الله طريقه الذي هيء له، فهو يؤم إخوانه في المسجد الذي عين له، ولكن علاقته بهم لاتقف عند حدود الصلاة، بل يجد كل منهم فيه الأخ والمساعد والمحب.. وهو لايكتفي بخدمة مسجده ورعاية

رواده، بل يغشى الناس في المقاهي والأسواق، فيحييهم ويذكرهم حتى يشعرهم بأن لهم إخوة في الله يحسن بهم أن يسعوا إلى لقائهم في بيوت الله.

على هذا النحو مضى في إمامته الأولى بمسجد محمد باشا خجا في اسلامبول. وعلى هذا النهج سلك في ماتلا ذلك من حياته، التي لايجد لها معنى خارج نطاق الدعوة الخالصة إلى الله..

وفي أثناء إمامته هذه قدرت له رحلة الحج عام ١٩٦٥ وكانت رحلة طويلة عبر طريق البحر، أتاحت له فرصة جديدة لترسيخ المعاني الإسلامية في قلوب الحجاج، وقد ساعده في ذلك خلقه الرضي الذي يجتذب إليه القلوب والأسماع.. ولم يقصر نشاطه في خدمة الحجاج على مكان دون آخر، بل كان لهم الأخ والمرشد في كل مناسبة تبلغها طاقته..

وقد شغفته وقائع الحج، فأقبل عليه مرة بعد مرة بعد أخرى، وفي كل رحلة يزداد نشاطا ويكتسب خبرة ودربة..

ويقول الأخ نعمة الله: كان من أعمق البواعث أثرا بنفسه خلال حجته الثالثة كلمة سمعها من واعظ باكستاني في مكة المكرمة، أدارها حول حجة الوداع التي قاد فيها رسول الله جماهير الحجيج، ليركز في قلوبهم الصورة المثلى لذلك الركن العظيم، وكان مما قاله يومئذ: لقد بلغ مجموع تلك الجماهير مئة وأربعة وعشرين ألفا، ولكن الذين توفوا في ظلال الحرمين منهم لايزيدون على الخمسة عشر ألفا، أما سائرهم فقد انتشروا في أرض الله يجاهدون لتبليغ رسالته واعلاء كلمته، ولم يعد منهم أحد إلى موطنه الأول..

يقول الشيخ نعمة الله: ومن هنا امتلأت نفسي تصميما على التفرغ التام لنداء الدعوة، ولو أدي ذلك إلى مفارقة الأهل والوطن إلى الأبد.. إلا أن إخوانا له من حجاج الترك قد أقنعوه بالعودة إلى اسلامبول.. وفي اسلامبول لقي للمرة الثانية ذلك الداعية الباكستاني مع طائفة من جماعة التبليغ، فلم يلبث أن اندمج بهم ليجوب معهم المقاهي والأسواق، ولا يدعوا من عملهم حتى المرور بحوانيت الخمارين، يدعون الناس بالكلمة الطيبة إلى المسجد، فلا تلبث أن تتغلب على لهوهم وما ألفوه من المغريات، فيلحقوا بهم راضين راغبين..

وراق الرجل نجاح القوم في اجتذاب هؤلاء الضائعين، فقرر الخروج معهم للمشاركة في عملية التبليغ، وبلغت رحلاته الخمس معهم ربوع باكستان، والهند وانجلترة.. ثم لم يستطع مفارقة هذا المسلك فقدم استقالته من إمامة المسجد، وانطلق على وجهه منفردا يدعو إلى الله على أسلوب الجماعة جائلا في مختلف الأنحاء من الأرض التركية وقد ضاعف من رغبته في ذلك إقبال الناس عليه وظمؤهم البالغ إلى كلمة الخير والأسوة الطيبة، ثم لايلبث أن يتجاوز تركية إلى سورية فالأردن فالمملكة العربية السعودية، حتى ألقى عصاه في رحاب المدينة المنورة، وهنا يتصل بمجالس الأتراك في المسجد النبوي يحدثهم ويذكرهم فيحبهم ويحبونه..

وفي ظلال المسجد المبارك يتعرف بعض واعظيه، وعن طريقهم يلتقي بسماحة الشيخ ابن باز رئيس الجامعة الإسلامية، الذي يأذن له بحضور الدروس التي تلقى في شعبة تعليم العربية لغير العرب، واستمر على ذلك عدة أشهر، وشارك أثناءئذٍ في الاستماع إلى محاضرات المدرسين في مختلف الكليات..

ويحدثنا الشيخ عن جولاته البعيدة في أقطار العالم، فيذكر أنها شملت سبعا وعشرين دولة، منها اليابان والصين وكورية وهونغ كونغ وبانكوك فالهند وباكستان وبنغلاديش ثم إيران والفلبين، غير ماسبق ذكره من البلاد العربية.. وقد شارك التبليغيين في رحلتين إلى أوروبة، وقصد إلى ألمانية الغربية مرتين استجابة لدعوة الجاليات التركية. ويقول إنه لقي أثناء هذه الرحلات الكثير من علماء المسلمين وكبار حكامهم، ويذكر من العلماء المفتي محمد شفيع في كراتشي ــ باكستان ــ والشيخ أبا الحسن الندوي في الهند والشيخ عمر ميتار ــ مترجم معاني القرآن ــ إلى اليابانية.. والدكتور عبد الكريم ساتو في اليابان أيضا..

أما الحكام فقد ذكر منهم ضياء الرحمن في بنغلاديش، وضياء الحق في باكستان، ورئيس وزراء كورية، ولقي في اليابان كورت أوزال قبل توليه رئاسة الوزراء التركية. وفي المدينة المنورة لقي السيد نجم الدين أوربكان وأنابه عنه في إحدى المناسبات ليحدث الاتراك على كرسيه في المسجد النبوي، ويقول إنه لقي نجم الدين مرة ثانية في موسم الحج مع الجنرال ضياء الحق

ورئيس منظمة التحرير ياسر عرفات، وشارك في ترجمة أحاديثهم للمستمعين باللغات الثلاثة الأوردية والتركية والعربية..

وكان في كل لقاء مع الحكام يذكرهم بدينهم وبمسئولياتهم نحو شريعة الله.. فيلقى منهم الآذان والرضى.. ويقول انه لدى اجتماعه برئيس حكومة كورية ـــ الجنوبية طبعا ـــ دعاه إلى الإسلام وجلا له بعض محاسنه فقابل ذلك بالسرور، وأطرى الإسلام، وذكر فضل الجنود الأتراك بايصال الإسلام إلى بلاده..

واستوضحناه عن مدى استجابة الناس الذين لقيهم لدعوة الله، فكان من حديثه، أنه وجد الناس في كل مكان زاره على أتم الاستعداد للاقتناع بصلاحية الإسلام إذا وجدوا الدعاة الأكفاء..

ففي كورية قبل عرضه للإسلام مئات من الذكور والاناث بسهولة ويسر. وفي عاصمة تايلاند أذن له بالتحدث إلى طلاب الجامعة، ولقي منهم القبول إذ أعلن عدد منهم إسلامه.. وفي اليابان كذلك لقي إقبالاً حسناً على دين الله، إذ كان كل من يعتنق الإسلام لايكاد يفهم أسسه العظيمة حتى يتحرك لدعوة غيره إليه، وفي الفيلبين أقام ثلاث سنوات في خدمة الدعوة، وقد سمح له المسئولون بعرضها عن طريق الاذاعة والتلفاز.. ويقول صديقنا الفاضل إنه كان يتناول المساعدات المالية من بعض المحسنين السعوديين فيوزعها على الطلبة والفقراء، ومن السفارة السعودية كان يتسلم المطبوعات الإسلامية فيسلمها إليهم كذلك.

وفى الحديث عن رحلته إلى الصين الشيوعية يتحفنا الداعية الموفق بهذه الطرائف التي تستحق التدوين والتأمل..

ففي جدة يتعرف أحد المهتمين بشئون الدعوة ولا يذكر من اسمه سوى أنه (دكتور سهيل) وأنه مدير لشركة الظهران، وذات يوم يعرب الشيخ نعمة لهذا الرجل عن تطلعه للسفر إلى الصين الشيوعية رجاء أن يتمكن من التجوال في مواطن المسلمين التركستانيين، فأشار عليه الدكتور سهيل أن يتصل بتركستاني في مكة يعمل في تجارة الحقائب ويدعي قربان عبدالله.. فقد يجد

لديه مايعوزه من المعلومات التي تساعده على تحقيق أمنيته.. ولم يتلكأ في السعي للقاء الرجل، الذي ألفاه على أتم الأهبة للإسهام في تلك الرحلة بعشرة آلاف نسخة من المصحف الشريف، وأوضح له أن أيسر سبيل للوصول إلى الصين هو أن تكون الرحلة عن طريق باكستان، فإذا استطاع الحصول على إذن من سفارة الصين بالدخول إليها مع المصاحف فهو على استعداد لمرافقته إلى المناطق التركستانية..

وعاد الشيخ إلى صاحبه الدكتور ليفضي إليه بنتيجة مسعاه، فما كان منه إلا أن بدأ عملية الرحلة بتأمين تذاكره للذهاب والإياب، وزوده بما تيسر من المال الذي لابد منه في هذه الرحلة الطويلة.

وما هي سوى أيام حتى كان صاحبنا في إسلام أباد، وعن طريق معارفه من جماعة التبليغ يسر الله له كل عسير، فحصل من سفارة الصين على الإذن المنشود له ولصاحبه قربان عبدالله وعشرة الآلاف من نسخ القرآن الكريم.. ولما اتصل بهذا لإبلاغه ماوصل إليه، حدد له موعدا ثانيا لمكالمة أخرى وفي الموعد المضروب أخبره أن رابطة العالم الإسلامي قد تبرعت بعشرين ألفا من النسخ يتسلمها من ممثلها في باكستان.. وأنه قادم إليه ومعه الأمر بذلك..

وهكذا أتم الله نعمته على عبده فأخذ سبيله مع رفيقه قربان إلى بكين، حيث استقبلهما ممثل عن الجمعية الإسلامية، التي اعتبرت الشيخ نعمة ضيفها مدة إقامته في الصين، والتزمت بتكاليف تنقلاته وإقامته التي استمرت شهراً كاملاً قضاه ورفيقه في جولات متباعدة، شملت المساجد والمصانع واللقاءات الكثيرة.. واعطتهما صورة حية عن تشبث أولئك الإخوة المنسيين بدينهم الذي لم تستطع النكبات الشيوعية، على الرغم من وسائلها الشيطانية الدامية، إضعاف صلتهم به.. وما كان أسعدهم وهم يتسلمون تلك النسخ العزيزة من الكتاب الحكيم، إذ وجدوا فيها دلالة سعيدة على أن لهم وراء الأسوار الشيوعية إخوانا يتذكرونهم ويهتمون بهم!..

ومن الصين وأصل الشيخ نعمة الله مسيرته المباركة الموفقة إلى كورية وبقية الأقطار التي سبقت الإشارة إليها.. وننتهي من الاستطلاع إلى فقرته الأخيرة التي نريد بها استكشاف الرؤية، التي حصلت له من خلال تجاربه

الواسعة، وخبراته العميقة إلى مستقبل الحياة الإسلامية على مستوى الأقطار التي عرفها وألم بأوضاعها. فهو يقول إنه جد متفائل لمستقبل الواقع الإسلامي، فعلى الرغم من كل العقبات التي تواجه الإسلام لايزداد إلا رسوخاً وذيوعاً بما يميزه من الحقائق المتفقة مع الفطرة، ومهما يغفل المسلم عن هذه الحقيقة لايلبث أن يفطن إليها ويعود إلى ظلها، لأنه لايجد الأمن النفسي إلا في كنف هذا الدين العظيم.

ويضرب لذلك المثل بتركية، فقد أكدت له جولاته الواسعة في مختلف أرجائها أن المستقبل لهذا الدين، ففي كل مكان حلّه من تلك الأرجاء وجد الإقبال الكبير والاستعداد الأكبر...

هذا فضلا عن الخطوات الصاعدة التي تتجلى في مسيرة الحكم نحو الإسلام الحق..

ـ ولله الفضل والمنة ...

* * *

الأستاذ وحيد الدين خان

كانت فرصة ماتعة لعقلي وقلبي تلك الساعات التي خلوت بها إلى كتاب (الإسلام يتحدى) فما أن فرغت من مطالعة صفحاته المقاربة للمائتين حتى شعرت بالشوق يدفعني للعودة إليه مرة ومرات..

لقد تبينت من خلال هذا الكتاب ملامح عقلية هضمت مختلف الأفكار التي أفرزتها حضارة الغرب، وأحاطت بكل ماانطوت عليه من ثوابت ومتغيرات، وقبل ذلك تضلعت من حقائق الوحي الذي ختم به الله رسالاته إلى الجنس البشري على يد صفوة خلقه، الذي اختاره لقيادة القطيع الإنساني، وخصه بالشريعة الشاملة لكل الحلول المحققة لسعادة الإنسان حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وبهذا الوعي العميق الشامل استطاع أن يواجه كل تحديات تلك الحضارة بالقول الفصل الذي لايدع مجالاً للشك في قدرة الفكر الإسلامي على مقارعة سائر التحديات بالحجة الغالبة..

ومن هنا كان تقديري لمؤلف هذا السفر الذي كتبت في أخر صفحاته (.. وانه لسفر رائع مشحون بالعلم والحق، لاأذكر أني وقعت به على عبارة واحدة تشذ عن حقائق الإسلام، إذا نحن أنعمنا فيها نظر الفكر الصحيح..) ثم رحت أتطلع إلى كل أثر من عمل هذا المؤلف فكان أن وقعت على كتابه الآخر الذي ترجم إلى العربية بعنوان (الدين في مواجهة العلم) وكأنما قصد به أن يكون تتمة للبناء الذي بدأه بذلك الكتاب، فبعد أن أثبت سمو الفكر المسلم وتفوقه شرع في مناقشة أشهر الفلسفات المعارضة للدين، فكشف عوارها جميعا، وجرد أصحابها من كل سلاح يشهرونه لمقاومة الفطرة التي لاقرار لها إلا في كنف الدين القيم..

ولهذا كان سروري كبيراً بتلك المناسبة التي هيأها النادي الأدبي في المدينة المنورة للتلاقي مع هذا الإسلامي العملاق..

لقد كان لمحاضرته الموفقة (الإسلام والقرن العشرون) أثرها البالغ في نفوس المستمعين، وبالنسبة إليّ كانت نافذة أطللت من خلالها على الكثير من معالم تلك العقلية الهندية البعيدة الغور التي سبق أن استشرفتُها في ضوء ذينك الكتابين..

وقد ضاعف من متعتي الروحية ليلتئذ إلقاؤه تلك المحاضرة بلسان عربي لم نكد نفقد معه شيئا من دقائقها العميقة.

والآن لننقل موجز ترجمته من كراسة (المركز الإسلامي للبحوث والدعوة).

إنه وحيد الدين خان ولد في مدينة أعظم كراه من ولاية اترابرادش شرقي الهند، وذلك في العام ١٩٢٥، وفي أعظم كره تلقى تعليمه في إحدى المدارس الإسلامية التي تعنى بالعربية ولما فرغ من هذه الدراسة عكف على تعلم اللغة الإنجليزية حتى أتقنها وامتلك ناصيتها.

وقد نشأ محباً للمطالعة حتى بات من مدمنيها-بتعبيره-وبخاصة في الإنجليزية، التي أقبل على قراءة كل ماوصلت إليه يده من مؤلفاتها العلمية والفكرية..

ومدينة أعظم كراه هذه إحدى حواضر الثقافة الإسلامية في الهند، ومن معالمها العلمية التي تضاهي بها أكبر مراكز الثقافة العالمية دار المصنّفين التي كانت ملتقى كبار مثقفي الهند وبينهم سليمان الندوي وجواهر لال نهروو.. وفيها تلك المكتبة الغنية بالمخطوط والمطبوع، ولها المطبعة التي لاتبرح ترفد الأوساط الإسلامية بالمؤلفات النادرة، إلى جانب مجلتها التي لم تقف عن الصدور منذ عددها الأول، فطبيعي أن يكون لهذا المركز الثقافي العالمي أثره في تكوين هذا المفكر الواسع النشاط..

تقول هذه النشرة إنه ظل مكبا على استيعاب كتب الشيوعية وسبر أغوارها حتى قرأ فيها أكثر من عشرة آلاف صفحة، ثم أقدم على التأليف في نقدها فصنف كتابا في نقض الشيوعية، وآخر في نقض الاشتراكية، وعندما تصدى لضرب الإلحاد بدأ بكبير أساطينه برترادرسل فلم يغادر صغيراً ولا

كبيراً من مؤلفاته ألا قرأه، ومن ثم جاء كتابه في الرد عليه برهاناً قاطعاً في دحض تلك الفلسفة التي أحدثها هذا الفيلسوف المعاصر.

وتقول كذلك إن أول كتاب ألفه باللغة الاردية عام ١٩٥٥ هو (على مدخل العهد الجديد) وبعد أعوام أخرج كتابه الشهير (الإسلام يتحدى) وقد استفاضت شهرة هذا الكتاب حتى نرجم إلى الفرنسية والتركية والعربية واليوغسلافية والملاوية، واعُتمد في مناهج الدراسة الجامعية في مصر وليبيا وتونس وقطر والسودان وأبو ظبي، وهو من الكتب التي سجلت الرقم القياسي في عدد الطبعات واستهواء القارئين على امتداد العالم الإسلامي..

وفي مطالع حياته العلمية انتظم في سلك لجنة التأليف التابعة للجماعة الإسلامية، وبعد قضاء عدة سنوات هناك أقبل على مثل ذلك العمل في المجمع الإسلامي العلمي التابع لندوة العلماء في لكناو ثم تولى رئاسة التحرير لجريدة الجمعية الأسبوعية في دلهي لمدة سبع سنوات، أصدر بعدها مجلته الشهرية (الرسالة)، وقد استمرت بالصدور ونالت إعجاب قراء الاردية، وتصف النشرة هذه المجلة بأنها أوسع المجلات الإسلامية انتشاراً في الهند، ثم أتبعها بمجلة أخرى باللغة الإنجليزية، فلقيت إقبالاً ممتازاً لدى الناطقين بهذه اللغة.

وطبيعي أن يكون لهذه المشاركات أثرها القوي في بعد نظره، وسعة أفقه، وتعميق رؤيته الإسلامية.

ويستمر نشاط الأستاذ في النمو والاتساع حتى ليتعذر على كاتب متابعته، فهو إلى جانب هذا الانتاج المتميز عضو في المجلس الإسلامي العالمي، وقد أسهم في العديد من المؤتمرات الدولية، وقدم خلالها الكثير من البحوث التي تُعَرِّفُ المؤتمرين بحقائق الإسلام، في أسلوب عصري يخاطب العقل على ضوء أحدث معطيات العلم، وفي سبيل ذلك قام بزيارة قليل من الحواضر في آسية وأوروبة وأمريكة وأفريقية، حيث تعرَّف مختلف الحركات والمعاهد الإسلامية على الطبيعة، وكان لذلك كله أثره البالغ كذلك في وفرة إنتاجه حتى بلغت مؤلفاته الثلاثين، وتجاوزت مقالاته الألف، ومن مشروعاته العلمية المتوافرة سلسلة من البحوث الإسلامية بدأ نشرها في بيروت بعنوان (الإسلام والعصر

الحديث) وأخرى تصدر عن القاهرة في إطار (نحو وعي إسلامي) وهذه البحوث ــ تقول النشرة إنها ــ مختارة من مقالات مجلته (الرسالة)

وقد تبين الأستاذ بثاقب فكره، ومن خلال خبراته العميقة، أن الدعوة إلى الإسلام لاينبغي أن تقف عند حدود الجهد القلمي، بل لابد لها من مرتكزات عملية تنطلق عنها إلى كل مكان، في تخطيط موزون يضع لكل شيء حسابه..

وهكذا برزت مشروعاته المتلاحقة، وعلى رأسها (المركز الإسلامي للبحوث والدعوة) الذي أنشيء في عاصمة الهند دلهي عام ١٩٧٠م، وحدد أهدافه (في نشر التعاليم الإسلامية بأسلوب عصري يخاطب المثقفين مسلمين وغير مسلمين) ومن أولي ثمرات هذا المركز مجلة الرسالة التي سلفت الإشارة إليها، ثم قرينتها الإنجليزية.

(ومن أهداف المركز وفق تخطيطه نشر الأبحاث والمجلات وإنشاء جامعة للدراسات القرآنية، تعني بعلوم القرآن، وتعمل لاخراج كتب متخصصة في الدعوة بمختلف اللغات الحية..) وقد قطع المركز في هذا المضمار شوطاً صالحاً إذ ظهر من إصداراته الدعوية العديد من الكتب منها (الإسلام) ص١٧٦ و(ظهور الإسلام) ص١٩٩ وكلاهما بالاردية.. وهو ماض في توسيع نشاطه إلى أن يصبح مؤسسة عالمية لنشر الإسلام داخل الهند وخارجها..

وللشيخ وحيد الدين خان نظرة خاصة حول الهند فهو يرى (أن عدد المسلمين فيها، يضاهي مئة مليون ضمن ثمانمئة مليون هندي، يُعَد نعمة عظيمة من الله لو أمكن صهره في بوتقة التضامن الإسلامي، واستخدامه في مجال الدعوة، وهي طاقة كبيرة لم تستثمر حتى الآن، لأن مسلمي الهند تخلوا عن الدعوة منذ قرون، وليس همهم الآن سوى الخوض في معارك سياسية ومادية مقابل الطوائف الأخرى، وهي معارك لم تسفر عن انتصار لهم، ولم تعد بفائدة عليهم، هذا إلى أن آصرة الدعوة لم تتوثق بين المسلمين وغيرهم، لأن زعماء المسلمين حرصوا على تحرير البلاد من الاستعمار أكثر مما حرصوا على تحرير العباد من النار..

ومن هذا المنطلق كان اتجاه الأستاذ إلى توجيه المجهود الأكبر للنهوض بمسلمي الهند إلى مستوى المسئولية المنوطة بهم، بوصفهم فئة مختارة تحقق

ماعليها من واجب الدعوة ضمن إطار الهند، ثم توسع مجال نشاطها إلى الصعيد العالمي..

وأنت عندما تطل بخيالك على مايخططه الأستاذ لتحقيق هذه الأفكار من مشروعات بعيدة المدى لايسعك إلا التساؤل: أتصورات عالم هذه أم أحلام شاعر!..

إستمع إليه يحدثك عن بعض تصوراته هذه، وننقلها ببعض التصرف التي تقتضيه اللغة: إن العمل المطلوب من الأمة الإسلامية هو الدعوة إلى الله والشهادة على الناس، ولتحقيق هذه المهمة يجب على المسلمين أن ينهضوا بإنشاء (دار الإسلام) في مقابل (دار الكفر) حيث يتاح للناس أن يشاهدوا الإسلام بالعيان ويلمسوه بالبنان، ويمكن للمسلمين أن يتلقوا منه شحنة إيمان جديدة ويستمدوا منه قوة إحتمال وصمود في وجه الشدائد، التي لابد للداعي من مواجهتها، ولذا فإن المركز الإسلامي يهدف إلى اقتناء مجموعة من وسائل النقل لتحمل غير المسلمين إلى المركز الإسلامي، كي يشهدوا الاجتماعات الدينية، ثم يعودوا وقد بُلِّغوا دعوة اللهِ، واستوعبوا ماوسعهم من التأثر به على أقل تقدير..

وقد رسخ هذا التصور في أعماق هذا المفكر الكبير حتى ليشهدنا مصور المشروع بكل جوارحنا..

إنه يقول: (ستنشأ دار الإسلام هذه بأسلوب فريد يتوسطها جامع كبير وتكتنفها مناظر طبيعية توفر لها الجمال والهدوء، وتحيط بالجامع أبنية مختلفة لأقسام المركز الإسلامي، مثل مؤسسة التربية والتعليم، ومكتبة تحوي الكتب الهامة والمصادر الرئيسية للعلوم الإسلامية، مع دار للنشر والترجمة والتأليف، وركن خاص بالنساء، وقاعة للمحاضرات إلى جانب المستوصف والمتحف والمكاتب المختلفة، ودار لتدريب الدعاة، وأخرى للضيوف، وشقق لسكن المسئولين..

ويعلل ذلك بالقول: (عن هذا الطريق نريد أن نجمع أقسام المركز الإسلامي في نطاق واحد، يسوده مناخ إسلامي، وتترابط فيه الأنشطة الادارية والتربوية، ليكون أنموذجاً طيباً للنشاط الدعوي المتميز)..

بقي أن يعلم القارىء أن هذه المشروعات البعيدة المدى لم تقف عند دائرة الأحلام، بل أخذت طريقها إلى صعيد الواقع، إذ قُدر للمركز أن يمتلك مبنى واسعاً في مدينة حيدر آباد بجنوب الهند وهو اليوم يحتل أربعة مبان صغيرة ـــ في العاصمة دهلي ـــ والمأمول أن تكون هذه الأقسام نواة الدار الكبرى، التي تقدر تكاليفها بمليون دولار أمريكي واحد.. وهو مبلغ متواضع ينتظر الأيدي الكريمة المؤمنة التي تقدمه لوجه الله، فتساعد هذا المفكر الإسلامي الكبير على تحقيق مخططه في سبيل دعوة الله.

ولنمض خطوة أخرى مع الأستاذ نستعرض خلالها بعض الأهداف التي يطمح إلى تنفيذها من خلال مشروعاته الكبيرة.

١ ـــ نشر تراجم القرآن الصحيحة في مختلف اللغات العالمية.
٢ ـــ إعداد كتب في الحديث والسيرة النبوية وتاريخ الصحابة، بأسلوب وصفي.
٣ ـــ إعداد موسوعة قرآنية.
٤ ـــ إنشاء مؤسسة على المستوى الأحدث للترجمة والتأليف لعرض تعاليم الإسلام باللغات العالمية.
٥ ـــ استخدام الوسائل الإعلامية المتطورة لنشر الإسلام.
٦ ـــ إصدار مجلات بلغات مختلفة تحمل بحوثاً تعرّف الإسلام بأسلوب جديد وتفي بمتطلبات العصر.
٧ ـــ إنشاء مكتبة شاملة وافية لدراسة الإسلام والديانات الأخرى.
٨ ـــ إنشاء مدرسة لتعليم اللغات.
٩ ـــ إيفاد بعثات دعوية إلى مختلف المناطق والدول.
١٠ ـــ إنشاء متحف للوثائق والآثار الإسلامية النادرة.
١١ ـــ تنظيم ندوات مشتركة لمختلف الديانات، وتوزيع الكتب والمنشورات الدعوية في المؤتمرات الدولية.
١٢ ـــ إنشاء مطبعة جديدة متقدمة لطبع الكتب والمجلات.
١٣ ـــ إقامة مجمّع كبير باسم (دار الإسلام) يشمل سائر مكاتب المركز الإسلامي.

ولا حاجة إلى تكرار القول بضخامة الأهداف، فهي مما تنوء به العصبة أولو القوة، ولكن الطاقة الفكرية التي يمتاز بها هذا الفيلسوف الإسلامي قمينة بتحقيق مايعجز عنه غير أولي العزم من المحفوفين بتوفيق الله.

والآن إلى نماذج مصغرة من ذلك الفكر الكبير:

في كتاب (الإسلام يتحدى)، وقد صدر بالاوردية عام ١٩٦٦م، يتناول أهم المشكلات التي يعانيها جيل الحضارة الغربية، في مختلف أنحاء العالم، فلا يدع واحدة منها إلا قتلها بحثاً وتقليباً حتى ينتهي بها إلى الحل الصحيح، الذي يدعمه الوحي الذي لايأتيه الباطل.

١ــ في ص٣٩/٤١ ط٦، يعرض لأفكار برترادرسل ــ رأس ملاحدة العصر ــ التي تقول على لسان هذا الضال (الإنسان وليد عوامل ليست بذات أهداف، أنّ بَدْأَه ونشوءه وأمانيه ومخاوفه وحبه وعقائده، كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضي اتفاقي ــ أي قائم على محض الصدفة ــ في نظام الذرة، والقبر ينهي حياة الإنسان، ولا تستطيع أية قوة احياءه مرة أخرى. إن هذه المجهودات الطويلة، والتضحيات والأفكار الجميلة، والبطولات العبقرية، كلها سوف تنتهي إلى الأبد مع فناء النظام الشمسي، إن الكفاح الإنساني كله سوف يدفن حتماً مع الأرض تحت أنقاض الكون.

ويعقب الأستاذ على هذا اللغو الفلسفي بقوله (يكاد هذا الاقتباس أن يكون خلاصة الفكر المادي، فالكون في ضوئه يكاد يفقد أهدافه، ولا يبقى غير الظلام الحالك، الظلام الذي تتلاشى فيه معايير الخير والشر، حتى إن إبادة الناس بالقنابل لا تعد ظلماً، لأنهم سوف يلقون حتفهم على كل حال يوماً ما.. أما الفكر الديني فهو فكر الضوء والأمل. الموت والحياة مرتبطان فيه بأهداف معينة، وكل القيم والأفكار الإنسانية السامية تجد لها مكانا فيه، وإن كان بعض العلماء بمجرد تصديق القوانين الرياضية لأفكاره يطمئن إلى أنه قد توصل إلى الحقيقة، فإن تصديق العقل الإنساني للفكر الديني دليل قطعي على أنه هو الحقيقة التي طالما بحثت

عنها الفطرة الإنسانية، وعندئذ لانجد أساسا واقعيا لانكار قيمة الفكر الديني)..

وهكذا يمضي في مناقشة الأفكار الضالة بهدوء العالم الذي لايخرجه الخلاف إلى التشنج بل يقابل الرأى بالرأي الأفضل حتى يصير إلى الحقيقة التي يطمئن إليها القلب والعقل..

٢ــ وفي ص ١٥١ يعرض لبعض جوانب العظمة القرآنية تحت عنوان (علم الأغذية) فيتحدث عن الحكمة الآلهية في تحريم لحم الخنزير، ويقف على موضوع (حمض البوليك) وأثره السام في الصحة، ثم يخلص من ذلك إلى مايلي:

(لقد حرم القرآن لحم الخنزير، ولم يعرف الإنسان في الماضي شيئا عن أسرار هذا التحريم، ولكنه يعرف اليوم أن لحم الخنزير يسبب أمراضاً كثيرة، لأنه يحتوى أكبر مقدار من حمض البوليك، فالحيوانات الأخرى ــ غير الخنزير ــ تفرز هذه المادة بصفة مستمرة عن طريق البول، وجسم الإنسان يفرز ٩٠٪ منها بمساعدة الكليتين، ولكن الخنزير لايتمكن من إخراجها إلا بنسبة ٢٪ والمقدار الباقي يصبح جزءا من لحمه، ولذلك يشكو الخنزير من آلام المفاصل، والذين يأكلون لحمه هم أيضاً يشكون آلام المفاصل والروماتيزم، وما إلى ذلك من الأمراض المماثلة)..

وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه الكريم ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ (٥٣ فصلت).

٣ــ وفي كلا الكتابين (الإسلام يتحدى) و(الدين في مواجهة العلم) يتصدى المؤلف لنظرية دارون وما ترتب عليها عند المأخوذين بها من تعميق انحرافاتهم المعارضة للدين. في ص٣٨ من ثاني الكتابين يقارع افتراءاتهم التي تزعم وجود الكون، بما فيه من دقائق النظام الشامل عن طريق الصدفة فيقول: (قد يشاهد أحد الناس قاطرة تجري على قضبان الحديد فيتساءل: كيف تجري هذه العجلات الثقيلة؟.. وبعد قليل من

المشاهدة يصل إلى آلات وتروس القاطرة فيرى أن العجلات الثقيلة تتحرك بتحرك التروس والآلات. أفبعد هذا الاكتشاف يحق لهذا الإنسان الزعم أن آلات القاطرة وحدها هي السبب في تحرك عجلاتها؟.. ومن الواضح أن الأمر ليس كذلك بهذه البساطة. يجب أن نعترف بالسائق الذي يدير الماكينات، ثم بالمهندس الذي صنع الماكينات وأوجد القاطرة، فلا وجود في الحقيقة للقاطرة، ولا يمكن إحداث الحركة في آلاتها بدون عمل المهندس والسائق.. وإذن فالماكينات الداخلية ليست هي الختام في قصة القاطرة، بل إن الحقيقة النهائية هي (العقل) الذي أوجد تلك الماكينات، ثم أدارها وحركها وفق إرادة مرسومة.. ذلك لأن الطبيعة لاتفسر الكون، وإنما هي نفسها بحاجة إلى تفسير)..

ويحسن بنا أن نختم هذه الترجمة ببيان عن بعض مؤلفات صاحبها.

لقد سبق أن أخبرنا بأن مؤلفاته تجاوزت الثلاثين، ولكنا لم نجد قائمة بأسمائها، فاكتفينا مضطرين بنقل ماحملته النشرة التي إليها رجعنا في رسم الخطوط الكبرى لشخصيته، بعد أن تأخرت أجوبته عن الاستيضاحات التي بعثنا بها إليه.

هذا مع العلم بأن معلومات النشرة قد وقفت عن حدود ماقبل الثمانينات، ولابد أن ثمة معلومات أخرى، ومؤلفات تالية شَغَلَت مابعد هذا التاريخ، غير أننا لانملك منها شيئا، ولعل جواباً يصلنا منه قبل تقديم الكتاب إلى النشر فنستدرك به مافات..

تقول النشرة أن من أهم مؤلفات الشيخ في الأوردية مما لم يترجم إلى العربية:

١ ــ تذكير القرآن. ٢ ــ الاشتراكية= دارسة وتحليل=.٣ ــ رسول الثورة. ٤ ــ الماركسية في الميزان. ٥ ــ البحث عن الحق. ٦ ــ الإسلام. ٧ ــ ظهور الإسلام. ٨ ــ إحياء الإسلام. ٩ ــ الإنسان الذي يريد أن يصنعه القرآن.

أما كتبه التي ظهرت بالعربية فهي:

١ ــ الإسلام يتحدى. ٢ ــ الدين في مواجهة العلم. ٣ ــ حكمة الدين. ٤ ــ الإسلام في العصر الحديث. ٥ ــ المسلمون بين الماضي والحاضر والمستقبل. ٦ ــ مدخل إلى تجديد الدين.

* * *

الأستاذ يوسف العظم

عرفت هذا الداعية قبل ثلث قرن، وكان ذلك في مخيم للجماعة الإسلامية في احدى ضواحي مدينة حلب شمال سوريا، ولم أكن قد رأيته أو قرأت له، ولكنني أنست به وأدركت من حديثه بوادر سارة تنبيء بخير كثير.. ومنذ ذلك اليوم بدأت أقرأ له، وألمح من خلال ذلك معالم نشاطه في خدمة الدعوة، ثم تتابعت الأيام وتلاحقت آثاره من شعر ونثر، وقُدِّرَ لي أن ألقاه في أكثر من مؤتمر كان أحدها في الرياض عام ١٣٩٤هـ وفي مكة المكرمة عام ١٣٩٧هـ ثم في دوحة قطر عام ١٤٠٠هـ. وفي كل لقاء كنت أزداد به إعجاباً ولنشاطه تقديراً.

ولد في مدينة معان ــ جنوب الأردن ــ سنة إحدى وثلاثين وتسعمئة وألف للميلاد، في أسرة متدينة ذات دخل محدود، وتخرج في مدرسة بلدته الإبتدائية، ثم التحق بثانوية عمان العاصمة الأردنية ليتابع دراسته فيما بعد بكلية الشريعة في بغداد، ثم بكلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية فمعهد التربية العالى للمعلمين بجامعة عين شمس.

وقد تأثر خلال دراسته في بغداد بعدد من شيوخها الأفاضل من أمثال نجم الدين الواعظ وقاسم اللقينى وعبد القادر الخطيب ومحمد محمود الصواف.

وهذا جل ماوصلنا عن الحياة المباركة لهذا الداعية المسلم في هذه المرحلة من مراحل دراسته.

ونمضي مع الأخ الداعية إلى الجامعة لنرى أنه تخرج في كلية اللغة العربية بالأزهر عام ١٩٥٣ وفي السنة التالية ١٩٥٤ أحرز إجازة التربية من معهد المعلمين بجامعة عين شمس.

وهنا أيضاً نجد أنفسنا تلقاء فراغ بالنسبة إلى مؤثرات البيئة المصرية في

أفكار الأستاذ وتكوينه النفسي، ومثله لابد أن يكون له مخالطاته الخاصة والعميقة مع رجال العلم والدعوة، وبخاصة في تلك الفترة التي بلغت حركة الإمام البنا خلالها أوج قوتها ومؤثراتها حيث أخذت سبيلها إلى الانتشار عن طريق البعوث الإسلامية في سائر الأنحاء التي ينتمي إليها هؤلاء الوافدون للدراسة بمصر على مستوى العالم الإسلامي كله. وفي كتابه النفيس عن حياة شهيد الإسلام سيد قطب أحد الشواهد الناطقة بهذا التفاعل الذي لم يكن سطحياً مع تيار الدعوة الإسلامية الجديدة.

ومن خلال نشاطه الثقافي والأدبي النابع من مدخراته الإسلامية المتوهجة أبداً نستشف الحجم الكبير للمواهب التي تنطوي عليها جوانح ذلك الفتى، إذ لم يكد يفرغ من مرحلة الدراسة حتى ركز خطاه في طريق الانتاج الأدبي مقالات وبحوثاً وقصائد ومؤلفات.

في ميدان التعليم

يقول الأستاذ العظم في مقدمة كتابه (نحو منهاج إسلامي أمثل): كان طموحي منذ طفولتي أن أكون مربياً مسلماً ناجحاً.. وقد حقق الله أمنيته إذ بدأ حياته العلمية مدرساً للثقافة الإسلامية والأدب العربي في الكلية الإسلامية بعاصمة الأردن، وقد استمر عمله هذا من عام ١٩٥٤ حتى عام ١٩٦٢ وعلى الرغم من عبء التدريس، الذي يكاد يستولي على وقت المدرس كله، لم يستطع حبس مواهبه الفكرية والأدبية، وشغل بعض نشاطه في الحقل الصحفي حيث تولى رئاسة تحرير صحيفة الكفاح الإسلامي بعمان طوال سنتين مابين ١٩٥٦ و ١٩٥٨.

وهكذا جمع بين رافدين من التجارب العملية، ففي ظلال التعليم يتدرب على مخاطبة العقول والقلوب، ويتمرس بتكوين الاتجاه الفكري السليم الذي نشأ عليه ومارسه في نفسه، ليواصل طريقه بعد ذلك في نطاق الدعوة الواسعة على مختلف المستويات، ومن خلال الصحافة يطل على آفاق السياسة ودهاليزها المتعرجة، وتتسع دائرة منظوره وتعامله مع الجماهير التي هي المجال الأكبر لعمل العاملين.

ومن هذه التجارب الحية استقر فكره على السبيل المثلي التي لامندوحة عن سلوكها للراغب في الاصلاح الحق. فكان أن أسَّس بالتعاون مع زملاء له من المربين والمثقفين مدارس الأقصى المعروفة بالأردن وحتى الآن لايزال على رأس إدارتها.

وفي العنوان الذي اختير لهذه المدارس إشارة ناطقة بالأهداف البعيدة التي ترمي إليها، وهي إنشاء الجيل لا بل الأجيال المزودة بالوعي العميق لواقع المؤامرة الصليبية اليهودية، التي لاتستهدف في منظورها البعيد سوى محق الإسلام وإزالة معالمه، حتى يأتي الجيل الضائع الذي لايعرف عن جذوره التاريخية والربانية شيئا.

والمسلك التربوي جهاد جمّ التشعبات لابد للعاملين له من الاحاطة بأهم مقوماته ووسائله.. ومن هنا كانت سلسلة الكتب التربوية التي قام بإصدارها الأستاذ العظم، وقد أراد لها أن تؤلف المنهاج الكامل للطفل المسلم، الذي هو في تقديره ــ وتقدير المفكرين والعاملين للدعوة ــ الأساس الأول الذي عليه ينهض بناء المستقبل.

وليتأمل القارىء معي هذه القائمة من عنوانات هذه السلسلة التربوية:

١ ــ مع الجيل المسلم.
٢ ــ براعم المسلم في العقيدة.
٣ ــ براعم الإسلام في الحياة.
٤ ــ أناشيد وأغاريد.
٥ ــ أدعية وآداب.
٦ ــ مشاهد وآيات.
٧ ــ أخلاق الجيل المسلم في الكتاب والسنة.
٨ ــ ألوان من حضارة الأديان.
٩ ــ العلم والإيمان للجيل المسلم.

ويمكن أن يضاف إلى هذه السلسلة كتابه الآخر (أين محاضن الجيل المسلم) الذى ذكره في قائمة مؤلفاته الفكرية، وقد صدر من الكتاب الأول عدد من الحلقات، مما ينبىء بتصميم المؤلف على تتبع كل المقومات المساعدة

على تكوين هذا الجيل المنشود..

وفي بقية الأجزاء من هذه السلسلة رموز تصور الأبعاد التي يتطلع إليها هذا الداعية من خلال عنايته بتوفير المواد التي تجتذب الطفل المسلم وتغذيه، وهو جهد يسد فراغا في مكتبة المسلم طالما تحدث عن الحاجه إليه أولو الفكر المعنيون بالتربية الإسلامية.

وهنا أذكر مناسبة أكدت لي أن هذا الأخ الداعية إنما يقوم بهذا النشاط المبرور لارغبة في الامتاع بل تنفيذاً لتخطيط مدروس وضعه نصب عينيه، ومضى في طريق تحقيقه خطوة فخطوة، وكان ذلك أثناء انعقاد المؤتمر العالمي الأول للتعليم بمكة المكرمة، وكان موضوع البحث منصبّاً على وجوب العناية بأدب الطفل، وكاد المتحدث يقطع بخلو المكتبة الحديثة منه، فإذا الأستاذ العظم يقف وبيده بعض كتبه ليؤكد للحضور أن فيها ماينفي هذا النفي.. وإنما يتطلب الواجب استكمال الجهود التي يبذلها هو وبعض العاملين في هذا الحقل من ميدان التربية الإسلامية.

ومرة ثانية نتأمل في عنوانات هذه السلسلة لنرى من ميزاتها انها لم تقتصر على جانب دون آخر من جوانب الحياة الإسلامية، بل أحاطت بأهم القضايا التي ينطوى عليها نظام الإسلام الشامل لكل جوانب الحياة.

وقد أحسنت فكراً وصنعاً الكاتبة الفاضلة خيرية السقاف في حديثها عن بعض هذه الكتب حيث تقول ــ في مجلة الدعوة بالرياض ــ إنه (يمثل قمة الإخلاص والغيرة من هذا المربي المسلم الفاضل.. والكتاب الأنيق المزود بالصور يستهوي الكبار فما بالك بالأطفال الصغار، فشكله الجميل ولغته البسيطة الواضحة ومعلوماته القيمة خير معين على تربية الأطفال تربية إسلامية وبقليل من العناية سنشاهد آثارها واضحه جلية مع الأيام

إننا من هنا من منبر الأسرة المسلمة عبر صحيفة داعية مخلصه ندعو وزارة المعارف الجليلة والرئاسة العامة لتعليم البنات والمديرية العامة للرعاية الاجتماعية إلى تبني هذه الكتب (أين محاضن الجيل المسلم ــ أدعية وآداب للجيل المسلم ــ أناشيد وأغاريد للطفل المسلم) وتوزيعها على المدارس الإبتدائية

للدراسة والتلقين لتكون بين أيدي أطفالنا لتساعدهم على النشوء نشأة إسلامية صحيحة.. وإن كانت مناهجنا لاتخلو من هذه الأسس لكن الاعتماد هنا على الطريقة.

يوسف العظم لاتربطنا به إلا معرفة الحرف والمبدأ.. وتأتي إذاً دعوتنا لآرائه ولأسلوبه ولوسيلته دعوة صادقة مجردة وليت الاستفادة من خبراته تأتي على نطاق أوسع.

تحية ليوسف العظم على جهوده المخلصة وتحية لكل مخلص يسعى من أجل رفعة الإسلام».

جولات ومحاضرات

ولقد كان لانتاجه الفكري في نطاق الدعوة أثره لدى المهتمين بأمور التوجيه الإسلامي، فامتد نشاطه إلى أبعد من الأردن وفلسطين، إذ قام بزيارة العديد من الأقطار العربية والإسلامية بدعوة من مؤسساتها وهيئاتها الثقافية والفكرية، حيث ألقى غير قليل من المحاضرات ثم زار الولايات المتحدة أكثر من مرة بدعوة من اتحاد الطلبة المسلمين ورابطة الشباب المسلم العربي، وقصد إلى بعض الأقطار الأوروبية حيث اطلع على أنظمتها البرلمانية والتربوية.

وطبيعي أن يكون لهذه الزيارات مردودها الفكري إلى جانب خدمتها للدعوة. إذ تعمق من أفكار الأستاذ وتوسع مدى تجاربه وخبراته في المجال الذي اختاره أو اختاره له القدر الحكيم.

في غمار السياسة

وغير قليل من العاملين في ميدان الدعوة الإسلامية ينأي بنفسه عن التطلع إلى الجانب السياسي من الحياة العامة، فلا يفتأ يبرئها من أوضارها في كل مناسبة، ليدفع عن نفسه تهم السفهاء الذين لاينفكون ينبذون دعاة الإسلام بالسعي إلى مقاعد الحكم، وكفى بتهم السفهاء عذرا لأولئك الدعاة في اعتزال العمل السياسي المباشر، ولاسيما بعد قيام الحكم الثوري في إيران وبروز اخطائه التي ألقيت كلها على مشجب الإسلام، حتى أوهمت الناس أن الحكم

الإسلامي لن يتجاوز هذه الدائرة التي يحبس حكام إيران الجدد أنفسهم وتصوراتهم في نطاقها..

ولكن.. هل من حق هذه الأخطاء وتلك السفاهات أن تدفع أهل الحق إلى إغفاله حتى يقع في وهم الناس انهم يقرون الفصل بين السياسة والدين، كما يزعم بعض المغفلين ممن أخذوا بعلمانية الغرب دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن جذور الخلاف بين السياسة وقادة الفكر الغربيين وبين زعماء الكنيسة!.

والحق أن الإسلام الحق في أمس الحاجة إلى وصول أولي الوعي من أهله إلى سدة الحكم، ليحققوا منهجه السليم في الحياة، وليُروا الجاهلين والمتجاهلين حقيقة النظام الإسلامي وفاعليته العظيمة في توجيه البشر إلى الأعلى والأسمى، وإلى التي هي أقوم في كل شيء.. وسيظل كل كلام عن جمال الإسلام وعدالته وحضارته وسعادته ضرباً من الأحلام المثالية لاسبيل إلى وجودها خارج نطاق الكلام، مادام الإسلام نفسه معزولا عن دائرة الحكم والحكام.

وقد أدرك أخونا الأستاذ العظم هذه الحقيقة فلم يتردد في خوض غمار السياسة نائبا عن محافظة عمان خلال دورتين انتخابيتين، ثم عضواً عاملاً في المجلس الذي يرسم سياسة وزارة الأوقاف والشئون والمقدسات الإسلامية.

وطبيعي أنه لم يدخل البرلمان الأردني عام ١٩٦٣ ليزيد العدد أو ليعدد أياما ليقبض راتباً ــ على قول الرصافي ــ بل ليمثل فكره الإسلامي في العرض والنقض، ولذلك كان مع الذين حجبوا الثقة عن حكومة سمير الرفاعي فكان عملهم ذلك سبباً في اسقاط الحكومة وحل المجلس.. ولما عاد إلى النيابة في العام ١٩٦٧ لم يجد في مناهج الحكومات الأردنية جديداً ينسجم مع تصوراته الإسلامية عن الحكم، فاستمر على حجب الثقة عنها انسياقاً مع إيمانه الذي لايقبل التردد أو المرواغة.. ولكن حجبه الثقة عن الحكومة لم يعزله عن الخدمة العامة في مهام المجلس فكان مقرراً للجنة التربية والتعليم، وكان عضواً في لجنة الشؤون الخارجية، وكلا العملين مما يتفق مع أفكاره ويتسع فيه مجال العمل للتوجيه الذي يدعو إليه الإسلام.

ومما يجدر ذكره هنا موقفه بعد القرار الذي حل بموجبه مجلس النواب

الأردني في العام ١٩٧٤ تنفيذاً لتوجيهات قمة الرباط التي قضت بأن تكون منظمة التحرير هي الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني، وبذلك انتهى عمل المجلس الذي كان نصف أعضائه من الفلسطينيين.. بيد أن مكافآت النواب لم تنقطع عنهم طوال المدة مابين العامين ٧٤ و ١٩٨٤، إذ كان الواحد منهم يتلقى مئة وخمسين دينارا بنهاية كل شهر، إلا واحدا فقط من أولئك السادة هو الأستاذ العظم، فقد استثنى نفسه من هذا الراتب فاعتذر عن قبوله لأنه يرى أنه قد أصبح بعد حل المجلس من نوع الكسب غير المشروع..

ثم شاء الله أن يعاد المجلس إلى مهامه مؤخرا، فعاد الأستاذ إلى ممارسة واجبه في خدمة منطقته التي اختارته لتمثيلها..

ولقد ألقى المترجم فى مفتتح الدورة التى خصصت لدراسة منهج الوزارة الجديدة فى جلسة الثقة بياناً ناقش فيه الأوضاع العامة ثم ختمه بالكلمة الصريحة التالية :

وبناء على ماتقدم:

ومن المنطلقات المشار إليها.. ولما يتمتع به دولة الرئيس الشاب من أخلاق عالية ونبل في الغاية ولمعرفتي الوثيقة بعدد من الأصدقاء الأعضاء في هذه الوزارة الموقرة وما يتمتعون به من سمعة حسنة ونزاهة في السلوك فإنني لاأملك إلا أن أدعو لهذه الوزارة بالتوفيق والسداد في القول والعمل.

غير أن المنهج الذي التزمنا به والذي يقتضي تطبيق منهج الله وأحكام الشريعة الإسلامية السمحة، تطبيقاً متكاملاً يتناول عقيدة الأمة ومنهاج حياتها، وحرصاً منا على قيام حوار هادف بناء وتوفير جو معافى من أجواء الحرية، وجريا على عادتنا مع الحكومات المتعاقبة دون استثناء فإنني أحجب الثقة عن الحكومة حجباً نابعاً من الالتزام قائماً على الاحترام بعيداً كل البعد عن روح العدواة والخصام.

والله اسأل أن يهب للحسين من وعي البصيرة ووضوح الرؤية وصدق العزم مايباعد بينه وبين العثرات ويلهمه الصواب والحق ويرزقه اتباعه، وأن يحول بينه وبين الباطل ويرزقه اجتنابه، وأن يوفق هذه الحكومة لمزيد من صفاء النوايا وحسن التخطيط وصالح العمل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..)

وهكذا نرى استمراره على حجب الثقة عن كل الحكومات التي مارس مهمته النيابية في عهدها، ونعلم أنه لم يفعل ذلك انحيازاً لعصبية عمية جاهلية، ولا إنكاراً لكفاية في أشخاص الوزارة، وفيهم أصدقاء له يقدرهم ويعترف بفضلهم، ولكنه الالتزام الذي قطعه على نفسه، وهو ألا يمنح تأييده إلا لنظام الإسلام وللحاكمين به.

في ميدان الدعوة والتأليف

والذين يعرفون الأستاذ العظم من قريب أو من بعيد لايستطيعون التفريق بين جانبي شخصيته داعية وأديبا، فهو ربيب الإسلام وقد ظهر ذلك جليا في أعماله وأقواله جميعا، وقد رأينا في ماتقدم بعض انتاجه في نطاق التربية والتوجيه، ونستكمل الآن صورته الفكرية والأدبية من خلال آثاره الأخرى. ونبدأ بالشعر فهو في هذا الجانب المرهف الحس الذواقة الذي يستهويك بتصوراته وانفعالاته، وبأسلوبه الذي يجمع في جرسه المنغوم بين الرقة والفخامة.. وقد استولت على قلبه مآسي أمته فكاد يقف شعره كله على تصويرها في زفرات لاذعة لاتستسلم لليأس بل تستثير الإيمان وتشحذ الهمم وتجسم الأمل..

وقد أخرج حتى الآن ثلاث مجموعات من هذا الشعر هي: (في رحاب الأقصى) ويصفه بأنه ديوان من شعر الجهاد والاستشهاد، و (رباعيات من فلسطين) و (السلام الهزيل) و (عرائس الضياء).

وهي جميعاً كسائر مانشر وما ينشر له من الشعر، حمم يقذف بها القلبُ المؤمن ليحيل الضعف قوة واليأس رجاء، فلا يتمالك القارىء المؤمن إلاّ أن يتفاعل معه في كل مايدعو إليه..

وبهذه الخصائص المنطلقة من الأعماق المصورة لاصدق المشاعر يقف الأستاذ العظم مع إخوانه شعراء الدعوة في الصف المميَّز بازاء أولئك الضائعين، الذين يتخذون من أدونيس ودنقل وأضرابهما من دعاة الالحاد والتهديم، مثلهم الأعلى في (الحداثة) و(المعاصرة)!.

ونمضي مع الأستاذ في استعراض آثاره الأخرى التي تمثل اتجاهاته الفكرية فنذكر من مؤلفاته هذه :

١ ـــ الإيمان وأثره في نهضة الشعوب.
٢ ـــ الشهيد سيد قطب رائد الفكر الإسلامي المعاصر.
٣ ـــ رحلة الضياع للإعلام العربي المعاصر.
٤ ـــ المنهزمــون.
٥ ـــ نحو منهاج إسلامي أمثل.
٦ ـــ الشعر والشعراء في الكتاب والسنة.

ويلاحظ من خلال هذه العناوين مدى الأبعاد التي تعالجها. فالناس على الرغم من ادعائهم الإيمان فى أمس الحاجة إلى إعادة النظر فى تقييمه ورصد آثاره في تغيير الواقع وتصحيح المسيرة البشرية، والانفعال به في كل صغيرة وكبيرة، والكلام عن شهيد الإسلام سيد قطب دخول في تاريخ الحركة الإسلامية وتجليتها، ومواطن الاحتكاك بينها وبين التيارات المناوئة لها، وما تتطلبه من تخطيط بصير وجهد مصمم على مواجهة العقبات ومصابرة الأحداث.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى تخبط الاعلام العربي المعاصر، فهو كالقاطرة التي غفل سائقها فهي تضطرب في اندفاعها الضرير، منذرة بأوخم العواقب، مالم تثب قيادتها إلى الوعي الحكيم السليم.

وأما المنهزمون وما أكثرهم في مواجهة النكبات وفي اعقاب المصائب الكبيرة، فهم دعاة الهزائم المتجددة تحت ستار الغيرة وباسم التصحيح، وهم هم الذين يقول الله في أمثالهم ﴿**هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا**﴾ (الكهف ١٠٣ ـــ ١٠٤).

وفي خامس هذه الكتب يلخص الأستاذ خبراته العملية في موضوع التربية والتعليم بما يقارب الثمانين من الصفحات المتوسطة، فلا يكاد يغفل جانبا من مقررات الدراسة في مختلف المراحل السابقة للمستوى الثانوي، وهى المراحل الأكثر حساسية وتفاعلا في حياة الإنسان.. ويقول في وصفه هذا العمل (إنه

جاء (متكاملا نابعا من روح الإسلام) ويقول كذلك (إن هذا المنهاج قد صادف قبولا في عدد من ديار الإسلام الناطقة بالعربية كالكويت وقطر والمملكة العربية السعودية ومصر ولبنان، وطالبت بتطبيقه عدة مدارس خاصة بالجاليات الإسلامية في الولايات المتحدة وكندا وألمانيا والدنمارك وغيرها، وقامت بعض الجمعيات الإسلامية بترجمة أجزاء منه إلى لغات أخرى، وتعمل بعض دور النشر الآن على ترجمة كتب السلسلة التربوية إلى الإنجليزية والفرنسية)..

وهو يرى أن تبني مثل هذا المنهاج في ديار العرب والإسلام أفضل منطلق لتثبيت معاني الوحدة التي (لاتزرع في ردهات وزارات الخارجية وقاعات المؤتمرات، ولكن في حقول وزارات التربية والتعليم ومحاضنها).

ونظرة متكاملة إلى عنوان الكتاب السادس تكشف للقارىء رؤية المؤلف إلى الشعر الحق على أنه ــ بالنسبة للمسلم ــ رسالة يتشربها من منابع الكتاب والسنة ثم يؤديها روحاً نورانيا يحمل للقارىء المتعة والجمال والتفاعل المحلق بطاقاته نحو الا على.. فهو فن علوى متميز بصوره وأساليبه المنطبعة بروح البيان القرآني المتفرد.. وهكذا نرى في كل من هذه المؤلفات شخصية الأستاذ الثابتة أبدا على منهجه الذى لايملك له تغييراً.. فهو المجاهد في غمرة الزحف لايصرفه شيء عن هدفه الأعلى الذي هو إعلاء كلمة الله، حتى في القصة الوحيدة التي ذكرها بين مؤلفاته لم يخرج عن المذهب الذى سلكه في سائر منشوراته. وفي عنوانها (أيها الإنسان) ماينبئك بمضمونها الهادف للتذكير والتوجيه إلى أفضل ماخلق لاجله هذا الإنسان. وما أسرع ماتذكرنا هذه الصور بكلمة يحيى بن زكريا ــ عليها السلام ــ حين مرَّ وهو حَدَث صغير بأتراب له يلعبون فدعوه لمشاركتهم فاعتذر وهو يقول: ماجئنا لنلهو..

أجل إن المسلم في أتون الأحداث المعاصرة لايجد متسعا لغير العمل الجاد في خدمة الحق، فلا تنتظر منه شاعرا أو كاتبا إلا مانتوقعه من المؤمن الذي يحاسب نفسه قبل أن يحاسب ويزن عمله قبل أن يوزن عليه..

* * *

في ذمة الله يا أبا هاشم

أي مفاجأة راجفة.. تلك التي تلقيتها ضحى الأمس ـ الخميس ٨/٢/١٤٠٢هـ ـ!! كنت على وشك أن أرفع سماعة الهاتف لأكلف ولدي بإعداد اللازم لغداء يتناوله عندنا مع أهله الأخ الأثير والمفكر الكبير الأستاذ أبو هاشم محمد المبارك.. ولكن شاء الله آن يدق منبه الهاتف ليصرفني عن الاتصال بولدي، فإذا صوت صديق يخبرني في كثير من المداراة أن أبا هاشم قد أصبح في ذمة الله، إذ وافاه الأجل وهو في السيارة إلى مستشفى المدينة لمعالجة تعب يحسه في قلبه.

وما أدري أي حال أَلَمَّ بي بإزاء ذلك النبأ، فإذا أنا في مثل الجو الذي احتواني قبل تسعَ عشرةَ سنة، ساعة تلقيت نبأ وفاة الداعية الإسلامي المجاهد الدكتور مصطفي السباعي، فرحت أدور على نفسي، وأتلمس ماحولي لأتحقق: أفي يقظة أنا أم تحت كابوس حلم ثقيل!..

حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً شَرقتُ بالدمع حتى كاد يشرَق بي. وعلى الرغم من تتابع الأحداث، التي أوشكت أن تجفف الدموع في مقلتي، لم أملك منعهما من نزف مافيهما من بقايا الشئون، ولاسيما حين وجدتني تلقاء الأخت المنكوبة أم هاشم وابنتها اللتين عجزتا عن حجب آلامهما، على الرغم من محاولة التجلد، بالتسليم إلى قدر الله الذي له الحكم والملك وإليه يرجع الأمر كله..

وأتامل ملياً في حركة القدر الحكيم، وهو يُسَيِّرُ أبا هاشم من رحاب بيت الله العتيق إلى جامعة الملك عبد العزيز في جدة، ليلقي آخر محاضراته على طلبته، ومن ثم يأخذ سبيله مع عزيزتيه إلى بلد الحبيب، ليظفروا بحظهم من نفحاته، وليتزودوا ماوسعهم من بركاته.. على دأبه المألوف في مثل هذه الأيام من كل عام.

ويشاء الحكيم العليم أن يختم تلك السيرة المباركة بالنهاية التي مابرح الكثير من إخوانه يتلهفون إلى مثلها: صلاة العشرات من آلاف المؤمنين على جنازته عقيب صلاة الجمعة وفي أول مسجد أسس على التقوى، ثم مواراته أخيراً تراب البقيع في جوار ثلة من صحابة رسول الله وأهل بيته المطهرين، وهم بعض الرعيل الأول، الذين ماانفك أبو هاشم يترسم خطاهم في حياته، التي قضاها في الدعوة إلى الله، وفي إبراز محاسن الدين الذي اصطفاه الله لتصحيح المسيرة البشرية إلى التي هي أقوم..

وما أكرمها نعمة أن يحظى أبو هاشم بدعاء كل هذه الجموع، في البقعة التي طالما عبقت بأنفاس حبيبه!..

وما أسعدها نهاية أن يستقر في ختام مطافه الطويل بين الأحبة من تلاميذ النبوة التي قبسوا من نورها، فأضاءوا به طريق الأولين، وقبس من قبسهم فأسهم به في إضاءة طريق الآخرين!.

فأعظم بها نعمةً أحاطه القدر الحكيم بأسبابها .. وأكرم بها بقعة يتنافس المتنافسون على رحابها ..

كان أول لقاء جمعني بأبي هاشم في مدينة طرطوس— من الساحل السوري— قبل أكثر من ثلث قرن، يوم دخل علي الفصلَ وأنا أشرحُ بعضَ النصوص من شعر ابن الرومي، وعقّب على عملي بكلمة تقدير لم أستطع نسيانها، إذ كانت نابعة من فكر حصيف يتذوق الأدب الأصيل، في فهم عميق يتلاقى خلاله العلم والشعور، على الوجه الذي قلما نجده في ملاحظات المفتشين الآخرين.. ثم تتابعت الأيام والشهور لتزيد صلتنا قوة وترسيخا، إذ لم تعد مقصورة على اللقاء الرسمى العابر أثناء جولاته التفتيشية على مدارس الدولة بل اتخذت سبيلاً آخر هو سبيل الأخوَّة فى الله تحت راية العمل الإسلامى، مع الثلة المختارة من حملة الدعوة، الذين كانوا يتحلقون حول رجلها الملهم المجاهد الدكتور مصطفى السباعى

وكانت ظروف الحياة مساعدة بعض الشيء على الاتجاه الصحيح، فوجدت مواهب أبي هاشم وثقافته العميقة، في كلا الميدانين القديم والحديث، مجالها الملائم، فإذا هو ينتقل من تصحيح مسيرة التدريس، إلى تقويم الاتجاه في تخطيط المناهج الأساسية وماهي إلا خطوة أخرى حتى اتخذت هذه المناهج

لبوسها الأصيل فى نطاق العلوم، ذات التأثير الهام فى عقلية الجيل و فى مشاعره، ثم مازال مكباً على هذا الجانب من التخصص حتى تجاوز أثره نطاق سورية إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامى، سواء عن طريق عمله المباشر فى الجامعات العربية والإسلامية، أو عن طريق مؤلفاته المركزة فى هذا الجانب.. وفى جامعة الخرطوم، وبعدها فى رحاب المملكتين العربية السعودية فالأردنية، أبرز الشواهد على جهوده الفعالة فى هذا الميدان العملى..

ولقد كان لهذه المواهب العالية إيحاؤها المؤثر لدى الوسط الفكري والشعبي في مختلف الأرجاء السورية بعامة، وفي دمشق بخاصة، فما لبثت أن فسحت له الطريق إلى المجلس النيابي، فاختير بين المفضلين من ممثلي دمشق في انتخابات ثلاث ـــ ٩٤٧ ـــ ٩٥٤ ـــ حيث برزت مداركه السياسة، القائمة على الوعي العميق لمشكلات سورية والعالم الإسلامي كله، ثم مالبث أن احتل بهذا النشاط الحي منصب الوزارة التي شغل منها ثلاث وزارات، الواحدة تلو الأخرى، فأدارهنَّ بجدارة أكدت مكانته الفكرية والعلمية، لافي البلاد السورية فحسب، بل على مستوى العالم العربي كله، الذي أصبح واحداً من كبار مفكريه.. وقد أسهم في تثبيت هذه المنزلة له استقامته الخلقية، وتواضعه الذي لم تغيره المناصب، حتى ليفتح بابه، سواء في الوزارة أو المجالات الأخرى من أعماله، لكل وافد ذى حاجة من الجمهور، بل إنه ليعتبر الزيارة له تكرمة تستحق أن تقابل بمثلها، فلا يلبث أن يردها للمتقدم بها فى منزله، إذا كان من أهل البلد، أو فى موضع نزوله إن كان من غيرهم..

ولم يكن رجال العلم في سورية أقل تقديراً لهذا المفكر الكبير من عامة الشعب الذي تخيره لنيابته، ومن قادة السياسة الذين وسَّدوا إليه مناصب الوزارة، فإذا هم يحتفلون به عضواً عاملاً في مجمعهم العلمي العربي في عاصمة الشام، ليخاطب جمهور العلماء من على منبره، كما يخطب السياسيين من على منبر النيابة، وكما يخاطب أصناف المثقفين وعامة الناس من خلال محاضراته ومؤلفاته ومقالاته وندواته، التي اتسعت حتى شملت مختلف الجوانب الهامة من حياة العرب والمسلمين، ووقفته رَصَدًا رادعا لدسائس المَكَرَة من خراصي المستشرقين، حتى ليبطل مع إخوانه سحرهم، فيسحبون مفترياتهم، التي أعدوها بدقة للهجوم على الإسلام في مؤتمر كراتشي عام ١٣٧٧هـ ـــ ١٩٥٨م.

ونحن هنا في الجامعة الإسلامية المنورة ـــ لاننسى أن أبا هاشم كان أحد الأعضاء الأولين في مجلسها الاستشاري، وأن له الأثر المحمود في تركيز مناهجها الدراسية، على الوجه الذى يليق بجامعة تحتل المكان المتقدم بين جامعات العالم الإسلامي .. فلا جرم إذن أن يكون الرزء بأبي هاشم كبيراً في قلوب عارفيه من هذه الجامعة، وأن يمتد الأسى عليه إلى سائر الجامعات التي أسهم في خدمتها بأفكاره الجديدة البعيدة، ونشاطه الدؤوب الذي لايعرف الفتور من الخرطوم إلى جدة فمكة المكرمة فعمان، التي استقر في سنواته الأخيرة على توزيع خدماته بينها وبين جامعة الملك عبد العزيز على سواء.

ولعمر الحق إن من المتعذر على الراصد لنشاط هذا الفقيد العزيز أن يقصر وقع الكارثة به على الوسط الجامعي وحده، وهو يرى إلى أفكاره تنتشر في كل مكان وصلت إليه مؤلفاته، أو حظيتْ بها مؤتمراته في مختلف الأنحاء من الشرق أو الغرب .. ولا جرم أن أشد الناس حزنا على أبي هاشم هم أولئك الذين أَلَّفَ حبُّ الإسلام والعربية بينه وبينهم، فهم يحبونه بحبهم للإسلام، الذي كان في رؤيته النورانية مأدبة الله التي لاينفد عطاؤها على مر الدهر، فمهما اتسعت أدواء البشرية، وتعقدت مشكلاتها، وجدت فيه العلاج الذي لم يسبق إليه، والحلَّ الذي لاتستعصي عليه .. وأحبوه بحبهم للغة القرآن العظيم التي شرفها الله بكتابه، الذي عجزت الخليقة إنسا وجنا عن الاتيان بسورة من مثلِ أقصرِ سوره، إذ كانت هذه العربية المقدسة في مفهومه هي المعين المتدفق أبداً بكل جميل من القول، وكل نفيس من المعاني، لأنها الوعاء الذي استوعب أسرار الوحي من قرآن وسنة، فلا توقف لمدده، مادام ثمة عقل يفرق بين البهرج والأصيل، وذوق يميز بين الغث والسمين وقد مكن له في قلوبهم مالمسوه من تفانيه في إبراز هذه الحقيقة التي منحها كل وجوده، وحبه ونشاطه، فلم يحجم قط عن التوكيد عليها في كل مناسبة، حتى في ظل العسف الذي لايكره شيئا كرهه للحقيقة، فكان له بذلك أثره المقدَّر في كسرِ الهجمة الشعوبية، التي يشنها دهاقين الصليبية واليهودية، وأذنابهما المضللون والمتطوعون، على حمى العربية والإسلام، فخفَّت حدتها حتى أوشكت أن تخمد، فلا تظهر بوادرها إلا في غفلة من أهلها أو على استحياء، إذ وجد هؤلاء الأفاكون في أبي هاشم وإخوانه، الصيارفة الذين كشفوا زيوفهم، بما استوعبوه من دقائق الوحي، وبما

حَذِقوه من لغات الأعداء ومناهجهم في حَوْكِ الأباطيل وصناعة الأضاليل..

والحق لقد كاد أبو هاشم أن يكون نسيج وحده بين جنود العربية والإسلام هذه الأيام، إذ كانت الميزة الأولى في منهجه العملي هي التركيز على الموضوعية الخالصة بعيداً عن الإثارة العاطفية، وذلك لأنه رجل فكر، يتجه في بحثه إلى العقل، فيخاطبه بأسلوب الحكمة والموعظة، وفي أناة الواثق مما يدعو إليه، وقلما يسلك إلى غرضه سبيل الخطابة، وهي التي لها أهميتها كذلك في نطاق العمل الدعوي..

وبعد فإن الحديث عن أبي هاشم أثير مثير، لاتتسع له الصحفات المقصورة على التذكير بمآثر هذه الشخصية، التي سبق أن قلت في ترجمتها خلال كتابي (علماء ومفكرون عرفتهم): «إنها تمثل أحد أفذاذ الجيل الذي انتهت إليه أمانة الدعوة والتوعية على مستوى العالم الإسلامي» ..

وإن المتأمل في مراحل هذه الشخصية ليلمح عناية الله في إعدادها لحمل هذه الأمانة منذ تفتحها في ذلك الوسط الإسلامي العريق من دمشق، حيث غُذِّي بحب الإسلام والعروبة، ثم زُوِّدَ بالمقومات التربوية والثقافية، التي حفظت عليه ذاتيته من الذوبان أمام إغراءات الغرب، ومكنت له أن يكتشف مبكراً مواطن الزيغ في أفكار أساتيذه من كبار المستشرقين في باريس، فيناقشهم ويفند أغاليطهم.. فكان له من خبراته تلك مردود علمي أمده بالتصميم على وضع كل إمكاناته في خدمة الإسلام والدعوة إليه ــ كما يقرر هو ذلك في ترجمته لنفسه[1] ــ.

ومن هنا كان المصاب بأبى هاشم فاجعة أى فاجعة ، ولا سيما فى هذه الأيام التى اتسعت خلالها حلبة النضال فى معركة الإسلام .. وإنما يُفتقد النور عند اشتداد الظلام .

فسلام على أبي هاشم في عاملين، وجزاه الله عن الإسلام ولغة القرآن خير مايجزي عباده المصلحين المجاهدين..

---

(١) انظر « علماء ومفكرون عرفتهم » ص ٢٣٤ .

ويأيها الراحل العزيز:

لقد استنزفت الفاجعة بك ماأبقت مصائب الإسلام من الدموع في عيني، ثم تذكرت قرب لقائك والأحبة، الذين تقدمونا قبلك فبرد الألم، وتلألأ الأمل، وأيقنت أن أفضل ماأشيعك به هو الدعاء لنا جميعاً بأن يجمعنا الله في ظل رحمته مع النبيين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا..

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الأخ المكرم الأستاذ أنور الجندي نور الله قلبه ونور به القلوب

تحية طيبة مباركة من طيبة الطيبة المباركة . وبعد فقد قرأت في إنعام خطابك المفتوح في عددي القعدة والحجة ١٤٠٦ هـ من الاعتصام العزيزة ، وردني مضمونه الكريم إلى عدد من أمثاله تلقيتها من أخوة أحبة منهم من شرع فى تأليف كتاب عن أعمالى الأدبية والفكرية، ومنهم من يحضر أطروحة دكتوراة فى الموضوع نفسه ، وذلك غير ما تفضل به كاتبون آخرون فى بعض الصحف والمجلات والمؤلفات الأدبية .. ومع ذلك فلم يخطر فى بالي قط أن أكتب عن نفسى شيئاً حتى تلقيت طلب الأخ الدكتور فوزى حمد ثم خطابك الأخوي فرأيت أن أرد على التحية بأحسن منها ، وتذكرت قول أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام ﴿ **واجعل لى لسان صدق فى الآخرين** ﴾ فسطرت ما وفق الله إليه رجاء أن يكون سبباً فى تحريك بعض السنة الصدق بدعوة خالصة تنفعنى عند الله .

وهكذا ترى مع هذه الأسطر صفحات تتضمن الإجابة على أسئلتك الثاني والثالث والرابع مضموما إليها الصفحة المصورة عن غلاف مؤلف لي بعنوان (تحفة اللبيب من ثقافة الأديب) وفيها (ترجمة الحياة وتاريخ الميلاد والبلدة والدراسة) بصورة وافية ومركزة .

وقد بقي السؤالان المتممان وهما الخامس والسادس ، فأفردتهما في إجابة مستقلة مع شيء من التبسط بالنظر لعمق مضمونهما

وأخيراً هاهي ذي الأجوبة التي أمرت بها بين يديك وأملي كبير بأن تحوز رضاك وتستدعي دعاءك .

ولله الحمد في الأولى والآخرة ، وصلى الله وسلم على إمام المرسلين محمد بن عبدالله وآله وصحبه والداعين إلى هداه إلى يوم الدين .

محبكم / محمد المجذوب

مؤلف هذا الكتاب

هو الشيخ محمد المجذوب[1]

ولد عام ١٩٠٧ بمدينة طرطوس إحدى محافظتي الساحل السوري في بيت متدين يعمل في التجارة وله صلة بعلوم الدين والعربية.

- تلقى دراسته الأولية في الكتاب ثم في مدارس الدولة العثمانية. ثم على الشيوخ. ومن ثم مضى في طلب المزيد من العلم والثقافة معتمدا بعد الله على جهده الشخصي.

- بدأ حبه للمطالعة منذ طفولته إذ كان يستأجر الكتب ليقرأها على ضوء السراج وفي مهب الرياح اللاسعة، وأهله نيام، واستمرت المطالعة دأبه إلى يومه هذا.

- توفي والده وهو في الخامسة عشرة فتحمل عبء الأسرة وحده، وفي السادسة عشرة تم زواجه وبدأ الإنجاب حتى أصبح له اليوم قرابة التسعين من أبناء وأحفاد. وقد اضطر لقضاء شبابه كله فى الكدح بمختلف الأعمال للنهوض بمسئولياته نحو إخوته وأبنائه.

- شارك في نضال وطنه بوجه الفرنسيين، وعانى من أجل ذلك غير قليل من السجن والاضطهاد..

- في مطلع عهد الاستقلال ـ ١٩٣٦ ـ بدأ عمله في سلك التعليم، ومازال يتدرج خلال مراحله حتى التحق بخدمة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

(١) نقلت هذه الأسطر من الصفحة الأخيرة من كتاب « تحفة اللبيب من ثقافة الأديب » من منشورات نادى المدينة المنورة الأدبي.

مدرسا من عام ١٣٨٣ حتى العام ١٤٠٣هـ ..

عام ١٩٤٨ نال الجائزة الأولى من جامعة الدول العربية على نشيده الذي اختير من مئة نشيد.

- دخل ميدان الانتاج الأدبي والفكري قبيل العشرينات من عمره بقصيدة وطنية نشرتها إحدى الصحف المحلية، ثم برسالة يرد بها على دعاة النصرانية بعنوان (فضائح المبشرين) وهكذا حتى بلغت مؤلفاته المطبوعة والمشرفة على الطبع قرابة الخمسين مابين شعر وقصص وبحوث ثقافية تنطلق جميعها من الرؤية الإسلامية، وتنعكس خلالها أحداث عصره في سورية وعلى مستوى عالمه الإسلامي.
- معروف بأنه من أوفر المدرسين نصيبا من حب طلابه المنتشرين في مختلف أنحاء العالم وفي نطاق الأدب يقول عنه الدكتور شوقي عبد الحليم حمادة ـــ أستاذ الأدب والنقد بجامعة الأزهر ـــ انه (الأديب النابه، والقاص البارع، والشاعر العملاق، والخطيب المفوه، والكاتب الموهوب.. تتميز آثاره في مختلف حقول المعرفة بأنها دائما حديث القلب إلى القلب، لأنه من قلم مجاهد يصدع بكلمة الحق ولا تأخذه في الله لومة لائم، فهو لذلك مرتاح الضمير مطمئن القلب، على الرغم من مسئوليته التي تنوء بها العصبة أولو القوة)..

عملي في نطاق الدعوة الإسلامية .. [1]

برأيي أن العمل للدعوة ينطوي على جانبين.

أحدهما: انطلاق حر لايقيده إلا الالتزام بحقائق الإسلام، فالسلوك الصحيح، والدرس المستقيم على ضوء الإسلام، والمقالة والقصيدة والقصة.. وما إلى ذلك من وجوه النشاط المطبوع بروح الإسلام.. كل ذلك من العمل لخدمة الدعوة..

وفي كلا الجانبين عملت ولله الحمد..

---

(١) كتب هذا العرض جواباً عن استطلاع من أحد مؤرخي الدعوة.

فأنا نشأت في بيت ملتزم بأركان الإسلام عبادة وسلوكا.. وأول مابدأت تعلمي في الكُتاب حيث يسيطر القرآن الكريم والحديث الشريف والنصوص ذات المعاني الإسلامية..

وأذكر أني كنت في سن الحداثة، ولما أتجاوز الثانية عشرة من العمر، أقوم بصلاة التسابيح في الليل وكل ذلك من أثر النشأة الأولى ثم انتقلت إلى المدرسة التركية في العهد العثماني فاستمر هذا الجو هو المسيطر..

ولما أقبلت على المطالعة الحرة لم أبعد عن هذه الخطة، إذ كانت الكتب التي أقرؤها منطلقة من هذا الاتجاه.. وفي مقدمتها مجلة المنار.. وكتب محمد عبده ومحمد فريد وجدي والرافعي وأمثالهم، ومن شأن هذا كله أن يضبط خطاي في الطريق الإسلامي.

ثم جاءت الحركات الوطنية في مقاومة الانتداب وفي سبيل الاستقلال فشاركنا فيها من منطلق الروح الإسلامي نفسه. وضاعف من شعورنا هذا ماعانيناه من مضايقات الفرنسيين وأعوانهم في السجون وغير السجون..

وفي هذا الجو بدأت أنشر أفكاري الإسلامية في مختلف الصحف سواء عن طريق المراسلة أو المقالة أو الشعر أو القصة...

ولقد قضيت في التعليم مايزيد على أربعين سنة درست خلالها العربية والأدب والسيرة النبوية والحديث الشريف، ملتزما في كل ذلك الخط الإسلامي..

وأخرجت كذلك قرابة الخمسين من الكتب حتى الآن لا أذكر واحدا منها في عزلة عن هذا الخط.

وحسبي أن أذكر أن أول مؤلف أخرجته في الثلاثينات كان كتيبا بعنوان (فضائح المبشرين) أرد به على تهجمات واحد من دعاة التبشير كان نصيريا فاعتنق البروتستانتية ونشأ في مدارسهم مشبعا بالحقد على الإسلام ونبيه، وقد انتهز فرصة الحماية الفرنسية فانطلق، كالسكران الذي يقول: (أنا أعمى مابشوف..) فوجدت نفسي مدفوعا للتصدي له فكان من ثمرة ذلك الكتيب الذي أشرت إليه..

هذا عملي في الجانب الحر من خدمة الدعوة، ولا أزال بعد الفراغ من التدريس بالجامعة الإسلامية ماضيا في طريقي أكتب البحوث، وأولف الكتب، ويزورني طلبة العلم رغبة في الفائدة فلا أفارق ذلك الخط لأنه جزء لايتجزأ من وجودي..

أما الجانب الأخر من خدمة الدعوة فهو القائم على التعاون في نطاق منظمة إسلامية معينة. وهو ماقُدر لي أن أشارك فيه مع نخب من خيرة العاملين في هذا المضمار، وفي مقدمتهم المغفور له إن شاء الله الدكتور مصطفى السباعي والأستاذ محمد المبارك رحمه الله، والأستاذان عصام العطار والشيخ عبد الفتاح أبو عدة، ومن لا أحصيهم عدداً من رجال الدعوة في سورية..

أول ماعرفت الأستاذ المبارك يوم قدم علينا مفتشا في أول متوسطتين للذكور والإناث، فكانت مبتدأ لصداقة استمرت حتى وفاة أبي هاشم قبيل عدة أعوام في المدينة المنورة، تغمده الله برحماته..

أما المرحوم السباعي فقد عرفته أولا عن طريق المقالات التي كتبها في مجلة التمدن الإسلامي عن خميس المشايخ، والظواهر غير الإسلامية التي كانت ترافق ذلك الموسم في حمص كل عام، فكان لمقالاته هذه أثرها الفعال في القضاء على تلك البدعة السيئة..

ثم لقيته شخصيا في حفل خطابي أقامته جمعية الشبان المسلمين في طرابلس لبنان حيث ألقى كل منا محاضرة إسلامية.. ومن هناك بدأ تعاوننا في سبيل الدعوة.. واستمر هذا التعاون طوال سنوات كانت مفعمة بالأحداث والمتاعب لأن الجو الذي أظل هذا العمل كان يمثل الاضطراب الذي خضّ الوجود السوري عن طريق التيارات السياسية المختلفة التي تفجرت منذ قيام الكيان الإسرائيلي..

ومع قسوة هذا الجو مضينا في طريقنا نبذل الجهود المضنية في إحياء الروح الإسلامي وإيقاظ الوعي، وتعميق الانتماء إلى منهج القرآن والسنة.. وقد بدأنا ذلك في طرطوس بالتعاون مع نخبة من شبابها وبلغنا مرحلة لابأس بها من النجاح، على الرغم من العقبات التي كان يقيمها في طريق الدعوة بعض ذوي

الاغراض المشبوهة، يريدون بذلك إقصاء الشباب المسلم عنها، ولكن استجابة هؤلاء الشباب كانت أكبر من دسائسهم..

وشاء الله أن أنتقل إلى اللاذقية للتدريس في الكلية الوطنية الأرثوذكسية، فكلفت الإشراف على مراكز الدعوة كلها على امتداد الساحل، وكان الجو السياسي باللاذقية أقوى منه في طرطوس، إذ كانت التيارات الحزبية تعمل بكل قواها في المدارس، وكلها على اتفاق في معاكسة التيار الإسلامي، وبصعوبة كبيرة استطعنا ضبط أعصاب الشباب إلى أقصى حد ممكن، ولكن هذا كان يكلفني وإخواني مشاق تذهب بنومنا وراحتنا، ومع كل هذه المعوقات استطعنا بفضل الله أن نحقق الكثير من النجاح في نطاق التوعية الإسلامية، وتقوية روابط الأخوة بين الشباب..

ولكن التموجات السياسية العامة بلغت ذروتها في إفساد الرؤية إذ وصل إلى قمة السلطة عبد الحميد السراج وعفيف البزرة، وكلاهما من ألد أعداء الدعوة الإسلامية، وانتشرت الدعايات المرعبة تكتسح الجماهير عن غزو مرتقب من قبل الأسطول السادس والجيش التركي، وارتفعت اللافتات في كل مكان تحمل عبارة (لن تمروا..) ثم وُزعت الأسلحة على الشعب وأقيمت الدورات التدريبية عليها، وكان لشباب الدعوة مشاركة في ذلك فتسلموا السلاح وانتظموا في التدريب، ولكن ماإن استقر في أيديهم هذا السلاح حتى صدرت الأوامر بسحبه منهم.. ولم يعد ثمة من شك في أن ثمة مؤامرة يراد بها القضاء على شباب الدعوة بعد تجريدهم من وسائل الدفاع عن النفس!..

ولكن الله شاء غَير مايشاءون فانتهى هذا الوضع بتسليم أزمة البلاد إلى جمال عبد الناصر، فكانت تلك الوحدة المرتجلة فرصة ردت بعض الأمن إلى القلوب، حتى فاجأها الانقلاب الثوري، فرجعت البلاد إلى ماكانت عليه إلى أن صارت أخيراً إلى ماهي عليه الآن ..

على أن هناك أحداثا لايحسن إغفالها عند الكلام عن تاريخ الدعوة في سورية أثناء تلك الظروف..

تذكرون كيف أُخرج الدكتور السباعي من سورية إلى لبنان، وعُهِد

بالأمر في غيابه إلى فئة من الشباب تتولى تسيير الحركة بطريقة سرية، وقامت هذه الفئة بالمطلوب من استمرار التواصل بين مسئولي المراكز ومواصلة البرامج التثقيفية التي كانوا يتلقونها من حفظ للقرآن وقراءة لبعض المؤلفات الإسلامية، في حدود الإبقاء على الرباط الأخوي فقط، ولكن المؤسف أن أيديا خفية تسربت إلى أوساط أولئك الإخوة المسئولين فأقنعتهم بضرورة التغيير وهكذا بدأوا يخططون لشق الجماعة واستبعاد القيادة الشرعية، وتسللت هذه المناورات إلى صفوف الشباب باللاذقية ، فإذا هم بعد عودة المراكز منقسمون، وإذا هنالك سعي لإقامة مركز آخر مقابل المركز الأصلي، إلا أن هذه المحاولة ظلت محدودة على الرغم من إصرارها على إثارة الخلاف ..

وأخيراً رأيت أن أنتهز موعد انتخاب الهيئة، فأعلنت للإخوة رغبتي في عدم الترشيح وغادرت اللاذقية ولم أعد إليها إلا بعد أن تم انتخاب الهيئة الجديدة..

ثم لم تلبث الأحداث السياسية أن فرضت إغلاق المراكز كلها كما أغلقت مكاتب الأحزاب جميعا.

ويؤسفني أن أقول: لقد أثبتت الوقائع أن جهودنا الدعوية كلها، سواء في طرطوس أو اللاذقية، لم تتجاوز سطوح الأنفس إلا قليلا، فما إن توقفت مسيرة الدعوة حتى انفض الأفراد كل في طريقه وكثير منهم نسي التزامه الإسلامي حتى في سلوكه الخاص.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!..

وتسألونني عن أهم ماعبرني من طرائف الحوادث خلال عملي الإسلامي. هذه الطرائف كثيرة وليس ضروريا أن تكون من الأمور السارة دائما، ولكنها من الأحداث التي تحمل العبر..

الإخوة الذين أسلفت الكلام عن موقفهم المتغير من القيادة الشرعية للجماعة، حدث أن دعوا للاجتماع في منزل أحد الأخوة بدمشق، وكانت الأوضاع قد استتبت بعض الشيء وامكن للدكتور السباعي أن يعود من بيروت، وحضرنا نحن المسئولين القياديين.. وكان بيننا من المصريين الأستاذان صالح أبو رقيق وعبد الحكيم عابدين رحمه الله..

وهنا طُرِحت المشكلات التي تعرضت لها الدعوة في غياب مراقبها العام، فابتدر الكلام أحد الضالعين في الانشقاق، وأخذ يقول بلهجة لم تخل من العنف: إن الجماعة ــ يريد المنشقين ــ يعلنون أن الدكتور محمد أمين المصري رحمه الله، لما تقرر ابتعاثه إلى أوروبة لاستكمال دراسته العليا دفع إلى الدكتور السباعي خمسمئة ليرة سورية هبة للجماعة فنحن نسأل الدكتور أين هذا المبلغ وكيف تصرف به؟..

وكان من المحزنات المخزيات أن يوجَّه لرجل كالسباعي مثل هذا السؤال، وهو الذي بذل حياته وعرض نفسه لاكداس البلايا في سبيل الإسلام!..

وقبل أن يتكلم السباعي أشار أحد الأخوة ــ المرحوم الدكتور عبد الكريم عثمان أو الأستاذ عصام العطار ــ طالباً الإذن له بالإجابة، والتفت إلى صاحب الاتهام يقول له: إني أذكرك أيها الأخ بيوم كنا في قاعة الأساتذة من المعهد العربي الإسلامي.. إذ كان الحديث حول الدكتور السباعي، فقلت: حقاً إن هذا الرجل لمظلوم.. تصوروا أن خصومه يزعمون أنه قبض من الدكتور محمد أمين المصري خمسمئة ليرة لمصلحة الدعوة، فاحتجزها لنفسه.. ووالله لقد دفعها السباعي إليَّ لأنفقها في سبيل الدعوة.. فأسألك بالله. هل تذكر قولك هذا؟..

وأنا أقول لقد والله أطرق صاحب الاتهام برأسه، ثم لم ينبس ببنت شفة، وكان موعد صلاة الجمعة قد حان فسعينا إليها ثم عدنا، ثم لم نرله أثراً بيننا!..

وهذه واحدة من طرائف الحوادث في نطاق الدعوة..

وإليكم الثانية من واقع حياتي في التعليم..

لقد أسند إليَّ في الكلية الأرثوذكسية درس التربية الإسلامية التي ألزمت بها المدارس الخاصة، وذلك إلى جانب مادة الأدب العربي والبلاغة، وطبيعي أن يفرد لدرس الدين أهله من الطلاب المسلمين، ولكن بعض شباب النصارى كانوا يلتمسون مني الإذن بحضوره.. فلم أر داعياً لرفض طلبهم وهكذا بدؤوا يهجرون دروسهم الدينية إلى درس التربية الإسلامية ولم يكتفوا بذلك بل طلبوا إليَّ الإذن بالحضور إلى منزلي لطرح بعض الأسئلة فرحَّبت بهم، ثم كثر هؤلاء

وطلبوا إلي أن أزورهم في ناديهم، فاستجبت لهم، وتحركت غيرة الشباب المسلم فرغبوا إلي أن أحضر اجتماعات لهم في بعض المنازل، ففعلت وكان الحضور ذكوراً وإناثاً كلا في حجرة على حدة.

والظاهر أن هذا الوضع لم يلق من مدير الكلية رضى فجاءني يقول: لماذا تكلف نفسك مثل هذا العبء فوق أعمالك اليومية في الكلية؟!.. وإذا أبيت إلا أن تتجشمه فهذه قاعة الفصل النهائي تستطيع أن تشغلها بمحاضراتك في أي ليلة شئت..

واستقبلت العرض بالشكر وعينت للطلاب مواعيد معينة من أيام الأسبوع وهكذا استمر الوضع على خير مايرام..

لكن الخواجه المدير والهيئة الدينية التي وراءه لم تستطع الصبر على ذلك فإذا هم يفاجئونني بما لا أتوقعه..

لقد دخلت الفصل في صباح أحد الأيام فإذا الجدران مشحونة بالنصوص الدينية التي تحذر المسيحيين من الأنبياء الكذبة.. وتحت كل عبارة منها هذه الكلمة (تذكَّر أنك أرثو) وتعنى: أيها الطالب المسيحي تذكر انتماءك للأورثوذكسية، وحذارِ أن تتأثر بدعاية هذا المسلم!..

لقد كانت هذه العبارات تكتب أول الأمر في وسط الجدار المقابل للسبورة، فلما فطنت لها جعلت أسرع إلى محوها قبل أن يحين موعد دخول الطلاب فى درس الصباح .. ولكنهم تداركوا ذلك، فجعلوا يرسمونها في أعالي الجدران بحيث لا تصل إليها اليد إلا على سلم ! ..

وقدر الله أن يقطع دابر هذه المحنة بعد إحدى عشرة سنة من عملي في هذه الكلية لم تخل يوماً واحداً من المكدرات، وكان ذلك عندما تم الاتفاق بيني وبين الجامعة الإسلامية برقياً على التعاقد معها، فجئت أودع الخواجه وكان بيني وبينه يومئذ الحوار التالي: قال: لعلك تحمل لنا ذكرى طيبة؟!.. قلت: طبعاً.. ذكرى النار التي لم تقف عن اللذع قط، لغير ذنب إلا أنني إنسان مسلم!..

ـــ وتسألونني عن الانجازات التي وُفقتُ إليها خلال هذا الزمن الذي يزيد

على نصف قرن.

إن للانجاز وجوها كثيرة، وقد قدِرَ لي أن أسهم في بعض هذه الوجوه، فأحدها شعوري بأني، من خلال عملي في التعليم والنشر، قد أسهمت ولله الحمد في إبراز المعالم الإسلامية سواء في أذهان الأجيال التي شاركت في تعليمها، وهي الآن منتشرة في مختلف أرجاء الوطن الإسلامي من أقصى الفلبيين إلى أقصى حدود تركيا.. أو في أذهان القراء الذين أشعر من خلال رسائلهم أنهم يحبون أن يقرؤوا ماأقدم لهم من أعمال فكرية وأدبية، وقد بلغت حتى اليوم قرابة الخمسين كتابا ولله الفضل والمنة..

ولعلي لاأحيف على حق أحد من الإخوة العاملين في نطاق الأدب الإسلامي إذا قلت إنني من أول الداعين إليه، وتشهد بذلك مقالاتي الدارسية التحليلية في «مجلة حضارة الإسلام» الدمشقية في أوائل عهدها بالصدور، وقد جمعت هذه البحوث وغيرها بعد ذلك في كتابي (مشكلات الجيل في ضوء الإسلام) الذي نشر لأول مرة عام ١٣٩٠ هـ في بيروت ولا يزال يكرر نشره حتى الآن..

وأضيف إلى ذلك أننى كنت المحرك لهمة الإخوة المسئولين فى ندوة العلماء بالهند لإقامة « ندوة الأدب الإسلامى » وذلك أثناء زيارتى مندوباً من قبل الجامعة الإسلامية للمحاضرة فيها ، إذ عرضت الفكرة على بعض مسئوليها فظفرتْ بالقبول ، ثم لم تلبث أن خرجت للواقع بفضل الداعية الإسلامى الكبير العلامة أبى الحسن الندوى .. ثم تلتها ندوة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ثم الندوة الثالثة بالرياض برعاية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وما أعقب ذلك من نشاط العاملين فى هذا الحقل من دعاة الخير .

وبين كتبى الخمسين ، وهى متعددة المضمون كتاب « علماء ومفكرون عرفُتهم » وقد صدر منه الجزآن ١ ، ٢ وهذا ثالثهما عن دار الاعتصام ، وهى تضم تراجم العشرات من أفاضل الدعاة على مستوى العام وكلهم ممن سعدت بلقائهم شخصياً فحاورتهم وناقشتهم عن كثب إلّا واحداً أو اثنين ..

س ٥ ــ في هذا السؤال ثلاث فقرات رأيت أن أخص كلا منها ببعض التفصيل :

أ ــ تجربتي في ميدان التعليم خلال أربعين سنة

إن التعليم ــ وهو مهمة الأنبياء ــ أشقى المهن وأسعدها . فالمعلم يتعامل مع عالم من المتغيرات والثوابت ، فلكل تلميذ خصائصه التي ينفرد بها ، والتي يشارك بها سواه . ولا سبيل لنجاح العملية التعليمية إلا بملاحظة هذه الفروق وإعطاء كل منها حقه ، وإلا تحول التعليم إلى حركة آلية لاتزيد التلميذ إلا تعقيدا والمدرس إلا عناء .

ثم يأتي التفاوت العقلي والنفسي بين المعلم وطالب العلم ، وكثيرا مايكون مدعاة لإثارة المشكلات ، وبخاصة في المجتمعات غير المستقرة ، ومن هنا يكون شعور المدرس بالرَّهَق والألم من غربته في ذلك الجو .. وهو مايشكل الجانب الشقي من حياته .

والمدرس الناجح هو الذي يدرك أهمية التجربة ، فيعالج مشكلاته مع طلابه بروح الأبوة التي تقدر واقع الولد فتمنحه مايقتضيه وضعه الطبيعي من الرعاية والحكمة . وما أقلَّ هذا النوع من المدرسين !..

وأما جانب السعادة في مهنة التعليم فقد جربها كل مدرس عندما يواجه ثمرات جهاده الطويل في تلك المودة الخالصة التي يقابله بها أولئك الأصدقاء القدامى الذين طالما عانى من مشكلاتهم ومشاكساتهم !..

ومن فضل الله عليَّ أنني تذوقت ، ولا أزال أتذوق ، من هذه الثمرات أثناء تجوالي في بعض أنحاء العالم ، مالو تصوره المعلم المرهق لأيقن أنها نعمة تستحق أن يدفع ثمنها الكثير من النصب والعرق ..

وملاحظة أخيرة حول موضوع التعليم ، وهي أن المعلم الصالح هو الركيزة الأساسية في بناء المجتمع ، فما لم يع هذه الحقيقة ، ويبذل كل إمكاناته لتحقيق واجبه في تكوين الأجيال السليمة فلا سبيل إلى أى أمل في مستقبل أفضل ..

ب ــ تجربتي في ميدان الصحافة

لقد كان للصحافة ــ ولايزال ــ قسطها الوافر من حياتي خلال الستين من أعوامي الثمانين. وهي المدة التي مارست فيها العمل القلمي مراسلا ومعلقا ومحللا ومعالجا لمشكلات المجتمعات الإسلامية في العديد من الصحف والمجلات على امتداد العالم الإسلامي.. وكنت في بعض هذه المراحل أكتب افتتاحيات صحيفة سياسية يومية، وفي بعضها الآخر مشرفاً على واحدة أسبوعية نطلق من خلالها صوت الدعوة واضحاً صريحاً..

والحصيلة التي خرجت بها من هذه التجارب هو أن الصحافة ــ بعد المدرسة ــ من أهم العوامل المكونة للرأى العام صلاحاً وفساداً. وعلى ذخيرة الصحفي من الإخلاص أو النفاق يتعين تحديد أثره في نفوس قرائه سلباً أو إيجاباً..

واعترافاً بفضل الله علي استطيع القول بأني طوال تلك العقود لم أدَّخر وسعا في إعلان كلمة الحق، ومهما ضاق مجال القول، واحلولك الظلام، حتى لانجد لها منفذا، لم أسمح لنفسي بالوقوف إلى جانب الباطل..

ج ــ تجربتي في ميدان الجامعة الإسلامية

قد رافقت هذه الجامعة الأثيرة من أوائل سنيها وعلى مدى عشرين سنة، وأسعدني الله بقضاء معظمها في صحبة العلامة الإمام الشيخ عبد العزيز بن باز، نائبا لرئيسها ثم رئيساً لها، وكنت موضع ثقته والمخلصين من إخوانه، مدرسا ومشرفا اجتماعياً، ومشاركا في تنظيم مناهجها الدراسية، ومقوما لمناهج المعاهد التعليمية الواردة إليها من أنحاء العالم الإسلامي، ثم مشاركا فيما بعد للجنة المكلفة دراسة هذه المناهج، وعضوا في مجلس إدارة الجامعة، إلى جانب مسئوليتي في تحرير مجلتها على مدى خمس عشرة سنة، وما إلى ذلك من المهام الكثيرة..

وكانت هذه الحقبة من أعمالي في الجامعة الإسلامية، على ثقل أعبائها، أسعد مراحل حياتي، لما كنت أحسه من نعمة الانسجام مع الجو العام،

وللروابط الروحية التي كانت تؤلف بيني وبين طلبتها الممثلين لكل جنسيات العالم الإسلامي..

والحديث عن تجاربي في هذه الجامعة لايفي به استطلاع عابر، ولعلي أستوفيها في مذكراتي التي أكتبها بعنوان (فصول من الحياة).

س٦ ــ وتختتمون استطلاعكم بالسؤال عن موقفي من الغزو الفكري والتغريب.. وعليه أجيب: إن حملاتكم المركزة على عملائها، وتتبعكم مثالبهم، وفضحكم مؤامراتهم، في مقابل إبرازكم لخصائص الحضارة الإسلامية المتفوقة هي التي جمعت بيني وبينكم في نطاق الرؤيةوالفكر، وهي التي حدتني لكتابة ترجمتكم في المجلد الثاني من (علماء ومفكرون عرفتهم) ولعلي أشرت إلى هذه الناحية من أفكاركم في عضون تلك الترجمة، وحين تستوفون النظر في ثلاثة المجلدات من هذا الكتاب سيتضح لكم موقفي أكثر فأكثر في هذا الصدد..

وصفوة القول في هذا الموضوع ينطلق من إيماني القاطع بقوله تعالى ﴿**وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرقَ بكم عن سبيله**﴾ (الأنعام ١٥٣) فنحن أمة اصطفاها الله لرسالته التي عليها يتوقف إنقاذ الإنسانية من الضياع، ووعدنا بالعزة والنصر ماالتزمنا سبيله، واعتصمنا بحبله، فكل انحراف عن صراطه المستقيم إلى شمال أو يمين دافع بوجودنا ومن ثم بالإنسانية كلها إلى أعماق الهاوية.. وكيف نسمح لترهات الضائعين باقتحام عقولنا ونحن نرى إلى تخبطهم في الظلمات، لايكادون ينهضون من حفرة حتى تتلقفهم الأخرى، على حين تُدوّي في قلوبنا وأسماعنا دعوة الله يخاطب بها رسوله إلى الثقلين، ومن ورائه كلّ المؤمنين بكتابه المبين إلى يوم الدين ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة، وبشرى للمسلمين**﴾ (النحل ٨٩) وأي خير يمكن توقعه خارج هذه المنطلقات الأربعة التي ضمنت السعادة الأبدية من كل جهاتها!.. وماذا بقي لدى المستغربين والمستشرقين وراء هذه الأضواء غير الظلمات والهراء الذي لايستهوي سوى المغرورين والفارغين!!..

ورضي الله عن الفاروق القائل لأخيه أبي عبيدة، وهو يرد على التماسه تغيير

بعض سلوكه المتواضع استهواء لمستقبليه من غير المؤمنين: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما نبتغ العزة بغيره أذلنا الله..» وهل نحن بحاجة لتوكيد هذه الحقيقة بعد أن سلط الله علينا بذنوبنا أذل خلقه ممن لايخافه ولا يرحمنا!!.

* * *

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

* * *